



حُوبِهِ
وَرِحْلَةُ الْبَحْثِ عَنْ
الْمُهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ

عز الدين جلاوجي

ع - ر

حويه

ورحلة البحث عن المهدي المنتظر

رواية

دار المنتهى

للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر

0663186822

الإهداء

إلى بني الإنسان

يا بني الإنسان

الأرض واحدة، والشمس واحدة تحابُّوا
لا تفرِّقوا في دهايز الظلام

البوح الأول

أنات الناي المزين

أنا لا أؤمن بالمهدي المنتظر، هو مجرد خرافة رسمها خيال
العامة المهزمين تعلقا منهم بأمل ما، سيشرق يوما ليهزم
ظلماتهم.

لكن حوبه تؤمن به وتنتظره بشوق كبير، وتظل تحكي
عنه دون ملل أو كلل.

وحوبه حين تحكي تكون كالعين النضاحة، تنبجس
الحكاية من كل جوارحها وجوانبها، فهي تشبه عيون
مياها، وحقول قمحنا، وطيور الكروان الحاملة في ليالي
صيفنا، عيناها الكحلاوان الواسعتان تتوسد شواطئها النوارس
الحاملة، وتقهقه على رملها الناعم أمواج حوريات البحر، وحين
تبسم حوبه تشرق شمس من درر لماعة حتى لتخال نفسك قد
عثرت على كنز من كنوز السندباد، وأنفاس حوبه نسيم
ربيعي يحمل إليك شذا الهضبات وعبق التلال.

حوبه هي شهرزادي التي ظلت مدى السنوات الطوال تزرع
نفسى القاحلة بحكاياتها الجميلة فتحيل صحرائي إلى
جنتين من أحلام وآمال، وإن تكن هي شهرزادي فأنا لست

شهريارها، لأنني كنت أمامها كالطفل الوديع الذي ينام حالما بمجرد أن تدغدغ الحكايات أحلامه الصغيرة.

لقد قررت أخيرا أن تحكي قصتها لي، لم تشأ أن تبدأ منذ ولدت، هي تقول دائما أنا أعمق من ذلك بكثير، أنا تاريخ ممتد الجذور في الماضي، الماضي السحيق.

ولم أكن أرفض، بل كان ذلك يستهويني، ما أحلى أن أجلس إلى حوبه حبيبتي الساعات والأيام والسنوات لأسمع منها حكايتها، لتتزوج علي عبقا وسنا.

جلسنا على كرسيين متقابلين في شرفة تغطيها الأشجار، وتطل على بحر هادئ مسكون بالسحر، كان الوقت صباحا نسامته منعشة رغم الشمس التي تربعت عروسة في كبد السماء كأنما تستمع للحكايات أيضا، عصافير تلهو قريبا منا تقفز على أغصان مطرزة بالاخضرار، حمامة تهدل غير بعيد منا، موسيقى خافتة كانت تنساب من المركب الذي أقمنا فيه منذ أيام، مدت حوبه قدميها الصغيرتين إلى الأمام ورجعت برأسها إلى الخلف، شبكت أصابعها النحيطة، كنت أنا أجلس أمامها كتلميذ وديع.. أغمضت عيني وحلمت أنني أسبح معها في الفضاء اللامتناهي:

آه...

ليتنا يا حوبتي غيمتان
تلهوان على أرجوحة الريح في أمان
تسبحان في لجة السماء وتضحكان.

وفي المساء يا حبيبي
نسقي شفاه الأرض
عشقا وحنان.

ليتني يا حلوتي غيمتا كالملاك
تناغيني الحكايا في حضن علاك
أنام كطفل رضيع

وفي فمي:

أهواك أهواك.

وانهمرت تحكي... كما حكّت جدتها شهرزاد في سالف

العصر والأوان مستفتحة بقولها:

- بلغني أيها الحبيب السعيد، ذو العقل الرشيد أنه...

** ** * * *

1

وحده الدم الهادر القاني الفائر كزبد البحر كان يتراءى له، سواء أغمض عينيه أم فتحهما.. قزعات السحاب التي تشكلت في غير مواعدها تدفعها الريح إلى الشرق هي سيل من دماء سوداء، هذه الصخور النائمة أمامه على الهضبات والجبال المحيطة ليست إلا رؤوس منحورين.. نعيق الغربان الذي راح يفتحم ثغري أذنيه ليس إلا صيحات القتال المنذر بالويل والثبور.

وتراءى له أبوه بَلْخَيْرٍ ممددا كجذع شجرة عملاق، وقد ضربته الدماء وشكلت حوله بركا صغيرة، ورفع فيه الأب عينين مليئتين بالحسرة الذابحة ولم يتفوه إلا: "أمك وإخوتك أمانة في عنقك"، وأسلم الروح، لكنه قرأ في عينيه غير ذلك، وأكثر من ذلك، وأعمق من ذلك. وحين لقي أمه فاطمة الزهراء صرخت في وجهه: "إذا كان بلخير رجلا وترك رجلا فلا بد أن يثاروا له".

وخيل إليه أن كل جنبات العرش، تلاله، هضباته، وديانه، كل صخرة، وكل نبتة، كلها جميعا كانت تصرخ فيه تطالبه بالثار من أولاد النش. ومن يجرؤ على فعل هذه الجريمة غير أولاد النش، الذين نغصوا وعلى مدى عقود طويلة، حياة أولاد سيدي علي؟

وطار من أمامه سرب من طيور حجل فزعا محدثا ضجة كبرى برفيف أجنحته.. ولم تذكره كالعادة بالعلجة بنت المكّي التي أحبها بجنون، وتزوجها بجنون، ولكنه راح يتأملها ليعرف المسار الذي ستأخذه، ليتكهن بمستقبله ومستقبل عرش أولاد سيدي علي.

حين امتطى سهوة تل الغربان، حط على ذروتها كطائر اللقلق المذعور المنهك، فرش جناحي برنسه الأبيض، ثم ما فتى أن ضمهما إليه، كانت

سهام البرد الربيعية قارسة رغم قرص الشمس الذي كان يحارب قزعات السحاب السوداء، ظهرت أمامه قبيلة أولاد سيدي علي منبسطة، لقد بدأت الأرض تكتسي بالخضرة، كانت البيوت المتناثرة أمامه أشبه بجمال باركة، جميعها محيطة من الحجارة ولبن التراب مغطى بقصب وطين، حركة بعض النسوة بادية أمام بيوتهن، عشرات الرجال يتحركون هنا وهناك، الشيخ لَكْحَلُ يهرول خلف حماره المحمل برميلى ماء وقد عاد بهما من الحاسي، من فج الجبل ظهر أخوه العربي يسوق الأغنام يتبعه الجواد الأدهم، وقد أمسك بجبل لجامه متجها إلى الحاسي، وامتلاً أنفه برائحة البروق الذي غزا الربوة كلها، جذب أنفاسا عميقة متتالية وقام من مكانه، كان وهو ينحدر إلى الحاسي يتأمل طائري قوبع يحطان تارة ويطارد أحدهما الآخر ثانية، إنهما يمارسان لعبة الحب الجميلة التي ستسفر عن عش فبيض ففراخ.

من بين أشجار الصفصاف التي تعالت وتعانقت عند مصب الجابية ظهر عيُوبَه يلمز الأرض لمزا كأنما يعجن مفاصلها، ما ظهر إلا وهو يحمل في جرابه أخبارا جديدة، يشتم كل شيء كأنه كلب صيد حتى النوايا في القلوب، حين اقترب أسرع في مشيته حتى كادت تصير هرولة، بمجرد أن ألقى السلام بادره الزيتوني قائلا:

- عيوبه، ولكنك خطير.

ضحك عيُوبَه وهو يقول:

- ألم يقرأ لنا سي الطالب[□] من كتابه الأصفر، أن كل ذي عاهة جبار،

ثم ضرب مثلا بي أنا؟

□- تضاف كلمة سي لاسم الشخص تقديرا له، وتقال عادة للمتعلم، أو لمن له مكانة في المجتمع، وهي اختصار لكلمة سيدي التي لا تضاف إلا لأسماء الأولياء الصالحين. والطالب هو معلم القرآن في الكتاب الذي يسمونه الجامع.

وجلسا على صخرة ملساء، أخرج عيُوبَه مزودا صغيرا لف لنفسه
سيجارة تقليدية، أشعلها وامتص منها نفسا عميقا، نفثه في الهواء كأنما
يدغدغ شهية الزيتوني لأخباره، كان الزيتوني يطوي يديه متأملا كل
تصرفات عيوبه، وعلى وجهه ابتسامة خافتة فيها تعجب كبير.
قال عيوبه:

- هل تؤمن بالعفريت؟

قال الزيتوني:

- طبعا هو مذكور في القرآن، والناس الثقة يتواترون نقل أخباره،
وظهر كثيرا، خاصة في شعبة العفريت، لماذا تسأل عنه وأنت أكبر عفريت؟
أعجب عيُوبَه بهذا الوصف، فامتص من سيجارته نفسا، نفثه من
منخريه بكثير من العجب وقال:

- هل حدثك عمي بلخير عنه؟

- لأبي قصص كثيرة معه، وحكايات غريبة في مقاتلته.

وهَمَ الزيتوني أن يشرع في حكاياته التي لا تنتهي عن صراع العفريت
مع أبيه الذي كان الناس يسمونه أيضا بلخير العفريت، لكن عيُوبَه
ضرب بباطن كفه على فخذ الزيتوني، وقال بثقة كبيرة:

- عمي بلخير قتله العفريت.

وسكت لحظات ثم واصل:

- عمي بلخير عفريت ولا يقتله إلا عفريت مثله.

أعاد الزيتوني صورة أبيه مضرجا بدمه ممتدا كجذع شجرة عملاق في
بطن الوادي، فعلا حُق للناس أن يسموه بلخير العفريت، فهو لم ير شيئا
له في ضخامة جثته، وفي شجاعته، يسافر ليلا وينام في الخلاء، ويواجه
العشرة من الرجال لا يبالي بهم، وهو إلى ذلك مثال لا نظير له في الطيبة.
قال الزيتوني وهو يمرر كفه اليمنى على وجهه غير الحليق حتى يسمع

لها صوت:

- العفريت يا عيُوبَه لا يضرب بالخنجر، ولكن يخنق غريمه فحسب.
ورفض عيُوبَه الفكرة بشدة وراح يشرح وجهة نظره، وهو يمسد أنفه
الغليظ:

- العفريت يتشكل بصور عدة، وربما ظهر لعمي بلخير في شكل
فارس يحمل سيفاً بتاراً، الخنجر لا يخرق لحم عمي بلخير، وباغته بضربة،
عمي بلخير لا يُقهر مواجهة، هذا العفريت جبان ولئيم.
دس الزيتوني إبهامه وسبابته في علبة الشمعة، رفع ما استطاع ودسه
تحت شفته السفلى حتى ظهرت متورمة، تفل ما علق بشفتيه، يقينه الذي
لا يتزعزع والذي يجمع عليه الكل أن أولاد النش هم من قتل أباه، ولا بد
من الأخذ بالثأر، وتنبه إلى صمت عيوبه على غير عادته، فراح يسأله عن
الجديد الذي جاء به عن أخيه الأصغر سالم بشأن زواجه.
قال عيوبه معتدا بنفسه:

- وهل كلفتني مرة بمهمة وجئتك خائباً؟ مازال سالم يجب زكية بنت
البغدادي، كلما ذكرها ارتعش كل جسده، وهزته رعدة شديدة، لا تلمه هو
يجبها كما أحب أنا...

وهم أن يقص عليه قصته مع معشوقته التي لا يضيع أية فرصة
للحديث عنها، وأن يؤكد جازماً أن قصته معها تشبه قصة عنتره مع عبلة،
التي قصها لهم سي الطالب من كتابه الأصغر القديم، وأن معشوقته أجهل
من عبلة، وحتى من حيزية التي خلدها الشاعر محمد بن قيطون، لكن
الزيتوني ترجاه أن لا يفعل لأنه سمعها منه ألف مرة.
وانكفاً عيُوبَه على نفسه يجتر مرارة الصمت، وعنده يقين أنهم
يخسدونه على محبوبته، وواصل يقول:

- لقد أفنعتته بفكرة الزواج من ابنة خالته، قلت له: "يجب أن تكون

عاقلا، هذه وصية أمك المرحومة"، واقتنع حزينا وهو يقول: "أما زكية بنت
البغدادي فسأتزوجها ولو ضرة عليها"، وانفجر باكيا.

نهض الزيتوني من مكانه واضعا يسراه على كتف عيوبه وهو يقول:

- اللعنة على الحب.. كم هو قاتل...!

وسكت لحظات يتأمل بعيدا، ثم أردف:

- استعد لتذهب معنا إلى أولاد النش.

وانطلق تاركا عيوبه وقد وقف في مكانه يفيض فرحا، وهم أن يعلق
لكن الزيتوني كان قد ابتعد، فراح يلوك كلمات غير مفهومة عبر بها عن
شكره وسعادته، وجلس في مكانه يغزل سيجارة أخرى، ويترنم بأبيات لابن
قيطون، حالما بحمامه:

خَدَهَا وَرَدَّ الصَّبَاحُ
وَأَفْرُئُفُلٌ وَضَّاحُ
الِدَّمُ عَلَيْهِ سَاحُ
وَقْتُ الضَّحْوِيَا

لقد كان لعيوبه حظوة كبيرة عند الشيخ بلخير وعند زوجته أيضا،
تربى يتيما في بيوت أولاد سيدي علي يحاط بالحنّة والرأفة أينما توجه،
ويفضل على الكبار والصغار، وكان بلخير وهو كبير العرش يمنحه ما
لا يمنح لغيره، يسمح له بالحديث في حضرة أي كان، ويسمح له بالرد عليه
ومناقشته، ويذهب معه في كثير من تنقلاته وأسفاره، ويأتمنه على أسرار لا
يفشيها حتى لأولاده.

حين قتل بلخير، أحس عيوبه أن حياته قد انتهت، وأن مكانته
ستعصف بها الرياح، غير أن الزيتوني حفظ عهد أبيه، وبقي يمنح عيوبه
ماكان يمنحه أبوه، ويحيطه بكثير من الحبة والتقدير، فهل يحقق له حلمه في
الزواج من حمامه؟ لو كان بلخير حيا ما تردد لحظة، لكن الدنيا غدارة.

آآه.. الدنيا بنت الكلب.

كان الزيتوني يعلم أن أولاد النش هم من قتلوا أباه، إن بين العرشين صراعات تخبو حيناً وتلتهب حيناً آخر، وصار لأولاد النش في السنوات الأخيرة سيطرة مطلقة بعد أن اشتد عودهم وقويت شوكتهم، وأطلق الحاكم الفرنسي أيديهم في كل القبائل المحيطة بهم، يخنقونها بمجال غطرستهم، فزادت أمواهم وأراضيهم ومواشيهم، يكفي أن يبدر منك ما يروونه سوء، كأن ترفض دفع الغرامة حتى يسارعوا إلى اغتصاب ما لديك من أرض ولو كانت بورا، وأنعام وبهائم ولو كانت عجفاء يرمونها لكلا بهم.

حدثه أبوه بلخير أن أولاد النش وأولاد سيدي علي ينسلون من جد واحد هو الحسين المكحالجي[□]، وبعد موت الحسين اختلفوا بين الانصياع لفرنسا والاستمرار في محاربتها، ومن هنا صار الإخوة أعداء، وكان كلما ذكر هذا العداة قص عليهم سي الطالب حكاية داحس والغبراء، التي استمرت أربعين سنة وكادت تفني القبيلتين المتحاربتين.

والحقيقة أن فلول العرش من أولاد الحسين المكحالجي حين وصلوا إلى هذه المنطقة هاربين بأنفسهم، انشطروا قسمين، قسم انصاع لعلي بن الحسين وهو رجل صالح ورع، وإليه نسب شطر العرش فقالوا أولاد سيدي علي، وهو الذي يرقد محاطا بطقوس الرهبة والولاء وسط المقبرة على ربوة شرق القرية، وشطر آخر انصاع لابن الحسين الأصغر بدعم من أصهاره، وانضمت إليهم فلول قبائل أخرى فشكلوا عرش أولاد النش.

حين بلغ الزيتوني البيت وهم أن يدخله لمح زوجته العليجة بنت المكي قادمة تزرع تحت ثقل قفة الحلفاء، تضعها على ظهرها، وتمسك مقبضها

□ - المكحالجي رتبة تركية تعطى لمن يكلف بقيادة الجند، وهي مأخوذة من المكحلة التي تعني البندقية.

بيدها اليمنى، وقد ثنتها على رقبته، وأسرع إليها يحملها عنها قائلاً:

- لِمَ تجهدين نفسك يا ابنة المكّي؟
- تعاوننا جميعاً على حمل الجير من المقلع، هذه آخر حمولة وسنبداً طلي الجدران.

ردت العليجة ودخلا الغرفة، مربعة أو تكاد، في جدارها المقابل للباب طاق دائري لا يتجاوز قطره شبراً واحداً، يفتح صيفاً ويحشى شتاءً بخيش يمنع تسرب البرد، وقد اسود سعف السقف وأعواده، قال الزيتوني:

- هذه الحجره شهدت لقاءنا الأول ليلة الزواج، أحمل لها هميمه كبيره، يجب أن تبدي بطلائها، وعليك أن تحكي للنسوة قصة حينا.
- لم يعد لكل الذكريات طعم، صرت أخشى المستقبل.

ردت العليجة، وصمتا معا يقبلان صفحات الماضي المسوده، لا يخلو عام واحد مذ تزوجا مما ينغص حياتهما، شبك الزيتوني أصابعه، ومد يديه إلى الأمام بقوة، وقلب كفيه وفرقع أصابعه، تراحت في ذهنه أفكار كثيرة رغب في أن يعبر عن واحدة منها، لكنها لم تقنعه جميعاً فصرف ذهنه عن ذلك وتوقع في زاوية الحزن، يعيد تذكر ملامح أخيه الشهيد سي محمود الذي لو بقي يسنده في الحياة لكان لها طعم آخر.

تأملته العليجة بنت المكّي وأحست بقلقه يمور في أعماقه فانصرفت تملأ قصعة الحديد بالماء، ثم راحت تصب التراب الجيري الأبيض، وتدلّكه براحتها حتى يذوب في الماء، قال الزيتوني:

- احذرن أن تمسسن عش السنونوه بسوء، إنها ضيف الله في البيت.
- وراح يتأملها وقد دخلت تتفنن في بناء عشاها بقطع الطين الصغيره قائلاً:

- كما العادة دائماً حين تكبر فراخها يا العليجة ندهن ظهرها بالزبدة ونطلق سراحها، إنها تقصد بيت الله الحرام شتاءً، وترور قبر النبي الأكرم.

وخرج وهو يقول:

- سأعود بسي الطالب ليتغدى معنا.

وهرعت العلجة بنت المكي من مكانها فغسلت يديها، وحملت قادوما وشرعت تحفر في زاوية الغرفة، كانت ضرباتها في البداية قوية ثم أثقلها الحذر شيئا فشيئا، ثم أعطت للقادوم فرصة للراحة وراحت تستعمل أصابعها بخفة شديدة، وقد بدا البشر على محياها، وإن هي إلا لحظات حتى سلت من جوف الأرض جرة فخار، كأنما تستل جنينا من بطن أمه، أزالنا عنها غطاءها بسرعة وغرست أنفها داخلها وتنشقت بعمق، وحين كانت تهم بالخروج قابلتها حمامه وقد تلحفت بملاءتها البيضاء.

- صباح الخير خالتي العلجة.

وقبلتها العُلجَه مرحبة.

- يحفظك الله ابنتي جئت في الوقت المناسب، لقد أخرجت الآن جرة الزبدة سأصنع لكُنَّ شخشوخة[□] لذينة، وعليكن بطلي الجدران جيدا، ستلحق الأخريات.

رمت حمامه ملاءتها جانبا وشرعت في صب التراب داخل القصعة وذلكه بيديها الصغيرتين وهي تقول:

- لو زوجتموني للعربي لكنت خادمة لك.

ضحكت العُلجَه معلقة:

- يا عفريتة! وهل نجد أنسب لذلك العفريت منك؟ يسعدني أن تكوني معي، ولكن ألا يعشقك ابن عمك عيوبه؟
وانفجرت حمامه، فضربت قلب القصعة بيديها، فتطاير الطمي على وجهها.

- أحبته عفاريت شعبة العفريت، وكسرت عظامه المعوجة.

□- طعام يصنع من تفتيت الكسرة وسقيها بالمرق والزبدة.

وانفجرت العُلجَه بنت المكي ضاحكة، وهي تخرج من الحجرة مهرولة
اتقاء غضب حمامه التي عادت إلى عملها بعد أن مسحت بطرف فستانها
ما علق بوجهها من طمي.

لم يكد النهار ينتصف حتى كانت النسوة قد أكملن تيجير جدران
الغرف كلها، فامتألت برائحة الطين، كانت العُلجَه قد أكملت إعداد
الشخسوخة، فملأت بها المثارذ[□] الخشبية والفخارية، وراحت تسقيها مرقا
فزيلة، وتضع عليها قطع اللحم، وتغرز في باطنها الملاعق الخشبية.

** ** *

2

لم يكن العربي وهو يسير مع القطيع وخلفه جواده الأدهم يعي
خطوات رجله، كان في ذهنه موج متلاطم من الأحلام والكوابيس، لم
تغب عن ذهنه مرة جثة أبيه، وقد جاء به فجرا أخواه الزيتوني وسالم
مضرجا بدمه من شعبة العفريت، وطعنة الخنجر الغادر تشق ظهره
وتعبت بصدرة، ولم تغب عن خياله ملامح حبيبته حمامه بنت لكحل لقد
صارت تملأ عليه كل حياته، لن يطمئن له بال حتى يتزوجها، فهل يحقق له
القدر ذلك؟

كان العربي يبني في خيالاته أعشاشا للأحلام المرفرفة، كلما عاد من
عمل النهار سعى تحت أي عذر كي يرى حمامته، وكانت رسائل الحب
بينهما ينقلها رسول العيون حين اللقاء المباشر، ورسول الحمحة حين
تخونهما الجدران والأسوار.

حين كان يدخل قلب القرية عائدا من الحاسي، وقد أسرعت الأغنام

□ - مثارذ جمع مثرذ، صحن يصنع من خشب أو فخار يصنع له عادة قدم منه ترفعه، وصيغته
اسم آلة على وزن مفعول من الفعل ثرد.

أمامه عائدة إلى زرائبها، كان يمد عنقه وهو يعبر شعبة العفريت باتجاه بيته
عله يرى حمامه التي اعتادت أن تختلق الأسباب للخروج ذلك الوقت، أما
اليوم فلا أثر لها، البيت وما حوله جميعا من الزريبة والبيدر ليس إلا جثة
هامدة، وحين راح اليأس يتسلل إلى قلبه شع قبس من طاق البيت الدائري
الصغير، وشاهد منديلا يلوح فرحا وقد تشبثت به أنامل رآها قطعا من
ماس.

حصار كبير صارت تعاني منه حمامه من أخيها الطاهر الذي بلغ
السادسة عشرة من عمره، والذي كان يعرف أمواج العواطف الجياشة
المترعة بين أخته والعربي، وهو لا يعارض ذلك، بل يفرح به، لكنه يريد
عبر درب الزواج.

بدأ الوقت يميل سريعا إلى الغروب، هدوء كبير يسربل القرية كلها،
دخل العربي غرفته وتمدد على الفراش اليتيم الذي تصدر الحجره، وضع
ساقا على ساق، وشبك يديه تحت رأسه، وغرق مجددا في أحلامه وكوابيسه،
هل يسمح له الزمن أن يتزوج حمامه العام القادم؟ وهل ستتهدأ له
الظروف فيثار لأبيه؟

وفجأة دلف عليه أخوه الزيتوني الحجره، لم يسلم كما تعود، جلس على
صندوق صغير وأسند ظهره إلى الجدار، اعتدل العربي في جلسته متكئا
على الجدار المقابل، وظهر في عينيه سؤال كبير، إنه يحس بالهموم التي
يحملها أخوه، ولكن أيها دفع به اللحظة إليه؟

سحب الزيتوني بإبهامه وسبابته كمية الشمة[□] من تحت شفته ورمى
بها أرضا، ومرر ظهر يمينه على فمه مرارا، ثم قطع الصمت وعلى وجهه
غضب يسعى لإخفائه:

- يا العربي يا أخي يابن أمي وأبي يجب أن تخرج من صمتك، صرت

□- تبغ يلق جيدا ويوضع في الفم، تحت الشفتين عادة.

أمامي كالليل البهيم، أنت تحيرني، أنا أخوك الأكبر ومن واجبي أن أتحمل بعض همومك، وأن تصارحني بأحلامك وهوأجسك، رفضت الزواج وفسحت الطريق لأخينا الأصغر، وهي سابقة لم تقع في أولاد سيدي علي أبدا ولا في غيرهم من العروش، والناس يتفولون عنك، ويمططون ألسنتهم.

لزم الزيتوني الصمت لحظات وحين لم يتلق جوابا نهض من مكانه دون أن يتحرك العربي، فبدا أمامه أطول مما ألفه، ربما أطول حتى من أبيهما بلخير، قال الزيتوني وهو يخرج:

- ستذهب معنا غدا إلى أولاد النش لنخطب ابنة خالتك لأخيك سالم فاستعد لذلك.

وماكاد العربي يتمدد لحظات على فراشه حتى دخل عليه سالم فزعا يخبره أنه سمع عويل حمامه، قيل إن أحاها سقط من فوق بغله فتكسرت ذراعه، وفز العربي كالعاصفة، وقطع المراح[□] المملوء ماشية كالبرق.

في الطريق التقى سي الطالب يتجه الوجهة نفسها، وقد حمل على كتفه مخلاة منسوجة بخيوط ملونة، أحس الطالب بالتضايق وهو يرى العربي، ما الذي جاء بهذا الأحمق أيضا؟ قال العربي:

- لقد كسرت ذراع الطاهر، سقط من فوق البغل.

تنحى سي الطالب دون أن ينطق، هو يعرف أن العربي لا يعنيه الطاهر بقدر ما يسعى لرؤية حمامه، وكم استغاث به ليكتب له حرضا يصرف به الناس جميعا عن التقدم إلى خطبتها، معلنا في الجميع أنه سيشرب دم كل من يجروء على ذلك، ولا يختلف الأمر مع حمامه التي ظل سي الطالب يكتب لها هي أيضا المرة تلو الأخرى حروزا تلهب بها قلب العربي وتصرفه عن الأخرى، ولا حرج عند سي الطالب في أن

□ وفي الفصحى بضم الميم المراح، الفسحة بين الغرف، يرح فيها وقد تكون مأوى الأنعام.

يعيد الحرز تلو الآخر مادام يحظى بكل بيض دجاجاتها.
بعد لحظات كانا في البيت، كان الطاهر ممددا على حائك مزركش
يغلب عليه اللون الأحمر، وضع فوق فراش حلفاء وهو يتأوه بشدة، قال
الأب لَكَحْلٌ وهو يرحب بهما:
- ذراعه التوت.

قال سي الطالب:

- لاشيء صعب على سي الطالب، سيكون كالحصان بعد أقل من
شهر، ولو طارت ذراعه لأعدتها.

وجلس عن شمال الطاهر واضعا مخللاته إلى جانبه، بينما قابله العربي
وبدأ سي الطالب يلقي بسيل طلباته، لا بد من النار، احرص يا عمي
لَكَحْلٌ على أن تكون الجذوة كبيرة ملتبهة، ومن شجر البلوط.
وماهي إلا دقائق حتى دخل الأب بإناء كبير وقد امتلأ حجرا، ولحقت
حمامه بقهوتها متصنعة الحياء، دقت الباب فدق قلب العربي وارتعش في
مكانه، وكاد يرفرف كطائر القمري، ومد عينيه إلى الباب وعلت جسده
قشعريرة.

- بابا القهوة.

قالت حمامه وهي تمد مع الصوت عينيهما إلى جوف الحجر:

- بابا القهوة.

أعادتها، فقال الأب دون أن يلتفت إليها:

- ادخلي ابنتي ليس إلا سيدك الطالب والعربي ولد عمك بلخير.
وفي لمح البصر كانت وسط الدار، فار غضب أخيها الطاهر ناسيا ألمه،
ومد سي الطالب عينيه ليرى حمامه التي حفظت جزء من القرآن على يديه،
وقد صارت أحلى من جين الرعاة، امتدت قامتها ونهد صدرها، وزادت
كحولة عينيهما، إنها أشبه بمهرة عربية، حين وضعت الصينية تدلت صغيرة

شعرها الأسود تسبقها إلى الأرض، وكاد العربي يد إليها يده، لكنها أسرعت ودفعت بها خلف ظهرها، وتأرجحت عيناه بين صدرها وعينيها، كطائر يختار مكانا للهبوط، وأسرع بالخروج تنط كأرنب بري تاركة قلبها خلفها، تنحني سي الطالب متلمظا وقد عاد إلى رشده، وبقي العربي يتدثر حلمه الجميل متشبثا بتلابيبه الهاربة.

طلب سي الطالب صرة الملح وإناءين حديدين أحدهما به زيت زيتون، والثاني به قطران أرز، وحين خرج لكحل لإحضار ذلك أخرج سي الطالب من مخلاته منجلا ودواة ويراعا، وراح يكتب طقوسا على نصل المنجل، وهو يتمم بكلمات ترتفع حيناً وتنخفض أخرى، فلا يفهم منها العربي شيئا سوى أنها كلمات مقدسة يجب الخشوع أمامها. عاد لكحل بالملوب، وضع إناءي الزيت والقطران على النار بأمر من سي الطالب الذي أكمل لتوه طقوسه، وهو يقول:

- الشفاء في القرآن وفي زيت العرب[□]، وفي حديث سيد الخلق: "آخر الداء الكي".

وغمس رأس المنجل في النار، وفي سرعة البرق خطف ذراع الطاهر، وجذبها بقوة حتى شقت صيحته الليل البهيم الذي بدا قاهرا لمصباح بترولي هزيل، ووهج الجمر البلوطي الضعيف. قال سي الطالب:

- لا بد أن تعود عظامك الهاربة إلى مكانها فلا تتحرك. وراح يدهن الذراع بزيت يحمله على أنامله برفق ذاكرة اسم الله في ذهاب أصابعه وإيابها.. كان العربي قد نسي حمامه، وهو يرى أخاها يتأوه متألماً فلا يملك له

□ - دأب العامة عندنا على إضافة كلمة عرب لكل ماهو طبيعي أو تقليدي، مقابل إضافة كلمة فرنسيي لكل ماهو صناعي وحديث، كاللباس، والطعام، وأغراض الزينة مثلا.

دفعه، غير أن يربت صدره أو يمسخ عن جبينه حبات العرق المتصبب بحنان كبير.

وعمد سي الطالب إلى صرة الملح فغمسها في القطران المتهب، وأشار إلى العربي ولكحل أن يثبتا الطاهر الذي لم يجد بدا من الاستسلام للسعات الصرة الكاوية، وهي تنهش ذراعه الطرية، غير أن صياحه راح يفلق الظلمة، ويزعج سكون الليل، ولم تتمالك الأم نفسها فقالت بصوت يكاد يكون مسموعا: كواك الله كما كويت ابني، وتمنت حمامه لو أعادت أمها الدعاء بصوت أرفع لتلفت إليها اهتمام العربي، فينتبه إلى وجودها عند خد الباب.

وحمل سي الطالب المنجل وراح يرقم على قرطاس الذراع دون أن يكف عن تلاوة طقوسه، ودون أن تفارق أعينهم جميعا رقصات المنجل، صار صراخ الطاهر عويلا، وبكاء، وهم العربي وهو يعض على شفثيه أن يصفع سي الطالب، واشتد ألم حمامه وأمها عقيلة التي نطقت متوسلة: ارحمه وحق ما حمل صدرك من قرآن، قال الأب متمتما: لكن له قلب يهودي، قال سي الطالب وقد أعطى فرصة للمنجل كي يسترد أنفاسه:

- بعد شهر ستحمل بذراعك هذه بغلا كاملا، أنا أعالج بالربانية[□]، ورثتها عن أجدادي هبة من الله.

فرعت الأم وهي تسمع كلامه خشية أن يخبره أجداده الصالحون بما قالت عنه، وتنفس البيت الصعداء فاعتدل العربي في جلسته، وملاً لنفسه فنجان قهوة راح يرتشفه على مهل، كأنما يرتشف رضاب حمامه، ورفع الأب صوته بالدعاء:

- اللهم اشف ولدي.

وراح سي الطالب يثبت قطعا من قصب القلخ أعدها بعناية كبيرة

□ - ما يحصل عليه إلهاما، ويقابله ما يحصل عليه تعلمنا ودرية، وتخصر في التطيب خاصة.

منذ زمن، وضعها حول المنطقة المكسورة فغدت كسكة الحديد، ثم راح يلف الذراع بشاش أبيض، ثم ثناها وثبتها في رقبة الطاهر. أسرع حمامه بمشرد الكسكس مع مرق الشحم، ومد العربي يده إليه فلامس أصابعها، وسرى فيه خدر شديد حتى جمد مكانه، ولم يحس بها إلا وهي تخرج كالملاك، وأحاط الثلاثة بالمشرد يلتهمون ما في جوفه، وراح كثير من الجيران يتوافدون لتقصي أخبار الطاهر.

** ** ** **

3

على فرسه السوداء ظهر من بعيد مدثرا ببرنسه الأبيض، يتقدم في خيلاء، وإلى جانبه حارسه على فرس بيضاء، وقد أمسك بمخصرة البندقية، ووضع عجزها على فخذه الأيمن استعدادا لكل مفاجئة، وخلفهما يهرول حارسان أهم ما يميزهما قوتهما العضلية الظاهرة، يحمل كل منهما عصا غليظة، ويتمنطق على قشايته[□] الصوفية البنية مجزام جلدي. وهش المحفل جميعا يستقبل الضيوف وفي مقدمته القايد[□] عباس على جواده الأحمر المحجل بالبياض، وجذب لجام الجواد فأرسل حممة ترحيب وهو يرفع قوائمه حتى يثير إعجاب كل من حوله. قفز القايد عباس إلى الأرض يساعده خادمان، أمسك أحدهما الجواد وراح الثاني يسوي برنسه الأحمر وعمامته الصفراء الكبيرة، وبدا القايد

□- القشايبة ثوب كالبرنس ينسج من الصوف الدرعاء غالبا، ويكون مغلقا من الأمام عكس البرنس، ويطلق عليه اسم الجلالية أيضا.

□- تنطقها العامة بالياء بدل الهمزة، وهو إعلال معروف في العربية للتخفيف، والقايد رتبة تركية كانت تعطىها فرنسا أيضا لبعض أتباعها. جمعها قيَاد والأصل فيها قواد قلبوا الواو ياء، لتناسب كسرة القاف.

عباس في أبهى مظهر، وهو يستقبل ضيفه عمار شيخ زاوية أولاد سيدي بوقبه، ولم يدم العناق بينهما طويلا حتى راحا يذفان البيت، جلسا متقابلين على زرابي مزركشة تحيط بهما عشرات الوسائد، وقبالتهما جلس حارس الشيخ عمار، وبعض ممن اختارهم القايد عباس لحضور اللقاء الذي صار يعقد دوريا لتعميق العلاقات بين أولاد النش وأولاد سيدي بوقبه.

قال الشيخ عمار:

- الليلة بداية الصيف الأخضر، والاحتفال في الزاوية كبير، والمريدون

كثرون، لكن دعوتك يا سي عباس لا ترد.

طبعاً لا يمكن أن ترد فإن أولاد النش، وعلى رأسهم القايد عباس، يمثلون السلطة العسكرية التي لا تقاوم، تستطيع أن تلوي ذراع كل عاص، وكل متمرّد، مهما اشتد عوده، وقد استعمل القايد عباس لذلك عصابة قوية أسند قيادتها إلى حميدّه، وبكفي القايد أن يشير بكلمة واحدة لينفذ أمره، عشرات أولئك الذين قتلوا شرقتة، وأصابع الاتهام تتوجه إليه في قتل بلخير، وإذا عجز القايد عباس بعصابته وعرشه استنجد بفرنسا فداهمتهم بقواتها تحت أي ذريعة، لقد صار أولاد النش أكثر أموالا وعددا، عكس أولاد سيدي علي الذين راحوا يتناقصون يوما بعد يوم، منذ عقدين استولى المعمر بارال على كل ما استصلحوه من أرض، ثم أرغم السعيد القايد والد عباس الكثير منهم على الرحيل بعيدا حيث لا يدري أحد.

أما أولاد سيدي بوقبه بزوايتهم وبشيخهم عمار فيمثلون السلطة الدينية التي يجب أن يخضع لها الجميع، ولها وحدها أن تفض النزاعات، وأن تعلن دخول رمضان وانتهائه، وتحدد أيام الأعياد، ولها كلمتها المسموعة حتى عند الحاكم الفرنسي الذي زار الزاوية مرارا، وجلس مع شيخها،

وأكل معه من قصعة واحدة طلبا للبركة.

التفت الشيخ عمار إلى الحضور، ونقل فيهم عينيه زمنا فوجموا، وقد بدت الرهبة على ملامحهم، قال بصوت فيه تحد:
- أحاجيكم بالقرآن الكريم: "مِمْتَيْنُ وَدَلَّتَيْنُ وتاء، وما تُحْصَلُ فيها غَيْرُ أَنْتَ".

وخيم الصمت على الحضور، واشتغلت أدمغتهم لفك هذا اللغز العلمي: ميمان ودالان وتاء.
ونقل نظره إلى القايد عباس، وعلى وجهه ابتسامة النصر والتحدي، قال القايد عباس:

- أنت سيد العلماء وسليل الحكماء، علمكم رباني، أما أنا فكم كنت أزوُّرُ من التعلّم.
وصاح في الجميع:

- هيا يا بقر أروني شطارتكم، وأخبروا الجميع كلهم بالأحجية.
ورفع شيخ الزاوية يديه ممهلا الحاضرين قائلا:
- أضيف لكم أحجيتين، الأولى "ياطالب يافهيم، أخبرني عن سورة مافيها ميم"، والثانية "أربع في السماء، وأربع في الحمى، وأربع لصاحب البيت".

قلب القايد عباس يديه، ومد شفّتيه، وحقق بشدة، إنها الحيرة، وقال:
- أين درست كل هذه العلوم؟ لا عجب أنت سليل العلماء.
ورفع بصره في الحاضرين فطار أحدهم ليذيع أمر الأحجيات، وارتفع لغط الجميع خارج البيت يقلّبون وجوهها عليهم يجدون تفسيراً لها، غير أن الصمت قد بدأ يسود، حين دخلت عليهم أسفار الطعام مترعة بالكسكس ولحم الخروف الذي ذبح على شرف الشيخ.
قال شيخ الزاوية وهو يتلذذ الطعام:

- لا آكل هذا الطعام الجيد إلا في بيتك يا عباس.
- توقف القايد عباس عن الأكل، لعق بلسانه ما علق بضمه من طعامه، ازدرده، شرب جرعة لبن، وقال:
- لا تجاملني، مذ رحلت الربحُ بنت إبراهيم لم نأكل طعاما شهيا.
- لم يعلق الشيخ عمار كأنما يوافقهما فيما قال، وواصل انهماكهما في الأكل، فواصل القايد عباس:
- لقد جنت على نفسها، وأعتقد أن الدور هذه المرة على زوجها خليفة، لم يتعظ بما وقع لها، ولأبيه وأخيه من قبله.
- دفع لقمه أخرى في فمه، لأكها قليلا، ثم توقف فجأة ودون أن يكمل ابتلاعها، أحس أنه لم يبق كلامه فواصل:
- يا الشيخ، العرب لا تربيهم إلا العصا، لاحظ لا أحد يجروء على تحدي فرنسا، لماذا؟ إنها القوة، لكن تصور لو تتسامح معهم قليلا سيعصفون بها في لحظات.
- كان شيخ الزاوية قد أكمل طعامه أو كاد، مد لسانه تحت شفتيه يجمع ماعلق هناك وحمل إناء الماء وقيل أن يعب منه قال:
- حتى فرنسا تبالغ في القمع، وأخشى أن لا يتحمل الناس أكثر من هذا، لولا ذلك ما فر أولئك الشبان، وما وقعت ثورة بريكة وعين توتة والأوراس...
- رد القايد عباس مقاطعا:
- ولكنهم قتلوا كالكلاب.
- واختلفا في جدوى القوة لردع المخالفين، كان الشيخ عمار يستدل بالتاريخ ففرنسا لم تنعم بالهدوء فترة طويلة، كلما قمعت ثورة إلا واشتعلت أخرى، وكان القايد عباس يستدل بالواقع الذي يظهر فيه الناس مستسلمين تماما لفرنسا ولأتباعها.

ردد القايد عباس في قرارة نفسه، شيخ الزاوية جبان، المتعلمون كلهم
جنباء، قال الشيخ عمار متسائلا:

- لم تحدثني عن سلافه الرومية؟

تنفس القايد عباس بعمق كمن يحمل هما عميقا وقال.

- تلك علة زرعها أبي - غفر الله له - في أسرتنا، وليت الأمر توقف
عندها، إن لها ابنا سيمد عينيه إلى ممتلكاتنا.

سكت القايد عباس لحظات ثم واصل مغيرا درب الحديث:

- ياشيخنا، يشغلني الآن أمر آخر سأحدثك عنه في حينه، وعليك أن
تقف معي.

- أنا دائما معك، في السراء والضراء، فانشر شرك متى شئت.

أنهي الجميع العشاء، فوقف القايد عباس وهو يمسح فمه بمنديل
حريري أحمر، ونقل بصره في الجميع فنهضوا منصرفين من الزاوية التي
كانوا ينحصرون فيها بعيدا عن عباس وضيغه، قال الشيخ عمار، وهو
يعدل برنسه في اعتداد:

- جواب الأحجية الأولى هو كلمة "مُمدَّة"، في الآية "في عمد
ممددة"، تذكرها حتى تحتاج بها هؤلاء الحمقى.

لم ينشغل القايد عباس كثيرا بما قال الشيخ عمار، ودفع بأصابعه تحت
عمامته يحك رأسه الأصلع، وكَحَبَ كأنما يفتح الطريق للكلمات في
حنجرتة السمينة، ومسد الشيخ عمار لحيته مرتين كأنما يتوجس خيفة من
القايد عباس وقال:

- خيرا، ما الذي يشغلك؟

قال القايد عباس:

- سيأتينا أولاد سيدي علي قريبا لخطبة فتاة من بنات العرش هم
أخوالها، وقد وافقنا، لكنني أرغب في الزواج من إحدى بناتهم أيضا،

حمامه بنت لكحل.

وسكت مطاطئا ينتظر رد الشيخ عمار الذي لم يتأخر:

- لَكْحَلُ رجل فقير، سنشتري قبوله بأكياس من الشعير، وسأعينك بسطوتي عليهم، ولكن لا تنس أن لك أربع نساء.

رد القايد عباس بسرعة وكأنه كان ينتظر ماقال الشيخ عمار:

- لا بأس لا بأس، سأطلق الكبرى وأبقيها مع أولادها عندي في البيت.

ابتلع الشيخ عمار الرد وخرج حيث كان حارسه قد امتطى فرسه وأعد نفسه للانطلاق، فلحق به القايد عباس يشيعه، وقد نسي الجواب عن الأحجية، كان أكبر همه أن يتزوج حمامه وقد وصلته أخبار عن جمالها الفتان، وهو حين يعجب بامرأة لا يقتل من أجلها واحدا فحسب أو عشرة، بل هو مستعد أن يبيد قبيلتها جميعا.

امتطى الشيخ عمار فرسه بمساعدة خدم القايد عباس، وانطلق مودعا وهو يقول في نفسه: عباس لا يحتاجني إلا في أمرين، أن أكون له عوناً أمام الحاكم الفرنسي ليمد سلطانه على الجميع، أو أن أخطب له فتاة مال قلبه إليها، لكن المرة سأتجراً وأطلب منه سلافه الرومية، لن أطلبها للزواج طبعاً، ولكن سأقنعه بأن يرسلها خادمة في الزاوية، وهل هناك أسعد للمرء من أن يكون خادماً لله تعالى وقرآنه الكريم؟ وهناك حين تكون تحت تصرفي سأقضي منها أوطاري.

ظل القايد عباس منذ أيام وهو يلزم غرفته المعزولة عن غرف النساء والأولاد، منشرح الصدر وقد بدأت إشاعته التي بثها ضد سلافه وابنها تؤتي أكلها، ما سلافه إلا عاهرة، وما ابنها يوسف إلا لقيط، لا علاقة له البتة بالسعيد القايد، لا يمكن أن يكون أخا له يرث مثلما يرث، وماذا تساوي سلافه الرومية، إن شاءت رحلت، أو بقيت عندنا خادمة، ولا مانع

عندي من أن أضاجعها أيضا، هي مجرد عاهرة، وفي أحسن الأحوال سأسمح لها بالرحيل، فلتعد إلى سطيف مازالت دار الفساد قائمة ويمكنها أن تعمل فيها عاهرة كما كانت.

في الصباح الباكر كان البُهليّ خضر يدق بعصاه على بيت سلافه الرومية، مدثرا بقندورته الصفراء وبرنسه الأبيض، وقد تدلى من صدره مندبل أخضر طويل يستعمله لتنظيف فمه وأنفه، وحين فتحت سلافه الرومية الباب متأخرة وجدته قد جلس على الأرض، قبلته على رأسه طالبة بركته، ثم مدت يدها تعينه على النهوض، داعية إياه إلى الدخول:

- سيدي البُهليّ، القهوة على النار، تفضل.. تفضل.

تأملها البُهليّ خضر لحظات صامتا وقال:

- النار تأكل الظالم، الظالم يطغى ويزيد، ضربة الله تضرب مرة لا تعيد، الأرض عطشانه، دمنا يرويهها، قلوبنا خربانه غلنا يسقيها.

صمت لحظة ثم رفع صوته متجها إلى السماء.

- ياناس ياناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس، اسمه بالعين ييدا، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا.

واندفع مبتعدا، غير آبه بسلافه الرومية التي وقفت مشدوهة تتابع البُهليّ خضر مجهدة عقلها في تفسير تلاميذه، اسمه بالعين! وقلبت

أرشيف الأسماء عندها لا أحد غير القايد عباس، وقالت بصوت مرفوع:

- هل يقصد القايد عباس؟

** ** *

□ - يطلقها العامة على المخور.

□ - البُهليّ تعني الدرويش الزاهد في الدنيا، وقد يطلقون عليه اسم المرابط أيضا، ولعلها في الفصحى من لفظة الباهل أو البهلول.

الصمت وحده كان كهف العربي، يعتكف فيه بعيدا عن ثرثرة الناس، لم يعد يطبق الاستماع إلى ما لا يفيد من الكلام، ولم تعد له رغبة في أن يبوح للآخرين بجراحاته الدامية، يعتقد الجميع بمن فيهم أخوه الزيتوني أنه لا يبالي بأحد، وأن صمته الدائم دليل أنانيته، وهم مخطئون، كان أكثرهم أحساسا بكل ما يحيط به، يحزن للحشرة تموت، ويربأ بنفسه عن ظلم أي مخلوق حتى العقارب والأفاعي، تعاف نفسه الظلم، وتحتقر الظلمين، ربما تعلم ذلك من الطبيعة التي منحها كل مافات من عمره، فعلمته الحب والعطاء والصبر، مرضت أمه فاطمة الزهراء مرضا شديدا حين أنجبتة فلم تقدر حتى على إرضاعه، ووفرت له ذلك عنزتهم المدللة، ومعنى ذلك أنه وجد نفسه وجها لوجه مع الطبيعة منذ أيامه الأولى، منذ قدر على المشي راح يتسلل إلى أحضانها، كثيرا ماراحت والدته - يرحمها الله - تصيح باسمه باحثة عنه، وحين يكاد صوتها يبع تخرجه من تحت شجرة أو بيدر أو من بين أغمار القمح والشعير صارخة في وجهه: "أتعبتني أيها الشقي، هل تريد أن تصير ذئبا؟"، ثم تدسه في صدرها الطافح بالحنان.

لم يستجب لرغبة والده بلخير في أن يحفظ القرآن الكريم ويصير علما كما كان يللم، وكما كان أخوه سي محمود الذي خرج مع بعض رجال الجهة للمشاركة في ثورة عين توتة منذ سنوات ولكنه لم يعد هو ولا الذين خرجوا معه، لم يمكث العربي في الكُتَّاب غير ثلاث سنوات، حفظ جزء مهما من القرآن الكريم، حين تأكد والده من تمرده وازوراره دفع به إلى الطبيعة راعيا، كان لهم ما يقرب من عشرين شاة وسبع عنزات، وهناك تعلم من الطبيعة ما لم يتعلمه من البشر، لا شيء أحلى عنده من لحظات التأمل مدثرًا بوهج الصمت، ولا شيء أحلى عنده من إنصاته للطبيعة في هدوئها وثورتها، في عبوسها وابتسامتها، في غنائها وصمتها، ولا شيء

أحلى عنده من القصبه يدغدغ عيونها فتفيض ألحانا كلماء الزلال،
تتجاوب معها الجبال والفجاج فيحس أن الطبيعة جميعا تعزف معه
وترقص له.

ويتراقص طيف حمامه في خياله، فينطلق مغنيا بشعره:

عَنْدِي حَمَامَهُ تُرْنُ فِي بُرْجِ عَالِي
حَرَقْتُ قَلْبِي وَشَغَلْتُ لِي بَالِي
صَوْتُهَا لَحْنٌ مُشْكَلٌ لَالِي يَا لَالِي
مَشِيَّتِيهَا حَاجِلُهُ تَثِيرُ دَلَالِي
وَقَلْبُهَا بَاهِي وَحَلُّو كَعَنْقُ، وَدُ الدَّوَالِي
عَيْنُهَا سُودَةٌ مَدْبَالَةٌ غَيْرَتْ أَحْوَالِي
وَسَنُّهَا جَوْهَرٌ مَرْتَّبٌ يَلْمَعُ وَلَالِي
نَبْكَي وَنُوحٌ وَنَشْكَي لِلرَّبِّ الْعَالِي
يَارَبِّي دَاوِي لَجْرَاحٍ وَآكْشَفْ أَهْوَالِي

وحين يعود مساء يركن للصمت أيضا، يتسلل إلى غرفته، يتسلق سلم
الأحلام ويرفرف كالفرشات والطيور، يجز في نفسه الظلم، يجز في نفسه
أن يرى الآخرين يتألمون، يتمنى لو كان يملك قوى سحرية فيحيل شر
الناس خيرا، وألم الناس سرورا، وظلم الناس عدلا ومحبة، لطلما سأل
نفسه: من هم ومن فرنسا؟ وما علاقتها بهم؟ ولماذا هي هنا تقمعهم
بالحديد والنار، وتدهم جيوشها قراهم فتفرض عليهم ما تريد، تنزع منهم
أبسط ما يملكون، وتتقاسم معهم غلاتهم الشحيحة؟ وهم ليسوا سواء،
ملامح ولغة ودينا، كلما ذكر كلمة النصراري واليهود في القرآن، إلا وتذكر
قول معلمه في الكتاب، إنهما فرنسا، وتذكر تعليقه مستشهدا بالآية "ولن
ترضى عنك اليهود ولا النصراري حتى تتبع ملتهم".

تحضره كل تفاصيل قصة سيف بن ذي يزن الذي تعود سي الطالب أن

يقصها عليهم من كتابه الأصفر، ويحلم: أه لو كنت سيف بن ذي يزن، لأبدت النصرارى عن آخرهم، وصيرتهم كالعهن المنفوش الذي شرحه لنا معلم الكتاب، ولأبدت العمر بارال والشيخ عمار والقايد عباس ومن يقف إلى جانبهم، ومن يكون القايد عباس غير حشرة حقيرة، وإذا انتقم الله من أبيه السعيد القايد فسلط عليه المرض المهلك، فسيسلطني الله عليه، سأمتص دمه وأنتقم منه للمظلومين، المظلومون معهم سيدي علي، صاحب البركات والكرامات، مازاره مظلوم إلا انتقم له من ظلمه.

كم كانت اللحظات مترعة بالرهبة حين كان يزور مع والدته قُرَابَةَ سيدي علي، جدهم الأول ووليهم الصالح، تدعوه أمه أن يلزم الصمت وهما يقتربان منه، تشده بقوة من يده الصغيرة، وتحفف من خطوها وترتفع تلماتها بكلمات لا يدري الصغير معناها، تطأطأ رأسها وتدخل المكان المكسو هيبة وجلالا، تجلس عند الضريح المغطى بقماش أخضر، تشعل البخور والشمع، وتنتحب، تستمد العون منه على هموم الزمان، يخرجان وقد استحالت أمه ربيعا، كأنما اندلقت سحب سمائها مطرا جارفا، فصفت سماؤها وابتسمت.

حين تعود أمه إلى البيت لا تخشى أسئلة أبيه ونظراته الحادة، بمجرد أن تخبره عن مقصدها حتى يطمئن مرددا: بلغ الله زيارتك.

كلما تحدث والده عن سيدي علي إلا وأحاطه بقداسة عظيمة، هي من قداسة النبي والسيد علي، ويورد عشرات القصص عن كراماته التي لم يكن أحد ليشك أبدا في صحتها، لقد زار بيت الله الحرام طائرا، وكلمه الرسول من وراء قبره أمام الناس جميعا، ويأتيه الضيوف بالئات وليس له طعام فتفيض الصحون والأواني بكل الخيرات، يأكل الجميع ويأخذون معهم إلى بيوتهم، وتجذب الأرض وتشح السماء ويمتنع الماء عن الناس فيضرب الصخر بعصاه فيتفجر ماء فراتا.

قتل والده بلخير مغدورا، بلخير البطل لا يقهر ولا يهزم ويستطيع أن يخنق حميدَه القتالَ وعباس السفاح معا بإصبعيه، كما يُخنق الأرنب، هما أمامه ليس إلا أرنبين، فهل قتله العفريت كما يزعم عيوبه؟ تساءل العربي وراح يجيب في سره: لا طبعاً العفريت يلازم بيوتنا وودياننا منذ الأزل لكنه لا يؤذينا لأننا أولاد الولي الصالح سيدي علي، وأبي بلخير رجل طاهر نقي محافظ على وضوئه وصلواته لا يمكن للعفريت أن يقربه، بل سيحترق بمجرد الاقتراب منه، عباس الكلب هو قاتل والدي، وحميده وشياطينه هم من نفذوا الجريمة، عباس الذي كان وراء كل مصائب الناس، آخرها سعيه الحثيث ليزج بأبناء المنطقة في الحرب ضد الألمان إرضاء لفرنسا، وحدي أنا من سينتقم منه، يشرب من دمه، يطهر الأرض من ظلمه ورجسه.

كان على يقين أن الزيتوني يفكر في الأمر نفسه، ويخطط للانتقام أيضاً، تحركاته الكثيرة واختلاؤه ببعض رجال العرش، وسفره غير المعتاد خارج القرية، كل ذلك يثير في نفسه شكوكا ترقى إلى اليقين، إن الزيتوني يخطط فعلاً للانتقام، لقد سمل والده دمه، وحملته أمه في مرض وفاتها ذلك، بل إن العرش كله يلزمه بالأمر، هو سيد العرش وخليفة بلخير، والجريمة التي ارتكبت على أرض العرش لم تمس بشرف العائلة فحسب، بل بشرف كل فرد من العرش صغيراً وكبيراً، ذكراً وأنثى.

وهو لم يقتل والدهم بلخير فقط بل قتل خالتهم الرِّيح بنت إبراهيم أيضاً، قتلها بوقلحة ودناءة كأنما يسحق حشرة، لم يراع حرمة بيتها ولا زوجها، وليس لها ذنب سوى أنها اعتذرت عن خدمته، أحس العربي وهو يتحسس رقبتَه أن الدماء التي يتحملها كثيرة، قتلة واحدة لا تكفي القائد عباس، يجب أن يموت ألف مرة ومرة، يجب أن يتذوقها بكل الأشكال والأصناف، بقدر ما علمت الطبيعة العربي أن يكون عطوفاً متسامحاً

علمته أن يكون قاسيا أيضا، وفي قسوة الطبيعة إنصاف وعدالة، وبقدر ما يبني في قلبه عشا لحب حمامه يبني أيضا عشا آخر للحقد والثأر.

أما زلت نائما كالنساء؟ أنت من سلالة السيد علي حيدر البتار قاهر الغول، هل تدرك أن الشمس الوهاجة، تتقد من رأس الغول الذي رمه جدك حيدر في أتون الشمس بعد أن فصله عن جسده في معركته التاريخية الشهيرة، ما الذي سيقوله لك حين تلتقي به؟ سيتبرأ منك ومن ذريتك، انهض، لا بد أن تزور جدك علياً، هو الآن في انتظارك أمام قبره، انهض.

واستل سيفه برقاً يوصل الأرض بالسماء، وضربه ففصل رأسه عن جسده واندفع الدم يرش الأرض كلها، وراح رأسه يقفز أمامه كأرنب مفزوع، وخيل إليه أنه يتجه نحو الشمس ليزيد أوارها.

ونهض العربي فزعا عجلا وقد سقط قلبه بين رجليه وهو يتمتم وقد كساه العرق، مقدما طقوس الولاء، وتلاشى الضوء من أمامه في سرعة عجيبة، فلملم شجاعته وأعاد لأعضائه تماسكها، ومد يديه فتلمس قنينة الماء التي تعود أن يضعها أمامه مدثرة بالحلفاء، معطرة بالقطران، فشرب منها، حمل المِكْحَلَةَ[□] التي ظلت لسنوات تنام بجواره محشوة بالنار، وضعها على كتفه، وتسلس كهبة النسيم.

كان الكون قطعة من فحم لا أثر للنجوم في السماء، حتى الكلاب كانت تركز لسجن الصمت، لاشيء يدل على الحياة، كأنما لف الكون خشوع رهيب، غير أنه كان يبصر جيدا، كانت الطريق أمامه إلى المقبرة واضحة تماما، وهو يعرفها جيدا، يستطيع أن يذكر فيما بين البيت وبينها كل نبتة وكل صخرة وكل ارتفاع وكل انخفاض، هذه الطريق قطعها ليلا ونهارا آلاف المرات.

□- المكحلة: على وزن مفعلة صيغة لاسم الآلة يطلقها العامة عندنا على البندقية، ولعلمهم أخذوا ذلك من لونها الأكلج أو لون البارود.

دخل القُرَّابَة[□] وقد وضع مكحلته على الأرض احتراماً للمكان، أعد صورة الشيخ الذي تجلى له في المنام، من هذا المطرز بالوقار، المدثر بالبياض؟ هل هو بُشْرَى ليصير ولياً صالحاً، هل هي روح والده تدعوه للانتقام؟ هل هو صورة أخرى من البُهْلِي لخصر؟ تلمس قبر سيدي علي، داهمته قشعريرة، نزع عمامته بيسراه، جثا على ركبتيه، قبل الضريح، وراح يصيح مجهشاً بالبكاء كطفل صغير: البرهان ياسيدي علي.. البرهان ياسيدي علي.. البرهان ياسيدي علي...

** ** *

5

يشاع أن أولاد سيدي بوقبه ينحدرون من سلالة النبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم - أو هكذا يزعمون هم، هاجر جداهم الأكبر هرباً من بطش العباسيين، وراح ينتقل بين دول المغرب العربي ناشراً العلم والمعرفة، حتى استقر به المقام في بجاية الناصرة، وهناك أقام له بيتاً فتحه لتحفيظ القرآن الكريم ونشره، وبارك الله في بيته ونسائه العديديات فصار الشيخ الواحد مئات، أبناء وأحفادا وأسباطا، وصار منهم على مر مئات السنين قبيلة للعلماء ولطلبة العلم، رغم ما تعرضوا له من كيد الزمان وريبه بفعل ظهور دويلات وسقوط أخرى.

مع اجتياح الجيوش الفرنسية لمنطقة بجاية سنة 1833، انخرطت العائلة كما السكان جميعاً في مقاومة مستميتة، قدموا خلالها مئات الشهداء، وحين ركن الجميع للاستسلام دخلت في سبات عميق، وانكفأت على

□- القُرَّابَة: هي بيت صغير يبني فوق ضريح الولي الصالح، له قبة، ويطلق ببياض، وسميت كذلك لأن الناس يتقربون فيها إلى الله من خلال الولي، وعادة لكل عرش ولي يُعتقد أنه جداهم الأكبر.

نفسها تلملم جراحاتها بعد أن فقدت العشرات من خيرة أبنائها، وهدمت كل مؤسساتها العلمية ومنابرها الدينية، وديست كل أضرحة أجدادها.

وفي عام 1870 كان القدر على موعد جديد مع سلالة سيدي بوقبه، حين قيض الله لها الشيخ أحمد، فتى في ريعان الشباب، ادخر فيه كل شيم الرجولة والعلم، وزاده بسطة في الجسم والعقل، وهاله أمر ركون الأسرة عقوداً من الزمن عن أمر النهوض بالدعوة لشرع الله، وقيادة الناس إلى طريقه، فهب يبعث المساجد والكتاتيب في المنطقة، واتخذ لنفسه زاوية في فجوة بين جبلين، ليتخذها خلوة له ولأتباعه يتفرغون فيها للعلم والعبادة، ووجد الشيخ لدعوته أنصاراً، واحتضنه السكان كما احتضنوا أجداده من قبل، فأغدقوا على الزاوية من كل الخيرات، وصار الطلبة فيها أمراء ينعمون بكل ما يوفر لهم التفرغ لما نذروا أنفسهم له، وقصدها الناس من كل الشرق الجزائري، يشجعهم على ذلك إخلاص الشيخ أحمد، ولم يمض إلا عقدان من العمل أو أقل حتى بلغه نبأ استعداد الناس للثورة ضد فرنسا، تردد أول الأمر نظراً للتجربة الرهيبة في مقاومة الاستعمار، واختلاف القوى العسكرية بين الطرفين، لكن مجيء الشيخ عزيز ابن الشيخ العلامة الولي الصالح المجاهد محمد أمزيان الحداد أزال كل تردد في نفسه.

قال الشيخ عزيز للشيخ أحمد وهو يجلس قبالته على حصير الحلفاء:
- يا شيخ لا بد أن ننتفض، هؤلاء الكفار يجب أن يغادروا أرضنا، منذ سنوات قتلت الجماعة منا الآلاف دون أن يأبه بنا أحد.

صمت لحظات ينتظر رداً، ثم واصل:

- لقد اغتصبوا أراضينا كلها وسلموها للمعمرين، لم يتركوا لنا إلا أراضي البور.

سكت الشيخ أحمد طويلا ثم قال:

- لا يمكن أن نتخلف عن شيخنا الحداد، نحن جنوده المخلصون.

رحل الشيخ عزيز منشرح الصدر لموقف الشيخ أحمد، الذي التف الناس حوله استعدادا للموت دون كرامتهم ومقدساتهم، واشتعلت الأرض غضبا تحت أقدام الفرنسيين، والتقت ثورتهم مع ثورة الشيخ الحاج محمد المقراني، وشملت كل الشرق الجزائري، غير أن القوات الفرنسية كانت أقوى، وسلاحها كان أفتك، وراحت إرادة الحرية تتهاوى أمام القوة العاشمة، لقد زج بالشيخ الحداد في سجن قسنطينة حيث لقي ربه بعد أيام من سجنه، لم تستطع شيخوخته أن تقاوم الجوع والبرد والإهانة، وقُتل أحد الخونة الشيخ المقراني غدرا بمعركة وادي سوفلات، بعد أن ردد على مسمع جنوده متحديا فرنسا: "أريد أن أكون تحت السيف ليقطع رأسي، ولا تحت رحمة يهودي أبدا"، وأبادت فرنسا الآلاف من العزل والأطفال والنساء، وصادرت كل الأراضي، ونفت عشرات الزعماء والقادة إلى كاليدونيا الجديدة.

شهق الشيخ أحمد كالأطفال وهو يقف مساء على هول ما فعلته الجيوش الظلمة بقبيلته والقبائل المجاورة، مئات الجثث كانت مترامية في ساحة القرية، مذبوحة، مقطوعة الرؤوس، والأذان، مبقورة البطون، عارية تماما، وفيهم كانت زوجته الثانية وثلاثة من أطفاله، وبعض من إخوته وأبناء عمومته، وهب الجميع يدفنون الموتى على إيقاع غصّة حارقة في قبر جماعي عند سفح هضبة جيرية، كان الأهالي يستغلون تربتها كل ربيع لتبييض منازلهم.

في تلك الليلة بدأت رحلة المقاومين وأهاليهم إلى الجنوب، لم يكن أولاد سيدي بوقبه وحدهم، بل كل الأهالي الذين احتموا بهم فرارا من غول القتل، إن المعركة لم تنته وجرائم النصارى لن تتوقف.

بعد أيام حط الجميع رحالهم قرب تل الغربان، قال الشيخ أحمد:
- يا أولاد سيدي بوقبه هنا أوحى إلي إرادة الله أن أترككم لتستريحوا،
ثم امضوا بعدها حيث شئتم، أو أقيموا، أما أنا والرجال فسنمضي على
الطريق الذي اخترناه واختاره لنا الله.

ثم اختلى بابنه بلقاسم يوصيه خيرا بأبناء العرش وكل من احتفى
بهم، ويوصيه بإعادة بعث الزاوية.

رحل الشيخ ورجاله إلى الجنوب بعد يومين وعند الجبل الكبير تم
اللقاء بين الشيخ أحمد وبومرزوق أخ الشيخ المقراني، وحامل لواء الجهاد
من بعده.

قال الشيخ بومرزوق:

- هل تعتقد أن هذا المكان سيكون مناسباً لاستشهادنا؟

رد الشيخ أحمد وعلى ثغره ابتسامة حزينة ساخرة:

- حيثما نستشهد فثم أرضنا الطيبة، أما جثث الكلاب الغزاة
فستضيق بها.

عند المساء كانت معركة الدم الهادر، حيث أقسم الجميع على الموت
طلباً للشهادة.

وحين كانت الشمس تنحدر إلى الغروب معصوبة الجبين، مضرجة
بالدماء، كان قتلى المقاومين يطرزون وجه الأرض، وانسحب البقية ومنهم
بومرزوق والشيخ أحمد الذي كانت جراحاته بليغة، لا بد من الإمعان باتجاه
الجنوب.

في الغد حين كان الجميع يجهد نفسه في الوضوء لصلاة الظهر، وصلهم
نبأ مجزرة أخرى، لقد نفذت قوات الاحتلال الفرنسي الإعدام الجماعي في
خمس مئة مقاوم أعزل، وتركت جثثهم في واد سحيق طعمة للوحوش
وعواصي الطبيعة.

صلى الجميع الظهر قصرا، ثم دعا الشيخ أحمد متحاملا على جراحه الجميع لصلاة الغائب على أرواح الشهداء الأطهار، ثم التقى الشيخ بومرزوق على انفراد ليتباحث معه الأمر.

قال الشيخ أحمد وقد استمع طويلا لشروح بومرزوق وتنبؤاته بما هو آت مع قوات النصارى:

- لامناص، هذا وطننا وعلينا أن نقدم أرواحنا فداء.
أعان بومرزوق الشيخ أحمد على الاتكاء، وراح يضمده جرحه الغائر في كتفه قائلا:

- يجب أن تستريح، مازلنا بحاجة إليك.

- يحلو لي أن ألقى الله هاهنا.

قالها الشيخ أحمد بضعف والنف في برنسه، لقد أحس بالبرد تلسع سياطه كل جسده، وبالقشعريرة تصطك لها أسنانه.

مع لحظات الفجر الأولى راح بومرزوق يوقظ الجميع، لا بد من مواصلة السير، ليس للجميع بد من الإسراع بالتوغل في الصحراء بعيدا عن قوات العدو، ومن هناك يمكن إعادة رص الصفوف، والعودة لمواصلة الجهاد، غير أنه لاحظ أن الشيخ أحمد كان مرهقا شاحب اللون، يكتم أنينا خافتا، وكان جرحه في كتفه ينزف، أشار عليهم أن يرحلوا بعيدا على درب الحق، وبقي هو وحده في مكانه عند سفح جبل لبس غابة زيتون كثيفة، كان هادئا مطمئنا وهو يلقي الله مكلوما في سبيله.

انقطع اتصال أولاد سيدي بوقبه بسيدهم الشيخ أحمد بعد ذلك، ويرجح أنه مات حيث ترك، واستقروا حيث تركهم عند سفح جبل حواليه أرض بور، تنبسط بعده سهول القاهرة، كان أمر القيادة قد دان لابنه الأكبر بلقاسم، الذي لم ينس وصية أبيه فسار على نهجه، إذ بمجرد التخميم على أرض البور الجديدة بدأ يقيم صرح الزاوية ليفتحها منارة للعلم، اكتفى

بأبناء عشيرته الناجين من الذبح أولاً، ثم شاع صيته وبدأ طلبة العلم يتهافتون عليه من كل حدب وصوب، كان بلقاسم حريصاً على الوفاء لأبيه ولذلك كان ينسب كل شيء إليه، ولم يكتف ببناء الزاوية فحسب، بل أقام قريباً منها قُرَابَةً، بنى فيها ضريحاً لأبيه ليتخذها الجميع مزاراً، وبقدر ما ظل الناس يدعونهم أولاد سيدي بوقبه، كانوا يدعونهم أيضاً أولاد سيدي أحمد، وراحت المخيلة الشعبية تنسج حوله الأساطير، كان بلقاسم يراه دائماً في منامه، طائراً مرة مخلقاً فوق العرش يحرسه ويحميه، ومدججاً بالأسلحة ثانية يدافع عن حماه، ومبتسماً مستبشراً رضا بما صنع بلقاسم، وقلقا عليه يلومه في أمر لم ينجزه أو لم يتقنه، ويجذبون فيغيث ببركته، وينكسرون فينصر ببركته، ويمرضون فيشفي ببركته، وتكاثر الناس حول قُرَابَتِهِ يذبحون الأضاحي، ويقربون الهدايا، ويتبرعون بأعز ما يملكون من أنواع وبهائم وحبوب وأراض، مقابل دعوات يرجون قبولها، أو حصوات يحملونها من القبر وما حوله تدفع عنهم غائلة الزمن القاسي.

وخشيت فرنسا من كل ذلك، هذه تجاربها السابقة أثبتت لها أن مثل هذه التجمعات الدينية ما تفتأ أن تتحول إلى بؤر للثورة والانتفاضة، عملت على استمالة الشيخ بلقاسم ليكون عوناً لها وسنداً تخدر به الناس وتقودهم للانصياع لها، فلما عجزت راحت تحيك له الدسائس لتنفرد الناس منه، لكنهم لم يزدادوا إلا تمسكاً به، ثم وجدت ضالتها في أخيه عمار، فأوغرت صدره فتخلص من أخيه، واستولى على زمام الزاوية يسير شؤونها بما يخدم أهواءه ومصالح فرنسا، واضعاً يده في يد أولاد النش.

** ** ** **

6

كان القايد عباس مهيب النظرات ممتلئ الجسم ممتد الطول، تملأ وجهه

لحية يكاد يغطيها شاربه الكتان، يميل شعره إلى الحمرة، وكان أبناء عرشه يطلقون عليه مذ كان صغيرا لقب الأزعر، وكان هو يعتد بذلك ويتمایل فخرا وهو يعتمر العمامة الضخمة وقلمونة[□] البرنس الأحمر، ويقول هكذا كان جدي أحمد بلي، وهو يرى هذه العلاقة من ناحية أمه فحسب، لأن أصول أجداده فيما يشيع دوما بين الناس تعود إلى السبط الحسين بن علي، إلى فاطمة الزهراء بنت النبي الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

كما يشيع دائما ويشيع أبناء عرشه أيضا أنهم جاءوا إلى هذه المنطقة من الساقية الحمراء ووادي الذهب، وهي كما تعود أن يروي قطعة من جنة الخلد، أنزلها الله تعالى خصيصا لإسكان ذرية السيدة فاطمة بعد أن تاهوا في صحراء المغرب الكبير، ثم خرجوا منها ضاربين في الأرض، داعين إلى منهج الدين الحنيف، يعلمون الناس القرآن والسنة، استقروا أول أمرهم في المغرب الأقصى قرب فاس، وهناك انقسموا شطرين بقي قسم منهم هناك ورحل القسم الثاني، حتى استقر بهم المقام ضواحي قسنطينة، وهناك اختلطوا بأهلها حد الامتزاج، وكان جده الحسين هناك سيذا عظيما، خضعت له النفوس وهفت إليه القلوب، لما امتاز به من رجولة وشجاعة وكرم، واستطاع في ظرف وجيز أن يجوز على رضى البلي أحمد وإعجابه، فولاه منصب المكحلجي، إلى جانب منصب الشاوش والخوجة والسراج، وأمّره على عشرات الفرسان، وقد أبلى بلاء كبيرا في تثبيت حكم البلي، وإخضاع كل القبائل، ليس عن طريق القهر والترهيب، بل لما كان يملكه من مقدرة على الإقناع واستمالة القلوب، فسارت في ركابه قبائل أولاد مقران، وأولاد عزالدين، وأولاد عاشور،

□ - القلمونة: القلنسوة تنسج ملتصقة بالبرنس والقشايبة، توضع حماية للرأس من البرد والمطر.

وكلها قبائل لها سطوتها وقوتها، ما جعله يد عينيه إلى كريمة الباي أحمد نفسه، ويعشقها ويقول فيها شعرا، ثم يتزوجها، هذا الزواج الذي جعله يتقرب أكثر من الباي أحمد، فيسند إليه كثيرا من شؤون تسيير المنطقة. وكثيرا ما كان القايد عباس يضحك حتى تسيل دموعه قائلا: أنا كجدي الحسين المكحلجي فارس صنيدي، أهم ما أعشق من الدنيا النساء. وكاد الحسين المكحلجي يرتقي في درجات الدولة آنذاك ليصير آغا، وربما بايا، وربما حتى دايا، ومن يدري، على المرء أن يطمح وليس في الدنيا مستحيل، غير أن الدهر قلب له ظهر الجفن، إذ ماكادت تحل سنة 1837 حتى غزت جيوش فرنسا مدينة قسنطينة بعد أن أسقطت عنابة وبجاية، وحين ضاقت الأرض بالباي أحمد أسرع باستدعاء مساعديه وعلى رأسهم الحسين المكحلجي، جلسوا جميعا قبالته، أما هو فلم يستطع أن يجلس، كان يدور في قلق ظاهر.. سأل موجهها حديثه للجميع، لكن نظراته كانت مصوبة للحسين:

- يمّ تشيرون؟

تطلعوا جميعا إلى الحسين المكحلجي، ليس لهم أن يقرروا دونه، قال الحسين بثبات:

- لاشيء غير الحرب، أعلن الجهاد في سبيل الله، وسيتقاطر المجاهدون من كل حذب وصوب.

- بوركت هذا الذي كنت أريده وأنتظره منكم.

قالها الباي أحمد مشرق الوجه ودعا إلى التعبئة العامة، وكانت معركة قسنطينة الأولى، تصدى فيها المجاهدون ببسالة كبيرة لقوات النصارى، ورغم الخسائر الكبيرة لم تسقط قسنطينة، وظل الجرح النازف يقاوم النصال المفترسة، فلجأت فرنسا إلى إغراء الباي أحمد وحين خاب مسعاها أعادت الكرة في هجوم ضخم مفاجئ، ولم تملك المدينة إلا أن تستسلم،

سقطت قسنطينة في يد الأعداء، لكن الباي أحمد لم يسقط، والحسين المكحلجي لم يسقط، وإرادة المقاومين لم تسقط، انتقل الباي أحمد مع المقاومين إلى الصحراء داعيا إلى الجهاد في كل قرية يحل بها، وفي كل عرش ينزل به، حتى بلغ بسكرة حيث أحواله، محاولا تنظيم مقاومة جديدة وإحياء جذوة الجهاد.

وزحفت كثير من القبائل جنوبا، حتى أقاموا بضواحي طيبة، وشكلوا هناك مع شراذم القبائل الفارة من همجية فرنسا قبائل جديدة، ما فتئت أن امتزجت بقبائل المنطقة، مشكلة خصائص جديدة من عادات وطباع ولهجات.

لم يكن الحسين المكحلجي يرغب في مغادرة قسنطينة، رأيه أن يلزم الجميع أماكنهم فيما حياة العزة أو موت الكرامة، غير أن زوجته ابنة الباي ألحت عليه في وجوب الرحيل، ليس خوفا من الموت لكنها ترفض الموت البارد، الحرب خداع، والانسحاب ليس جبنا بل خداع وإعداد، ونزل الحسين عند رأيها لا بد من اللحاق بأحمد باي ليشد من أزره وينظما مقاومة جديدة ترد غائلة النصارى.

في منتصف الطريق، تراءت له جيوش الأعداء تزحف خلفه، وقرر الحسين المكحلجي أن يعسكر حيث هو وينظم مقاومة مهما كانت صغيرة، لم يكن طامحا للانتصار، ولكنه كان طامحا للموت بشرف كما مات جده الحسين السبط، مرددا في أتباعه ما رده الحسين منذ قرون "هيهات منا الذلة".

قبل شروق الشمس حزينة فاقعة اللون داهم جراد النصارى المنطقة بأعداد لا حصر لها من الجنود، وفزع الأطفال والنساء والعجزة، وصاح الحسين المكحلجي في الرجال أن استعدوا للموت دفاعا عن الشرف الرفيع، وبسرعة أفرد القادرين على الموت، ودعا البقية إلى الرحيل غربا،

عبر الجبال، واندفع مع من تبقى معه باتجاه جيوش فرنسا، لا بد أن يتمركزوا عند أشجار النخيل التي كانت تشكل واحة كبيرة، ثم يدخلوا معهم في معركة لن ينتصروا فيها طبعاً، ولكنهم سيلهونهم عن اللحاق بالعزل.

واشتعلت النيران بين الطرفين بين جيوش جرارة، وعصابة كل سلاحها إصرارها على الموت بشرف، ولم تدم المعركة إلا ساعات من نهار حتى قضى على المقاومين، وأسلم الحسين المكحلي الروح شهيدا مع غروب شمس ذلك اليوم العصيب.

بعد يومين من ذلك لحقت به زوجته بعد مرض ألم بها فجأة، جعل الراحلين معها يخيمون، حتى إذا ما أسلمت الروح أقاموا لها جنازة مهيبه، ثم واصلوا المسير حيث أشار الحسين، بعد أيام وجدوا أنفسهم عند سفح جبل قرب تل الغربان، وهناك أقاموا مضاربهم، وراحوا يللمون جراحاتهم العميقة، وقد خبت في أنفسهم جذوة المقاومة، وصور الدمار والتقتيل الجماعي مازالت عالقة بأذهانهم.

نهاية سنة 1850 زحفت فرنسا على المنطقة، ممارسة إرهاباً أعمى، لا بد من تأديب الجميع المرة بعد الأخرى، لا بد من تذكيرهم بسطوة فرنسا وقوتها التي لا تقهر، لا بد من الاستيلاء على كل ممتلكاتهم، جمعت فرنسا إلى أولاد الحسين شراذم من قبائل متفرقة عرباً وأمازيغ هارين من بطشها، وشكلت بهم تجمعا بشريا كبيرا وأطلقت عليهم أولاد النش، وأمّرت عليهم أصغر أبناء الحسين من زوجته ابنة الباي، الذي لم يكن يحلم أكثر من أن يبعد الموت والظلم عن قومه العزل، لقد مات كثير من الرجال، وخلفت الحرب أرامل وأيتاما، والجرح أعجز من أن يتحدى الخنجر.

لكن السلطة انتقلت بعد ذلك إلى السعيد أحد أحفاد الحسين من زوجته الأولى، فنصبته فرنسا قائداً، وأطلقت يديه لتمتد إلى تحقيق كل

رغبته، ثم انتقلت إلى ابنه القايد عباس الذي كان قد متن علاقته بفرنسا، وكسب لقومه قوة وهيبة، وتوسع في امتلاك الأراضي والأنعام على حساب كل العروش المجاورة.

** ** * * *

7

ظل الزيتوني جامًا في مكانه كأنه تمثال بارد يفترش الأرض ويسند ظهره إلى جذع الزيتون اليتيمة التي ظلت تغالب الزمن على ذروة تل الغربان، كان الجو دافئًا والأرض بكل مخلوقاتها تحتفل بانتصار الربيع أخيرا على شتاء قارس مثلج، وقد تضرعت عطرا راحت ترسله إلى أنوف الجميع .

لم تكن أفكار الزيتوني مرتبة، بل كانت تتدافع جملة واحدة كميته الوادي من غير اكتراث بالانهيارات التي أصابته على مدى السنوات الماضية، ولولا زوجته العَلَجَه بنت المَكِّي التي ظلت تواسيه وتشد من أزر عزمته لكان له واقع آخر، كل الأحداث من حوله ترهقه، لقد استولى أولاد النش وأولاد سيدي بوقبه على كل الأراضي الخصبة، وهاهي أراضيهم الرعوية تتقلص شيئا فشيئا، وهاهي قبيلتهم تنكمش مساحتها باتجاه سفوح الجبال، ما الذي يستطيع أن يفعله وهو كبير العرش؟ هل يمكن أن يواجه هذين العرشين الكبيرين ووراءهما فرنسا بسطوتها وعسكرها؟ وتذكر أخه سالم وقد همس له يوما في حضرة والده، ماذا لو تقربنا من الحاكم الفرنسي فمنحنا السطوة أيضا، وتذكر يد أبيه تنزل كالصاعقة على خد أخيه سالم الذي تهاوى إلى الأرض، ثم ملم نفسه وخرج دون أن ينبس، لا أحد يجرو أن يرد على بلخير، ولماذا يرفض أبوه الاقتراب من فرنسا؟ لأنها استعمار يجب مقاومته؟ لأنها كافرة يجرم

التعامل معها؟ لأنها السبب في تشريد الأبرياء وقتلهم وعلى رأسهم أخوه سي محمود؟ أم لأن أولاد سيدي علي لاحول لهم ولاقوة، وفرنسا لن تضع يدها في يد الضعفاء؟

من بعيد لاحظ مجموعة من أبناء العرش قد بدأوا يجتمعون استعدادا للذهاب إلى أولاد النش لخطبة ابنة خالته سرّو له بنت خليفته، وخالته لماذا تزوجت عند أولاد النش؟ لو لم تفعل ما وقعوا الآن في هذه المشكلة، وتذكر أمه في آخر أيام حياتها وهي توصيه: يا الزيتوني إذا أردت أن أَرْضَى عنك فاستر ابنة خالتك سرّو له، زوجها لأخيك سالم، لا تتركها غريبة عند أولاد الكلب يهينونها ويدلوننها وربما يقتلونها كما قتلوا أمها، وتنفجر أمه بالبكاء حين تتذكر موت أختها، ولا يسكتها إلا اشتداد الألم الذي عصّف ببطنها أسابيع ثم رحل بها إلى القبر، بعد عام من موت زوجها بلخير، وبعد ما يقرب من ثماني سنوات من استشهاد ابنها سي محمود.

المتداول بين الناس أن القايد عباس قتل الرّيح بنت إبراهيم بطلقة من بندقيته، قتلها داخل بيتها دون أن يتفوه أحد، والسبب أنها رفضت تحضير وليمة الزاوية كما اعتادت دائما، كانت مريضة منهكة لا تستطيع الوقوف، لكن القايد عباس اعتبر ذلك تمارضا للتهرب من فعل ما طلب منها، ومن يقدر من النساء على فعل ما تفعل، كانت الرّيح بنت إبراهيم فنانة ماهرة، ولائمها يتحدث بها الناس في كل العروش المجاورة.

حين خرج القايد عباس من البيت تاركا الرّيح بنت إبراهيم جثة هامدة، وجد نفسه وجها لوجه أمام زوجها خليفته الذي ما كاد يسمع طلقة البارود حتى أسرع عائدا إلى البيت، وعلى محيه يعدو حزن وخوف وحيرة، قال القايد عباس:

- خلصتك من هذه البذرة الوسخة، أدخلت بمقامتك نجاسة إلى عرشنا، أولاد النش لا يتزوجون من غير أولاد النش.

اندفع خليفة يدخل البيت ليجد زوجته غارقة في دمائها، وتهافت الناس من كل صوب يملأون عليه البيت، ويمنعونه من الخروج، كانوا متأكدين أن مصيره هو القتل أيضا.

حين ذهبوا لدفنها من الغد كانت مكفنة بعناية، لا أحد تأكد مما شاع عن موتها، الكل كان يقول: حكم الله، كلنا نموت، إنا لله وإنا إليه راجعون، حتى أختها لم تحضر إلا قبل قليل من حملها إلى المقبرة، لم تحبز في الوقت المناسب، بقي موتها حرقة في قلبها، وبقيت تبكيها حتى لحقت بها. لم يفظن الزيتوني إلا وعيوبه عند رأسه، قال عيوبه:

- لا تهتم، الدنيا تسير بقضاء الله وقدره، رحم الله خالتك، فلندع الأموات ولنهتم بالأحياء، زكية أغمي عليها حين علمت بخبر خروجنا لخطبة سرّوله بنت الرّبْح لأخيك سالم، لا تلمها إنها تحبه، أخشى أن تموت، الحب قاتل يا الزيتوني، أنا أيضا...

ونهض الزيتوني من مكانه وراح ينزل من ربوة الغربان باتجاه القوم وقد تجمعوا وسط القرية، ولم يجد عيوبه بدا من أن يلحقه، باذلا جهدا كبيرا في الانتصار على عرجته، محاولا رفع برنسه الأبيض الذي يدخره لمثل هذه المناسبات.

عرج الزيتوني على الساقية وراح يتبعها، يقطع بعض الأعشاب منها أو يزيل بعض الصخور المتساقطة، التي تمنع تدفق الماء الذي يسرى في معظم الأحيان فوق صخور ملساء، وينحدر قليلا مع الوادي، ثم يعاود الاندفاع في ساقية معلقة صنعها أولاد سيدي علي من الحجارة وقصب اليراع وجذوع الأشجار، لينتقل الماء إلى الضفة الأخرى وما يكاد حتى يبلغ الجابية، وهي حوض كبير بني في أعلى القرية دائريا من الحجارة والطين، حتى إذا امتلأت فتحت فتدقق الماء منها يسقي شتلات الخضر القليلة التي يزرعها أبناء العرش.

وصل الزيتونى وسط القرية، ألقى التحية فرد الجميع بصوت واحد كأنهم جنود بحضرة قائدهم، نقل فيهم بصره لقد اختارهم بعناية فائقة، سى الطالب بقنودته البيضاء وعمامته الصفراء ويرنسه الأبيض، أشبه ما يكون بدئب أبيض، كان حليقا ممتلى الوجه كأن نعم الدنيا كلها قد هطلت عليه، يعتمد عليه فى مجادلة أولاد النش، إذا عرضوا للعلوم التى لا يفقهها فى العرش غيره، وحوله كان الشيخ لكحل، والشيخ البغداي، والشيخ قدور، وابنه عبد الحميد، وقد ظهرت عليهما النعمة، وعيوبه وقد سعى أن يظهر فى أحسن مظهر، وقريبا من الجميع كان يجلس العربى مجللا بصمته، ممتد القامة، أميل إلى النحافة، أسمر اللون، حاد الأنف، أسود العينين، رقيق الشفتين كثر الشارب، يفضل العزلة، لا شيء يشغله غير حمامه ودم أبيه، ينكأ جرحه فى أعماقه، ويقوم بطقوس غريبة حتى سمي العربى المقرون¹، هو يعرف أن أخاه الزيتونى يسعى لتحقيق حلم أبيه بلخير فى الرفع من قيمة عرش أولاد سيدي علي ليكونوا أحسن من كل العروش المجاورة لهم، ولطالما ضحى بكل ما يملك من أجل ذلك، وليس الأمر غريبا عليه فهو نسخة من أبيه بلخير، ومن شابه أباه فما ظلم.

أسرع الزيتونى إلى بيته، فحملت إليه العَلْجَة بنت المَكِّي الماء الساخن وقطعة صابون صغيرة اقتناها مرة من المدينة ومازال يستعملها منذ خمسة أشهر فيحس بالانتعاش، سريعا اغتسل بها فتركت عليه عطرا فواحا، أعادها إلى زوجته فلفتها بعناية فى خرقة جلدية صنعها خصيصا لها، أما غلافها الورقى اللماع فقد لطخت زوجته قفاه بالعجين، وعلقتة على جدران الغرفة بجانب أغلفة الصابون والشيكولا التى تحمل صور أبقار وأزهار ونساء فاتنات.

1- والمقصود به الجنون، صاحب التصرفات الغريبة، ولعلمهم أخذوا ذلك من قَرْنِ أي نبت له قرن، كناية عن عدوانيته، أو من كان له قرين من الجن.

لبس الزيتوني سروال العرب[□] الذي تكاد طياته تلامس الأرض، ثم قندورته البيضاء التي ورثها عن أبيه، وسوى العرّاقية[□] فوق رأسه، وفوقها وضع بعناية كبيرة عمامته البيضاء، ووضع خيزرانه في ذراعه اليسرى، ووقف أمام قطعة المرآة التي ألصقتها زوجته بالعجين على الحائط، ومد أصابعه إلى شاربيه يمسهما، قالت بنت المكي:

- إنك سبع، شارباك يحط عليهما النس.

قال الزيتوني وهو يقتل شاربيه:

- شاربا السيد علي، زوجك يابنت المكي سيد الرجال.

وضحك، وضعت العلجه البرنس على كتفي زوجها وراحت تمسه إلى الأسفل تزيل بعض انكماشاته:

- أنت سيد الرجال وسيد أسيادهم، سينفلق القايد عباس غيظا حين يراك.

رد الزيتوني وهو يخرج واضعا كمية الشمعة تحت شفته السفلى:

- لعنة الله عليه.

وجد الجواد الأدهم مسرجا، امتطاه وأخذ لجامه من ابنه البكر الذي أعد ذلك منذ ساعة ووقف ينتظر أباه، بلغ الزيتوني الجماعة دون أن يتوقف فلحق به الجميع، وقد كثر عددهم، وخلف القافلة كانت عجوزان على بغل أشهب، وقد تلفعتا بالخُمُر لا يرى منهما إلا وجههما.

*** **

□ - يطلق العمامة على السروال التركي ذي الطيات المتدلّية سروال عرب تميزا له عن السروال الحديث الذي يسمونه سروال فرنسيس.

□ - توضع فوق الرأس، بيضاء مثقوبة، تثبت فوقها العمامة، لها وظيفة التهوية ومنع تشكل العرق، ومنه جاءت تسميتها.

حين رفع رأسه وهو يسبغ الوضوء لصلاة العصر شاهد الموكب وقد
أطل من عطف الجبل الأسود، عجلاً دخل البيت وهو يعيد ترتيب ثيابه،
تلقتة ابنته سرّوله وفي عينيها سؤال كبير أجاب عنه بسرعة.

- وصل أخوالك، أعددت كل شيء؟

لم تجبه، لقد داهمها موج الحيرة، وراحا يسبحان في بحار من الآمال
والآلام، تقدم منها خطوة حتى كاد يلتصق بها، ركز في عينيها عينيه، تناقلا
أحاسيس عميقة، ارتمت في صدره، طوقها بذارعيه، تذكر زوجته الرّيح بنت
إبراهيم التي ماتت غدرا وظلما ذات سنة، قال يناجيها: معذرة زوجتي
الغالية لم أقدر حتى الآن أن آخذ بثأرك من القايد عباس كما وعدتك،
لكني مازلت عند وعدي، خليفة لن ينسأك حتى يلحق بك، أنا الآن أجهز
ابنتك لتزف عروسا كأبهي ما تزف العروس، كم أتمنى لو كنت معها
ياسيدة النساء، لكن... الأقدار ليست بأيدينا.

وأحست بدموعه تبلل رأسها فانتبهت من سبحاتها مع أمها،
فانسحبت بهدوء من بين ذراعيه اللتين راحتا تعصرانها كأنما يحشى
فرارها منه، هرعت إلى غرفتها وانكفأت على نفسها وانفجرت باكياً،
حُرقتها أكبر من أن يحتويها صدرها الصغير، أكبر من أن يتحملها قلبها
العصفوري، فلتبك ولتسمع أمها في عالم الغيب، أية عواطف يجب أن
تعرض حواليها؟ من حقها أن تفرح وهي تزف عروسة لابن خالتها، من
حقها أن تفرح وهي تفر من سجن هذه القرية البغيضة التي قتلت
الغطرسة الكاذبة فيها أمها ذات يوم، ولكن من حقها أن تحزن وهي تترك
خلفها أباهم لمستقبل مجهول، أباهم الذي ظل دائماً يكتب في نفسه دموعاً
حارقة، ويلوي عنق حزن متمرّد، ليكون لها عشا دافئاً تزقزق فيه طفولتها
ويفاعتها، كم أحسسته في الليل الطويل ينتحب، وهي تعلم أنه تذكر أمها

الرَّبِيعُ التي قاسمته سنوات طويلة ولم تنجب منه إلا سَرَوُلَهُ، سَرَوُلَهُ التي أرادها دوماً أن تكون شائخة كريمة كشجرة السرو، وهي تعلم أن زوجته الثانية الزهرة بنت ساعد الطيبة الخيرة لم تستطع أن تنسيه أمها، بل ولم تكن له شيئاً، ولذلك راحت تقضي معظم وقتها في بيت أبيها الشيخ. كم ترك خليفة غرفته ليلاً، ليتسلل إلى ابنته في غرفتها المجاورة ليندس معها في الفراش يحضنها إلى صدره ويدس أنفه في شعرها وينام، هل كان يريد أن يشم من خلالها عبق أمها المقتولة؟ أم يريد أن يعوضها ضياع أمها، يريد أن يقول لها أنا معك أما وأباً؟

ما الذي ستفعله يا أبي بعدي، أقرأ في عينيك إصراراً على الانتقام، أعرف أنك لن تسكت، أعرف أن النار المشتعلة في قلبك لن يطفئها إلا دم القايد عباس، فهل تقدر؟ أنا أيضاً أحلم أن أذبحه كالشاة، وأن أمص دمه، وأمزق كبده وقلبه؟ وماذا لو قتلك أيضاً وألحقك بوالدتي؟ ألا تراني أبقى وحيدة؟ إن انتقالي إلى أحوالي سيطمئنك على مستقبلتي ويشجعك أكثر، أنا أيضاً أتمنى الانتقام لدم أمي لكنني سأحتاج إليك إلى جانبي دوماً. وأحست بالجلبة تحيط بالبيت، واندفع أبوها إلى غرفتها رافعا عقيرته بزغرودة عميقة، فنهضت من مكانها، مسحت دموعها وخرجت، فصادفت أباهاً عند الباب يحثها على الخروج، وفرح حزين يتغشاه.

اجتمع الرجال في الدار القبليَّة، وهي بيت يعد للضيوف يجعل بابَه قِبْلَةً، ووصل القايد عباس وحارسه حَمِيْدَهُ فتصدرا المجلس، وتبادل الطرفان مجاملات منافية، لا ينسى الزيتوني ولا إخوته ولا أولاد سيدي علي جميعاً أن القايد عباس هو قاتل بلخير بيد حَمِيْدَهُ السفاح، ولا ينسى خليفة أن القايد عباس هو قاتل زوجته الرَّبِيعُ بدم بارد، ولن يرضي هؤلاء جميعاً إلا رأس القايد عباس ورؤوس أعوانه..

كان القايد عباس يحاول أن يظهر تعالياً صارخاً وغطرسة قاتلة ينل بها

أولاد سيدي علي ويذكرهم بها أنه القضاء الذي لا يرد، وظل الزيتوني ينظر إلى رقبته الغليظة ويحلم باليوم الذي يزغرد خنجره عليها.

تلا سي الطالب شيئاً من القرآن الكريم، وبعض الأدعية التي لا يعرفها إلا هو في هذا المجلس، رافعا صوته أحيانا مفصحا مبينا، خافضا صوته أحيانا أخرى متممة لا تكاد تبين، ثم قال:

- سيكون هذا الزواج مباركا، وسيجمع بين العرشين على المحبة،

عرش أولاد النش وعرش أولاد سيدي علي.

قاطعته الزيتوني وعلى ملامحه غضب مكبوت:

- سنأخذ ابنتنا.

قال القايد عباس:

- ولكنها ابنتنا أولا، نحن آباؤها وأعمامها، وأنتم أخوها.

قال الزيتوني وفي نبرته تحد:

- العرب تقول، من قال خالي قال أبي.

رد القايد عباس، وقد أزعجه هذا الجدل:

- النسب للأب، والنساء حرث.

بدا القلق على ملامح خليفة، وهو ينقل عينيه بين الزيتوني بعناده

والقايد عباس بغطرسته، وكلما تمنى أن ينصرف الكلام باتجاه آخر اشتد

وتأزم، وهو يعلم أن بين الرجلين بغضاء لن تنتهي حتى بزوالهما.

وتدخل سي الطالب ليأخذ الكلام مجرى آخر:

- المهم جئناكم نطلب ابنتكم لابنتنا سالم.

واستغل خليفة الفرصة ليفض الخلاف فأسرع يقول:

- ونحن قبلنا على سنة الله ورسوله.

قال القايد عباس:

- هي ابنتنا جميعا ياخليفة وليست ابنتك فقط، المرأة ابنة عرش،

وليس ابنة فرد منه.

وصمت خليفة، لكنه راح يحرك رأسه مؤيدا كلام القايد عباس وفي نفسه حيرة، إنه يشتم أمرا ما من كلامه، وخيم الصمت لحظات على الجميع أيضا، قطعه صوت سي الطالب:

- فلنقرأ الفاتحة.

وأسرع برفع كفيه فرفعوا جميعا أكفهم يتلون الفاتحة، وارتفعت زغاريد النسوة من الغرفة الأخرى.

حين كان الوفد يهم بمغادرة عرش أولاد النش، قال القايد عباس للشيخ لكحل:

- قد أعطيناكم ابنتنا، وهذا شرف كبير لكم، وأطلب منك على سنة الله ورسوله يد ابنتك حمامه.

وهز زلزال شديد الجميع وهم ينطلقون مغادرين ملفوفين بصمت حزين مزقه الزيتوني قائلا:

- لا بد أن نوقف غطرسة هذا القايد اللعين.

قال الشيخ لكحل:

- ليس لي به طاقة، وأخشى أن يلحق بنا العار، متزوج من أربع نساء ويريد الخامسة، لعنة الله عليه.

قال عيوبه بحسرة:

- منذ أن مات عمي بلخير عرفت أن العرش قد خلا من الرجال. وراح يسترق النظر في الجميع ينتظر رد فعلهم العنيف ضده، لكن الزيتوني أيده قائلا:

- صدقت.

ولم يزد عليها، كان الجميع يفكر في جرأة القايد عباس، لقد حول فرحهم قلقا جارفا.

لم ينم الجميع في عرش أولاد سيدي علي، بات العربي خارج البيت قريبا من البيدر يغازل قمر الليل، حيث افترش حائكا أحمر فوق الحشائش التي مال لونها إلى الاصفرار، وتقمط في قشايبته وإلى جانبه كانت تنام مكحلته محشوة بالرصاص، إنه الاستنفار الأكبر، والاستعداد لكل احتمال، ماذا لو تجرأ فعلا القايد عباس وخطب حمامه؟ وماذا لو وافق أبوها رهبة؟ وبات الزيتوني يتقلب في فراشه، إنها طعنة أخرى توجه إلى كرامة العرش كله، إلى أي حد سيصبر على ظلم أولاد النش؟ لا حل للمشكلة إلا بقتل القايد عباس، ولن يفعل أحد ذلك إلاه، هو سيد العرش بعد أبيه، وأحس بحركة أرجل قرب البيت، أصغى قليلا ثم غادر مكانه، فتح الباب وهو يجثو على ركبتيه، وفي يده عصاه، وزرع عينيه في كل ما حوله مستعملا كل حواسه لالتقاط أي حركة، وتناهت من جديد إلى سمعه حركة الأرجل، وبسرعة رفع صوته:

- عيوبه.

وقام من مكانه قرب الباب، واتجه حيث الحركة معيدا النداء:

- عيوبه.

كان صوت بكاء مختنق قد وصل سمع الزيتوني واضحا، وكان عيوبه يتكوم قريبا من الحوش كأنما هو جثة ميت، أجلسه الزيتوني فجلس متكئا على حجارة الحوش، وقال:

- وهل يبكي الرجال؟

قال عيوبه وهو يكاد يختنق:

- وهل فينا رجال؟ منذ أن مات عمي بلخير غسلت يدي من الشرف والرجولة، هذا العرش صار يتيما وكل من فيه صاروا نساء.

نهض الزيتوني وفي نفسه غضب حارق، ومد يده وأوقف عيوبه وجره إلى البيت، كان عيوبه يعرج خلفه ويمسح أنفه الغليظ، وعينيه المحمرتين

بكمه الأيمن وهو يردد:

- أنا قاتله، أنا قاتله، والله قاتله.

** ** ** **

9

تتنحح خليفة وهو يجلس على مكان مرتفع بناه خصيصا في الحوش الذي خلا من الماشية، وحين يتنحح خليفة فمعنى ذلك أنه يطلب قهوته، وفي لحظات كانت سرّوله أمامه وفي يدها إبريق صغير وفنجان يتيم فقد عروته، قبلت أباهما على كتفه ثم ملأت الفنجان، وجلست أرضا قائلة:

- هل نمت هنا يا أبي؟

رشف خليفة رشفة أولى وثانية ولم يرد، ولم تكرر هي سؤالها بل أطرقت حزينة، هذا حال أبيها منذ مقتل أمها، هي تعرف أباهما، لا يسكت على ضيم، ولكنه لا يفشي سر ما يخطط له، حين أكمل خليفة قهوته، نهض وخطا خارجا، قالت سرّوله:

- هل تبدأون الحصاد اليوم؟

الحصاد؟! وما الذي يحصدونه؟ وهل ينبت شيء على الأرض البور؟ لقد استحوذ المعمر بارال على كل الأراضي الصالحة للزراعة، وسخر لخدمتها مئات الجزائريين عبيدا لديه، وماتبقى ابتلعه القايد عباس، وعمار شيخ الزاوية، وليس في يد الجزائريين غير سفوح وأراضي بور ابتلعت أعمار أجيال ولم تستقم للزراعة، رفع عينيه الحزنتين في ابنته وقال:

- الأسبوع القادم سنبدأ الحصاد، لا بد أن تُزفي إلى ابن خالتك أولا، حين أطمئن عليك سأفرغ للحصاد.

أطرقت سرّوله برأسها وهي تقف حاملة الإبريق والفنجان وقالت

مطرقة:

- لا أرغب في الزواج... لن أتزوج.

ودون أن تعطي لأبيها فرصة الرد وقد امتلأ حيرة لهذه الجرأة التي لم يألفها منها واصلت:

- لا بد أن أبقى معك... صرت أخاف عليك.

واندفعت في حضنه تنتحب، فضغطها الأب إليه محاولاً أن يطرد عنها كل الهواجس التي تعصف بها، هي تعرف أن أباهاً لن يسكت على مقتل أمها، وهي متأكدة أن أباهاً يسعى لتزويجها أولاً حتى يطمئن عليها ثم يخطط للانتقام، وهل الانتقام سهل من جبار طاغية مثل القايد عباس، يملك القوة من مال ورجال، ويعضده أولاد سيدي بوقبه، ويقف الحاكم الفرنسي إلى جواره؟

طبع خليفة قبلة عميقة على جبين ابنته سرّوله، وهو يقول:

- لا خوف على أبيك.

حمل عصاه التي لا تكاد تفارقه، وخرج تاركاً خلفه زوابع من الحيرة والخوف، تعصف به عواصف جبارة من الأسئلة الكاوية، لِمَ يقسو الزمان عليه كل هذه القسوة؟ ولم يزيد الله في قوة الظالم المستبد؟ ويمنحه كل ما يزيد في طغيانه وجبروته؟ وفي مقابل ذلك لا يزيد المظلوم إلا ضعفاً وهواناً؟

شدد قبضة أصابعه على عصاه، وراح يضرب بها كل ما اعترضه من حجارة وحشائش، لم يكن خليفة يفكر في قتل القايد عباس، هذا أمر قد حسم وانتهى، سيقته لا محالة انتقاماً لدم زوجته الذي أراقه أمام عينيه، وانتقاماً لكل المكتوبين بغطرسته وجبروته، ولكن كيف ينسج الخطة؟ يريد أن يرديه قتيلاً وسط العرش وفي وضوح النهار وبطلقات في بطنه، ولماذا ليس في رأسه حتى يضمن موته؟ لا، لا يريد أن يموت سريعاً، لا بد أن يتلوى أمامه وأن يتألم، لا بد أن يحس بالخناجر تمزق أحشائه، لا بد أن يحس

بالموت لحظة لحظة، لا بد أن يراه ينظر إليه، لا بد أن يعرفه، لا بد أن يتأكد أن قاتله هو خليفة انتقاما لزوجته الطاهرة.

عليك الرحمة يا سيدة النساء..

أيتها النقية الشريفة

عليك الرحمة يا صاحبة القلب الكبير

لعلي قد ظلمتك خلال كل السنوات الجميلة التي قضيناها معا

اطمئني سأغسل كل ذلك حين أنتقم لك

ستلاقيني في عالم الخلد حين أقتل بعنه

ستحضنيني بفرح جامح وباعتزاز وافتخار

لا لن أهرب حين أقتله.. سأقف عند رأسه حتى أشهد أنفاسه تخرج

نفسا نفسا، لا بد أن أراه يتخبط في دمه كالديك المذبوح، قد يقتلني أتباعه،

وربما أولاده أو زوجاته أو عبده حميمه السفاح، أو أي أحد من أتباعه، لا

يهم لأنني سأكون سعيدا منتظرا تلك اللحظة بكل فرح وشوق، أو ربما

يلقى علي القبض، وأسلم إلى عساكر فرنسا، وأقدم للمحاكمة، فأعدم أو

يزج بي في السجن، طبعاً سيحكم علي بالسجن المؤبد مع الأشغال

الشاقة، ليجعلوا مني عبدا لهم، ولا فرق، ففرنسا تتخذ الشعب كله عبيدا،

طبعاً أنا لا أرضى بمحاكمة فرنسا، ليس لأنني لا أعترف بمحاكمها فحسب،

بل لأنني أريد الموت، لا بد أن أرحل عن دنيا الظلم كما رحل والذي

وأخي، لا بد أن ألحق بالرَّبْح، أن أرى الابتسامة على وجهها الأسمر

الصباح، أن أرى فرحتها بزوجها البطل.

وأخرجته من أحلامه سنابك فرس القايد عباس وقد اقتربت منه دون

أن يشعر، تتم في نفسه: يا أيها الخنزير، يا خادم النصارى الكفار، سيكون

موتك على يدي وفي وضح النهار، وفرك يديه ثم شبك أصابعه الغليظة،

وضغط كفيه بقوة كأنما يخنق بهما رقبة القايد عباس الذي وصل إليه:

- صباح الخير.

- صباح الخير.

ردها مبتورة من كلمة سي عباس، شكلها في ذهنه لكن لسانه لم يطاوعه على النطق بها، وأحس بها القايد عباس فكتمها، يعرف أن مقتل زوجته مازال يحز في نفسه، وماعساه يفعل؟ وكيف له أن يجيا دون ظل القايد عباس؟ وهو سيد العرش وفخره، وبه صارت له القوة والمهابة، وتطاول القايد عباس فوق سرج فرسه وقد تغيرت ملامحه، فظهر عليها غضب دفعت به كبرياؤه وغطرسته، وقال:

- أنا ذاهب إلى المدينة، لقد دعاني الحاكم.. الحاكم الفرنسي، تعرف أن الفرنسيين يقدرون الرجال الحقيقيين ويحفظون مكانتهم، سأذهب إليه برفقة شيخ الزاوية، أرجو أن يكلفني الحاكم برأس كل عروش المنطقة خاصة أولاد سيدي بوقبه وأولاد سيدي علي، أريد أن أعقد لواء الإمارة لنا على الجميع، ولا تنس ما أوصيتك به.

حين انطلق القايد عباس مبتعدا غير خليفة طريقه فجأة، بشدة غير اتجاهه من درب الحقول إلى بيت سلافه الرومية، هو على يقين أن بيدها حلا سحريا سينقله من ورطته، بعد يومين سيكون زفاف ابنته، والقايد عباس يلح عليه في دعوة شيخ الزاوية للتبرك به، شيخ الزاوية؟ شيخ الزاوية يمكنه أن يخدع السذج أما خليفة فهيئات، حاشا أجداده الأظهار أصحاب البركات الذين كانوا على مدى الأزمان غوث المنكوبين، حاشا الشيخ بلقاسم وكراماته، والشيخ أحمد وبرهانه، أما الشيخ عمار فشرُّ خلف، لا هم له إلا استعباد الناس وابتزازهم، والاستيلاء على أراضيهم ومواشيهم، بل والتعدي حتى على شرفهم وحرماتهم، بدعم من الحاكم الفرنسي والقايد عباس، ومن قبله أبوه السعيد التعيس الذي كان قائدا جبارا على المنطقة كلها، وانتقم الله منه شر انتقام حين طرحه مريضا، ولم

يمت حتى صار يطلب من الناس الدعاء لتعجيل موته.
ولم يكتف السعيد القايد بزوجاته الكثيرات بل كان يقصد مدينة
سطيف من حين لآخر ويقضي الأيام في مخامرها ومواخيرها، وهناك عرف
سلافه الرومية التي كانت مضرب المثل في الجمال بين العرب والنصارى
المحتلين حتى سماها الناس الرومية، وحين خشي أهله عليه الضياع بعيدا
عن عرشه وبيته جاءوا بها زوجة له ومعها وليد قالوا أنها أحبته منه،
وماكاد يموت السعيد حتى تنمر عباس وأذاقها العلقم.

واختلف الناس في الحكم عليه بين رافض ومؤيد، فسلافه الرومية
مسؤولة عن ضياع أبيه ولا يلام إذا انتقم منها، وسلافه الرومية ضرة قاتلة
لأمه ولكل زوجات السعيد القايد، والحقيقة التي يعرفها قليل من الناس
أن عباس طلبها للفراش حتى في مرض أبيه فتمنعت، وتحول لها شيطاننا
مريدا بعد موته، وحرمها من الميراث هي وابنها يوسف، وأخرجها من
الدارة الكبيرة التي كانت تسكن فيها مع الجميع إلى بيت معزول.

وما عسى سلافه الرومية أن تفعل لهذا المتغطرس الجبار وقد بقيت
غريبة بين هؤلاء الذئاب؟ ضاع منها الشباب والجمال، وغزاها الهم
والفقر، وعرشت حولها الإشاعات التي عرف القايد عباس كيف ينسجها
ويبثها.

وما عسى ابنها الوحيد أن يفعل وقد حفرت الإهانات في قلبه وقلب
أمه أحاديث عميقة لا تمحى بسهولة؟ لقد ظل يجد نفسه غرضا لسهام الهمز
واللمز، وظل يعاني من حصار الوحلة والإقصاء.

وصل خليفة عند الباب الخارجي متأبطا عصاه، وقبل أن يرفع صوته
مناديا خرجت سلافه الرومية، طويلة كصفصافة حزينة، في وجهها الأشقر
مأساة وأثلام جرحت قلبها وجبينها، وقد لفت رأسها بحمرمة شامية حمراء
موردة بالبياض.

- صباح الخير خليفة، سعيد هذا اليوم وقد تذكرتنا.
- صباحك أسعد.

قبلها على هامتها ثم على ظاهر يدها، جلست أمام الباب مسندة ظهرها إلى الجدار الحجري فجلس خليفة بجوارها، سحب كثيفة غشيت وجهها فجأة وتراكت عليه، ودون مقدمات دمعت عينها دموعا صامتة، لزم خليفة الصمت أيضا وهو يضيف أحزانها إلى أحزانه، استنثرت دموعها من منخريها في محرمة[□] كانت تدسها في صدرها وقالت:
- لا يشبع من الدنيا إلا الخثالة.

تنهد خليفة بعمق وقال:

- صحيح، عند الله نتساوى جميعا.

رفعت فيه عينيه المحمرتين المملوءتين دموعا ساخنة:

- فعلا، الله عادل، لكن الله لا يحب الجبناء الذين يستنجدون به دائما ليأخذ بثأرهم.

أحس خليفة بصحة رأبها، بل أحس كأنها تقصده وتهينه، كلماتها خناجر تشك فؤاده، ومرر راحة يسراه على وجهه ضاغطا على أنفه الطويل بسبابته وإبهامه، محدثا صوتا مسموعا ليس بأنفه فحسب، بل حتى باحتكاك يده الحرشاء على وجهه غير الحليق، واعترف في قرارة نفسه برجاحة عقل سلافه الرومية، كيف لا وهي التي تربت في المدينة، وعلمتها الحياة بمرارتها، وعركتها صروف الأيام بقساوتها، رفع في ملامحها عينيه، سلافه الرومية في رأيه لبؤة جريحة، تناوشتها السهام من كل جانب فشكَّت كبد كبريائها وشجاعته، كان أنفها دقيقا شامخ الهامة، وكانت عينها عصفورين في مجحريهما العميقين، ومازال ثغرها يشبه ورد شقائق النعمان في بساتين الربيع، أصابعها البيضاء الطويلة الملساء كسيقان

□- المحرمة: الخمار يوضع على الرأس، وتسمى كذلك لأنها تحرم المرأة فلا يظهر شعرها.

البروق المزهرة، لقد زادت المسألة جمالا، ليست وحدها من نكبتها الدهر، لكن سلافه الرومية لا يمكن أن تسكت عن الضيم، هل يضع يده في يدها لبلوغ الغاية؟ لا أبدا، دم زوجته سيثار له بنفسه دون دعم من أحد، والويل له من نفسه إن سبقته للانتقام، عندئذ عليه أن ينتحر خيرا له، وكسرت صمته فجأة:

- أنا لن أسكت، مازلت لا تعرف سلافه الرومية، سأقلب عرش أولاد النش رأسا على عقب.

ونهض خليفة كأنما أراد أن يعارضها فيما تريد أن تذهب إليه، كأنما أراد أن يقول لها بصوت عال، دمه ملكي، ملكي أنا وحلي، ولن أسمح به لغيري، وتركها ومشى دون كلمة وداع، كانت الأرض تدور به، وكانت زوجته مضرجة بدمها منبطحه على ظهرها مفتوحة العينين والشم والذراعين تلح في الحضور أمام عينيه، يحسها تصرخ فيه بأعلى صوتها، لا تترك دمي هدرا، وضغط على أذنيه بيديه ليخفف الصراخ، وأنى له ذلك، إنه يندفع من أعماقه، ووصله صوت سلافه الرومية من خلفه:

- خليفة.. إياك أن تنسى، ذاكرة الرجال ضعيفة.

انسلت سلافه الرومية كالشبح تدخل بيتها، واستمر هو في السير نحو الغرب، مستعينا بعصاه، يغرزاها بين شقوق الصخور، يصعد سفح الجبل الأسود، هي عادة متجذرة فيه منذ الصغر، حين تسد الدنيا أمام عينيه يلجأ إلى الجبل، يمنحه الحكمة، ويكشف له الحقيقة، يتمدد على صخوره فيحس بالراحة كرضيع ينام هادئا في مهده، ربما يعود ذلك إلى حالة اليتيم التي عانى منها منذ صباه، فهو لا يعرف ملامح والدته تماما، أو ربما لتأثير مارواه الناس عن والده الذي ثار ضد فرنسا مفردا ورفض الانصياع لأوامرها الظلمة، وحين طارده الفرنسيون لجأ إلى الجبل الأسود لا أنيس له إلا بندقيته، ولكنهم قتلوه، قتلوه ذات يوم بارد مثلج، وهو عاجز حتى عن

الحركة، لقد شل البرد والجوع كل أطرافه، كما كان الجبل مكمنا لأخيه الأقل منه سنا حين لجأ إليه أياما وفرنسا تحاول أن تجنده إجباريا في حربها الأولى ضد الألمان، ومنه رحل إلى بريكة وعين توتة ليشارك في انتفاضة الأوراس برفقة سي سليمان بن البغدادي وسي محمود بن بلخير.

** **

10

كانت رائحة المفلوح[□] تغازل الأنوف فتدغدغ البطون الجائعة، وكانت حمامه أمام الموقد وقد غشيها الدخان من كل جانب تقلب قُرص المفلوح الساخنة داخل الطاجن بصعوبة، حتى إذا احمرت كالشهد وضعتها جانبا، ودفعت غيرها إلى حضن الطاجن أيضا، وأقبل الشيخ لِكَحْلٍ من سفح الجبل حيث كان يرعى شويهاته مع ولده، فجلس على مقعد صغير من خشب البلوط دون أن ينس بكلمة، وأسرعت زوجته تحمل إليه شطر مفلوحة وإناء طينيا ملأته لبنا من شكوة مخضت حليبها هذا الصباح، وتناهى إلى سمعه صوت يناديه، قالت زوجته عقيلة:

- أسمعْت؟ صوت غير مألوف.

قالت حمامه، وقد أكملت عملها:

- هذا البُهلي الخضر.

قالت الأم عقيلة:

- صدقت، إنه هو، نفعنا الله ببركته.

وأسرعت تلقاه، عادت به حيث زوجها الذي عجل يستقبله بإكبار وتقدير، قبله على رأسه وهو يقول:

- نفعنا الله ببركتك، اجلس لتأكل معنا.

□ - كسرة توضع فيها الخميرة حتى إذا طلعت وانتفخت أنضجت.

جلس البُهلي خضر متجشئا كما العادة وهو يقول:
- الأرض عطشانه، دمننا يرويها، قلوبنا خربانه غلنا يسقيها، حمامه
حيرانه، للشرق نرميها، للشرق نرميها، سيد القوم يحميها، سيد القوم
يحميها.

ياناس ياناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس، اسمه
بالعين ييدا، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا.
ومد يده بادئا الأكل متناوبا شرب اللبن مع الشيخ كَحَلْ الذي كان
يتروى مفسحا المجال للبهلي خضر، متأملا ملامحه في تقدير وإكبار، متذكرا
كل ما تناقله عنه الناس من كرامات، ثم أشار إلى عقيلة التي وقفت
بالقرب منهما تنتظر الأوامر كي تأتي له بشيء من الزبدة، وماكادت
الرسالة تصلها حتى أسرعت وعادت بالملوب، كان البُهلي خضر قد
أكمل أكل المملوع واللبن فغمس أصابعه في الزبدة وأكل شطرها ثم
نهض وهو يردد متجشئا:

- ياناس ياناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس ، اسمه
بالعين ييدا، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا.
حينما خرج البُهلي خضر يضرب الأرض بعصاه، زرع الشيخ كَحَلْ
عينيه، وماكاد يتأكد من ابتعاده في قنودته[□] البيضاء وعمامته الصفراء،
حتى عاد إلى زوجته، وقد كادت أنفاسه تنقطع، اختلى بها داخل البيت
وقال:

- مارأيك؟

ردت عقيلة مرتجفة:

- كلام هذا البُهلي يخيفني.

احتقن وجه الشيخ لكحل، وقال:

□- العبادة، لها شكل خاص بالمغاربة، تكون بيضاء في العادة.

- أردناه عوننا على عباس الظالم، فإذا به يجعل منه سيد الناس.

- ومن أدراك أنه يقصده؟

سألت زوجته عقيلة فرد:

- ومن غيره يبدأ بالعين ويمكن أن يكون سييدا؟

التحفت الحيرة ملامح عقيلة، كلام البُهلي لخضر لا يمكن أن يُخطئ، هي تذكر ذات يوم حين دخل عرش أولاد النش، وكيف تعرض له السعيد القايد والد القايد عباس بالأذى، وكيف نزع برنسه غاضبا ودسه في ثغر النبع الذي كان يسقي منه الناس وصاح: يا نبع تدفق شهرا ونم دهرا، وغاض الماء إلى غير رجعة، وتسارع الناس يستسمحونه ويغدقون عليه العطايا والهدايا، ولم يرض حتى قَبَّل السعيد القايد يديه وهامته.

قال الشيخ لكحل حائرا:

- فيم تفكرين؟ أشيري علي.

- كأنما يوحى إلينا بوجوب قبول خطبة القايد عباس لحمامه.

قالتها عقيلة بصوت خافت حتى لا تسمع ابنتها، وتكمل الشيخ لكَحَلْ في مكانه كأنما لا تسعه الدنيا، ليس عنده أدنى شك في كرامة البُهلي لخضر، هو ولي من أولياء الله الصالحين، وما يغضبه يغضب الله حتما، ولا ينطق إلا بوحى من الملائكة.

خرج الشيخ لكَحَلْ ووقف مليا أمام البيت يمد بصره إلى بيت بلخير مرة، ويمده مرة أخرى باتجاه أولاد النش، رزق تسعا من البنات خطف الموت منهن ثلاثا، وزوج خمساً، وحمامه آخر العنقود، ولد قبلها الطاهر ذكرا وحيدا، هل ستكون حمامه حصة في حذاء حياته؟

حمامه نسمة آخر العمر..

حمامه شذا آخر الربيع..

حمامه اللحن الذي سيظل يترنم في أعماقه، فيمسح عن القلب كر

السنوات القاحلة، وتكشيرة الأعوام المتوحشة.

هو يعرف حبها للعربي، والعربي شاب يتدفق رجولة وفحولة، وكم يسعد أن يضع حمامته بين يديه، كان يلحم أن ترفرف حمامه بالقرب منه، فينعم بهديلهما وفراخها، لكن هاهي الدنيا تكشر في وجهه، القايد عباس لا يمكن تجاوزه، ولا يمكن تحديه، ما وقف أحد يتحداه إلا سحقه كالخشرة. وماذا يساوي الشيخ لَكْحَلُ أبو البنات، فليأخذ العبرة في بلخير صاحب القوة والجاه وأبو الرجال الأقوياء الأشداء، لكن القايد عباس سحقه كدودة حقيرة، وهاهم أولاده يتجرعون المرارة والحسرة، حقا إنهم يتحينون الفرصة، ولكن هيهات، عليهم أن يطأطئوا رؤوسهم خجلا حتى يثبتوا فحولتهم، وله في الرَّبْح بنت إبراهيم عبرة، الرَّبْح التي لوث يديه بدمها الطاهر البري، الرَّبْح التي أزهق روحها ببرودة دم أمام الجميع دون أن يتفوه أحد بكلمة.

واقشعر بدنه كله، هل أزوج ابنتي لقاتل، لسفاح مجرم؟ سيذيقها ويذيقنا المر، لن أقدم ابنتي لوحش ظالم، ولو قامت علي القيامة، سأتحداه سأصرخ في وجهه لن أزوجك ابنتي، وليقتلني إن شاء، وماذا أفعل أنا بحياة أعيشها ذليلا متحسرا لضياح حمامتي، وكلام البُهلي خضر أليس من الغيب؟ ما أحقني! كان علي أن أسأله عن سيد القوم الذي ذكره في كلامه، وهل يفسر كلامه؟ إن كلامه رباني، يأتيه من الغيب، تكفيه الإشارة وعلى الناس أن يفهموا.

وقرر الشيخ لَكْحَلُ أن يقصد سي الطالب فيستشيره في الأمر، هو عالم يحفظ القرآن، ويعرف شرع الله، لا بد أن عنده حكمة، لا بد أن يدلني على الطريق السوي، اندفع الشيخ لَكْحَلُ ينحدر في الوادي الصغير الذي يمر أمام بيته ويقسم القرية قسمين، ثم ينحرف شمالا وينزل في منحدر يمتد طويلا حتى يكاد يبلغ سفح الجبل، فوق ربوة صغيرة كان يقوم بيت سي

الطالب، وبجواره الجامع الذي لم يبن للصلاة، وإنما لتعليم القرآن. في هذا الوقت كان نقيب حمامه يكاد يصير عويلا، وكانت أمها التي كشفت لها حيرة والدها تحاول أن تزم فمها فتمنعها عن الإفصاح بصوت عال عن موقفها من البُهلي خضر أو المرابط كما يسميه الناس أيضا، لقد تحول في لحظة عندها إلى مجرد دجال وكذاب بل ومجنون، بعد أن كانت مكانته في نفسها من مكانة الملائكة والأنبياء، قالت أمها مترجية:

- أرجوك بنيتي، احذري أن يسخط الله عليك، البُهلي من أولياء الله الصالحين.

وكتمت حمامه صراخها، لكن نحيبها استمر يرتفع مرة وينخفض أخرى، وحين بدأ يخفت غطست رأسها في ركبتيها وغطته بذراعيها، كأنما تهرب من كل الوجود.

وصل الشيخ لكَحَلْ إلى الكتاب، ومد رقبته داخله وقد لفه الصمت، تابع ألواحاً تتوسد جدرانه الأربعة، وحين أحس بسي الطالب ينام على فراش الحلفاء، ألقى السلام فرد سي الطالب، واعتدل في جلسته، قائلاً:

- عمي لكحل، مرحبا تفضل، سرّحت الأولاد ونمت، ضجيجهم أتعبني.

خلع الشيخ لكَحَلْ حذاءه ودخل بوقار فتلقاها سي الطالب مصافحا وجلسا معا، تأمل سي الطالب ملامح الشيخ طويلا ثم قال:

- حالتك لا تعجبني، خيرا إن شاء الله؟
اعتدل الشيخ لكَحَلْ في جلسته، وطأ رأسه مليا، ثم قال:
- من أين أبدأ الحكاية ياسي الطالب، كأن ليس للعالم من هدف سواي، أنت....

وهم سي الطالب بالوقوف مقاطعا الشيخ قائلاً:

- دعني آتيك بالقهوة أولا، ثم نتكلم على مهل.

لكن الشيخ لَكَحَلْ أعاده حيث كان، وراح يسرد عليه الحكاية من أولها، كاشفا عن غطرسة القايد عباس، وعن الكلمات التي ردها البُهلي لحضر هذا الصباح والتي قلبت كل حساباته، يمكنه أن يتحدى القايد عباس، فيقتل أو يُقتل، ولا معنى لذلك لأن نهاية الحياة موت، وما أحلى موت الشرف، لكنه لا يملك استعدادا أبدا لمواجهة ولي من أولياء الله الصالحين. استمع سي الطالب إلى حديثه بامعان شديد دون أن يعلق، كان يفكر هو أيضا في حمامه، ويحلم أن يضمها إلى بيت الزوجية، أو أن يختلي بها لحظات في هذا الجامع ليقطف منها باقات من اللذة، قال وهو يدس أصابعه تحت عمامته، ويحك شعر رأسه الحليق:

- فعلا لله أولياء، على الناس أن يرفعوا من شأنهم، خاصة الذين يحفظون كلام الله، ويلقنونه للناس، وحافظ القرآن يشفع غدا يوم القيامة في أربعين من أقربائه، ومنهم زوجته وأهلها.

وأحس الشيخ لَكَحَلْ أنه يتكلم عن نفسه، وأحس كأن في كلامه تلميحا لطلب يد حمامه أيضا، فأحس بالقلق الشديد، مابل هؤلاء الناس؟ كل يسعى وراء شهواته وملذاته، حتى الذين يفترض فيهم الطهر والاستقامة، ولم يعلق الشيخ لَكَحَلْ بشيء، بل نهض متحاملا على همه، لا بد أن يستشير الزيتوني، هذا الأمر لا يعنيه وحده، بل يعني كل أولاد بلخير، الزيتوني والعربي وسالم، لا بد أن يشدوا إزره، وأن يحمو ظهره، بل يعني عرش أولاد سيدي علي جميعا.

كانت حمامه ملفوفة في حزنها تنفخ الصوف وتعددها للغسل، لم تمض إلا أيام قلائل على جزها، ولا بد من غسلها وتنقيتها، وكانت أمها تعد قسعة الحديد والماء وجذور نبات "التيشخشخ" [□] التي تستعمل صابونا لتنظيف الغسيل، لكن قلقا ظاهرا كان يعدو على صفحة وجهها، أمعن

□ - نبات تجتث جذوره، تجفف، وتفتت، وتستعمل صابونا للغسل.

فيه غضب حمامه وقلقها الظاهر، وليس أحب إلى قلبها من حمامه، تحسها
دوما طفلة صغيرة، تسعى دوما أن تضمها إلى حضنها، وأن تنيمها معها
وتهددها، وأن ترضيها أيضا ولو كانت على خطأ، وكم كانت تحلم أن
تزوجها قريبا منها لترأها صباح مساء، وتشنف سمعها بصوتها الملائكي،
وماعساها تفعل والأقدار ترسم طريقا آخر؟ وأنى لها أن تعارض الأقدار
التي نطقت على لسان البُهلي لخصر؟ ومن يضمن لها أن شيئا لن يقع
لابنتها إن هي عارضت المقادير؟

قالت الأم بصوت خافت كأنما تخشى أن تفرع نائما:
- حمامه...

ولزمت حمامه الصمت، مثبتة عينيها في كومة الصوف التي راحت
تطط أجزاءها، وأعدت الأم النداء:
- حمامه...

فلما لم تتلق منها ردا واصلت كلامها:
- نحن في الحية لا نملك أمرنا لأننا بيد المقادير، وليس لنا أن نجزع،
وزواجك يابنتي قضاء وقدر، وإذا أراد الله أن تكوني لغير العربي فلا
راد لذلك.

رمت حمامه الصوف من بين أصابعها النحيفة، واندفعت مبتعدة فارة
من هذا الكلام الجراح، وفي نفسها حيرة كبيرة، هل فعلا أحرم من
العربي؟ وأتزوج من القايد عباس؟ هل ذلك فعلا قضاء وقدر؟ ولماذا
تعاكسنا الأقدار دوما وتقف في طريق أحلامنا الجميلة؟ وأين العربي الذي
شاع حبه لي في كل مكان وتغنى به وترنم؟ لماذا لم يحرك ساكنا؟ هل يخاف
من القايد عباس؟ الحب كالشرف يحمى بالدم، وتبا لرجل لا يدافع عن
حبه.

** ** * **

عاد القايد عباس من رحلته مترعا بالفرح، ما أجمل هذه الحياة التي ترخي زمامها دائما أمامه، لقد زار هذا اليوم مع شيخ الزاوية الحاكم الفرنسي في المدينة، وقد استقبلهم بكثير من التقدير، وأولم لهم مع جمع من العرب والفرنسيين واليهود، وقام على خدمتهم حشم منضبطين كأنهم جلبوا من جنة الخلد، قال لهم الحاكم الفرنسي: الأمة الفرنسية أمة عظيمة، وأرضها لا تغرب عنها الشمس، وستجازي خيرا كل من يقف معها ويخلص في خدمتها، وضرب مثلا بالقايد عباس في إخلاصه وتفانيه، ووعد برفع مرتبته وتقديم الدعم له، وماذا يمكن لهم أن يضيفوا إليه؟ هو لا يحتاج إلا أن يكون مسؤولا عن باقي العروش أيضا، خاصة أولاد سيدي علي، ليقمع عنفوانهم الزائد، ويقمع كل رغبة عندهم في الثورة والتمرد والانتقام.

ورغم أن الأمور تبدو هادئة، إلا أن القايد عباس يعرف أن القلوب تضممر له حقدًا، ويعرف أن أولاد سيدي علي جميعا يصوبون إليه أصابع الاتهام في مقتل سيدهم بلخير، وسيزداد حقدهم وهم يرونه يتزوج حمامه غضبا عنهم، لقد اقترب من تحقيق حلمه، إن هي إلا أسابيع ويتوج سيدي عليهم، لقد عرف في لقائه الأخير بالحاكم كيف يزرع في نفسه الخوف من أولاد سيدي علي.

وبلغ البيت فتلقاه أولاده وبعض خدمه، حين كانوا يأخذون الجواد إلى الإسطبل كان هو يتجه إلى غرفته، جاءته الصغرى، أعانته على نزع ثيابه وقدمت له الماء فغسل وجهه ويديه، وماكاد حتى قدمت له القهوة ساخنة راح يرتشفها بتلذذ كبير، منتشيا بما حققه من انتصار، حالما بما سيأتي. ماكاد ظهره يستوي على فراشه الوثير ذي الزرابي والنمارق حتى دق

عليه حَمِيدَه الباب، لقد جاء في الوقت المناسب، كم يجد القايد عباس لذته وهو يحكي مغامراته على مسمع ذراعه العسكري حَمِيدَه، الذي لا يعلق بكلمة واحدة، وإنما يكتفي برفع رأسه متعجبا، ملاً له فنجان قهوة، عمد أن يرفع فيها الإبريق إلى الأعلى حتى يسمع صوت انصبابها، وحتى تشكل فقائيع على السطح، وهو يقول معلقاً على تلك الفقائيع بتفاؤل:

- كل هذا يحميده مال يجئُه لك المستقبل.

ثم اندفع يحدثه، كلمه في البداية عن وصول دعوة الحاكم إليه، وكيف ابتلع سرها فلم يخبر به أحداً تجنبا لحسد الحساد، وكيف نسق الأمر مع صديقه الشيخ عمار، وكيف وصلا فارسين متميزين إلى مقر الحاكم، حيث وصل أيضا العشرات من القياد ومشايخ الزوايا، وكيف احتفى به الحاكم فأجلسه في مكان متقدم، وفضله على الجميع، ضاربا به المثال في كل مرة.

وضرب على كتف حَمِيدَه وهو يقول:

- ستبتسم لنا الدنيا أكثر، لن أنسى خيرك أبدا.

انتشى حَمِيدَه من مديح سيده، فاعتدل في جلسته وقال:

- منك الأمر ومني الطاعة.

صمت القايد عباس وقد ضغط على شفته السفلى بإصبعي يمينه، ثم قبض أصابعه ووضع لقمته مخفيا أنفه وفمه، لاحظ حَمِيدَه تغير ملامحه، وصمته غير المبرر فجاراه صامتا لحظات، ثم قال:

- ما لانتشائك يتحول حزنا وصمتا؟

رد القايد عباس وهو يعبث بغطاء الإبريق:

- لاشيء يشغل بالي الآن وقد حققت كل أمنياتي إلا أن أتزوج حمامه.
رد حَمِيدَه وعلى شفثيه ابتسامة خفيفة:

- لاشيء يعز عليك، كلنا طوع أمرك، إما أن تخلق إليك بإرادتها وإرادة أهلها، أو أتيناك بها عنوة، وإن شئت جئناك بسرب من الحمام.

قال القايد عباس وقد ظهر البشر على محياه:

- جوزيت حَمِيهَ أخي، لكني مازلت أتحوف من أولاد سيدي علي، بلغني أن العربي المقرون شديد التعلق بها، ويصر على اصطياها.
- إن شئت اصطدته، لا صعب على حَمِيهَ، ببساطة يمكن أن ألحقه بأبيه.

لقد بلغ القايد عباس غرضه، كان ينتظر هذا الاستعداد من حَمِيهَ، في أولاد سيدي علي رؤوس صلبة لا بد من سحقها، هي هكذا الدنيا لا تنقاد إلا للأقوياء، ولا رحمة في قلوب الأقوياء، فليمت العربي وأخوه الزيتوني وأخوهما سالم، وكل من يجروء على أن يتحدى القايد عباس، آخر هذا الأسبوع سيكون زفاف سرَّو له بنت خليفه، وهكذا سيستغل المناسبة لخطبة حمامه رسميا، وسيلزم أباهما قبول ذلك، وسيزفها إليه في الغد، سيجرع بها عرشها كؤوس الأسي والحسرة.

عند العشية خرج القايد عباس متخففا من لباسه الرسمي، لا يلبس سوى قندورته البيضاء ونعله المغربي الأبيض، وقد تخلص من عمامته فظهرت صلعته براقه، اندفع ينحدر وسط القرية، لحق به بعض خدمه فنهرهم ليلزموا أماكنهم، كان يقبض بيمنه زنده الأيسر خلف ظهره، وبين أصابعه يتدحرج خيزرانه المطرز، لم يكن يبالي بكل الذين تجمعوا هنا وهناك صغارا وكبارا، ولم يكن يفوتهم أن يجيئوه جلوسا أو قياما، فرادى أو جماعات، يرد على بعضهم، ويتجاهل بعضهم الآخر، لكنهم جميعا كانوا لا يتورعون عن التعليق عليه، على لباسه أو شكله أو حركاته أو عليها جميعا، وربما تحدثوا عن ماضيه، أو عن نواياه في المستقبل.

حين وصل بيت خليفه لحتته سرَّو له من بعيد فأسرعت تدخل البيت، لحها متسللة فردد في نفسه: كلبه بنت الكلبة، أنت طعمي سأنتخلص منك أولا، وسأصطاد بك حمامه ثانيا، ولم لا...؟

برقت في ذهنه فجأة فكرة المقايضة، فليقايض حمامه بسروله، يسلمونه حمامته وليأخذوا سرولتهم، ثم أسرع يستبعد الفكرة. حين وصل أمام الباب راح يلق قطعه الخشبية المتلاحمة بقدرة سيور مختلفة، وماكاد حتى خرج خليفة محاولا إخفاء حنقه وغضبه، مبديا ترحيبا، داعيا القايد إلى الدخول، ولم يرد عليه بل راح يجره مبتعدا عن البيت أمتارا ثم توقف، قائلا:

- إذن سيكون عرس ابنتك آخر هذا الأسبوع؟

وقبل أن يرد خليفة واصل القايد عباس:

- سأكون حاضرا، أنا سيد العرش وإلي تعود الكلمة الأخيرة، وإياك أن تتصرف من دوني، أعرف أن رأسك ناشف كرأس أبيك، وأنت تعرف ما حصل لأبيك.

واستدار القايد عباس عائدا دون أن ينتظر ردا من خليفة، ودون أن يبالي بالحنق الذي غير ملامح وجهه، وقفز إلى ذهن خليفة ماقالته له سلافه الرومية ذات يوم: فعلا الله عادل، لكن الله لا يحب الجبناء الذين يستنجدون به دائما ليأخذ بثأرهم.

وحين هم بالتحرك، باغتته سرّوله، التي كانت تتابع من فوق الحوش حركات أبيها والقايد عباس دون أن يصل أذنيها شيء، قالت سرّوله وهي تفيض حقدا وغضبا:

- ماذا يريد هذا الخنزير؟ كم دعوت الله أن يعصف به! لكن الله لم يستجب لي.

وقفز مرة أخرى إلى ذهنه ماقالته سلافه الرومية، صدقت إن الدعاء سلاح الضعفاء، وغير خليفة مجرى الحديث، طابعا على جبين ابنته قبلة:

- سأعود بسلافه الرومية، لا بد أن تشير عليك فيما لا تعرفين، إنها امرأة حكيمة.

وقرأ في عيني ابنته شكوكا في علاقته بسلافه الرومية، من حقها ذلك
لقد صارت محل اهتمامه في المدة الأخيرة، ولم يفتن إلى نفسه حين رفع
صوته وهو يندفع في طريقه إلى بيت سلافه قائلا:

- هي أشرف منا جميعا.

في طريقه التقى البُهلي لخضر، ولم يبال أحدهما بالآخر، غير أن لازمتها
التي ظل يرددها وصلت مسمعه جيدا:

- الظالم يطغى ويزيد، ضربة الله تضرب مرة لا تعيد، الأرض عطشانها،
دمنا يرويها، قلوبنا خربانه غلنا يسقيها.

ياناس ياناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس، اسمه بالعين
يبدأ، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا.

وشغلته فراح يبحث لها عن تأويل مناسب، دون أن يتوقف عن لعن
البُهلي لخضر إن كان يقصد بكلامه القايد عباس القدر، أما البُهلي لخضر
فقد استمر يقطع القرية غير مبال بأحد، لا يكف عن التجشؤ وترديد
لازمته كأنها ذكر حكيم إلى أن بلغ بيت القايد عباس.

كان قطيع الأغنام والأبقار قد عاد من المرعى، وكان الرعاة يجهدون
أنفسهم في إدخالها إلى الزرائب، وكان القايد عباس يجلس تحت أشجار
الزيتون الكثيفة المحيطة ببيته، يفترش زرابي ووسائد مزخرفة، ينش عنه
الذباب والناموس بمروحة صنعت خصيصا لذلك، وقريبا منه يقف خادم
في مستقبل العمر ينتظر أوامر سيده، وتناهى إلى سمع القايد عباس لازمة
البُهلي لخضر فهب يستقبله وعلى ملامحه فرح غامر، هو يعلم أن كلاما
كهذا يفعل في الناس فعل السحر، ورجلا كهذا يملك تأثير جيش كامل.

ودعا القايد عباس للبُهلي لخضر بالعشاء فهب الخادم ملبيا، بدأ ظلام
شاحب يغشى الكون، وخفافيش تتراقص في الجو على إيقاع موسيقى
الحشرات التي اندفعت فجأة ودون مقدمات، ومن بعيد أقبل حميدَه يشد

بقبضته القوية على بندقيته فانضم إلى المجلس، وبعيدا كان خليفة ينصت جيدا لسلافه الرومية التي أقسم لها أن لا تبرح إلى بيتها حتى تتعشى في بيته.

** ** * * *

12

حين فتح الفجر جفونه المثقلة بالنعاس تلقته زكية بنت البغدادي بشوق عارم، ظلت الليلة كلها ترقب هذه اللحظة، وقد أعدت لها عدتها، بسطت ورقة كاغظ صفراء وراحت تخط عليها بقلم يراع، تغمس لسانه الحاد كل مرة في دواة أخيها الذي يدرس بالكتاب، وماكادت تنهي ذلك حتى طوته في قطعة قماش بيضاء، وراحت توظف أخاها ذي الثماني سنوات، وتعيد عليه وصيتها التي لقنتها له مرارا منذ أربعة أيام.

الرسالة كلمات حب وشوق رفعتها إلى فارس أحلامها سالم، ومعها هدية من حلوى وبيض مسلوقة أخذته منذ أسبوع إلى سي الطالب، فقرا عليه من طلاسيمه لتوقع سالم في حبها، أعادت وصيتها لآخر مرة، وهي تمد بصرها إلى حيث اعتاد سالم أن يمر، حتى إذا رأته من بعيد أرسلت أخاها فانطلق يعدو ككلب صيد، وماكاد يصل حتى دس ما حمل في يد سالم وعاد عدوا، وقف سالم لحظات وعلى محياه ابتسامة، مرددا: - كم أحبك زكية! فتح الكاغظ وقرأ كلمات طالما كتبتها له، ثم فتح الصرة الأخرى وجلس على الأرض، قشر البيضات الثلاثة وازدردتها متعمدا أن تراه من بعيد يفعل، وهو على يقين أن سي الطالب قد قرأ عليها مقابل بيضات أخرى، وربما مقابل دجاجة أو ديك لتربط قلب سالم إليها.

وهو في الحقيقة يحبها ويتمناها زوجة دون أن تتعب نفسها وتضحى بأعلى ما تملك، لكن الأقدار تريد مالا نريد، والمكتوب على الجبين لا

تحوه الأيدي مهما بلغت سطوتها، إيه زكية سيظل قلبي يخفق بحبك ويهفو إلى لقاءك ويتمنى أن يضمك إليه حليلة، وراح يتذكر اللحظات الجميلة التي كان يسرقها معها خلسة هنا وهناك، بعيدا عن أعين رجال العرش ونسائه، ورغم أن قصة حبهما لم تعد خافية على أحد فقد تداولتها الألسنة بمناسبة وغير مناسبة، إلا أن لا أحد انتبه لما يسترقان.

وهاهو أخوه الزيتوني يتدخل في أمره، ويفرض عليه الزواج من ابنة خالته متذعرا بأن أمه أوصته بذلك قبل وفاتها، هل فعلا أوصته أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد كيد كادته العَلَجَة بنت المَكِّي لعداوة بينها وبين أم زكية، ثم أقفعت به زوجها ففرضه عليه فرضا؟ ربما، النساء بقرات إبليس، ويمكن لمن أن يفعلن كل شيء، والرجل أمامهن ينقاد كالشاة.

لا حرج سيتزوج سرَّو له ابنة خالته الريح، وسواء أكان الأمر مكيدة من العَلَجَة بنت المَكِّي وأخيه الزيتوني، أم كانت تطبيقا لوصية أمه رحمة الله عليها، اليقين الذي يحمله في نفسه أنه سيتزوج زكية بنت البغدادي مهما كلفه ذلك من ثمن، ونهض من مكانه وقد تعالي صوت صفير الرعاة وصداه يتردد في فجاج الجبال، واستمر في طريقه موليا وجهه شطر اليمين ملاحظا حركات زكية الحذرة أمام البيت.

وفي طريقه التقى الشيخ لَكْحَلُ الذي اكتفى بتوجيه تحية الصباح، واكتفى سالم بالرد عليها لا غير، وفي الوقت الذي كان سالم ينحدر إلى الحقول، كان الشيخ لَكْحَلُ يحث الخطى ليلقى الزيتوني، عرس سالم على الأبواب، ومصيبة القايد عباس لاشك قادمة ولن يتحمل الوزر وحده. كان الزيتوني يقف على فوهة المظمور[□] الكبيرة التي فتحها لتوه، ألقى

□- جب صغير يصنعه الفلاحون قريبا من بيوتهم، مدخله صغير وبطنه كبير، يخزنون فيه القمح الفائض عن الحاجة، حتى إذا نفذ ما احتفظوا به في البيت، لجأوا إلى بطن الأرض فاستخرجوا ما ادخروه، لكنهم لا يلجون المظمور حين فتحها مباشرة خشية الاختناق.

الشيخ لَكْحَلُ التحية:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، مرحبا الشيخ لكحل.

رد الزيتوني واستند على الأرض بكفيه ومد رقبته ينظر داخل

المطمور، وسرعان ما جذب رأسه متقرزا.

- لن ندخلها حتى الغد.

- يجب أن تتنفس أولا.

صمت لحظة متأملا بجزن ثم واصل:

- ولكن لا نفر من قبورنا يا أخي الزيتوني.

جلسا معا على مرتفع من الأرض قريبا من المطمور، قال الزيتوني:

- كان المحصول في العام الماضي ويرا، فادخرناه لوقت الحاجة، هذا

العام قد لا نعطي العشور[□]، حق الله في القمح والشعير.

علق الشيخ لَكْحَلُ سريعا:

- يعطينا الله حسب أفعالنا.

- لو نظر الله إلى أفعالنا لمنع عنا الهواء والماء.

ووصلتهما القهوة، ومعها ماء بارد من القربة، ملاً الزيتوني فنجانا

للشيخ لَكْحَلُ وهو يقول:

- مكتوب أحد لا ينزعه منه أحد، اشرب يا الشيخ لَكْحَلُ الخالق لا

يضيع خلقه، في الغد حين نخرج القمح من المطمور، سأرسل لك كمية

من المشروب[□] لك وللأولاد..

رشف الشيخ لكحل، وقال:

- عرس سالم هذا الأسبوع.

□- هو عُشر المحصول يخرج زكاة لمستحقه.

□- القمح المخزون تحت الأرض، يشرب الماء فيتغير لونه وطعمه، يستخرج ويؤكل كما هو.

- إن شاء الله، زواجه حمل على ظهري وأمانة في عنقي.
رد الشيخ لكحل وهو يرسم ثلما على وجه الأرض بعود صغير:
- إيه يا الزيتوني أنت تلقي حملا وأنا أتحمل آخر، أمر حمامه يزعجني
ولا أقدر وحدي على رد الظالم، لقد نصبته فرنسا قائدا علينا أيضا.
لزم الزيتوني الصمت، فعلا ما يسعى إليه القايد عباس لا يقبله أحد،
وعلى الجميع أن يتصدى له، لكن كيف؟ لقد فكر في حل للمشكلة الأيام
والليالي دون جدوى، سيزوج أخاه سالم من ابنة خالته الرِّيح ليريح أباه
وأمه في قبريهما، ثم سيتصدى لهذا المتعجرف.
كان الشيخ لكحل قد أكمل قهوته كأنما شربها على مضض وقال:
- ما ترى؟

وحين لم يجد الزيتوني جوابا مقنعا يرد به قال:
- لا إله إلا الله محمد رسول الله، خير القول ثبات العقول.
قال الشيخ لكحل، وهو يقوم:
- حمامه ليست ابنتي وحدي، هي أيضا بنت العرش، لا بد أن يجتمع
الكبار، وأنت من يجمعهم لنخرج برأي واحد.
ومضى مبتعدا، مسرع الخطوات على غير عاداته.
حمد الزيتوني في مكانه لا يبرحه، لقد خطط طويلا لمقتل القايد عباس،
الذي يظهر أنه يستعجله في الموت، وهذه فرصة مناسبة ليفرغ في صدره
الحقود رطلا من البارود، إنه يحمل أمانة دم أبيه ودم خالته ودم كل الأبرياء
الذين ظلمهم وتعلى عليهم، منذ ملة وهو يخطط ويرصد ويتابع و ينتظر
الوقت المناسب لينقض على الوحش فيقتله، دون أن يتعرض هو ولا قومه
لأذى، لكن طمعه في حمامه أفسد عليه كل شيء، ولماذا يريد القايد عباس
أن يتزوج حمامه سوى نكاية في العرش كله، وإمعانا في إذلاله، لعله
سيقتلها أيضا بعد أن يفض بكارتها، أو ربما يطلقها، ويمكن أن يبقيها

عنده ذليلة مهانة، وإذ ذاك سيتجرع الجميع مرارة الإذلال.
 وخطر بباله أن يشكوه للحاكم الفرنسي، أو على الأقل لشيخ الزاوية،
 ثم صرف تفكيره عن ذلك، كلهم بذرة واحدة، الحاكم الفرنسي سيقف
 مع القايد عباس لأنه خادمهم الوفي، وسيفهم المسلط على الرقاب،
 والشيخ عمار لا يضع يده في يد تقف في وجه حليفه القايد عباس، فعلا لا
 بد أن يجمع كبار العرش عنده في أقرب وقت ويعرض عليهم الأمر، لا بد
 من حل للمشكلة، لن يتزوج القايد عباس حمامه إلا على جثثهم.
 ** ** ** **

13

مد العربي يده على جبينه ليحمي عينيه من الشمس، ومد بصره
 بعيدا، انتبه الطاهر إليه وقد كان قريبا منه، فمد بصره أيضا حيث اتجه
 العربي وسأل:

- شغلك الداخولون قريتنا؟

رد العربي دون أن يبعد يله ودون أن يحول بصره:

- هل رأيتهم؟ رجلان وحمار، إنهما يتجهان نحو القرية.

لم تعد تفوت العربي أية حركة، يراقب كل داخل للقرية وكل خارج
 منها، غفلتهم كلفتهم مقتل والده، لن يسمح مرة ثانية بأخطاء أخرى،
 أعداؤهم أولاد النش لا يؤمنون، ولعلمهم يحضرون لمكيدة أخرى أيضا،
 اليقظة وحدها ستحبط كل مكائدهم، وحين لاحظ الراجلين ينحرفان
 باتجاه الجامع تأكد لديه أن مريضا يحمل للعلاج هناك، أو ربما عابرا سبيل
 سيخترقان الجبل بعيدا عن القرية.

انصرف الطاهر بن الشيخ لكَحَلْ إلى مراقبة الأغنام، وعاد العربي
 يدغدغ قصبته بأنامله وشفتيه الرقيقتين، فُتُوِّبَ معه الجبال، ويرقص قلب

حمامه فرحا وانشرحا كمهرة يغريها عقب الربيع وشذاه، وهو يهديها باقات
من ألحانه العذبة، وشفقتها تدندان همسا.

عَنْدِي حَمَامَةٌ تُرَنُّ فِي بُرْجٍ عَالِي
حَرَقْتُ قَلْبِي وَشَغَلْتُ لِي بِأَلِي
صَوْتُهَا لِحْنٌ مُشَكَّلٌ لَأَلِي يَا لَأَلِي
مَشِيَّتُهَا حَجَلُهُ تَثِيرُ دَلَالِي
وَقَلْبُهَا بَاهِي وَحَلُّو كَعَنْقُودُ الدَّوَالِي
عَيْنُهَا سَوْدَةٌ مَذْبَالَةٌ غَيْرَتْ أَحْوَالِي
وَسُنَّهَا جَوْهَرٌ مَرْتَّبٌ يَلْمَعُ وَلَأَلِي
نَبْكَي وَنُوحٌ وَنَشْكَي لِلرَّبِّ الْعَالِي
يَا رَبِّي دَاوِي لَجْرَاحٍ وَاكْشَفْ أَهْوَالِي

وصل القادمون إلى الكتاب، كانوا ثلاثة، رجلا ن يمشان وثالث على
همار أشهب، أحس سي الطالب بجرعة خارج الكتاب فخرج، أسرع
الرجلان إلى إنزال الراكب وأذخلاه بإرشاد سي الطالب ووضعاه عمدا
على فراش الحلفاء وهو يرتعد، أسرع سي الطالب بإخراج التلاميذ.

- انتهت الحصّة، انصرفوا بارك الله فيكم، عندي مريض.

ولم ينتظر التلاميذ شرحه ولا تبريره، فاندفعوا ذكورا وإنانا يرمون
ألواحهم ويخرجون كقطيع الخرفان، وعند الباب اشتد صخبهم وهم
يتدافعون، ثم ينطلقون حفاة غير مبالين بأسنان الحصا تقرض أقدامهم
الصغيرة.

عاد سي الطالب إلى المريض الذي وجده يجلس صحيحا معافى، فأسرع
يقول:

- الحمد لله، لقد فر الجن، بمجرد أن يراني يفر.

قال أحد الرجلين وقد جحظت عيناه، مشهرا في وجه سي الطالب

خنجرًا كبيرًا:

- أنا هو الجان الأكبر، وهذان أخوائي.
- وضحكوا جميعًا، بدا الهلع على وجه سي الطالب وراح يبسمل ويحوقل، ويتلع ريقه بصعوبة، قال الثاني:
- معنا لا ينفع شيء، لا بسملة ولا حوقلة.
- سأل سي الطالب وهو يتقهقر إلى الجدار، ماذا بصره إلى الباب عله يجد فرصة للهروب، وفي نفسه حيرة، أهؤلاء إنس أم جن؟
- سأل المتمارض عابثًا بلامح وجهه وصوته:
- أتدري لم قصدناك؟
- خيرا، لا والله، أنا في الخدمة.
- أجاب سي الطالب، وقد سقطت العمامة من فوق رأسه، وانزلق الفراش من تحت رجله، وأحس بقطرات بول تتدرج على فخذه، قال الثاني:

- عندنا طلب لديك، يجب أن تنفذه بأس...

قاطعته سي الطالب:

- أمركم مجاب، أنا تحت تصرفكم، أن..
- جحظت عينا الثاني غضبا ورد مهددا مشهرا خنجره:
- لا تقاطعني وإلا قطعت وريدك، تعرف القايد عباس؟
- ولم يرد سي الطالب إلا بتحريك رأسه إيجابا، فواصل الثاني كلامه:
- أرسلنا إليك، يريدك أن تكون عينه على كل تحركات أولاد سيدي علي.
- أكمل المتمارض مقتربا من سي الطالب، يحد خنجره على راحة يده.
- إن قمت بالواجب فجزاؤك كبير، وإن رفضت، فسأدبحك بخنجري هذا.

وخرجوا، بقي سي الطالب في مكانه لا يقدر على النهوض، أية مصيبة نزلت عليه؟ وما دخله هو في هذا الصراع المشؤوم، لا هو من أولاد النش ولا هو من أولاد سيدهم علي فليذهبوا جميعا إلى الجحيم، لا دجاجة ولا ديك له في هذا الصراع.

وترك جسده يتهاوى على الأرض، وماكاد حتى عاد أحدهم يطل عليه قائلاً:

- سنعود إليك قريباً.

وفزع سي الطالب فاعتدل في جلسته مرتعداً، وأطل المتمارض أيضاً ماذا رقبته داخل الجامع وقد نزع الخمار الذي كان يشد به رأسه.

- أحذرك أن تشي بنا، أو أن تهرب.

وانكمش سي الطالب مرة ثانية في مكانه، كأنما قرأ اللعين ما في ذهنه، فعلاً كان يفكر في الهروب، يأخذ زوجه وأولاده ويتسلل ليلاً عائداً إلى أهله، هو أيضاً له عرش يحميه ويدافع عنه، وماكاد يكمل تفكيره حتى ارتعد، وهل يستطيع الهروب؟ ويد القايد عباس المدعومة من فرنسا تمتد لكل أحد ولكل عرش.

حين كان الثلاثة يبتعدون عائدين إلى أولاد النش، سالكين طريقاً مغايراً قصد التمويه، تمدد سي الطالب لاهثاً، وقد وضع يده على صدره يعدد دقات قلبه المرعوب، وفلجأه العربي داخلاً فنهض سي الطالب يجلس معتدلاً معتقداً أنهم رجعوا إليه، قال العربي متسائلاً في حيرة:

- خيراً سي الطالب، مالي أراك ترتعد؟ هل سكنك الجن؟

وسهّل عليه العربي الجواب فاندفع يقول محاولاً تمالك نفسه وإخفاء رعبه:

- جاءني رجلان بثالث سكنه الجن، والظاهر أنني عالجته ومرضت أنا، لم أر في حياتي أسوأ من هذا الجن.

قال العربي في نفسه: والله أنت أكبر جان، ولام سي الطالب نفسه قائلا: أليس من الصواب أن أخبره بالحقيقة، هؤلاء أهلي أيضا، وقد أكلت خيراتهم وصرت واحدا منهم، وليس من اللائق خيانتهم.

وتذكر الخناجر تلمع في يد الزوار الثلاثة فلزم الصمت وتمدد في مكانه، همَّ العربي أن يسأله عن العرش الذي وفد منه المريض ومرافقه، ثم عدل عن ذلك إشفاقا على سي الطالب، وراح يعود أدراجه إلى البيت.

** ** * * * **

14

داهم القايد عباس ورجاله القرية وقد غشي الليل الكون كله، أحاط رجاله بيت الشيخ لكحل، دلف القايد عباس وحميده بفرسيهما البيت دون مراعاة لحرمته، خرج الشيخ لَكُحَلْ وكل جزء من جسده يرتعش قلقا وحنقا، صرخ في وجه القايد عباس: عباس للبيت حرمة، وقد دنستها، اخرج عليك اللعنة، وهم يلوح في وجهه بعصاه، قهقه القايد عباس بغطرسته المعهودة وقال: أريد حمامه، لن أبرح إلا وهي معي، لقد خطبتها منك وقبلت وهذا مهرها، أريدها الآن، ورمى في وجهه مالا ملفوفا في قماش أبيض.

حين خرجت حمامه من البيت لترد أباهما عن التصدي لهم، انقض عليها حَمِيدَه وجرها عنوة، وضعها أمام القايد عباس فوق فرسه فشدّها بقوة وانطلق الجميع مبتعدين، كانت حمامه تصرخ بقوة: العربي العربي العربي، وفي لمح البصر كان العربي فوق جواده يلاحقهم، حين لفظت بندقيته ما في بطنها من بارود مزعجة سكون الكون، فطن من نومه لاعنا هذا الكابوس المزعج، سريعا حمل البندقية وفز خارجا يتفقد القرية، لاشيء سوى سكون يقمط الأرض كلها.

امتطت المكحلة ظهره، عيناها إلى السماء، كانت الحشرات تعزف سمفونية الليل، كأنما تهدهد الكون لينام، فلينم الكون كله، أما العربي فليبق يقظا دائما، وقف مليا يرقب ما حوله في حذر شديد، وحين اطمأن سار باتجاه بيت الشيخ لَكْحَلْ وطاف به مرارا، لاشيء يدعو للريبة، وعاد أدراجه إلى بيته متعجلا بزوغ الفجر، وماكاد حتى مد يمينه إلى صندوق صغير في ركن البيت فحمل ما أراد، دسه تحت ثيابه وخرج، كان الزيتوني أيضا خارج البيت، قال العربي:

- صباح الخير.

- ردها الزيتوني وعلى ملاحظه استفهام كبير، لكنه لم يبح به.

قال العربي مطأطئ الرأس:

- أريدك أن تذهب معي إلى بيت الشيخ لَكْحَلْ الآن.

- ولماذا الآن؟

ولم يتلق جوابا، كان في صمت العربي إصرار على تحقيق طلبه، ولم يجد الزيتوني بدا من أن يسير معه كأنما هناك قوة سحرية تدعوه للذهاب، كان الشيخ لَكْحَلْ خارج البيت يتوضأ للصلاة، ترك الإناء يركن للراحة وسأل:

- خيرا إن شاء الله، ماجاء بكما؟

ولزم الزيتوني الصمت، وراح يتطلع إلى أخيه العربي ينتظر منه ردا.

قال العربي مندفعا:

- عمي لَكْحَلْ جئتك خاطبا ابنتك حمامه.

وفوجئ الزيتوني والشيخ لَكْحَلْ بهذا الطلب في هذا الوقت، لكن الشيخ أحس براحة تسري في جسده كله، هذا ما كان ينتظره منذ شهور، لن يتحمل المسؤولية وحده، لو كان هذا الطلب قبل تجرؤ القايد عباس لكان له حجة في رد غطرسته، لكن لا بأس حتى الآن سيكون مفيدا، وسيفرح دون شك قلب حمامه وأمها وجميع من يحملون همها.

ولم يرد الشيخ لَكْحَلْ، كان يتطلع إلى عيني الزيتوني ينتظر منه كلمة تعزز طلب أخيه، ليس عندهم من يزوج نفسه، كبير العائلة هو الذي يفعل ذلك، وأحس الزيتوني بذلك، فقال منشراح البال:

- أطلب يد ابنتك حمامه لأخي العربي ياشيخ لكحل.

وعجل الشيخ لَكْحَلْ يرد:

- وهل يرد لكما طلب؟

وعجل العربي يخرج من تحت إبطه قماشا ملفوفا فدهسه في يد الشيخ

لكحل، وهو يقول:

- هذا مهرها، فإن زاد زدت.

قال الشيخ لكحل وهو يضغط بأصابعه على المهر:

- البركة في القليل، بنتي ليست بقرة للبيع.

قال الزيتوني وهو يصفح الشيخ لكحل بجرارة:

- الحمد لله، نأتي مساء مع سي الطالب، ونقرأ الفاتحة.

وانطلقا عائدين للبيت دون أن ينطقا، كان العربي يحس أنه قد حقق الخطوة الأولى من خطته، هكذا سيفرح قلب حمامه التي ظلت تطارده بلومها، أين أنت يامن ظننتك فارسي؟ وحتى يجد مبررا في الدفاع عنها ويكون بريئا أمام الله والناس جميعا، وكان الزيتوني رغم فرحه الغامر يحس أن المسؤولية قد أصبحت ثقيلة عليه، ولا بد من التحرك بسرعة، لا بد أن يتحرك بقوة.

صلى الشيخ لَكْحَلْ الفجر متأخرا بعض الشيء هذا اليوم على غير عادته، ممعنا في التذلل أمام الله رغبة ورهبة، وتسلسل إلى حجرة ابنته حمامه، التي كانت قد استيقظت على عاداتها وباشرت عملها، وأعمال المرأة كثيرة تبدأ صباحا من إعداد القهوة، ثم كنس الغرف والحوش والزريبة، ثم إعداد الفطور الذي يكون عند العاشرة صباحا، ثم تحضير الغداء بعد

الزوال، وينتهي ليلاً بحلب الأنعام وإعداد العشاء.

قالت حمامه، وهي تقبل كتف أبيها:

- لحظة وآتيك بالقهوة.

وأمسكها من يمانها فأقعدها بجانبه، طبع قبلة على جبينها وهو يقول:

- وأخيراً جاء الفرج من الله.

لم تفهم حمامه شيئاً مما يقصده أبوها، فلزمت الصمت تطلب فيه عينين

حائرتين، فواصل مبتسماً:

- تصوري ما حدث هذا الصباح.

لا تدري لماذا أرادت أن تقول له: مات القايد عباس، لكنها أحجمت

وهي تمط شفيتها حيرة، ثم سألت:

- وماذا يمكن أن يحدث؟

- جاءني العربي وأخوه الزيتوني.

قالها دون شرح إمعاناً في تشويقها، ورغم أن قلبها قد دق فرحاً وعشقا،

فقد كانت تتوقع هذا الحجيء لكن الوقت الذي اختاراه يبعث على الريبة،

فاتخذته حجة وسألت:

- يأتیان فجراً؟ لماذا؟

- لقد طلب العربي يدك، وقبلتُ، وأعطاني مهرک.

ودس المبلغ في حضنها، فنهضت من مكانها خارجة، تاركة المبلغ يسقط

أرضاً، وراح أبوها يتابع اندفاعها الخجل بفرح غامر، وكتمت هي فرحتها

حتى إذا اختلت بنفسها في "النوالة"[□] أطلقتها من عقال حنجرنها حتى

كادت تصير قهقهة، ثم تحولت بكاء مكتوماً، هذا الذي ظلت تنتظره

سنوات متتالية، هذا الذي حلمت به مستيقظة ونائمة، العربي لقد أحبته

منذ الصبا، مذ كانا يلعبان معاً، ومذ حفظا معاً في الكتاب أجزاء من القرآن

□ - معناها بيت إعداد الطعام، ولعل الكلمة مأخوذة من معنى الكرم والجود والعطاء.

الكريم، ولم يمتد حلمها إلى أحد غيره رغم كثرة الراغبين، وكم كان العربي يزعجها حين يذكر أمامها عُبُوبَهُ العاشق لها المتيم بها.
إذا كان العربي يكبرها بأربع سنوات فإن عُبُوبَهُ يكبرها بست كاملة، وهو ابن عم أبيها، فقد والديه صغيرا، فكفله أبوها أول الأمر، وعاش سنواته الأولى في بيتهم قبل أن يكفله بلخير في بيته ويمنحه مكانة أكبر من مكانة أولاده.

وتناهى إلى سمعها صوت الزيتوني ينادي أباه، فهرعت تعتلي الحوش، كان قلبها يدق بشدة وقد توقعت أن يكون العربي معه، لكن ظنّها خاب.
ولم يطل وقوفهما معا حتى انحدرنا نحو الجامع، لا بد من لقاء سي الطالب، وحضور شاهدين من أهل القرية لإتمام مراسم الزواج، وتلقاهما سي الطالب خارج الكتاب، وليس هو إلا حجرة مفردة فرشت بفراشي حلفاء واكتظت بالذكور والإناث، تختلط أصواتهم المرتفعة تصم الأذان، كل منهم يجلس طاويا رجله محتضنا لوحا مرقوما بما يحفظ، يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف رافعا صوته.

أخذ سي الطالب ضيفه خلف المبنى حيث كان يفترش حصيرا عند ظل الجدار، وجلس الثلاثة، قال الزيتوني:

- إيه يا سي الطالب تعيش راحة مطلقة، كأنك ملك.

رد سي الطالب مبتسما كأنما يخشى أن يجرح الزيتوني:

- فضل الله العلماء على الجهلاء درجات.

ضحك الزيتوني وقال:

- حق لك، لكن ياسي الطالب لو تكتب لي حرزا يمنع عني العَلَجَه

بنت المكي، أرغب في الزواج من ثانية لكن نظرة واحدة منها ترعبني.

واندفع سي الطالب يشرح له نجاحاته في هذا الموضوع، ويعدد له

بالدليل كل الذين نجحت طلاسيمه في تزويجهم من ثانية وثالثة، ولم

يسكت سي الطالب حتى أقبل البغدادي ولحقه عيوبه، قال الزيتوني:
- هذان شاهدا عدل.

نظر سي الطالب إلى عيوبه، مركزا على عرجته، وأراد أن يقول إن هذا لا يصلح للشهادة، قياسا على الشاة المعيبة لا تصلح للأضحية، لكنه كتمها ولزم الصمت، دس الزيتوني قطعة نقدية في يد سي الطالب فاندفع يتلو آيات القرآن الداعية للألفة والمحبة، ثم ذكر بشروط الزواج واستنطق ولي الزوجة وولي الزوج، وذكر بالمهر، ثم رفع يديه فرفعوا معه يتلون أم الكتاب.

نهض الجميع مغادرين، لم ينس الزيتوني أن يدعو سي الطالب إلى العرس يوم الجمعة القادم، حين ابتعدوا كان سي الطالب يلعن في أعماقه الحظ الذي حرمه حمامه، ثم ردد في نفسه كأنما يعزيها: مازلت شابا، وألف حمامه تتمناك.

** ** * ** *

15

تغشاه فجأة، وقع على صدره، غرز ركبتيه في رقبة العربي، ودس أصابعه كمخليبي نسر كاسر تخنق حنجرتة، جحظت عينا العربي.. وضرب الأرض برجليه.. تقرح عقباه.. حاول أن يمد يديه دون جدوى.. صاح في سمعه كأنما يوقظ الكون كله: يا العربي دم أبيك ليس ماء أيها الجبان.. بئس الخلف أيها الجبان.. يا العربي أنت رماد لا نفع فيك.. واندفع ينتف شاربيه الكئين دون رحمة.

دوت من أعماق العربي صرخة استغاثة.. واندفع واقفا، كان الزيتوني يقف أمامه بقامته يسد الباب أمام ناظره، لم يأبه لاستفساراته، اندفع إلى الخارج ليس معه إلا مكحلته التي ظلت تلازمه منذ سنوات.

الكون كهف فحم، لا أثر للنجوم ولا للقمَر، عويل الكلاب يرتفع في الفضاء بشكل عجيب يثير الريبة، وهج عظيم اندلع في السماء، تراءت له حمامه تحلق في الأعالي وعلى ملامحها رعب وفزع، تندفع في كل الاتجاهات ثم تعود حيث هي، عدا يقترب منها، قريبا منها ظهر القايد عباس نسرا عجوزا، يتقاطر الحقد من ملامحه، طالت المطاردة في السماء، والعربي يقفز في مكانه يسعى للطيران مرة، ويسدد مكحلته نحو النسر دون أن يتمكن من التصويب ولا الإطلاق، كأنما أصابها عطب شديد.

وراحا يقتربان من القرابة، صارا فوق القبة، راح العربي يعدو باتجاهها، لاهثا صائحا، ياسيدي علي يا صاحب البرهان، ياسيدي علي يا صاحب الكرامات، ياسيدي علي احفظ حبيتي حمامه، ياسيدي علي احفظ روحي حمامه، ياسيدي علي ياسيدي علي، ياسيدي علي..

وصل عند القُرَابَةِ انطفأ الوهج الذي كان يتلألأ في الفضاء.. اختفى كل شيء، لا حمامه، ولا نسرا، سقط العربي أرضا تكاد أنفاسه تنقطع، العرق يغسل جسده كله، لا يعرف ما الذي وقع، حالته تغيرت كثيرا، من ذا الذي بات يأتيه يهدده في منامه، هل هي روح والده بلخير؟ روح سيدي علي الولي الصالح؟ ملك رحيم يستحث الرجولة فيه كي يثور وينتقم من الظلم والظالمين؟ شيطان رحيم يسعى لتعذيبه؟ مات أبوه راضيا عنه، وماتت أمه كذلك، يقدم الولاء دائما لسيدي علي، يزوره، ينظف مقامه، يطلي قُرَابَتَه، فما الذي وقع؟ ما الذي يقع؟ هل هو مجنون؟ هل هو مسحور؟ أين المهرب من هذه الحالة؟ أين المهرب يارب؟

هدأت نفسه، نهض متحاملا على فزعه وتعبه، دفع رجليه بهدوء والخوف يجلله، الخنى، ودخل القُرَابَةَ، تناهى إليه صوت، جمد مكانه، وقد ارتعش جسده كله، فتح عينيه على آخرهما لم يتبين شيئا، الظلام يغتال الرؤية تماما، انطلق من المكان صوت لم يتبينه، ثم اندفعت حركة تتجه

إليه، أشهر بندقيته وهو يتراجع إلى الخلف، عند الباب تبين له البُهلي لخضر، دون أن ينتبه إلى حالته اندفع إليه يخنقه بقوة، بدر منه سعال متقطع وقد انقطع عنه الهواء، صرخ فيه:

- ماتفعل هنا أيها الساحر اللعين، عرفت الآن، أنت سبب كل البلايا، من أرسلك، ماتريد منا؟ ارحل عليك اللعنة، سأمتص دمك.

خرج من بين يديه كأنه شعرة تسل من زبدة، وطار في الفضاء بعيدا بعيدا، راح يتابعه وهو يفرش جناحي برنسه وحوله هالة من نور، تتمم خائفا: يا الله يا الله، سلّمتُ سيدي البُهلي، سلّمتُ سيدي المرابط، يا ولي الله الصالح، عد إليّ، اقطع يدي، ارمها للكلاب.

واختفى في السماء، لم يعد يراه، أسند ظهره للجدار، وترك البندقية تفترش الأرض كعود منخور، ما جدوى البندقية الآن، ماهذا العالم الذي يراه، من هو البُهلي لخضر؟ هل هو ساحر؟ أم جني في شكل إنسان؟ أم هو ولي من أولياء الله الصالحين؟

وراح يقلب ذاكرته، الذي يعرفه الناس أن البُهلي لخضر يعيش في أولاد النش منذ عقد أو أكثر، لكن من أين جاء؟ وما حقيقته؟ لا أحد يعرف، هو لا يتكلم، وإذا نطق راح يردد عبارة زمنا طويلا حتى يملها الناس، ثم فجأة يظهر بعبارة أخرى، وهكذا دواليك، يقضي معظم حياته متنقلا بين قرابة سيدي بلقاسم وقرابة سيدي علي، وربما لجأ إلى الجبل ينام بين صخوره، والناس لا يفتأون يتناقلون عنه الكرامات.

وجده الناس ذات صباح ينام في قلب العرش، وقد اكتست الأرض ثلجا، وما حوله معشوشب مورد، ورووا عنه أعجب من ذلك، والعجب العجاب ما رآه العربي الآن بأمر عينيه.

عاد إلى القرابة، دخلها، أشعل شموعا، ومجورا، استنار المكان، عقب بالكرامات، تعالت حوله أصوات الابتهالات، راح يهدد القبر بيديه،

فتنتقل إلى أعماقه سكينه وطمانينة طالما نعم بها.

أحس بالراحة تتسلل إلى كل جسده، خرج.. كان الليل في آخره، هداً نباح الكلاب، وتلاألت النجوم، اندفع عائداً يجير مكحلته جراً، نزل إلى شعبة العفريت، تنهى إلى سمعه أنين، أصغى، لا أحد أمامه، الأنين يندفع من مكان مقتل أبيه، إنها روحه، هذه ليلة مقتله، روحه تنادي.. تستغيث.. تطلب الانتقام..

جر رجله مرتجفاً إلى البيت، عند الباب كان الزيتوني ينتظره، رفع فيه عينين حائرتين، هم أن يكلمه ثم أمسك، لم يأبه به، دخل غرفته، رمى بندقيته على الفراش، انبطح على وجهه، وأجهش بالبكاء، كان يبكي بحرقه، جسده كله يرتعش، البيت يتزلزل، السقف يدوي، ونام، نام، نام....

** **

16

زوبعة من الغضب تكاد تغطي القايد عباس وهو يضرب الأرض بحيزرانه في حنق شديد، كان ينتظر حضور الشيخ لِكَحْلُ ليفرض عليه الموافقة على زواجه من ابنته حمامه، ويسلمه المهر أمام الشهود، وأمام شيخ الزاوية نفسه، ثم يطير من الغد أو بعده إلى أولاد سيدي علي مع رجاله وفرسانه كي يزفها إليه عروساً، لكن اللعين لم يأت، ومن وراء المكيدة غير الزيتوني لعنة الله عليه؟ سيدفع الثمن غالياً هو وجميع إخوته، لن يطمئن له بال حتى يراهم مذبحين كالأرانب، وصرخ في حميدَه فلبى نداءه وسار به إلى البيت، وتوجس الجميع خيفة منه وانتظروا مصيبة ستكشفها لهم الأيام القادمة، قد تكون في أولاد سي علي وقد تعصف بحليفة المسكين.

رغم ماكان يبيده القايد عباس من غضب شديد إلا أنه لم يصدر أوامره لحميده بالتنفيذ، بل راح يطلب منه المشورة، قال حميدَه وهو يكشف عن

وشم يكاد يغطي ذراعه اليسرى:

- لا بد من رسم خطة محكمة.

واندفع الدم إلى وجه القائد عباس حانقا وقال:

- بدأت تجبن، يظهر أنك عجزت ولم تعد صالحا لفعل الرجال، أنت الآن شجرة نخرة، إن جنت سأذهب وحدي، وحدي أستطيع أن أتحدثهم جميعا مهما كانت قوتهم.

وكان رد فعل حميّه هادئا تماما ليمتص غضب سيده:

- إذا أردناها ضربة كبيرة تقصم الظهر لا بد من التخطيط الجيد، أما إذا أردت أن نخطف حمامه فحسب فلك ذلك.

سكت القائد عباس مستسلما للأمر الواقع، وخرج حميّه، ماينتظره يحتاج إلى جهد كبير، وتخطيط دقيق، ورجال أشداء، منذ الآن لن يعرف النوم سبيلا إلى عيون أولاد سيدي علي، سأحيل حياتهم جحيما، سأذلمهم كما لم يذل عرش قبلهم، أما الزيتوني والعربي فسأقتلهم كما قتلت والدهما، وسأرمي بجثتيهما في الوديان لتأكلها الذئاب، لا بد أن يصيرا حكاية تتناقلها الأجيال، لا بد أن يعرف الجميع من هو حميّه، بطل الأبطال وسيد الرجال.

مر قريبا من بيت خليفة فوقف لحظات يسترق السمع، وردد في قرارة نفسه، كل المآسي من وراء هذا الكلب، حتى أنت يا خليفة يجب أن تدفع الثمن، ولست وحدك لا بد من تطهير عرش أولاد النش، أنت أولا، وسلافه الرومية العاهرة ثانيا وثالثا ورابعا.

حين راح يبتعد كان خليفة يحفر في جنب الغرفة بجذر شديد حتى لا يسمع لضربات قادمه صوت، وقد أحكم إغلاق الباب واضعا خلفه صندوق عروسه الجديدة.. وإن هي إلا لحظات حتى استوت بين يديه، وراح يزيل عنها القمط الذي لفه عليها بعناية فائقة، فتلاأت بين يديه، ومد

شفتيه فطبع عليها قبلة عميقة، وردد بينه وبين نفسه: يعطش الذئب حين يراها.

حان وقت العمل ياخليفة، لا بد من الانتقام الآن، لقد أزحت عن كاهلك مسؤولية ابنتك، قريبا ستكون هناك عند أخوالها، وكل واحد منا سفينة في بحر القدر، إن شاء نجانا وإن شاء أغرقنا، ولا نملك إلا أن نستسلم، وسأجرب حظي مع القدر، فإما حياة الكرامة وإما موت الشرف، سينزل الخبر على ابنتي كالصاعقة، وستبكي أياما وربما شهورا ثم تنسى، الأيام تمحو من الذاكرة أشد الآلام، بالضبط كما نسيت أنا والذي الذي قتله الجوع والبرد في الجبل الأسود وهو يتحدى فرنسا وذيلها القايد عباس، ونسيت أخي الذي قضى شهيدا في الأوراس، أما الزهرة بنت ساعد فيمكن أن تعود لرعاية والدها الشيخ، الأفضل لها أن تسعفه في شيخوخته.

وما ينقص الآن غير التخطيط، التخطيط الجيد والحكم، لن يترك ثغرة واحدة، سيقتله وسط القرية وهو فوق فرسه في أبهى زينته وبين رجاله وحماته، وليقتلوه بعد ذلك.

أعاد التراب في مكانه وراح يدوسه برجليه ضاغطا عليه، وأعاد فوقه الفراش والصندوق، ثم حشا المكحلة بارودا، وقمطها بفراش آخر مده عموديا في ركن البيت، وخرج عند الباب، مد بصره بعيدا حيث أولاد سيدي علي، قريبا سيتم زفاف ابنته سرَّوْله إلى ابن خالتها سالم، اللهم احفظها في بيتها الجديد، وأفرغ عليها الحب والسعادة.

دخلت عليه زوجته الزهرة بنت ساعد وقد بدت مريضة، سألت:

- هل تحتاج شيئا؟

- لا، اتركي هذا البيت كما رتبته، لا تلمسي شيئا.

واندفع بقوة ينحدر في الطريق الذي يتوسط القرية، والزهرة تتأمله

داعية له بالخير والتسديد، وراحت خطواته تتسارع كلما أمعن في المسير، فجأة حضرت زوجته الرِّيحُ بنت إبراهيم، انتصبت أمامه كالصفصافة، ورآها تبتسم كينبوع الماء، أحس كأنها عادت إلى الحياة، كأنها تناديه من بعيد لترات.. ليراه.. ليأنس بها وتأنس به، أرادت أن يحدثها عن سِرْوِله وحيدتها العزيزة، كيف زفها؟ ماذا اشترى لها؟ من مسح دموعها الساخنة وهي تتذكر صدر أمها، من ذهب معها من النساء؟

اذكرها دائما ياخليفة

اذكرني فيها

لا تتركني..

لا تركها..

إنها أنا أستمر في الحياة.

دعك من دمي الآن لقد أربق وانتهى.. روحي عند خالقها.. لا تحزن أنا في جنة الخلد.. كل مظلوم جزاؤه الجنة.. كل امرأة مظلومة جزاؤها الفردوس.. أنا في عليين..

لا تقتل الكلب.. لا تلوث يديك الطاهرتين النقيتين بدمه الملوث.. أنت أشرف منه.. وأنقى.. وأطهر.. دع الزمان يفعل فيه فعلته.. دعه يرد إلى أرذل العمر ويتعذب بجرائمه.. وتحولت هرولته جريا..

كانت الحصى تتطاير من تحت قدميه.. وصل المقبرة لاهثا.. تراءى له قبرها من بعيد، وقد تجلجل بالسناء والضياء، جلس إليه بخشوع، أطلق سراح عصاه، عن يساره وضع عمامته الصفراء الخفيفة، مد أصابعه المرتجفة، قبض من تراب قبرها.. تضعه.. امتد على القبر يحتضنه..

ابنتك بخير حبيتي وأنا بخير حبيتي.. ودمك لن يذهب هدرا سأقتله كما قتلك، لا يهم أن أموت، لم يعد للحياة طعم ولا رائحة، لا معنى أن أعيش

بعدك.. كم يسعدني أن ألحق بك.. أن يضمنا التراب نفسه، أن تفتني
عظامنا معا وتمتزج معا، أن ندخل الجنة معا، الساكت عن الظلم شيطان
أخرس، لن أكون شيطانا، بل ملاكا يزهق روح الشيطان، أنا من يخلص
الناس من شروره، ويطهر الأرض من رجسه.

** ** * * *

17

مع الصباح الباكر تناهى إلى السكان دوي شاحنات تقترب من القرية
عبر الطريق الوعر، وتسارع الناس يتناقلون أخبارها، ويستعدون لمقابلتها،
خرج الرجال ووقف كل منهم عند بيته، وقريبا منهم وقف الأطفال يمدون
عيونهم في فضول شديد، ولزمت النسوة البيوت ينظرن من شقق الأبواب
والجدران وقد طلين وجوههن بالسواد، وصلت ثلاث شاحنات متهادية
تئن تحت حمولتها وسط القرية، وراح الجنود المدججون بالأسلحة ينطون
منها كالثعالب، ويتوجهون بسرعة كبيرة إلى البيوت بإشراف مسؤوليهم
وتوجيههم.

بعد ساعات من التنقل بين البيوت عادوا إلى منتصف القرية يدفعون
الرجال أمامهم، وقف الضابط على مكان مرتفع وبجواره وقف المترجم،
تأبط عصاه، وعدل من وضعية مسدسه، تنحنح وقال:

- علمنا أنكم تملكون بنادق، وجئنا لجمعها، تعرفون أن القانون يمنع
ذلك ويعاقب عليه، سنتهمكم بالتمرد والخروج عن القانون، فرنسا
ستبذل كل حماقة منكم.

أسر إليه أحد معاونيه أنهم لم يجدوا شيئا في البيوت التي فتشوها
فواصل حديثه:

- حسنا لم نجد هذه المرة شيئا، لقد أحسنتم إخفاءها، سنجدها في المرة

القادمة.

وأشار إلى مساعد آخر، استعان بالترجم وبدأ يرفع صوته مناديا كل رب أسرة، محمدا قيمة الغرامة التي يجب أن يدفعها، لم يتحرك الرجال من أماكنهم، ولم يبدر منهم سوى امتعاض ظاهر تجلى على الوجوه.

وراح الجنود الفرنسيون ينسحبون من القرية، وقد بدت الخيبة عليهم، وارتفع صوت الرجال مستائين مما وقع، قال الزيتوني:

- هذه وشاية الكلب عباس.

رد الشيخ لكحل:

- ومن يكون غيره عليه اللعنة؟

مد الزيتوني يده فاتحا أصابعه طالبا السكوت:

- الحمد لله أننا علمنا بالأمر قبل حدوثه وأخفينا بنادقنا.

علق الشيخ البغدادي:

- ولكنهم أخذوا منا كل شيء، أتاواتهم كانت قاتلة.

الأتاوات رغم جورها ألغها الناس، تحدث مرة كل سنة، لكنها على أولاد سيدي علي أقسى لأنهم متهمون بعدم طاعة أوامر القايد عباس، بل ومتهمون بالإعداد للتمرد والخروج عن القانون، والحاكم الفرنسي في المدينة يعلم أن القايد عباس يبالغ في الأمر، فأولاد سيدي علي لا حول لهم قوة ولا يمكنهم أن يثوروا، ولكنه بقدر ما يسعى إلى كسر أي شوكة مهما كانت صغيرة يسعى لإرضاء القايد ليكسب وفاءه أكثر.

تفرق الناس عائدين إلى بيوتهم، واندفع الأطفال يجرون وقد ارتفعت صيحاتهم، دخل الزيتوني البيت، لاحظ زوجته قد شوهت كل وجهها بالرماد حتى لم يعد يظهر، فغرق في ضحك هستيري، راحت العَلَجَة بنت المَكِّي تمسح وجهها بقطعة قماش وقد اشتد غضبها.

- يا بنت المكّي كأنك جنية تعيشين في المزابل.

سكت قليلا وأضاف:

- أخشى أن يطلق اليوم كل الرجال نساءهم.
وقد تعودت النسوة على فعل ذلك كلما أحسن باقتراب القوات
الفرنسية حتى لا يتعرضن لاعتداء الجنود.

وصل سي الطالب وسط القرية، كان الزيتوني قد خرج ولحق بهما
عُيُوبَه الذي كان في بيت الشيخ لَكَحَلْ متذرعاً بالاطمئنان عليهم ساعياً
إلى رؤية حمامه، وهي عاداته يتخذ أي ذريعة لينعم النظر في معشوقته، التي
تبالغ في إكرامه والعطف عليه.
قال عُيُوبَه:

- كنت أخاف أن يأخذوا حمامه بنت عمي لكحل.

نظر فيه سي الطالب بغضب وحقد وقال الزيتوني يستفزه:

- ولماذا حمامه بنت عمك لَكَحَلْ فقط؟ والأخريات؟

رد عُيُوبَه بسرعة:

- وهل تعتقد أن هناك من هي أجمل منها وأحلى؟

تبسم الزيتوني، وراح سي الطالب مغيراً دفة الحديث:

- هل تعتقد يا الزيتوني أن القايد عباس وراء المكيدة؟

تبسم الزيتوني وقال:

- حتى إبليس وراءه القايد عباس.

وأعاد سي الطالب شريط الشياطين الذين زاروه في الكتاب وهددوه
بالذبح إن لم يتعاون معهم ويتجسس على أولاد سيدي علي، تملل في
مكانه وقد ضاق صدره بسرّه، ثم ابتلعه، لا حل أمامه سوى الرحيل مع
أسرته، ليس شرطاً أن يعود إلى أهله، يمكنه أن يسيح في الأرض بحثاً عن
عمل في أي عرش آخر.

وبدأ الرجال يتوافدون حيث الزيتوني، إنهم يتخذون وسط القرية

للالتقاء كل مساء، يناقشون كل شؤونهم، ويلعبون ألعابهم الشعبية خاصة لعبة الفلجة[□]، وربما استمعوا إلى حكايات سي الطالب الذي تعود أن يقرأها عليهم من كتبه الصفراء.

** ** * * *

18

وصلت العروس مساء في موكب حاشد، على فرس أدهم حملت، وعلى بغل خلفها حمل صندوقها الخشبي المنقوش، وقد حوى كل لباسها وزينتها، وحواليها سار أولاد سيدي علي ركبانا وراجلين، كانت كثرتهم في هذا الموكب، وفروسيتهم واستعراضهم مما ألح عليه الزيتوني قصد إغاضة القاييد عباس، وإدخال الرعب في قلبه وقلوب أتباعه، واختفى القاييد عباس في بيته لا يبرحه حتى لا يراهم، ولكنه زرع عيون له لتأتيه بكل التفاصيل.

وبات العرش كله يرقص على إيقاع الزرنة والقصبة[□]، على أرضية البيدر المستوية تحلق الرجال قريبا من العازف وضارب الدف، وتُركت فسحة لدخول النساء يتفنن في الرقص وقد وضعن على رؤوسهن ووجوههن محارم، ومن خلفهن تتعالى الزغاريد، وارتفعت طلقات البارود تزعج هدوء الليل، ووقار القمر الذي راح يمد ضيائه الحالم كعاشق ينتظر محبوبته.

وانخرط الجميع في تنافس محموم، النساء في الرقص، والرجال في

□- لعبة شعبية تشبه الشطرنج.

□- الزرنة آلة موسيقية تشبه الناي، لها صوت مرتفع جدا، مقدمتها ضيقة وآخرها منفتح جدا، والضارب عليها زرناجي، ومثلها القصبة على اختلاف في الشكل والصوت والضارب عليها قصاب.

التبراح[□]، يخرج الواحد منهم ورقة نقدية، يدفعها للبراح، ويذكر له اسم من قدمها تقديرا له، ويندفع البرّاح بكلامه المسجوع، رافعا يديه بالورقة النقدية، ذاكرا مبلغها، ومانحها والممنوحة لأجله، وسبب ذلك، ويهتز الجميع بالتصفيق، ويرتفع صوت الزرنة من جديد بعد أن هدأت، وهدأ معها رقص النسوة، ومايكاد البرّاح يضع القطعة في كيس حتى تصله أخرى، قدم العربي قطعة نقدية كبيرة، وارتفع صوت البراح:

- بات يازرناجي بات.

وسكت العزف، واستمر البراح:

- هذه عشرون ألفا، من عند سيد الرجال، قاهر الأهوال، العربي سليل الأبطال، معونة لأخيه سالم، سالم الحُبّوب، سالم المحبوب، سالم سيد العرسان، صاحب البرهان، هذي عشرون ألفا.

وسكت فارتفعت الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق، وما كاد إيقاع الزرنة يرتفع ثانية حتى رفع البراح صوته من جديد:

- بات يازرناجي بات، وهذه عشرون ألفا أخرى من العربي الزين، أسود العينين، كريم اليدين، يعطيها بدل خطيبته حمامه، حمامه غزالة في الصحراء، نجمة في السماء، حمامه ينبوع الماء، نسمة الهواء، حمامه بنت العربان، بنت الشجعان، والموت لكل حسود، والموت لكل حقود. وارتفع تصفيق الجميع وهتافاتهم.

عند كل فاصلة كان البرّاح يتوقف لحظة فاسحا المجال للزرناجي كي ينفخ نفخة واحدة في زرنته، دون أن تتوقف الزغاريد، واندفعت النسوة إلى للرقص، تتقدمهن حمامه التي أصرت على الدخول إلى الحلبة، لإعلان

□- عادة تتخذ في الأعراس، حيث يقوم شخص مختص وسط المدعويين، وكلما أعطاه أحد الخيطين به نقودا، رفع صوته تمجيذا له ولن أعطيت النقود من أجله، ثم يعطي ما جمع إعانة للعريس، ولعلها في العربية من البراح: الظهور والبيان، أو أبرح: عظم وتعجب.

الزواج قبل مواعده، وهو ما أراه العربي، كان قلب سي الطالب يعصر غيظا، وأحس عيونه بدوار يغشى كل جسده، وماعسى العاشق أن يفعل وهو يرى محبوبته تحطف من بين يديه، هو يحبها وهي أيضا تحبه دون شك، كثيرا ما لاحظ اهتمامها به، خاصة حين يزورهم فتحيطه بكثير من العطف والحب، نعم والحب أيضا، أن يحظى بها العربي فلا حسد، العربي طيب ويستحق كل خير.

ومن بعيد تعالى دوي البارود، مرة وثانية وثالثة، وقفز العربي على جواده الأدهم الذي كان مسرجا في انتظاره، حين وصل إلى الرجال، هدأت البنادق، سأل العربي الرجال بحيرة:

- ماذا وقع؟

- أولاد النش، تسللوا لحرق بيادر القمح والشعير.

علق العربي غاضبا:

- أولاد الكلب كنت أتوقع هذا.

لم يحظى حدس العربي، منذ يومين أحس أن أولاد النش لن يتركوا فرحهم يمر بسلام، سيعملون على تنغيصه بما استطاعوا، وكان على العربي أن يحبط كيدهم، فاختار للمهنة أربعة من الشبان الشداد، تدججوا بالبنادق وأكياس البارود، وتفرقوا قريبا من فج يصب في عرش أولاد النش، خبرته بالمسالك أوحى إليه أنهم سيسلكون هذا الممر، مستغلين غفلة أولاد سيدي علي، وانشغلهم بالعرس.

عاد الفتيان إلى مهرجان أبناء القرية، بدا الهدوء واضحا على الجميع، سكتت أنغام الزرنة وضربات البندير، وانسحبت النسوة إلى البيت في هلع شديد، خاصة حمامه التي ظلت تتطلع وصول الأخبار عن العربي الذي انطلق بجواده خوفا عليه من غدر الأعداء، وتناقل الرجال تمتات وخوفا وحيرة، غير أنهم مكثوا في أماكنهم يرتشفون القهوة، يحيطون بسلام

الذي لم يبرح مكانه منذ جلس وسط الجميع، وعليه برنس العريس الأبيض.

سأل الزيتوني أخاه عما حدث، دوى الكون بارودا والعربي يفرغ جوف بندقيته، ودعا العربي الجميع لمواصلة الحفل، فاندفع الجميع يبذرون الفرح في تضاريس الكون، يوقعون الأهازيج على أوتار الليل، انسحب العربي مع أخيه بعيدا، وراح يعيد عليه الحكاية، قال الزيتوني وهو يضغط بأصابع يمينه على كتف أخيه:

- بوركت، أنت ابن بلخير حقا، بلخير لم يميت.

أرخصي يديه وراح يصوب نظره إلى أولاد النش، قائلا:

- ربما سيعودون، أخشى أنهم يخططون لمقتل سالم، نكايه فينا وفي صهره خليفة.

- نحن جميعا مستهدفون، لا بد من الحذر الشديد.

عاد العربي إلى الجمع، وراح الزيتوني يطوف بعيدا، منتشيا بتجديد الشمة تحت شفته، منتشيا برجولة أخيه العربي، وغرق في بحر من الأسئلة، ماذا كان سيفعل أبوه بلخير لو كان حيا؟ كيف ينظر أبناء العرش إليه، وهم يقارنون بينه وبين أبيه؟ ماذا سيحدث بعد أن تزوج سالم سرّوله؟ هل ستكون شرا مستطيرا عليهم، أم تحمل معها إليهم الخير؟ ألم يقل العرب: الدنيا امرأة والأخرة امرأة؟ وغلب تفاءله على تشاؤمه ومشى، لا بد من تقطيع لحم الكباش، لقد ذبحوا هذا اليوم عشرة رؤوس، ثم تركوا اللحم ليجمف، الآن يجب أن يقطع، ولا بد أن تكون القطع كبيرة، لا بد أن يتناقل الجميع كرم أولاد بلخير، همه الأول أن تلهج الألسنة بكرمهم الزائد، وأن يشيعوا أن بيت بلخير مازال عامرا حتى بعد موته.

في الغد كانت الوليمة كبيرة، تسابق الفرسان متنافسين في مجموعات منتظمة، وأطلقوا البارود في كل اتجاه، واجتمعوا أسداسا أسداسا على

صحون الكسكس واللحم، وأخذوا معهم إلى بيوتهم ليطعموا من عجز عن الحجيء، كان الزيتوني يطوف على المجموعات داعيا القائمين على إطعام الناس إلى المبالغة في الإكرام، محرضا المدعوين على الأكل دون خجل. وبدأ الناس يتفرون، يحملون في أذهانهم وعلى ألسنتهم كرم أولاد بلخير، وشجاعة العربي الذي رد كيد أولاد النش.

آخر النهار، استعد خليفة لمغادرة أولاد سيدي علي، دخل البيت حيث ابنته سرّو له فقبلها على جبينها مودعا، وخرج يغالب دموعه التي استجابت بسرعة لدموع ابنته، عند الباب احتضن العربي والزيتوني مودعا، قال الزيتوني:

- سرّو له في بيتها، خرجت من بيت خليفة إلى بيت خليفة، أنا أيضا أبوها، أرجو أن تعود غدا لزيارتنا.

قال خليفة، وفي نفسه حسرة:

- لا أدري أخي الزيتوني، الموت يتربص بنا في كل منعرج، والظلم أصبح لا يطاق.

أسرعت إليه العليجة بنت المكّي، بكيس فيه من طعام العرس، ردد في نفسه وهو يأخذه: سيكون منه نصيب لسُلافه الرومية، ثم ودعهم وهو يقول:

- كثر الله خيركم، مع السلامة.

وانطلق عائدا إلى أولاد النش، بقدر ماهو خائف من القايد عباس وزبانيته، بقدر ما كان يصر على قتله ولو قتل أيضا، هل يمكن أن يكون القايد عباس صيده هو وحده دون غيره؟ تحركات أولاد بلخير، ونظرات سلافه الرومية التي تشبه نظرات لبؤة جريجة تهدد جميعها حظه في ذلك، وقد تنسف كل ما خطط له.

** **

منذ يومين لم ينم القايد عباس، وأنى له أن ينام وهزائمه تتوالى؟ وعريته ينتهك، كانت المرة الأولى حين خيب أولاد سيدي علي أمله في قبول خطبته حمامه، وكانت خيبته الثانية حين صُد فرسانه وطردها منهزمين عاجزين عن تنفيذ ما خطط له حميئه، إنها فاتحة لحرب لا تبقي ولا تذر، أما الخنجر المسموم الذي غرس في كرامته فهو خبر خطبة العربي حمامه، وإعلانه ذلك كأنما يتحداه.

لم يولد بعد من يتحدى القايد عباس الفارس الصنديد ولد السعيد القايد الفارس الصنديد، ابن الأشراف سلالة السيد علي والحسين المكحلي، وتناهى إلى سمعه أصوات رجاله فخرج عجلا، كان حميئه يجر البُهلي لخضر، أدخلوه إلى البيت وهو يتألم، متأثرا بضغط أصابع حميئه على رقبته وذراعه، أجلسوه أرضا، طلب له القايد عباس ماء، عب الإناء دفعة واحدة، وقال لاهتا وهو يمسخ فمه بكمه:

- الحمد لله.

تأمل القايد عباس واندفع يردد لازمته:

- ياناس ياناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس، اسمه بالعين ييدا، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا، ويعز نفوس أولادنا.

قال عباس وهو يلوح في وجهه بعصاه:

- دعك من هذا الخداع، واسمعي جيدا.

رفع فيه البُهلي لخضر عينين حائرتين دون أن ينطق، تقدم منه القايد عباس وخفف من حنقه قائلا:

- من أي عرش أنت؟

وحين لم يتلق منه جوابا واصل وقد كاد يلتصق به:

- من عرش أولاد النش.

تمتم البُهلي خُضر بكلمات لم يتبين القايد عباس معناها فسأل:

- ومن هو سيد أولاد النش؟

لم يزد البهلي خُضر على التحديق فيه، سكت القايد عباس لحظة ثم واصل:

- أنا، القايد عباس، أنا سيدهم، سيدكم جميعا، وحين يتحداه أحد عليكم جميعا أن تنتقموا له.

وجلس القايد عباس مقابل البُهلي خُضر، وراح يحاول أن يقنعه كي يكون عينا له على أولاد سيدي علي، يرصد حركاتهم وسكناتهم وما أعدوا من كمائن للتصدي له.

حين خرج البُهلي خُضر متجها إلى أولاد سيدي علي، كان القايد عباس يجلس بين أتباعه، وقد رفع كمي قنودته البيضاء حتى ظهرت عضلتا ساعديه القويتين المفتولتين، بل وهضبتا كتفيه أيضا، قال موجهما الحديث لحميده، وقد لمت عيناه شرا مستطيرا:

- ماذا ترى؟

رد حميدَه مظهرا طاعة عمياء:

- لا مفر من اختطاف حمامه.

رد القايد عباس وقد احمر وجهه غضبا:

- لست أناقشك في أمر اختطافها، أريد أن أعرف خطتك.

وراح حميدَه يشرح الخطة بتفصيل دقيق، مع كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث، وأكد للقايد عباس أنه سيعود بها في الغد صباحا غنيمة سائغة.

ظهر البشر على وجه عباس فقام من مكانه فاركا راحتي يديه:

- أولاد الكلب، ستأتون إلي جميعا مرغمين.

ضرب على ظهر حميدَه وقال:

- أبدا لا أرغب فيها زوجة بقدر ما أرغب في إذلال أولاد سيدي علي.
ضحك حميدَه وقال:

- ولكنها جميلة، لا أعتقد أنك تفرط فيها، إنها تسيل لعاب الجميع
حتى سي الطالب.

ضحك القايد عباس ورد، وهو يمسد شاربيه بإصبعي يسراه:

- إن كان الأمر كما ذكرت فسأمتع بها هذا العام، أريدها أن تبعث
شبابي من جديد.

حين خرج القايد عباس أمام الباب لاحظ من بعيد سلافه الرومية
تسير مع ابنها يوسف، ثم راحت تشيعه حتى ابتعد عن منازل العرش،
تأمله القايد عباس مليا ثم قال لحميده:

- يجب أن تعرف أين ذهب هذا اللقيط.

رد حميده متذبذبا:

- ولكنه أخوك، أنت هكذا تسيء لأبيك.

صاح القايد عباس في وجهه:

- أبي كان عاشقا، ولا يلام العاشق حين يخدع.

عاد القايد عباس إلى البيت وانطلق حميدَه مبتعدا، في حين خرج
خليفة من بيته واتجه إلى سلافه الرومية حيث تقف، وصلها من الخلف
مفاجئا، كانت عيناها تفيضان دمعاً، وعلى ملامحها يتزوبع غضب قائم،
ألقي خليفة التحية، وسكت يتأملها، لم ترد سلافه الرومية واستمرت تنظر
إلى حيث راح ابنها يبتعد، كانت تشبه صفصافة حزينة تقف في عناد أمام
الأعاصير الهوجاء، تلفتت إليه وهي تمسح غديري الدمع حتى ابتلت
كفاها.

قال خليفة مخففا:

- متى تهجرين هذا الحزن المقيت؟
ردت سلافه الرومية وقد أجهشت بالبكاء:
- ليس لي في الدنيا إلا ولدي، وماعساها تفعل الأم وهي تدفع بابنها
بعيدا، وأغلب ظنها أنها لن تراه.
لن تراه؟ هربت ابنك ياسلافه، إذن تريدان الانتقام، لن يطول الأمر،
معنى ذلك أنك خططت لكل شيء، كيف؟ وأين؟ ومتى بالضبط؟
لقد أوتيت سلافه الرومية جمال الجسم ومعه جمال العقل، حق للسعيد
القايد حين أحبك بجنون، وتزوجك متحديا للجميع، رغم أنك كنت مجرد
عاهرة في ماخور سطيف، غفر الله لك سلافه، والله لأنت أظهر وأنقى من
القايد عباس، عباس الكلب، إن مت قبلي سأدعو لك ما عشت بعدك،
قالت سلافه الرومية تقطع على خليفة هواجسه:

- هل تفكر في شيء يا خليفة؟
وخرج من أمواج تيهه وقال:
- أريد أن أوصيك ياسلافه.
وركزت سلافه الرومية فيه نظرها دون أن ترد، لكنها كانت تسمع
بإمعان قوله:

- أحسست كأن أجلي قد دنا.
- الآجال بيد الله، بارك الله في عمرك.
ردت سلافه دون أن تحول نظرها عن خليفة، تنهد وقال:
- أنت أرسلت ولذلك يوسف بعيدا حماية له من السفاحين، وأنا أين
أرسل زوجتي الزهرة بنت ساعد؟ ليس لها وليٌ غيري، وأخشى إن مت
أن يهينها السفاح.
رفعت فيه عينين فيهما ريب شديد ورددت في نفسها: تريد أن تسبقني
إلى السفاح، لن أمكنك من ذلك، ولن تكون أذكى مني، لأن يقول الناس

قتلته امرأة أدل له من أن يقولوا قتله رجل، ردت بصوت خافت.

- الحى رزقه حى ياخليفة، زوجتك لها الله.

وفجأة غيرت الحديث قائلة:

- ألا ترى أن شياطين عباس أكثروا من الالتقاء به، إنهم يخططون
لمكيمة.

قال خليفة موافقا:

- وهل يجتمعون إلا لشر، أعتقد أنهم يخططون لإلحاق الأذى بأولاد
سيدي علي، خاصة أبناء بلخير.

- يجب أن تخبرهم بالأمر.

- هم يحتاجون جيدا لرد كيده.

أجابها خليفة بغير اكتراث، ثم تركها ومضى، واستدارت هي تدخل
بيتها بعد أن مدت بصرها لآخر مرة إلى الطريق الذي سلكه ابنها.

** ** * ** *

20

الليل يحضن الجميع مستسلمين لنوم عميق، إلا القايد عباس وشياطينه
كما تقول سلافه الرومية، التي كانت أيضا تتحدى ناعسا ظل منذ ساعات
يراود عينيها، لا يكاد طيف ابنها يوسف يبرح خيالها، خرج القايد عباس
مدثرا ببرنسه، نسيم آخر الخريف البارد بدأ يهزم حرارة الصيف، وقف مع
حَمِيْدَه وهو يهيم بامتطاء فرسه، سأله:

- أين الرجال؟

مد حَمِيْدَه ذراعه مشيرا بإصبعه.

- هناك، هم في كامل الاستعداد.

مد القايد عباس بصره، لم ير شيئا، كان الظلام شديدا، عاد يسأل من

جديد مظهرًا حرصًا شديدًا:

- أعددتُم كل شيء؟

- لا تخش، كما خططنا بالضبط.

ركب حَمِيْدَه فرسه، فضربها القايد عباس على مؤخرتها قائلاً:

- كان الله معكم.

وانطلق حَمِيْدَه يبتلعه الليل في جوفه البهيم، عاد القايد عباس إلى البيت حالماً بصباح مشرق ترفرف فيه حمامه، وتهلُّ في مسمعيه، تحرك خليفة من مكانه قرب بيته حيث كان يختفي بين الصخور، تحسس مكحلتَه فوق ظهره واندفع يقترب من بيت القايد عباس، خرجت سلافه الرومية أمام بيتها، لم تر شيئاً لضعف بصرها، لكنها كانت تحس حركة غير عادية. اقترب رجال القايد عباس من أولاد سيدي علي، مروا بالقرابة، توقف حَمِيْدَه عندها، طلب من أحد رجاله أن يتفقد المكان، هو يعرف أن العربي دائم التردد عليها.

مد الفارس عنقه، وقال وهو يتراجع إلى الخلف:

- ظلام دامس، لا أرى شيئاً.

ثم تسمر مكانه، وعاد يمد رأسه:

- كأني أسمع حركة.

قفز حَمِيْدَه من فوق فرسه، مصوباً بندقيته، مستعداً للإطلاق.

- آه، إنه هو العربي ولد الكلب، وأخيراً.

قال أحد الفرسان، وهو يتقدم:

- دعه لي، سأقتله أنا.

نهره حَمِيْدَه قائلاً:

- الزم مكانك المهام الجلييلة للفرسان الكبار.

قال آخر وهو يشهر سلاحه، مركزاً نظره على مدخل القرابة:

- احذر لعل معه سلاحا.

قال حَمِيدَه بصوت خافت بثقة كبيرة:

- لا تخافوا سأخرجه من الجحر كالفأر.

دخل حَمِيدَه حذرا مستعدا للإطلاق عند أول حركة، تحرك الجسد يركن إلى زاوية القُرَابَة خائفا، سأل حَمِيدَه:

- من؟ العربي بن بلخير؟ وقعت أخيرا أيها الجرذ الحقيير.

تجشأ الجسد ونطق:

- ياناس ياناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس، اسمه بالعين يبدأ، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا.

امتد حَمِيدَه منتصبا وقال:

- البهلي لخضر؟ عليك اللعنة.

وخرج مسرعا فركب فرسه، دون أن يعلق، فلحق به رجاله.

أحست حمامه بضيق في التنفس، وراحت دقات قلبها تتسارع، رددت في نفسها مبتهلة، "قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب"، وابتعدت عن البيت، مسندة ظهرها إلى صخرة كبيرة، مخفية جسدها خلف شجرة التين الضخمة، وقبل أن تسترد أنفاسها ويهدأ روعها، امتدت إليها يد خشنة تمسك رقبتها، ويد أخرى تسد فمها، وابتلعت حمامه صرختها، واستسلمت مذعورة كفرخ حمام يقع في الشرك.. وماكادت اليد تنسحب مبتعدة عن فمها حتى مدت يدها تلطم مفزعها قائلة:

- كدت تقتلني، ركبتي لا تقويان على الحركة، ألم أطلب منك أن لا تفرعني؟

أمسك العربي بيدها وراحا يتعدان بسرعة كبيرة، في عمق الوادي ركبا جواده الأدهم وانطلقا، قال العربي:

- أنا على يقين أنهم سيأتون الليلة.

لم تستطع حمامه أن ترد وهي تلتصق بخصر العربي، كانت خائفة، على أسرتها، ونفسها، وعلى حبيبها وعلى عرش أولاد سيدي علي فردا فردا. وصل حميدَه إلى البيت وأشار إلى رجاله بمحاصرته جيدا، وحين توزعوا رفع صوته:

- ياشيخ لكحل، الشيخ لكحل.

ووصله صوته من خلف الحوش كأنما كان ينتظره.

- ماذا تريد يا حميدَه؟ ألم تكفك الأرواح التي أزهقتها؟
قاطعَه حميدَه بغلظة.

- اسمع أيها الشيخ النتن، لا أريد منك مواعظ، أخرج إلينا حمامه
لنأخذها إلى زوجها وسنغادر دون عودة، ولك منا الأمان.
رد الشيخ لكحل وإصبعه على الزناد، مستعدا للإطلاق:
- حمامه سافرت مع زوجها العربي إلى حيث لا ندري.

أحس حميدَه أن الحيلة قد انطلت عليه، فامتلاً غضبا وحقدا، إن صدق
الشيخ لكحل فستقوم قيامته، وكيف يتأكد؟ وأحس الشيخ لكحل بما
يفكر فيه فاقترح عليه أن يختار أحد رجاله ليدخل البيت ويفتشه، فإن تأكد
له عدم وجودها فعليه الانسحاب.

وفعلا أسرع حميدَه يختار أحد رجاله الذي اندفع مسرعا إلى البيت،
عند الباب وجد الطاهر يشهر في وجهه السلاح، قائلا:

- ادخل بهدوء.

دخل الفارس البيت، وهو يحس أنه وقع في مصيدة، قال الفارس:

- هل ستقتلني؟

قال الطاهر:

- نحن لا نقتل من أعطيناه الأمان، ادخل وفتش كل الغرف ثم

انصرف.

بعد لحظات خرج الفارس ليؤكد لحميده الفلجعة التي لم يتوقعها.
فركبه السعار، ودعا فرسانه إلى الانتشار بحثا عن حمامه وحببها العربي،
فانطلقوا ينزرون في الأرض كلها.

خرج سي الطالب من مكمنه حيث كان يراقب الأحداث، وانطلق
يهول مطأئا رأسه حد الركوع، عند البيدر كان الزيتوني يكمن، وقد
أشهر بندقيته المحشوة موتا، قال سي الطالب:

- لقد انسحبوا، حمامه هربت مع العربي.

- سيعودون حتما، إنها الحرب التي تأتي على كل شيء.

نهض من مكانه واندفع مع سي الطالب إلى بيت الشيخ لكحل وهما
يتلفتان إلى كل الاتجاهات، دون أن يتوقف ذهنه الحائر عن طرح الأسئلة،
في الذي فعله العربي، أين فر بها؟ وماذا سيقول الناس عنهم بألستهم
الحادة؟ وأي اتجاه سيأخذ الصراع مع أولاد النش؟

*** ** ** **

زارتني حوبه في مكتبي هذا الصباح، مشرقة كما العادة،
وجهها كقمر دري يوقد فوانيس قلبي، حيتني بحرارة وجلست
قبالتي على الأريكة، طلبت فنجاني قهوة وعدت لأجلس
قبالتها، أحسست كأنها تتعجلني في الحديث، لكني لزممت
الصمت، كنت مرهقا، عينايا مثقلتان بنعاس شديد، وضعت
السكرتيرة فنجاني القهوة وانصرفت، رشفت رشفتين متتاليتين
ساخنتين منعشتين.

حملت حوبه فنجانها بأصابعها النحييفة وقالت قبل أن ترشف
منها:

- أصبحت تدمن القهوة.

قلت بصوت خافت:

- كما أدمن حبك حويتي.

ضحكت ورحت أحرق في عينيها الكحلاوين، قالت:

- لقد أكملت قراءة ما كتبت، ولاحظت أن أسلوبك قد
ألبس الحوادث عبقرية.

قلت سعيدا باعترافها:

- روايتك للحكاية إبداع، وكتابتي لروايتك إبداع ثان، ولا

معنى لرواية هزيلة اللغة والأسلوب.

كانت حوبه قد روت لي الحكايات منذ أسبوعين تقريبا، وأنا أجلس مرتخيا متلذذا بشهوتها، وكنت حريصا على التقاط كل تفاصيلها، فاسحا لقلمي المجال كي يحلق ماشاء له التحليق.

قالت حوبه وقد نطت الغيرة من عينيها:

- لم يعجبني اهتمامك الكثير بالشخصيات النسوية ولا وصفك الدقيق لها، حتى سلافه الروميت شغفتك حبا، أنت تعرف غيرتي.

كنت منتشيا جدا بالحكايات، ومتحمسا لإتمامها، كنت معجبا جدا بشخصية العربي الذي حمى حبه بطريقة ذكية، ولكن بقدر إعجابي به كنت خائفا عليه، ستروي لي حوبه في لقائنا القادم الجزء الثاني من الحكايات، وأرجو أن تسير بها نحو انتصار العربي وتفوقه على أعدائه، حتى لو اضطرت أن تدوس على الحقيقة التاريخية، لا أحب أن أسمع ما يؤلم ولو كان حقيقة، ولست متعاطفا مع العربي فحسب، بل مع كل المهورين حتى مع زكية بنت البغدادي، أحسست بغضب شديد على سالم الذي فرط في حبه بسهولة، واستسلم

لنزوات أمه وأخيه الزيتوني الذي لمته كثيرا، بل ربما حملت له
حقدا، ليس من حقه أن يقهر أخاه، ليس من حقه أن يجهض
حبا جميلا رائعا أینع بین سالم وزكیة ذات القدر الرائع والاسم
الجميل.

لقد أكدت لي حوبه قبل بدء الحكاية أنها موجودة
داخلها، هل هي فرع من حمامه؟ لست أدري لماذا كنت أراها
كذلك؟ ولست أدري لماذا كلما ذكرت حمامه تبدت لي
ملامح حوبه؟

قلت بحماسة:

- عندي شوق إلى أن أزور عرش أولاد سيدي علي.

- لقد تغيرت كثير من ملامح المنطقة، شقت طرقات،
وظهرت غابات، ومدت شبكات الكهرباء والهاتف.

الرغبة الملحاحة كانت تتملكني في أن أزور المنطقة، أن
أزور القرابة، وأسلم على سيدي علي الولي الصالح، أن أزور قبور
الزيتوني، الشيخ لكحل، البغدادي، بلخير، أن أنتشق عير
صبرهم ومقاومتهم وتحديهم وتصديهم للظلم، أن أزور أولاد
سيدي بوقبه، سيدي بلقاسم الولي الصالح، سليل الصالحين
نفعا الله بركته.

أحست حوبه بحالته الهوس التي أصبحت أعيشها مع شخصيات الرواية، قامت من مكانها، مدت يدها مصافحة مودعة، استلمت أصابعها الرقيقة في يدي كقبرة لطيفة، لو ضغطت عليها لطارت شعاعا، لتقاطرت لؤلؤا، قمت إلى جوارها، اندفعت مودعة، أعدتها، لم أشأ أن أطلق سراح أصابعها، تسلت أصابعها من بين أصابعي كنسمة هواء، قرأت في عينيها الحالمين ما كانت تردد على مسمعي دائما في مثل هذه اللحظات: أعطني حريتي أطلق يدي.

وخرجت..

من وراء ستار النافذة رحلت أتابع خطواتها كحجلة بريئة تنعم بالبهاء والألق، وأنا أتذكر شعر العربي في حبيبته حمامه

** ** * * * **

البوح الثاني

عَبَقَ الدَّمِ وَالْبَارُودِ

بقدر ما كنت مشتاقا لإتمام الحكاية كنت مشتاقا إلى
حوبه، أن أجلس إليها، أن أسمع منها حكاياتها التي لا تنتهي،
أن أتصفح وجهها وردة أزليّة لا تذبل أبدا، خرجنا من الجامعة،
وحدها السيارة كانت تتهدى على إيقاع موسيقى خفيفة وأنا
أردد:

ليتنا يا محبوبتي وردتان

على سفح صغير تبسمان

تزرعان فيه عطرا وأمل

تشرقان أحلى من شهد العسل

ومساء.. نغرق في يَم العناق

نهزأ بالليل وأحلام الفراق.

صفقت طويلا، وهتفت بحرارة وهي تسمع كلماتي أمد بها

صوتي، قالت:

- ما أحلى أن نسرق من الزمن لحظات نخلو فيها بأنفسنا.

ودون أن أستشيرها وجهت سيارتي حيث أريد ولم تتوقع،

حين أشرفنا على المكان هتفت.

- الله لقد جئت بي إلى عرش أولاد سيدي علي.

أخدمت أنفاس المحرك ونزلنا، كان الجو ربيعا يعقب بشذا
الورود، والطيور تهدي الكون باقات من الأنغام الحلوة، رفعت
بصري، وجدت الزيتونة تقف متحدية على ربوة عالية،
أسرعت حوبه تقول وقد أشرق وجهها فرحا:

- هل رأيت؟ إنه تل الغربان.

وتهيا لي الزيتوني وقد امتطى صهوة تل الغربان، حط على
ذروتها كطائر اللقلق المذعور المنهك، يفرش جناحي برنسه
الأبيض، وتخلت عيوبه يجلس قريبا منه يفتل سيجارته.

قالت وهي تشير بأصابع نحيفة كقطع البلور:

- هي ذي القرية، لقد تغير فيها كل شيء، تسعون سنة

كافية لتغيير كل شيء.

ثم رفعت رأسها إلى الأعلى وقالت:

- هذا هو الجبل، صخوره مازالت تخزن أنغام العربي الموستاش

حين كان يعزف عليها فيزرع فيها الانتشاء.

ورحنا ننحدر في الوادي الذي شهد جريمة مقتل بلخير

توقفت حوبه تجيل الطرف في كل أنحاء، وقالت:

- أعتقد أن بلخير قد سقط قتيلًا في هذا المكان.

ووضعت قدمها الصغيرة بثقة كبيرة في مكان بعينه،
قلت باسم مركزا نظري على قدمها:

-ربما، أنت أدرى يا كاهنة الحي.

ابتسمت لهذه الصفة التي طالما أطلقتها عليها، وهي فعلا
تبحث في علم التنجيم والأرقام والحروف، وتتكهن بمستقبل
أي شخص يذكر أمامها اسمه أو تاريخ ميلاده، وطالما مددت
إليها راحتي مستسلما لتقرأ خطوط كفي، وراحت حوبه تبرر
تخمينها كأنها محققة، مشيرة إلى صخور قريبة يمكن أن
يتخذها الغادرون مخبأ لهم لمباغتة بلخير.

مكان واحد بقي على حالته، قرابة سيدي علي الولي
الصالح، دخلناها وقد جللنا الوقار، كان للمكان رهبة، لا
تعبق بها الجدران ولا السقف ولا الأرض، ولكن روح الولي
الصالح التي كانت تحلق في المكان فتملاه طهرا ونقاء.

عند جداره الخارجي جلسنا، كان الربيع يفرش لنا بساطا
بديعا وراحت حوبه تكمل حكايتها.

بلغني أيها الحبيب الوسيم، ذو القلب السليم، أن.....

ما أصعب العربة.. !!

ما أصعب أن تهجر الطيور أوكارا أينعت فيها الخوافي والقوادم.
لأن تسل للقروي روحه أفضل من أن تنتزعه من عقب أرض شهدت
تفتق رجولته.

كالقارب التائه راح العُربي يندفع بعيدا عن قريته وعرشه وهو الذي
لم يغادر مكان ولادته منذ تسع عشرة سنة.. ولد في أولاد سيدي علي، وبها
تفتق على الحياة.. لا سماء عنده إلا سماؤها..
ولا أرض عنده إلا أرضها.. ولا أهل عنده إلا أهلها.. ولا عش أمان
يلجأ إليه إلا قُرابة سيدي علي..

ولكن من أجل حمامه لا حرج أن يذهب إلى الجحيم.. وأي جحيم؟
ليس هو أول من تغرب.. ولن يكون الأخير..

يعرف أن قلبه سينسلخ مرارا، ويسيل دمه تكرارا، وهو يتذكر كل
طيف من ذكرياته.. حتى الجواد، وقطيع الغنم، والجابية، وقبر أمه، وقبر
والده.. وروحيهما المرفرتين حواليه دوما، وجلسته على صهوة الجبل
يدغدغ قصبته فتؤوب معه الفجاج، وتراقص على أنغامه الطيور
والحشرات والأنعام، وتفتح بيوت القرية آذانها مسترخية في وداعة.

وقف وهو يدخل المدينة وجها لوجه مع الحيرة. كان الحشد كبيرا،
والأصوات المتداخلة المرتفعة تصك الأذان، وكان هرج الناس أمواجا
متلاطمة يبتلع كل شيء أمامه، إنه السوق..

كان مرهقا متعبا يتلفت في كل آن، يتوجس خيفة من كل من يقرب
منه، وبدت حمامه ذات الأربع عشرة سنة أكثر خوفا وتعبا، تغشاها حسرة
وحيرة، وتلح في طرح السؤال: هل صواب ما أقدمت عليه؟ وراحت

تنكمش مدثرة بعجارها[□] وهي تستند إلى جذع شجرة سرو عملاقة، وقد تشبثت أصابعها النخيفة بما أحاط بها من متاع، ترسل عينها اليمنى كنجم متوهج، تمسح المكان كله وتعود سريعا للعربي.

لم يبتعد العربي كثيرا، ظل وهو يمسك لجام جواده يسراه يهدده حمامه بنظراته، ينثر الأمن حواليتها، وعلى كتفه ظلت مكحلته يخفيها جيدا تحت برنسه الأدرع، تهياً له أن الناس جميعا شياطين محتالون، وداهمته وساوس مرعبة، ماذا لو لحق به رجال القايد عباس؟ وماذا لو سلبه هؤلاء الشياطين جواده وبندقيته وحمامته؟ وانتبه من تيهه مرددا: لن يمروا إلا على جثتي، هم لا يعرفون رجلا يسمى العربي ولد بلخير.

وتقهقر خطوات مقتربا من حمامه، ومد أصابعه يفتل شاربيه الكثرين، وفوجئ بصوت يأتيه من جهة اليمين:

- أراك حائرا يا موستاش.

عجل العربي يرد بسرعة محاولا أن يظهر تحديا:

- مرحبا، اسمي العربي.

- العربي الموستاش، راقبتك طويلا وظهرت لي حيرتك، اطمئن أنا

رابح، سي رابح، هل تحتاج إلى مساعدة؟

وتساءل العربي مدفوعا بهواجسه، هل وراء رقة كلامه خديعة؟ كان سي رابح طويلا نحىلا عريض المنكبين يضع عمامة بيضاء، ويلبس معطفا تجاريا أسود، وسروال عرب بنيا، لا يبدو الشر على ملامحه، وليس للعربي أن يخطئ بفراسته الصافية تمييز معادن الناس، رفع عينيه في حمامه، كانت تثبت عينيهما على كل حركاته خائفة، داعية في سرها بالستر والحفظ، وأخرجه سي رابح من حيرته وهو يخلق فيه بعينيه العسليتين ويردف:

□- العجار: عند العامة ثوب أبيض يحجب المرأة كاملة، وربما سموه الحائك، والمعجر في الفصحى ثوب تشبه المرأة على رأسها.

- احذر، قد يحتال عليك بعض الشياطين.

حلق فيه مليا مرددا في سره، أليس هو واحدا منهم وربما أكبرهم؟ ثم ما فتى أن دفع هاجس الخوف عنه، في كل مكان يوجد خير وشر، وأسرع يقول وهو يتلفت إلى حمامه:

- لا أعرف أحدا في السوق يا عمي رابح، أريد أن أبيع الجواد. لا يبدو أن فارق السن بينهما كبيرا لكن سي رابح أعجب بكلمة عمي، فراح يجذبه من يمينه بعيدا وجلسا على صخرتين كبيرتين دون أن يطلق العربي لجام جواده، ودون أن تبتعد أصابعه عن بندقيته، ودون أن تغيب حمامه عن ناظره، قال العربي مخترعا قصة ولدت اللحظة في خياله:

- جئت بزوجتي لأعجلها، ولذا أنا مضطر أن أبيع الجواد.

تبسم سي رابح ونظر فيه وقد زوى عينيه، دلالة شكه في كلامه، ثم سحب سي رابح الجواد الذي حرن لحظات ثم استسلم، ورفع صوته مناديا أحد تجار البهائم، وبسرعة عاد بالمبلغ للعربي الذي أسرع يده تحت ثيابه قائلا:

- حفظك الله عمي رابح، لن أنسى لك معروفك.

ووقف أمامه مترددا، وقد غشيه حزن شديد، يمد نظره باحثا عن الجواد دون أن يراه، أليس من الحمق أن يفرط به بسهولة وهو الذي ربه مذ كان مهرا؟ ثم سرعان ما صرف تفكيره إلى حمامه التي مازالت تقبع في مكانها تتابع كل حركاته، وعاد إلى سي رابح حائرا يهم أن يسأله عن مأوى يبيتان فيه، وبسرعة قرأ سي رابح حيرة العربي فأخرجه من جيبها:

- ليس لك أقارب في المدينة ولا مأوى؟

وقبل أن يجيب العربي الذي علق في تمتته قال سي رابح:

- أنت ياموستاش ضيفي اليوم.

واندفع سائرا، فتبعه العربي وقد حمل المتاع من أمام حمامه التي راحت

تسير خلفهما في عجارها الأبيض تلفه على رأسها، فلا تُظهر إلا عينا واحدة، تتهجدى بها الطريق، تدوسه حيناً بجذائنها، وترفعه بأصابعها حيناً آخر.

دخلا مساكن متقاربة متداخلة، ومرا بشوارع بائسة قذرة، ممتلئة بوجوه يتغشاها الفقر، ردد العربي في نفسه لا يمكن أن أعيش هاهنا، أنا قروي، وغيرتي عالية، هم أن يوقف سي رابح ويعتذر له، ثم تراجع وهو يخرج بهما من البيوت المتراسة وينحدر بينهما بين الأشجار، ساورت العربي الشكوك فتمتم وهو يتلفت لحمامه: إلى أين يسير بنا هذا الرجل؟ وكيف أتق فيه ثقة عمياء؟ ثم راح يتحسس بندقيته وخنجرا ينام مفتوح العينين تحت إبطه، فجأة توقف سي رابح وأشار بإصبعه:

- هذا بيتي، اعتبره بيتك يا سي العربي.

دخلوا حوشا كبيرا تنفتح فيه ثلاثة أبواب، وتغطيه أشجار عنب وتين،

رفع سي رابح صوته ينادي زوجته:

- تركية، تركية.

ثم راح يقول يشير لحمامه بيده قائلا:

- تفضلي تفضلي بنيتي.

عجلت زوجته تخرج من الحجرة، وفهمت سريعا أنهما ضيفان

فأسرعت ترحب بهما، قال سي رابح:

- هي وزوجها ضيفان عندنا.

ردت تركية بفرح:

- مرحبا بضيوف الله.

وأسرعت تغيب داخل الحجرة مع حمامه، التي دخلت على استحياء كاد

يسقطها عند عتبة الباب، ليلج بعدها العربي وسي رابح حجرة منزوية

خاصة بالضيوف، وهو يصير على وصف العربي بالموستاش يضيفها إلى

اسمه في كل مرة، ولم يجد العربي حرجا في ذلك، بل وجد فيه متعة،
المُوسْتَأْسُ أو الشاربان رمز للرجولة والنضج.

جلست حمامه حيث أمرتها تركية، ولم تتخلص من عجارها حتى طلبت
منها تركية ذلك أيضا، ولزمت الصمت مطرقة في استحياء، ولم يمنع
اهتمام تركية بإعداد القهوة أن تتهاطل عليها بوابل غزير من الأسئلة،
تجيب عن بعضها بسرعة واقتضاب، وتتمتم بالبعض الآخر سعيا منها إلى
التملص، دون أن يتوقف ذهنها عن التفكير في كل شيء، أسرتها، عرشها،
العربي، و...

ولم يكن العربي مختلفا عنها، لقد انشغل سي رابح بالقيام بواجب
الضيافة، وانشغل هو بالتفكير فيما أقدم عليه، وفيما ستسفر عنه الأيام
القادمة، وفيما سيقدم عليه القايد عباس تجاه الزيتوني والشيخ لكحل
حين يعلم بهروب حمامة.

لم يدم بقاؤهما طويلا، بمجرد أن استراحا قليلا وشربا قهوة خرجا، كان
سي رابح حريصا أن يعرفه على المدينة، قائلا:

- يا العربي المستاش، أنت من الآن ستصير ابن هذه المدينة ويجب أن
تعرف عنها كل شيء.

مر به عند مدخلها الجنوبي وأشار بإصبعه إلى مكان فسيح، يقوم قريبا
منه سور حجري وقال:

- هنا باب بسكرة، إنه مدخل المدينة الجنوبي.

قريبا من هذا الباب يمتد السوق على مساحة واسعة، قريبا منه المحكمة
والسجن، ثم تتكوم مساكن ومحلات يتقاسمها العرب واليهود، دق قلب
العربي وهو يسمع كلمة اليهود، هل هم بشر مثلنا؟ هل يظهر الشر على
ملاحظهم؟ كيف هي نساؤهم وأبناؤهم؟ وأخرجه سي رابح من حيرته وهو
يقف عند محل كبير تباع فيه الثياب القديمة مشيرا بإصبعه داخله:

- هذا حَيِّمٌ رجل يهودي يبيع الثياب المستعملة.

وجحظت عيناه، إنه يرى رجلا كباقي الناس، لا شيء يميزه عن العرب غير لباسه، وغير كَبُوسَتِهِ الحمراء التي يضعها على رأسه، وأسرع حَيِّمٌ مرحبا مصافحا، أحسَّ العربيَّ بخدر في يده وهي تلمس لأول مرة يد يهودي، فاستعاذ في أعماقه من الشيطان الرجيم، سأل حَيِّمٌ:

- هل هو زبون يبحث عن سلعة؟ عندي ما يطلب وبسعر مناسب.

- لا، هو من أقاربي جاء لزيارتي، أردت أن أعرفه على المدينة.

رد سي رابح، واندفع مبتعدا وقد دخل دكاكين أخرى تعرض الفضة، تذكر العربيَّ حَمُوَ لَقُبَائِلِي الذي جاءه آخر مرة بخاتم من فضة أهدها لحمامه عربون محبة وإخلاص، وتساءل هل سيعود حَمُوَ مرة ثانية بما أوصاه؟ وهل يمكن أن يلتقي به في هذه المدينة، وأخرجه سي رابح من سبحاته وهو يقول مشيرا إلى داخل الدكان:

- وهذا محل شمعون، شمعون المونشو، يهودي شيطان، يفعل ما يعجز عنه المعافون.

وخرج شمعون مرحبا وقد تدلت من رقبتة سلسلة غريبة، يضع كمَّ يسراه في جيب سترته، فيظهر للوهلة الأولى بذراع واحلة، تأمله العربيَّ متسائلا في نفسه عن معنى المونشو، أسرع شمعون يقول:

- هل هو عريس؟ سأختار له ما يشاء وبسعر يرضيك ياسي رابح.

ضحك سي رابح وقال مازحا:

- هل جننت حتى أشتري من يهودي مثلك؟

ضحك شمعون المونشو من أعماقه وقال:

- أأستم أبناء عمومتنا؟

استعاذ سي رابح مما سمع، وراح يبتعد مع العربيَّ المستأش، على بعد

خطوات سأل سي رابح العربيَّ:

- هل رأيت السلسلة التي تتدلى من رقبتك؟ تسمى الشيكلة، إنها علامة انتمائه الطائفي والمذهبي، وبعضهم يضع قلنسوة حمراء كحبيب. لم يعلق العربي عما قاله سي رابح، لكنه فهم فيما بعد أن اليهود في الجزائر ينقسمون إلى ثلاث طوائف: التوشابيم وهم يهود العرب، والميغورشيم وهم يهود الأندلس، ويهود ليفورن وهم يهود أوروبا، كما علم أن لهم أولياء صالحين منهم ريباش (Ribash) وراشباش (Rashbach) في الجزائر العاصمة، وميمون (Mimoun) في قسنطينة. فطن العربي إلى سي رابح وهو يرفع بصره إلى الأعلى ويشير بسبابه يمنة قائلاً:

- هذا المسجد الوحيد في المدينة، بناه الأتراك قبل أن يرحلوا عن هذه الأرض، وتوجد كنيسة للكنيسة، وكنيس لليهود. كان المسجد من الحجارة يتربع على مساحة كبيرة، يمد منارته عالياً إلى السماء، الفرق شاسع بينه وبين جامعهم في العرش، جامعهم الصغير لا يتخذ إلا كتاباً لتعليم الصبية القرآن الكريم، دخلاً بعد ذلك دار البلدية، ووقفاً عند عين الفوارة، شرباً من مائها وقد أحاط بها فرنسيون ويهود تفرق بينهما ملابسهما، ويقف قريباً منهما بضع من الجزائريين، أطفال وكهول يحملون على أكتافهم صناديق خشبية، أشار سي رابح إلى تمثال المرأة الفتنة، المرأة العارية التي تتربع على عرش النبع وراح يحكي قصتها:

- نصب هذا التمثال هنا منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، أبدعه النحات الفرنسي فرانسيس دو سانت فيدال (Fransic du sant fidel)، هل تعرف لماذا يا العربي؟ لأن النبع قريب من المسجد، وقد أزعج الحاكم الفرنسي وجود المصلين للوضوء منه فجراً، فأمر بوضع تمثال يחדش الحياء.

فعلاً كان تمثال عين الفوارة فتاة سلحة تفتن المرء الناسك، وقبل أن

يشبع العربي نظره من تفاصيل الجسد أسرع سي رابح يجره بعيدا عن الشارع الكبير، وهو يشير إليه بإصبعه ويقول:

- كل هذا الشارع هو ملك للفرنسيين، فيه منازلهم وحاناتهم، ومن الصعب عبوره.

ارتفع صوت من بعيد يحيي سي رابح، رد عليه التحية وقصده، صافحه بجرارة، وراح يسأل عن أحواله بكثير من الحب، حين ابتعدا راح يحدثه عنه، إنه الشيخ مسعود بولقباق، أو عمي مسعود كما تسميه المدينة كلها، كسيح، يركب رجلا على أخرى، وينتعل في السفلى نعلا خشبيا، ويضع اثنين منهما في يديه، ويشد صندوقه الخشي إلى رقبته بقطعة حبل، ويزحف كل صباح وخلفه حفيده إلى قلب المدينة يمسخ للفرنسيين أحذيتهم، إنه ماسح أحذية.

قال سي رابح بمرارة، وهو ينهي كلامه:

مات ابنه الوحيد منذ سنوات، مخلفا أولادا صغارا كفراخ الحمام، رجلهم الذي رأته مع جده، يزحفان كل صباح على فرنسا أو يهوديا يتكرم فيدعوها إلى مسح حذائه، مقابل أجر زهيد، وربما لا يدفع لهما إلا الإهانة. لم ينس سي رابح أن يمر بضيغه على قاعة سينما فاريتي (Varietie) لصاحبها ماران (Marain) ليحدثه عن ماهية السينما، وعن غلظة صاحبها وغطرسته وشدة كرهه للعرب، وكيف ينزل بعصاه على ظهور الأطفال الجزائريين حين يقصدون السينما لمشاهدة ما يعرض فيها من أفلام.

وبقدر ما أحس العربي بمقد على ماران اللعين بقدر ما هفت نفسه إلى دخول السينما ومشاهدة ما يعرض فيها.

دخلا بعدها مقهى واطى السقف، ينزوي في ركنه الأيسر محسب مسود، يقف خلفه عامل مشغل بإعداد المشروبات الحارة على نار خافتة، على

أرضيته فراش حلفاء وبعض الكراسي والطاولات، يتكوم شباب وكهول في حلقتين يلعبان، جلس سي رابح على كرسي مشيرا للعربي أن يجلس فوق آخر، وقال:

- هذه مقهى العرب، رغم ضيقها فهي متنفس للجميع، صاحبها علال القهواجي، رجل طيب لكن الحمرة كادت تذهب بكل عقله.

وسريعا جاءهما علال بقهوتين شرباها على مهل، لم تكن عينا العربي تثبتان في مكان واحد كأنما يريد أن يكشف كل شيء دفعة واحدة، دون أن يتمكن من طرد الوسائس عن قلبه، ودون أن ينسى حمامه التي تركها في بيت لا تعرفه، ذهل وهو يفاجأ بدخول امرأة في الستين من عمرها مجدوعة أرنبه الأنف، توجهت مباشرة إلى سي رابح مصافحة محيية، حيث العربي بعد ذلك بجرارة متفرسة في وجهه وقد أدركت أنه غريب عن المدينة، اتجهت رأسا إلى المحسب شربت قهوة على عجل وانصرفت بعد أن همست في أذن علال القهواجي.

بدد سي رابح حيرة العربي وهو يقول:

- إنها حدة المخرومة.

واكتفى فلم يشف غليل العربي، وخرجا، ولم ينس سي رابح أن يعرج بضيفه على الحمام، وقفا خارجه وجلسا على كرسي حجري طويل، قال سي رابح وهو يطلب من الخادم أن يسرع إليهما بكأسي حار:

- هذا ياسي العربي حمامي، اشتريته منذ سنتين، سللته سلا من بين أنياب الليالي.

أحس العربي بالراحة وهو يجلس إلى جانب سي رابح، سي رابح الذي ظنه رجلا محتالا فإذا به يملك حماما، إنه ثري دون شك، وقفزت إلى ذهن العربي صورة الجزائريين الذين كانوا قريبا من نبع عين الفوارة يحملون

□ - مشروب يتخذ من جذوع نبات الخيجلان، طعمه حار.

صناديق خشبية، ويترقبون أقدام النصارى واليهود تمتد إليهم، فسأل سي رابح:

- ألا يجد أصحاب الصناديق عملا آخر غير مسح أذى اليهود والنصارى؟

قال سي رابح وقد علت وجهه مسحة حزينة:

- يظنون النهار كله أطفالا وشيوخا يحملون صناديقهم ينتظرون من يتكرم عليهم من المستعمرين فيطلب منهم مسح حذائه بأجر تافه، وقد لا يُدفع لهم شيء، وقد يشبعون سبا وركلا.

حين هما بالانصراف أقبل أمقران، شابٌ لعله تجاوز العشرين بقليل، معتدل القامة مفتول العضلات، في يديه خشونة وغلظة، ماكاد يسلم ويصافح حتى راح سي رابح يقدمه:

- هذا صديقي وأخي أمقران، أشهر حداد في الجهة كلها.

وتحول إلى العربي سريعا وراح يقدمه:

- وهذا ضيفي العربي المستاش.

وراح أمقران يصفحه مرة ثانية مركزا نظره على شاربيه الكثرين، طلب منه سي رابح أن يصحب مساء سي الهادي وحمو إلى العشاء عنده مع ضيفه، اعتذر أمقران وانصرف سريعا، لقد بدا مشغولا مهتما، وتساءل العربي في نفسه عن حمو الذي ذكره سي رابح، هل هو حمو القبائلي الذي يعرفه؟

في الطريق راح سي رابح يتحدث عن صديقه أمقران بكثير من الحب والإعجاب، من أهم ما ذكره أن أمقران عامل مجد وذكي، وابن عائلة أصيلة، يعمل في المدينة منذ سنوات طويلة، لكن عنده حساسية منها، ولذلك فهو يرفض أن ينقل أسرته إليها، إنه يسكن في القرى القريبة حيث تشتغل أسرته أيضا في الفلاحة وتربية الماشية، أحس العربي بضيق

في نفسه، وتساءل بقلق: وما الذي جاء به إلى هذا المكان القذر؟
مساء جلسا خارج البيت، على حصير قديم، كان سي رابع يسند ظهره
إلى الجدار، ويعبث في يده بقرن الشمة، الذي يتخذ من أعلى قرن ثور،
يطلق ويطرز، ويوضع له مغط خشبي مطرز بالنحاس المزخرف يتصل
بسير جلدي يسهل فتحه، وكان العربي يجلس قبالة يطوي ساقيه وقد
بدأت ملامحه تطمئن للوكر الجديد.

رفع سي رابع الغطاء، ودس سبابته وإبهامه، استل ذرات من الشمة
وراح يستنشقها في نشوة، ثم سلم القرن للعربي قائلاً:
- تمتع يا العربي المُوسْتَأْسُ تمتع، إنها تدغدغ المخ.
وتسلمها العربي ففعل مثله، قائلاً:
- لقد ذكرتني والذي يرحمه الله.

غرق العربي في عطاس شديد وقد دغدغت الشمة منخرجه، استرد سي
رابع قرنه وقال:

- هذا القرن لصديق الطفولة، سعدان الغول، حين سمع بثورة عين
توتة أسرع للاشتراك فيها، وهناك قضى شهيداً، اللهم ارحم الشهداء.
أطرق العربي وقد تجلل بالحزن وقال:

- الله يرحم الشهداء، لقد ذكرتني بأخي سي محمود، اشترك أيضاً في
هذه الثورة واستشهد فيها، كان عالماً كبيراً، درس في الزيتونة.

تنحس سي رابع وغير الحديث، ليخرج من النفق الحزين الذي أدخل
فيه العربي:

- دخلت هذه المدينة قبل نهاية الحرب العالمية، كنت في مقتبل الحياة،
وقد مرت الأعوام كلمح البصر.

أطرق العربي حياءً وتركية تخرج إليهما بالقهوة، وضعتها بينهما
وقالت:

- أهلا بك ولدي، البيت بيتكم، وحمامه في حفظ الله، فلا تحمل همها.
قام متلعثما وقبل رأسها الملفوف بالخرمة، دون أن يرفع نظره ودون أن
يتبين ملاحظها، راح سي رابح يصب القهوة، سأل العربي:

- ياعمي رابح لم أفهم معنى الحرب العالمية.

سلم للعربي فنجانا، رشف من فنجانها، وراح يحكي عن الألمان والترك
وفرنسا والحجاز ودمشق ومصر، واختلطت الأسماء في ذهن العربي ولم
يفهم شيئا، كان يرى سي رابح رجلا شهما وشجاعا، أما الآن فصار يراه
علما أيضا، سي الطالب في عرشهم لا يساوي أمامه شيئا، والجميع في
العرش وفي كل العروش أيضا لا يساؤون أمامه شيئا، يعيشون في كهوف
العداوة والبغضاء.

نام العربي عميقا كما ينام الأطفال الصغار، ماقام به أرهقه كثيرا،
وأرهق حتى هواجسه ووساوسه، لكنه استيقظ مع الفجر كعادته دون أن
يتحرك من مكانه، لاحظ سي رابح وهو يقوم بهدوء، ويتسلل خارج البيت
محاو لا أن لا يوقظه، أسرع العربي بالتحية وهو مايزال ممددا في فراشه:

- صباح الخير عمي رابح.

رد وهو يقف في شق الباب:

- صباح الخير، لم أشأ أن أوقظك، البيت بيتك أنا خارج أطلب رزقي.
اندفع العربي واقفا وراح يلح في الذهاب معه، لا بد أن يكون معه
أيضا.

ظل العربي يتتبع كل تصرفات سي رابح، بدا له خيرا بالناس، عارفا
بخبائهم وأسرارهم، وكان يضرب له أمثلة حية منطلقا من تجاربه معهم،
لقد اشتغل عندهم جميعا، عربا وفرنسيين ويهودا، حمالا وفلاحا وحمالجا[□].
زار معه أمقران في محله، واكتشف معه مهنة الحدادة، وهو يدخل الحديد

□- الحمالجي هو العامل في الحمام.

في الفحم الحجري، فإذا به يلين بين يديه كما لان للنبي داود، فيشكل منه براءته ما يشاء، حدوات ومحاريث وخناجر ومناجل، واكتشف معه الحمام والناس يتوافدون عليه فرادى وجماعات، يتخلصون من ملابسهم، يسترون عوراتهم بقطعة قماش يربطونها عند الحزام وبين الفخذين، ثم يدخلون، يتعرقون، يدلك بعضهم بعضاً، ثم يخرجون ليتمددوا وينعموا بالاحتساء الحار والزعتر.

وهما يؤوبان مساءً، طلب العربي من سي رابح أن يعينه على اكتراء منزل، لقد اطمأن أخيراً إلى المدينة وليس له خيار في أن يقيم بها هاربا بحبه، تطلع فيه سي رابح مليا تطلع الخبير كأنما يحاول أن يتعرف على حقيقته وقال:

- إما أن تسكن في حارة، أو في منزل منفصل.

وراح يشرح له مفهوم الحارة: مدخل واحد، حوش واحد، حتى مكان قضاء الحاجة مشترك، قال العربي معلقا على ما قال سي رابح:

- أعود بالله.

قال سي رابح وهو يضحك:

- أعرف أنك قروي لا تقبل هذه المساكن، سأكتري لك عند أحد أصدقائي.

كاد العربي يقول له:

- ولم لا تبقيني معك؟

ولج سي رابح كهف الصمت، كان يدير خيزرانه في يمينه ويضرب الحجارة الصغيرة فتندفع مغردة بعيدا، إنه مقاتل أيضا، كان العربي يعيد إلى نفسه كل ما سمعه منه أو رآه، بعد العشاء قال له مترددا:

- سأسمح لحمامه كي تبيت معك، أعرف أنكما في شوق لبعضكما.

اندفع العربي مجللا بالحياء رافضا حتى لا يترك له فرصة إرغامه على

ذلك، طمأنه أنه لن يفعل إلا ما يخلو له، ورفع صوته مناديا حمامه التي أقبلت وقد غطت كل جزء منها، ودخلت خائفة مترددة مولية وجهها إلى الجدار، انسل سي رابح خارجا، أجهشت حمامه بالبكاء، وباءت كل محاولات العربي لإسكاتها بالفشل، حين أفرغت شحنتها، مسحت دموعها، طوقها العربي بذراعيه، ضمها إليه، وطبع قبلة خجلى على خدها قائلًا:

- أعرف أن الأمر صعب ولكن عليك أن تصبري، ستنفج قريبا.
سألها عن حالتها في بيت سي رابح، أكدت أنها تعامل كابنة مدللة، ولكن.. ثم راحت تحدّثه عن شوقها لأسرتها، وعن خوفها عليهم، حتى العربي كان خائفا، لن يترك عباس الخنزير الفرصة تمر للانتقام، لاشك أن خبيته ستكون جرحا غائرا في كرامته إن كانت له كرامة، وعدها العربي أنه سيسأل عنهم غدا.

قبل أن تخرج ملفوفة في حزنها كما في عجارها الأبيض ضمها إليه طويلا، وأطلقها لتعود إلى تركية وقد رآها حمامة مهیضة الجناح.
بعد العشاء، انفتحت نفس العربي المستأش وراح يحكي دون توقف، كان كالبركان الهائج الذي ضاق ذرعا بحممه الكاوية، حدث سي رابح عن كل شيء، عن والده المغدور، عن القايد عباس الظالم، عن القرابة، عن فراره مع حمامه، بدا البشر على ملامح سي رابح وقال:

- أنت رجل، مافعلته عين الصواب، وحمامه زوجتك، كان يمكن أن تدخل بها.

كم كان العربي ظمآن لذلك، ولكن كانت نيته أن لا يفعل إلا بعد أن يكتري بيتا ويدعو بعض من يعرف لحضور الوليمة ولو كانت صغيرة، ثم يدخل بها حتى لا يحس أنه اغتصبها، حمامه ليست حبيته فقط، ولا زوجته فحسب، بل هي أيضا شرفه وكرامته، وشرف وكرامة كل أبناء عرش أولاد

سيدي علي.

كانت فرحته كبيرة حين كان يجلس مع سي رابح في خيمة السوق
يأكلان حمصا ويشربان قهوة الجزوة[□]، حين زف إليه ما لم يكن يتوقعه قائلاً:

- يا العربي المستاش ما خيبت أبدا شخصا قصد بابي، ولن أخيبك
أبدا، من الغد سأتعاون معك وأبني لك بيتا بجواري، اسكن فيه لوجه الله
تعالى، وسنقيم لك ولحمامه عرسا بهيجا، أعرف أنك رجل شريف لا
تقبل ضيما، ولا تطأطئ هامة، وأنا أحب الشرفاء أمثالك.

أسرع العربي المستاش قائلاً وقد بدت الفرحة على ملامحه:

- حفظك الله عمي رابح، لن أنسى فضلك.

سكت سي رابح لحظات ثم سأله عما يحسن من المهن، رد العربي
مترددا:

- لا أحسن إلا الرعي أو الزراعة.

ثم ضحك وقال:

- وأحسن العزف على القصة.

قال سي رابح وهو ينهي قهوته.

- كنت أفكر في أن أشغلك عند الطبيب قَجْ.

تساءل العربي في حيرة: الطبيب؟ وما علاقتي أنا بالطب؟ وقج؟ من هو
قَجْ هذا؟ راح العربي يطرح في نفسه أسئلة حائرة، وأخرجه سي رابح من
حيرته قائلاً:

- قج طبيب يهودي.

واستعاذ العربي المستاش بالله أن يكون عاملا عند يهودي أو
نصراني، أحس سي رابح بامتعاضه، فراح يعدد له صفات هذا الطبيب

□ - قهوة تحضر على الحطب، ولعلمهم أخذوا اسمها من الجذوة ثم أبدلوا الذال زايا، ولعل

الكلمة وردت إلينا مبدلة من المشرق، فهم الذين ينطقون الذال والضاد والظاء زايا.

مؤكداً على علاقته الطيبة بالعرب، بل راح يؤكد أيضاً أنه صديق له،
وطالما قدم له الخدمات الجليلة، ثم استدار إليه قائلاً:

- وجدتها، سأتوسط لك عند السيد فرانكو (Franco) الفرنسي،
فرانكو رجل غني جداً، يستولي على مئات الهكتارات، ويشغل الناس فيها
كالعبيد، وله داخل مدينة سطيف قصر فخم، كما له دارة ريفية يقيمها
على ضفة وادي بوسلام، سأشترط عليه أن يكلفك بالاهتمام بمدينته لا
غير.

اقشعر بدن العربي الموستاش وهو يسمع هذه الفكرة دون أن يرد،
ما بال سي رابح يفر به من اليهودي إلى النصراني؟ كمن فر من الأفعى
إلى الثعبان، هل يقبل أن يكون خادماً عند الرومي[□] المحتل؟ الرومي الذي
يستغل الجزائريين كالعبيد؟ لقد رفضها أجداده على مر الزمن، فكيف
يقبلها هو؟ ردد كل هذه الأسئلة المحيرة في نفسه، ثم ما فتى أن اطمأن واثقا
أن سي رابح رجل طيب وذكي، ولن يختار له إلا ما فيه الخير، ولو كان
أنانيا لأبقاه خادماً معه وما كان ليرفض.

لقد أثارت مدينة سطيف في قلبه رغم كل شيء الدهشة والانبهار، لقد
كانت وهي تجثم على هضبة عالية تحيط بها سهول التربة السوداء المتدفقة
ماء وغلالاً كالجازية الهلالية وهي تجلس عروسة في هودجها المزدان، وكانت
تطوقها حقول القمح المتماوج بسنابله الطويلة كشعر الجازية المتدلي على
كتفيها.

وقد فتح هروب العربي الموستاش إلى المدينة آفاقاً جديدة لم يكن
ينتظرها، لقد بدأت حماته تتأقلم بصعوبة مع المحيط الجديد، وراح هو
يغمس نفسه فيه بقوة ناسجاً علاقات جديدة واسعة، مردداً دائماً قول
المجدوب:

□ - يقصدون بها الفرنسي.

سافرَ تعرفَ الناسُ، وَ كَبِيرُ القَوْمِ طِيعُو
كَبِيرُ الكَرشِ وَ الرَّاسُ بَنصُ فَلَسُ يِيعُو

ولكن رغم هذه القلوب الدافئة التي بنت له عشا من الحبة والود،
وهذه المدينة المتدفقة حياة، إلا أنه لم يستطع الليلة أن يسوق النوم إلى
جفنيه، تدفقت في أعماقه كل عواطف الشوق والحنين والحزن، تقلب
طويلا في فراشه دون جدوى، راح يعيد إلى ذهنه كل الذكريات التي
مرت به، يتذكر أهله فردا فردا، يتذكر العرش شبرا شبرا، يتذكر لقطات
وكلمات وحوادث تثير فرحه وحزنه، فجأة زاره شيطان الشعر، حمل
قصبته وخرج، عند الباب جلس يداعبها مرسلا إيقاعا خافتا حزينا
مرددا:

يا ليلَ خَبَّرَنِي بِاللهِ، ما اقْوَانِي!
كَيْفَ خَلَّيْتُ أَهْلِي وَ جِيرَانِي؟
قَلْبِي لَحْزِينٌ يِكِي ما هَنَّانِي
ما حَمَلُ غُرْبَتِي ما اِحْمَلُ اهْوَانِي
رَانِي غَرِيبَ زَادَتْ اِحْزَانِي
تُكْسِرُوا كَرْعِي وَ زَادُوا جَنَحَانِي
يا ريتني قُمري نُرْفَرَفُ فَالْعَلَالِي
نُظِيرَ مَنْ جَبَلُ جَبَلِ الْعَالِي
نُزورُ أَهْلِي: اِعْمَامِي وَ اِخْوَالِي
نُزورُ الوالدينَ وَ سَيِّدِي عَلِيَّ الْغَالِي
يا ربي لَعَزِيزُ فَرَجِ هَمِّي وَ اهْوَالِي
بِجَاهِ الْعَدَنانِ وَ سَيِّدِي الْجِيالِي

*** ** ** **

عاد فرسان القايد عباس مع الزوال يتقدمهم حميئته وعلى ملاحظهم خيبة مريرة، منذ أن افتقدوا حمامه والعربي وهم يبحثون عنهما، وهم لا يعودون كل يوم إلا خائبين، خيرهم القايد عباس وهو يصيح في وجوههم ذلك الصباح:

- إما أن تعودوا بهما معا أو انتظروا رصاصات تأكل أرواحكم.
ولم يعقب فاندفعوا كالجائنين يسألون كل من يجدون، ويبحثون في كل مكان يشكون فيه، وهامهم يعودون اليوم كما الأيام السالفة من دونهما، تلقاهم القايد عباس خارج بيته، تحت شجرة الزيتون التي توعد الجلوس تحتها، وقفوا أمامه صامتين، صرخ القايد عباس في وجوههم فجأة وقد بدا عليه المرض، وكان في عينيه انتفاخ واحمرار:

- طفل وطفلة يعجزان حميئته الجبار ورجاله؟ عليكم اللعنة.
فانصرفوا متفرقين، وعاد القايد عباس إلى فراشه، لقد ساءت حالته كثيرا، دوخة يمتد تأثيرها إلى العينين، وألم في البطن كله، وطعنات خنجر يحسها في صدره كله، يالتشفي الأعداء فيك يا عباس ياسيد الناس، يا لأضحوكة الأعداء يا عباس يا سيد الناس.

ذلك المساء عاد إليه حميئته بمفرده، جلس طويلا عنده دون أن ينطق، لم يتكلم القايد عباس أيضا، ولم يطلب له قهوة كما تعود تجرأ حميئته وقال كاسرا حاجز الصمت:

- سيدي عباس، عندي خطة جهنمية، إن شئت نفذناها.
ظل القايد عباس يلزم الصمت، معرضا عن النظر في وجهه، واصل حميده:

- فيها حل سحري نعيد به الفارين.
استمر القايد عباس صامتا، لكنه كان يتمنى لو يسرع هذا الحيوان

الجبان في تقديم وصفته السحرية، تنحنح حميدَه وقال:

- نخطف الطاهر بن لكحل.

واندفع القايد عباس يجلس في مكانه محدقا في حميدَه باهتمام دون أن

ينطق، تشجع حميدَه وواصل:

- لا شك أن الشيخ لكحل سينهار ويسلم ابنته ليحمي ابنه الوحيد،

وربما سينقلب ضد أولاد بلخير جميعهم.

قال القايد عباس متحمسا للفكرة:

- أريد تنفيذها الليلة.

قال حميدَه بهدوء، وقد أحس بعودة مكانته المهذرة:

- نريد أن نخطفه مساء وهو عائد بغنمه إلى بيتهم، يمكننا الاختفاء عبر

تضاريس الجبل دون أن يرانا أحد.

وخرج حميدَه ليرسم الخطة لرجاله ويبدأ التنفيذ، ليس أهم لديه الآن

سوى الانتقام من أولاد سيدي علي مهما كلفه ذلك، شاهد خليفة حميدَه

يجتمع مع شياطينه كما تعود أن يسميهم ثم ينطلقون مبتعدين عن بيت

القايد عباس فتوجس خيفة، حركاتهم تدعو للريبة، هل ألقوا القبض على

العربي وحمامه؟

مر حميدَه وأعوانه مدججين بأسلحتهم قريبا من بيت خليفة، انتظر

تحتهم فلم تأت، انتظر أن يسألوه عن زوجته المريضة منذ أيام فلم يفعلوا،

قذف بتحتيته كالحبل يوثق بها قدمي حميدَه:

- مساء الخير سي حميدَه.

ولم يرد حميدَه، ولم يتلفت، واصل خليفة:

- هل قبضتم على الكلب والكلبة؟

- لا، هل يسعدك القبض عليهما، أم يفرحك فرارهما؟

رد حميدَه غاضبا وراح يبتعد دون أن يمهل خليفة، كان على يقين أن

خبيثتهم تسعده، قال حميدَه لأحد معاونيه بغضب:

- هذا الكلب يجب أن يشنق ذات يوم، إنه جاسوس لحساب أصهاره.
انطلق حميدَه وأعوانه يبتعدون، اتكأ خليفة على جدار الحوش، وخلد
القايد عباس لهواجس تتقاذفه كريشة في مهب الريح.
لم يبرح خليفة بيته هذا اليوم، حال زوجته المريضة يبعث على القلق،
صفرة شديدة في عينيها ووجهها، وصحتها تنهار بسرعة كبيرة، خرجت
سلافه الرومية وقفت طويلا أمام الباب تمد بصرها ترقب ظهور خليفة
دون جدوى، وما كادت تراه حتى راحت تسرع الخطو باتجاه بيته، وجدته قد
غرق في إطعام بقرة العجفاء، ماكاد يراها حتى انصرف إليها مرحبا،
ودخلا البيت، قال خليفة:

- أتحمس مصيبة قادمة.

قالت سلافه الرومية وفي عينيها بريق حزين:

- المصائب تتوالى كحبات البرد، ولسنا تحتها إلا كأزهار شجرة ضعيفة،
ماعسانا نفعل يا خليفة؟ ليس بأيدينا إلا المقاومة.
وصمتت، قال خليفة مشيرا بيده:

- تفضلي، تفضلي.

دخلت سلافه الرومية وجلست قرب الزوجة المريضة، كانت ممددة
وكان ألمها في بطنها شديدا، وكان الاصفرار قد اكتسح كل جسدها،
أحست سلافه بالخوف وهي ترى حالتها، رددت في نفسها: لك الله خليفة،
كأنك وجه نحس على زوجاتك.
سأل خليفة:

- هل من حل لمرضها، فكرت في أن أزور بها أحد الأولياء الصالحين،
أو شيخ إحدى الزوايا.

قالت سلافه الرومية وهي تخرج من جيبها صرة صغيرة:

- هذا قليل من البارود سنشعله في رأسها، والله الشافي.
وماهي إلا لحظات حتى كانت الزوجة تجلس مستسلمة في مكانها
حيث كانت، تدور عيناها في جمعتها التي انكمش عليها الجلد، وخليفة
يسندها من الخلف ماسكا جسدها، ضاغطا على رأسها بكلتا يديه، وكانت
سلافه الرومية تحصد بموسى شعر منتصف رأسها الذي لبس أكفانه،
وبمهارة وسرعة راحت تثلم الجلد حتى يتدفق الدم منه، تحففه بقطعة
قماش، وتمعن في ضغط الجلد حتى تتدفق أكبر كمية من الدم، قالت
خليفة مركزة بصرها على الجراح:

- أرايت؟ دمها أسود، إنه المرض يغادرها إلى غير رجعة بإذن الله.

- إن شاء الله.

قالها خليفة مثبتا عينيه في الدم المتدفق وثقته مهتزة مما تفعل سولافه
الرومية، مدت سلافه أصابعها إلى البارود، وراحت تدره على الجراح
قائلة:

- البارود سيمعن في امتصاص المرض، ثم نشعله فيقضي عليه.
أطل الهلع من عيني المريضة، لكنها ظلت مستسلمة، وفي قلبها أمل في
الشفاء، أشعلت سلافه الرومية البارود فارتفعت النار إلى الأعلى،
وانتشرت رائحة البارود والشعر، راح خليفة يمك رأسها جيدا، وقد زم
شفتيه يهم أن يطفئ النار إن هي تجاوزت حدودها، وخبث النار فجأة،
أسرعت سلافه تخمر رأس المريضة جيدا، متممة بأدعية في خفوت، مدها
خليفة في فراشها قائلا:

- بارك الله فيك.

قالت سلافه موجهة نظرها إلى المريضة:

- بالشفاء أختي، كل الذين عالجتهم شفوا.

عند الباب عبرت سلافه لخليفة عن خوفها من مرضها، صمتت لحظة

ثم قالت مشيرة:

- مرض الصَّفِيرِ خطير، في سطيِّف طبيب يهودي ممتاز اسمه قَجْ.
قال خليفة في دهشة:

- يهودي؟!!

- له قدرة عجيبة على شفاء المرضى، وهو طبيب يعامل العرب
بالحسنى يمكن أن تأخذ إليه زوجتك.

رد خليفة وعلى وجهه تعجب واستنكار:

- نحن لا نعالج حتى عند النصارى، فكيف نعالج عند اليهود؟

ومضت سلافه الرومية خارجة، عند الباب حدثها عما رآه من حميله
وشياطينه، وعن شكوكه التي تنتابه حول أهداف تحركاتهم، لم تجبه، رفعت
فيه عينيها مرارا ثم انصرفت، هم أن يعيدها ليسألها عن ابنها يوسف
الذي تغرب منذ مدة، ثم لزم الصمت وعاد أدراجه إلى البيت.

في الغد أسلمت زوجته الزهرة بنت ساعد الروح، ودفنت في موكب
محتشم، بعض من أهلها، وبعض من أهله، علقت سلافه الرومية وهي
تشاهد الموكب: الدنيا بالوجوه والآخرة بالأفعال.

*** **

3

راح سي رابح يتأمل البيت من خارجه صامتا وعلى ملامحه فرح
انتصار، أنهى العربي المُوسْتَأَشُّ كَنسَه من الداخل وراح يدفع أمامه
الأتربة يخرجها متجها بها إلى حفرة صغيرة، قال رابح مشرق الحيا:

- هذا بيتك يا العربي هنيئا لك.

قال العربي المُوسْتَأَشُّ وفي نفسه تختلط عواطف الفرح والحزن،
ومشاعر الانتصار والانكسار:

- هذا عندي قصر، أفضل من بيتنا في القرية ألف مرة.
وردد في نفسه، ولكنه بلا روح، بلا فرح مشرق، ضرب سي رابح على كتفه قائلاً:

- مبارك عليك، سنترك أمر ترتيب الأثاث للنساء، استرح قليلاً سأعود للمدينة، هناك ترتيبات تنقصنا.

استلقى العربي المُوسْتَأْسُ على قفاه، واضعاً راحتيه تحت رأسه، ودمعت عيناه، لقد انقطعت عنه أخبار أهله تماماً، أي مكروه لحقهم بعده؟ وكم هي مرة الغصة التي يتجرعون؟ مامعنى لزواج لا يحضره أخوه الزيتوني، وأخوها الطاهر؟ ما معنى لعرس لا يدوي فيه البارود والطبول، ويتسابق الفرسان، ويرتفع صوت البراح؟ ما معنى لعرس لا يرتفع فيه صوت النسوة يغنين ويرقصن، ويتنافس المدعوون على أكل الكسكس واللحم؟ إنه زواج أشبه بالاغتصاب، ولكن يجب أن يتم، حتى لا يبقى غريباً عن حماته، ولا تبقى غريبة عنه.

لم يتجاوز عدد المدعوين الستة، أبرزهم أمقران الحداد وسي الهادي، ولم يدم بقاؤهم طويلاً حتى بدأوا ينصرفون، قال أمقران للعربي مسراً:

- لاتحمل هما، هذه الليلة تأتي مرة في العمر، اطردها كل الهواجس الشريرة.

ثم أشرق وجهه عن ابتسامة، حتى كادت حدبة الشمة تسقط من تحت شفته العليا وقال وهو يربت كتف العربي المُوسْتَأْسُ:

- يجب أن تثبت رجولتك الليلة، الرجل من الليلة الأولى.
دخل العربي المُوسْتَأْسُ على حماته، بخطوات خجولة حزينة، كانت الغرفة مضاعة بشمعتين، وكانت عطور زكية تملأها كأنما تترادف من السقف، وكانت حماته تجلس في الزاوية موشحة بعجارها الأبيض، دون أن تبدي حركة، جلس إلى جوارها بهدوء، رفع العجار عن رأسها، بدت له

قمرا دريا، لقد أعدتها لآلاً تركية[□]، كما تعد حوريات الجنة، قال العربي
المُوسْتَأْسُ بِصوت خافت كأنما يخشى أن يجرح صمتها:
- حملامه.

وارتمت برأسها في صدره، تجهش بالبكاء، كأنما كانت تنتظر كلامه
لتهمي عيناها، طوقها بذراعيه، حق لها أن تبكي، أن تنتحب، أن تهمي، أن
تندلق كما السماء الكئيبة، لا يستطيع قلبها العصفوري أن يصمد أمام
توحش الصيادين، أن يتحدى جبروت النسور والصقور، ظلت صور أبيها
وأما وأخيها والقرية جميعا تلح على مخيلتها، أسئلة حارقة ذابحة ظلت
تطاردها، لم تستطع هدهدة لآلاً تُرْكِيَه أن تقمع الحزن فيها، لآلاً تُرْكِيَه التي
تشبه البلسم، ظلت تتناثر على قلبها روحا من الحب وريحانا من العطف،
ظلت تنازّل على قلبها المرتعش رذاذا من التحدي والصبر، وحكت لها
كثيرا عما لحقها من المآسي لتعتبر وتصمد وتواجه.

لم تنفصل عنه، ولم ينفصل عنها، باتا كتلة واحدة، ناما متعانقين، دون
أن يتفوه أحدهما بحرف مع الآخر، باتا يجتران الأحزان، والألام، والهموم.

لِمَ تقسو علينا أيها الدهر دون رحمة؟

لم تلاحقنا لعناتك في كل لحظة من حياتنا؟

لم تعمى عن الظالمين والمجرمين؟

هل أنت ظالم مجرم أيضا؟

اذهب بعيدا عنا

دع زهرة حبنا تعبق بالشذا

دع طائر عشقنا يخلق في السما

دع فجر عواطفنا يشرق بالسنا.

تناهى إلى العربي المُوسْتَأْسُ صوت سي رابح يناديه، اندفع واقفا في

□- لآلاً تعني السيئة، وتطلق عادة على المرأة الكبيرة المسيطرة على البيت.

مكانه، لبس ثيابه وخرج، بادره:

- صباح الخير.

- صباح الخير عمي رابح.

أشرق وجهه بابتسامة عريضة وقال:

- مبروك عليك، تعال ستأتينا خالتك تركية بالفطور.

طاطأ رأسه وتمتم بكلمات خجلى لم يفهم حتى هو معناها، دعاه إلى بيت الضيوف التي أقام فيها من أول يوم، جاءتهما تركية مجلب وكعك ما أكل مثله في حياته، قال سي رابح مشجعا ليكسر طبقة الحزن الغليظة التي كست مشاعره:

- لا تحمل هما، عمك رابح معك، غدا يجب أن تبدأ العمل عند الرومي.

ودس يده في جيبه، أخرج رزمة نقود، دسها في يد العربي المُوسْتَأَسُّ وقال:

- هذه مساعدة من أصدقائي، تكفل بجمعها أمقران.

- كثر الله خيركم، أتعبتك معي عمي رابح، أرجو أن يوفقي الله فأرد خيركم.

وصمت لحظات ثم واصل وفي كلامه تلعثم:

- حمامه مكتتبه جدا، بكت البارحة كثيرا، وبكيت من أعماقي أكثر منها.

قام سي رابح وراح يرتدي معطفه الأسود، ويردف القشابية البنية فوقه، وقال:

- قم هيا للعمل، حمامه ستشتغل مع خالتها تركية في الحمام كل صباح، ستضمن مهنة وأجرة، وهي ذي الحياة دمة وابتسامة، لكن الرجال لا يعرفون إلا التحلي.

وخرجا يقطعان الطريق باتجاه المدينة، أوصل سي رابح العربي
المُوسْتَأْشُ إلى مسكن فرانكو، لم يكن في ذهن العربي المُوسْتَأْشُ إلا صورة
الضابط الفرنسي الذي جاءهم يوما وعاملهم بقسوة وتعال، هل يشبهه
فرانكو أيضا، لاشك في أن كل النصرارى سيئون ووقحون وقلوبهم خالية
من الرحمة، وأحس باللؤم وهو يتحول خادما لفرنسي، ستتعذب حتما روح
أبيه وأرواح أجداده، لقد ظلوا يأبون التعامل مع النصرارى، ويعيرون أولاد
سيدي بوقبه وأولاد النش، كيف يسمح هو لنفسه بذلك، وخرج إليهم
كهل ذو ملامح وملابس عربية، فوجئ العربي، قال سي رابح:

- صباح الخير، هذا العربي الذي كلمت بشأنه السيد فرانكو.
ثم نظر إلى العربي، وقال:

- هذا رئيس العمال، سيين لك ما يجب أن تقوم به.
وانطلق سي رابح مبتعدا، دخل العربي المُوسْتَأْشُ خلف رئيس العمال
وفي نفسه حقد على الفرنسيين ورئيس العمال الذي شبهه بالقائد عباس،
بل وعلى نفسه أيضا، كيف سمح لنفسه أن يتحول خادما عند النصرارى
وأتباعهم؟

دخلا مباشرة من البوابة إلى حديقة عملاقة، مكتظة بالأشجار المختلفة
والحشائش والأزهار، وموسيقى الأطيّار، عجيب؟! وأحس نفسه في عالم لم
يألفه، يعيش هؤلاء الخنازير في كل هذه الجنان، وننحت نحن لقمة العيش
من صخور الجبال وأرض البور؟ أشار رئيس العمال إلى قطعة من الأرض،
وأمر العربي المُوسْتَأْشُ بتقليب تربتها كثيرا من توجيهاته الصارمة:

- اسمع يا العربي أنت هنا عامل، عليك طاعة الأوامر وتنفيذها دون
مناقشة، يجب أن تحمل غداءك معك من بيتك كل صباح، حين يأتي السيد
أو زوجته أو ضيوفه إليك أن ترفع رأسك، استمر في العمل وكفى.
ثم مد إصبعه مشيرا إلى سياج حديدي ثخين يفصل الحديقة عن

القصر، وقال:

- إياك أن تعبر ذلك الحاجز.

وراح يبتعد خارجا، وبقي العربي المُوسْتَأْسُ ينفذ أوامر رئيس العمال، كان وهو يقلب الأرض يتذكر حمامه، أين هي الآن؟ هل ذهبت مع تركية للحمام؟ ثم يعيد شريط رحلته داخل المدينة مع سي رابح، الحال فيها مختلف تماما عن واقع القرية، وقفزت إلى ذهنه دار الفساد التي سمع عنها كثيرا ولم يرها، وسأل نفسه، هل هي موجودة فعلا، وأين هي في المدينة؟ وهل حقيقة تضم نساء فئات يحسن ممارسة الجنس؟ واقعشر بدنه وهو يتذكر قصصا يرويها الناس عن شباب ضاعوا وراء هؤلاء النسوة.

طرد عن ذهنه تلك الهواجس وعاد إلى حمامه، خيرا فعل حين لم ينم معها، كان يحلم أن يقيم لها عرسا بهيجا، كان يحلم أن يرمي لكل الحاضرين ثوبها الأبيض وعليه دم بكارتها، كان يحلم أن يسمع النسوة يزغردن فرحا برجولته وبعذريتها، لكن تشاء الأقدار غير ذلك.

ماكاد يخرج مساء حتى تنفس بعمق كأنما كان في جب سحيق، ردد في نفسه، أولاد الكلب ينعمون بأرضنا ويأكلنا الفقر، ماهذا الوضع؟ أهو عقاب من الله على جريمة اقترناها؟

اتجه رأسا إلى الحمام كان في شوق أن يلتقي سي رابح، هو في حاجة ماسة كي يتعلم منه أكثر، حين دخل وجده مع مجموعة يجلسون إلى سي الهادي، الذي رآه لأول مرة يحضر وليمته مع أمقران، كانوا يستمعون إليه باهتمام، وقد كان يحدثهم حين وصل العربي المُوسْتَأْسُ عما اكتشفه علماء فرنسيون بمنطقة مزلق وعين لحنش من آثار تعود إلى ما قبل التاريخ، مما يدل على عراقة الإنسان الجزائري على وجه الكرة الأرضية، ثم أخرج سي الهادي رزمة من الجرائد والمجلات، كانت لأعداد مختلفة، ورغم أن العربي المُوسْتَأْسُ لم ير جريدة من قبل إلا أنه ميز الفرق بينها بسهولة، ذو الفقار

لعمر راسم، والإقدام للأمير خالد، والشهاب لابن باديس، والأمة لنجم شمال إفريقيا.

كان العربي المُوسْتَأَشُّ يتمنى لو أخذ واحدة، لكن الأيدي راحت تتلقفها بسرعة كأنما تتلقف جواهر.

- كل منكم يقرأ ما أخذ ثم يمرره لغيره، أنتم تعرفون ما يعاني أصحابها في سبيل نشرها، وبعضهم يطبعها بتونس.

سأل أحد الحاضرين وعلى ملامحه زهو وافتخار:

- ألا يخاف هؤلاء من عاقبة ما يكتبون فضحا للاستعمار؟

- ليس لهم خيار، بعضهم ينشر أحيانا بأسماء مستعارة، كمنذر القوم، وذو الفقار، والسمهري.

وتشعب الحديث بين الجميع، اكتفى فيه العربي المُوسْتَأَشُّ بالاستماع، وفهم من كلام سي الهادي أنَّ الأوضاع العالمية لا تبشر بخير، وقد تدخل أوروبا كلها في حرب شرسة أكبر من الحرب العالمية الأولى، وهي فرصة للشعب الجزائري للمطالبة بحقوقه التي يتطلع إلى تحقيقها.

حين تفرقوا ليلا، ذهب كل إلى حال سبيله، وعاد العربي المُوسْتَأَشُّ مع سي رابح إلى البيت، وفي الطريق أخبره أن هذا الشاب مثقف درس بتونس، وأنه يطوف بمدن الجزائر لينشر الوعي في صفوف الناس، ولكنه أكثر حضورا لسطيف لأن عائلته منها.

لعن العربي المُوسْتَأَشُّ العداوة التي تسعرها حقارة النفوس وضعتها في قراهم وعروشهم، وتريق دم الإخوة عقودا من الزمن دون مبرر منطقي لها، في وقت يعبث الاستعمار الفرنسي بالوطن وخيراته.

تذكر أبناء عرشه وما يعانونه من ظلم وقهر، أراد أن يرفع صرخة استغاثة لسيدي علي ثم أحجم، هل ستصله استغاثته وهو بعيد عنه؟ وتساءل، هل لهذه المدينة ولي صالح أيضا؟ وسأل سريعا يبدد حيرته:

- ومن ولي هذه المدينة ياعمي رابح؟
- أولاد عامر وليهم سيدي الخير، صاحب البركات والكرامات، ضريحه خارج المدينة، والناس لا يتوقفون عن زيارته.
لم تمض إلا أيام حتى كان العربي المستاش برفقة حمامه أمام ضريح سيدي الخير يقدم القرابين، كأنما يستأذنه في دخول المدينة والإقامة فيها، وفي الطريق وهما عائدان أسر إليها أنه رأى في منامه أن سي رابح أعطاه مفتاحا ذهبيا.

أبدت حمامه اهتماما كبيرا وراحت تسأل:

- هل وجدت من يعبر لك الرؤيا؟

- قال عمي رابح أن الله سيرزقنا طفلا.

قالها العربي فأشرق وجه حمامه فرحا، فعجلت تسأل:

- بركة سيدي علي، وماذا نسميه؟

رد سريعا كأنما كان ينتظر سؤالها:

- بلخير، حتى يكون بطلا كجده.

ولزما الصمت غارقين في بحر الأحلام.

*** **

4

حملت سلافه الرومية صحننا من طعام حضرته هذا الصباح، واندفعت تنحدر باتجاه بيت خليفه، وجدته في الحوش ينظفه من بقايا الأنعام، حين رآها توقف عن العمل، قالت:

- صباح الخير، جئت بك ببطورك.

- لا تتعبي نفسك، توقف المعزون عن الحجى، بقيت الآن وحدي

ياسلافة، أقوم حتى بعمل النساء.

وجلس فجلست ووضعت أمامه الصحن، مد يده للأكل، ولزمت سلافه الرومية الصمت، بيته كبيتها يلفه الصمت الحزين، وتعشش فيه وحده صارخة، قال خليفة:

- قررت أن أبيع كل أنعمي وبهائمي، أرغب في الرحيل، لم يعد يربطني بالقرية شيء.
- وثأرك؟

قالتها ورفعت عينيها عن جنب ترقب رد فعله من ملامحه، قال في نفسه، ما زلت ترغيبين في معرفة ما أخطط له لقتل القايد عباس، أعرف أنك تنافسيني في الأمر، ولكن يجب...

أخرجته سلافه الرومية من تيهه قائلة:
- لقد حضرت خطة لقتل عباس، لكن للأسف الشديد لا أعرف كيف أكملها، أحتاج إلى من يساعدني.

وأسرع خليفة يقول:

- أنا لها، سأكون معك.

وأسقط في يده وهي تقول له:

- لا تستطيع، كنت تنفع قبل موت زوجتك أما الآن فلا نفع فيك.

قبل موت زوجتي أو بعده، وما علاقة زوجتي بالأمر؟ وأي خطة حضرتها سلافه الرومية؟ الشائع أن المرأة سجت إبليس في زجاجة، أما سلافه فتسجن كل شياطين الإنس والجن.

وامتلأت القرية صخباً وضجيجاً يمزقان سكونا يغط في سبات عميق، وهرع خليفة ولحقته سلافه الرومية، وقفا عند الباب، سألت سلافه وهي تمد بصرها حيث تجمع حشد كبير:

- ماذا وقع؟

- لست أدري، إنهم قريباً من بيت القايد عباس.

ركزت سلافه نظرها على بيت عباس وراحت تتنبأ بالذي حدث.
- لعل مكروها لحق بالقائد عباس، حالته مضطربة منذ أيام.
استبعد خليفة ذلك لأنه على يقين أن الموت يختار الشرفاء، أما الأندال والأوباش فيشبعون من الدنيا الدنية، وارتفع صوت أحدهم وهو يخمر تضاريس القرية:

- يا أولاد النش، البُهلي لخضر مات، يا أولاد النش البُهلي لخضر مات.
التفتت سلافه الرومية إلى خليفة قائلة:
- سمعت؟ مات البُهلي لخضر.
- رحمة الله عليه.

قالها واندفع يقترب من الكوكبة يستطلع الخبر.
لم يمت البُهلي لخضر ولكنه قتل، وجد جثة هامدة عند قُرابة سيدي علي حيث تعود أن يبيت ويمارس طقوسه، وعلى جسده علامات ضرب وجر، لعل أحدهم جره من ثيابه خارج القُرابة ونزل فيه ضربا حتى لفظ أنفاسه، قال القائد عباس بصوت مرتفع وقد اجتمع حوله خلق كثير:
- لقد تجرأ أولاد سيدي علي وقتلوا وليكم الصالح، فهل سنسكت عن جرمهم، لا بد من الثأر؟
وارتفعت الأصوات متداخلة:
- الثأر، الثأر.

أمر القائد عباس فأقيمت للبهلي لخضر جنازة ضخمة، تقبل فيها أولاد النش التعازي من كل العروش المحيطة بهم، ورفضوها من أولاد سيدي علي، بل ووجهوا إليهم مباشرة تهمة قتله، وأشاعوا ذلك بين الناس.
دفن البُهلي لخضر على مرتفع من الأرض قريب من المقبرة، وفي الغد أمر القائد عباس بإقامة قُرابة على قبره، مرددا في الناس:
- البهلي لخضر ولينا الصالح، من العار أن يكون لكل العروش قُرابة

ووليٌ وليس لنا ذلك.

وأمر بكتابة عبارته المشهورة عبارتین.

"ياناس ياناس، عباس سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الراس"

"اسمه بالعين يبدأ، والنفوس له تهدأ، يرفع راس بلادنا، ويعز نفوس أولادنا".

يخط مغربي جميل فوق باب القُرَابَة حتى يراها كل من يقصد المكان. وتوافد المئات من عرش أولاد النش إلى القُرَابَة يقدمون القرايين، ويقرأون القرآن، ويقبسون من بركة البُهْلِي لخضر، وكان القايد عباس يصر على الحضور الدائم، طالبا من رجاله وأبنائه وجوب تقديم الطعام للجميع.

ومذ ذلك صار الضريح مزارا للناس كل عام، يرفعون الرايات، ويصنعون الطعام، ويضربون الدفوف، مرددين:

الحمدُ لله القهارُ، ربّ الظلمة و النُّورِ
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى لَبَدُورِ
جِينَاكُمْ زَائِرِينَ يَا سَيِّدَنَا خَضُّورِ
بَارَكْنَا حَيَاتِنَا مَا تَنْحِيبُ وَلَا تَبُورِ

قالت سلافه الرومية خليفة بسخرية وهما يجلسان عند الباب:

- وأخيرا أصبح لنا ولي.

رد خليفة، معنا في السخرية:

- وأصبحت لنا قُرَابَة بقدرة القايد عباس.

ودون أن يسمح لسلافه الرومية بالتعليق واصل:

- ومن قتل البُهْلِي لخضر غير القايد عباس ورجاله؟ أقسم أنه هو

الفاعل.

مخضت الفكرة في ذهنها، حتى هي لاتجد لأحد دافعا لمقتل البُهْلِي لخضر

غير القايد عباس اللعين الذي يستغل مثل هذه الفرص لتحقيق أهدافه الدنيئة، إنه اللؤم أن تمتد يد غدرهم لقتل رجل رباني مسلم كالبهلي لخضر، سيكون انتقام الله شديدا، واصل خليفة في حنق:

- والبهلي لخضر ليس من عرشنا، كيف يتحول وليا لنا؟ وكيف نقيم له قُرَابَة ونزوره ونفاخر به؟ منذ سنوات جاء غريبا واستقر هاهنا معززا مكرما خاصة بعد أن ظهرت كراماته.

لم تجب سلافه الرومية عن السؤال ولكنها غيرت دفة الحديث:

- عندي خطة بسيطة لقتل القايد عباس.

وأسرع خليفة يسأل:

- وماهي؟

قالت سلافه الرومية خافضة صوتها متلفتة خائفة:

- حصلت على كمية من السم، ودس كمية بسيطة له في الطعام تقضي عليه دون أن يشعر، ودون أن يشعر أحد. ضحك خليفة في أعماقه حتى أشرقت ابتسامته ساخرة على شفثيه، وقال:

- لا أريد أن أشترك في فعل الجبناء.

وثارت سلافه الرومية غاضبة:

- أرني رجولتك أيها الشجاع، هذا الخنزير لا يقتل إلا خداعا، والحرب خداع.

قال خليفة وقد ظهر على ملامحه تعال:

- أنا سأقتله في وضح النهار، وأمام الأشهاد، أريد أن أراه يموت عضوا فعضوا، أريد أن أرى روحه التنتة تتختبط في الآثام كما تتختبط جثته في الدماء.

ومد عصاه في تحد وواصل:

أريد أن أغرس هذه العصا في عينيه، في منخرينه، في فمه، في كل فتحات جسده، أن أصرخ فيه: هذه عصا سيدك الشهيد، أبي البطل، وهاهي تلتهمك كما التهمت عصا موسى طغيان فرعون.

وهي عصا أبيه، من شجر البلوط، تكسو مقبضها ضفيرة جليدة ملونة، ورثها أبوه وبعد استشهاده ورثها هو، ليس أعز لديه منها، يحافظ عليها، ويدهنها، ويفاخر بها.

نهض خليفة يغادر إلى بيته، قذفت سلافه الرومية في قفاه:
- رأسك يابسة كرأس أبيك.

عادت به الذكرى إلى أبيه الذي لم يتحد القايد عباس فقط، ولا أبه الجبار السعيد القايد فقط، بل حتى فرنسا أيضا، وقتله عناده في الجبل الأسود، وماذا أساوي أنا مع بطل كأبي، أو مع أسد كأخي الذي دفعته نخوته أن يسافر بعيدا ليشارك في ثورة عين توتة ويستشهد هناك.

*** **

5

كان المساء حزينا على أولاد سيدي علي، لم يعد الزيتوني يبرح البيت، تلفه كآبة قاتلة، لم يعد يقوى على مواجهة الصدمات المتتالية، كلما أجهد نفسه في مواجهة مشكلة برزت له العشرات، لقد تجرأ القايد عباس عليهم كثيرا، وهاهو الملعون يمد يد الجريمة والحقد إلى البُهلي خضر ويقتله ببرودة دم، ثم يتخذ منه ومن مقتله حجة لمواصلة ظلمه، لقد تجرأ القايد عباس ذات يوم على مدهامة بيت الشيخ كُحَلْ لاختطاف ابنته حمامه وخاب أمله، كان العربي المُوسْتَأْسُ أذكى منه، بل وأذكى من جميعا، وهاهو يمد يد شياطينه ليقتل الولي الطاهر البُهلي خضر، وأحس الزيتوني بقشعريرة تصطك لها أجزاء جسده، كيف تجرأ وفعل ما فعل؟

دخلت العُلجَه بنت المَكِّي عليه، وجلست تستند الجدار دون أن تنطق
وكان انتفاخ بطنها بارزا جدا، بلغت الثلاثين وأنجبت سبعا من الأولاد
وهذا ثامنهم يأتي بعد ثلاثة أشهر، لا يخيفه عدد الأولاد، كل يولد معه
رزقه، وليس أجهل من كثرة الرجال في البيت، قالت بنت المكي:

- هل من خبر عن العربي وحمامه؟

تنحنح كأنما يطرد غشاوة الحزن:

- مقتل البُهلي لخضر أنسانا كل شيء، ولكن...

أسرعت تقاطعه:

- البُهلي لخضر ولي صالح وقاتله لن ينجو من عقاب الله، يجب أن
نسأل عن العربي وحمامه لم يتصلا أخشى أن يكون قد وقع لهما مكروه.
وتناهى إليه صوت حمو القبائلي عارضا بضاعته، وصوت الصبية
يندفعون إليه ويحيطون به، وقفزت الفكرة إلى ذهن العُلجَه بنت المَكِّي.
- ألا يطوف حمو القبائلي كل القرى والمدن؟ لماذا لا نسأله عن

العربي وحمامه.

تقبل الزيتوني الفكرة سريعا، فاندفع خارجا، كان هو القبائلي يقف
أمام حماره المحمل بصندوقين خشبيين ممتلئين بملوى الأطفال ومايخص
النساء من ملابس وأدوات زينة، وهو يبيع سلعته مقايضة بالبيض
والدجاج وصوف الأغنام وشعر العنز، سلم الزيتوني، كان ضجيج الأطفال
وصخبهم قد خفت بعد أن اشترى مقايضة ما أرادوا، ثم انصرفوا، جد
الزيتوني التحية، وهم يسحب حمو القبائلي بعيدا عن حماره، قال حمو
وهو يساير الزيتوني:

- عندي فستان مورد لا تستحق ارتدائه إلا لآل العُلجَه بنت المَكِّي،

سيحولها إلى عروس ذات عشرين عاما.

برزت العُلجَه بنت المَكِّي وهو القبائلي يدخل الحوش، فاندفع يحييها

ويعرض عليها الفستان مضيئا:

- طوله خمسة أذرع وشبر وفم كلب.

وساءه أن يرى وجوما كبيرا على وجهها ووجه زوجها، وهو ما لم يتعوده، لعل أمورا طرأت، زمن طويل لم يأت القرية، راح الزيتوني يقص عليه الحكاية من أولها، هروب العربي وحمامه، ومقتل البُهلي لخضر، وجبروت عباس الذي تجاوز كل حد، وضعت العُلجَه طعاما أمام حَمُو وقالت:

- أنت جواب الأفاق ياهو يابني، ووحلك يمكن أن تأتينا بخبريهما.

كان حَمُو في الثامنة عشرة من عمره، ورث المهنة عن أبيه، يأتي من بلاد القبائل متجولا في القرى، يحمل إلى أهلها ما يحتاجون، كان دكانا متنقلا، يحظى بحب الناس وتقديرهم، يبيت حيث جن الليل، ويستريح حيث أحس بالتعب، ويشارك الجميع طعامهم وشرابهم، وهو يقدر أولاد سيدي علي كثيرا مثلما كان يفعل أبوه، عندهم وحدهم يستريح ويطمئن أكثر، يستأنونه على أسرارهم ويستأنهم على أسرارهم أيضا، قال حَمُو وهو يكمل طعامه:

- سأسأل عنهما في كل مكان أحل به، وسأوافيكم بالبشرى إن شاء الله.

قبل أن يغادر حَمُو القبائلي عرش أولاد سيدي علي أرسل إلى العُلجَه بنت المكي ثلاث حبات زلاية مع أحد أولادها، وهو يقدر كثيرا كل أولاد بلخير لما كانوا يحيطونه به من كرم كما أحاط أبوهم أباه بالفضل والعناية، وفي طريقه إلى أولاد النش كان معجبا ببطولة العربي حين فر بحمامه حماية لحبه، وراح وهو يحث السير بحماره يردد في نفسه:

- إن حرمت من حبيبي تَسْعِدِيْتُ سأفعل فعلته، ولكن هل ترضى

بالفرار معي؟

انتبه الزيتوني وهو يقصد بيت الشيخ لَكْحَلْ إلى ضجيج الأطفال يندفعون من الكتاب، وثارَت في نفسه الكثير من الأسئلة الحائرة، لماذا غادر الأطفال الكتاب بمجرد أن وصلوا؟ هل سي الطالب مريض؟ أم أنه غائب؟ ورجح أن يكون مريضا، لأنه تعود أن يخبره عند غيابه، اقترب الأطفال عدوا إلى ساحة القرية، معظمهم كان حافي القدمين، لكنهم ماكانوا يبالون بخسونة الأرض، ووصله اثنان يحمل أحدهما ورقة، قال لاهثا:

- سيدي غير موجود، ووجدنا هذه الورقة في مكانه.

- وفي بيته؟ ربما هو في البيت.

قالها وهو يفض الورقة المطوية، راح يتهاجها وقد غشي الحزن الشديد ملامحه وارتعشت يدها: أعذروني لقد فررت بنفسي تحت جناح الظلام، لا أريد أن أتحول إلى جاسوس عليكم، ضغط القايد عباس ورجاله علي لا يحتمل، بقائي يعني أمرين: إما إن أخونكم، والخيانة ليست من شيم الرجال، أو أن أقتل فتضيع زوجتي وأولادي.

وجلس الزيتوني حيث هو، غير مبال بالصبيين اللذين اندفعا أيضا مبتعدين، وضجيجهما يملأ الفضاء، هاهي ضربة أخرى أيضا، ووصله الشيخ لَكْحَلْ مستفسرا:

- مالالأطفال لم يدرسوا، هل سي الطالب مريض؟

ولزم الزيتوني الصمت، وقد طوى الورقة في يمينه، وراح يضغط عليها بشدة، لحق عيُوبه مع سالم والشيخ البغدادي، عيونهم جميعا كانت مصوبة للزيتوني وفيها أسئلة كثيرة، قال الزيتوني:

- منذ مدة طويلة وعباس الكلب يهدد سي الطالب.

وسألوا جميعا:

- يهدده؟

وواصل البغدادي:

- هل ألحق به سوء؟

- لقد فر سبي الطالب مع أولاده وزوجته، وخيرا فعل.

قالها الزيتوني فتسر بل الجميع بالدهشة، قال عيوبه:

- ولماذا يفر وما دخله هو فيما بيننا وبين أولاد النش؟

وراح الزيتوني يفسر لهم ما خفي عنهم، باسطة الورقة، قارئا ما ورد

فيها، أصاب الجميع وجوم كبير، قال سالم:

- إذا استمر الوضع هكذا سنفر جميعا.

قال عيُوبَه متحمسا:

- أنا سأقتله، أعطني بندقيتك يا الزيتوني وسأقتله.

وصل الزيتوني إلى حل نهائي وسريع، هو من سيقتل القايد عباس،

وداخل عرشه أولاد النش، بل داخل بيته، وليمت هو لا حرج، لأن يموت

هو ويقتل الشر، خير من أن يموت ويفر كل أبناء العرش.

ترك الجماعة حيث هي، وسحب عيُوبَه من مكانه متجها إلى بيته، لا بد

أن يرسله إلى مدينة سطيف ليسأل عن العربي وحمامه، أما هو فسيتكفل

بمقتل عباس الشيطان.

*** **

6

لم يفوت القايد عباس الفرصة، إذ بمجرد أن وصل حَمُو القبائلي إلى

عرش أولاد النش حتى سحبه مع حماره إلى البيت، كان الغداء في انتظاره،

وكان يحاط بترحيب زائد لم يألفه من قبل، أمر عباس أبناءه بتفريغ

صندوق السلع، وراح يدفع لحمو مبلغا ماليا لم يكن يلجم به، قال القايد

عباس ضاحكا:

- وإن شئت اشتريت منك حتى الصندوقين والحمار أيضا.
أكمل حَمُوُ غداه وحمد الله، ونهض يستأذن في الانصراف بعد أن دس
النقود في جيبه، قائلاً:

- كثر الله خيركم وبارك فيكم.

نهض القايد عباس معه مهنتاً، وقال:

- ما اشتريته سأفرقه على الفقراء والمساكين، أنت تعرف ياحمو ياولدي
العزيز أني أبو المساكين.

تلملم حَمُوُ في مكانه متمتماً في سره: لا أعرف هذا من قبل، ثم قال:

- قدرك الله على فعل الخير.

خرج القايد عباس مع حَمُوُ القبائلي الذي كان يتوجس منه خيفة، كان
على يقين أن هناك سرا وراء هذا الكرم الزائد، سأله القايد عباس عن
الطرق التي يسلك، وعن العروش التي يطرق، وحين راح حَمُوُ يسرد له
العشرات منها، مما يعرف القايد عباس ومما لا يعرف، انبسطت أساريره
فرحاً وقال:

- أحتاج إليك ياولدي في خدمة، إني أبحث عن مجرم لعين هرب فتاة
صغيرة، وأنا مكلف بردها إلى بيت والديها، أنت تعرف أني قايد المنطقة،
وفرنسا تكلفني بجل مشاكلها كلها.

فهم حَمُوُ الرسالة، وانكشف له سبب كرمه المتزايد، كسر القايد
عباس صمت حَمُوُ بقوله:

- سأعطيك أضعاف ما أعطيتك الآن، إن جئتني بجزء مكانهما أيها
الرحالة البطل.

وراح يشرح له تفاصيل كان قد سمعها في عرش أولاد سيدي علي،
مؤكداً في كل مرة على مضاعفة المكافأة، أشرق وجه حمو فرحاً وقال:

- إن شاء الله، إن شاء الله، واندفع يغادر العرش يدفع حمارة أمامه، حين

كاد يَخْتفي خلف الجبل التفت إلى بيت القايد عباس وقال بصوت عال:

- تفوه، هل تعتقد أنني خائن أبيع ذمتي بوسخ الدنيا؟

وقفز فوق حمارة الذي اندفع يهرول ناهقا كأنما يعبر عن فرحته بموقف صاحبه.

بدأ المغرب يزحف على النهار سارقا منه وهجه، بدأ الرعاة يعودون بقطعان أغنامهم، تخلف الطاهر يبحث عن شاة ضاعت منه، تسلل بين الصخور متوقعا أنها انزلت في الهاوية، وإلا فإن الذئب قد انفرد بها وغدرها، تناهى إليه سقوط صخور خلف الصخرة العملاقة، إنها عالقة هناك، حين مد رأسه نظرا إلى حافة الهاوية امتدت يد سريعة وأغلقت فمه وأخرى كبلت ذراعيه، ولمعت عينا بندقية في صدره.

- امش دون مقاومة وإلا...

ودفع أحدهم ماسورة البندقية في ظهره، لم يبد الطاهر أية مقاومة، بل استسلم تماما وراح ينفذ الأوامر بحذافيرها، لم يعرف المعتدين الذين كانوا ثلاثة، ولم يعرف سببا لفعاليتهم، وإن كان ظنه قد حام مباشرة حول أولاد النش، حين وصلوا السفح ظهر له حميدَه قائدا للعصابة التي لم يعرف منها سواه، هنا حميده رجاله على نجاحهم، أركبوا الطاهر مقيدا أمام أحدهم وانطلقوا، لم يكن الطاهر يفكر إلا في أمه وأبيه، لقد هاجمتها المصائب من كل حذب وصوب، وفي الوقت الذي كان هو أمل الجميع في الثأر، أو على الأقل في معرفة أخبار أخته وزوجها، هاهو يُخطف أيضا وربما يقتل شر قتلة، وكل هذا بسبب تصرفات أخته والعربي.

لف الظلام الكون سريعا، وصل الفرسان حريصين على إخفاء فعلتهم، وجدوا القايد عباس في انتظارهم، انزلوا الطاهر بعنف وانطلقوا به سريعا إلى بيت جانبي طالما اتخذ القايد عباس لخصوصياته التي لا يعرفها إلا هو وحميده، انصرف الفرسان ووقفوا عند الباب الخارجي، فك

حُمَيْدَه وثاقه، فتتوقع على نفسه مرتجفا باكيا:
- ماذا فعلت لكم؟ أتركوني أرجوكم، أبي وأمي مريضان، سينهاران لا
محالة.

حلق فيه القايد عباس على ضوء الشمعة مليا وعلى وجهه ابتسامة
ساخرة:

- شبيه المرأة، أختك حمامه أشجع منك.

انكمش الطاهر على نفسه خائفا وقال:

- أرجوكم، لا تقتلونني.

انطلق القايد عباس يقول وهو يفتح أصابعه الواحد تلو الآخر:

- سنخيرك بين ثلاثة أمور، إما.. وإما.. وإما.

وانطلق حُمَيْدَه يعددها له بالتفصيل مستعينا بأصابعه:

- أولا: يجب أن تكشف لنا مكان حمامه والعربي نأتي بهما إلى هنا

معززين مكرمين ثم نطلق سراحك معززا مكرما، ثانيا: يأتي أبوك إلينا
بهما هاهنا معززين مكرمين ونطلق سراحك معززا مكرما، ثالثا...

اندفع القايد عباس وهو يجلس على كرسي ويضع ساقه الأيمن على

ساقه الأيسر:

- تبقى هنا أسيرا حتى تموت.

وانفجرا ضاحكين، أغلقا الباب وانصرفا، وبقي الطاهر في مكانه

مرعوبا.

دس القايد عباس مبلغا نقديا في يد حُمَيْدَه وقال رافعا صوته حتى

يسمعه رجاله:

- وزعه على رجالك الأبطال.

قال أحدهم وهو يعيد بندقيته إلى كتفه ويصافح القايد عباس:

- جئنا به كالجرذ.

قال القايد عباس:

- أرجو أن لا أحد شاهدكم، علينا بكنتم السر.

- سرڪ في بئر، تصبح على خير.

قالها حميدَه وانطلق مع الرجال مبتعدين، عاد القايد عباس إلى بيته تمدد في فراشه وقد امتلأ صدره ابتهاجا بما فعل رجاله، كيف لم ينتبه إلى هذه الحيلة منذ البداية، هكذا سيأتيه الشيخ لكحل صاغرا منبطحا، لن ينتظر طويلا سيأتيه غدا مع الصباح، وسينهار أمامه طالبا إعادة ابنه الوحيد، ولن يتردد في كشف مكان ابنته وبطلها المزعوم، طبعاً لا أحد يجروء على تحدي القايد عباس، وإن اضطر سيخطف أيضا الزيتوني، الزيتوني هو العلة القاتلة بأولاد سيدي علي، بالقضاء عليه سينهارون جميعا وسيأتونه صاغرين.

في الصباح حمل الفطور بنفسه للطاهر، وسمح له أن يخرج بعد أن فك قيده إلى فسحة أقمها خصيصا أمام هذه الغرفة للاغتسال وقضاء حاجته، ثم أعاده حيث هو وأحكم إغلاق الباب، استدعى اثنين من أولاده، تبعاه صامتين، طلب منهما أن يراقبا تحركات خليفة وسلافة الرومية، لم يطمئن إليهما أبدا، ومخاوفه هذه الأيام تزداد تجاههما، كلاهما يحمل له حقدًا وشرا، ولعلهما يتربصان به الدوائر.

أقبل حميدَه من بعيد عجلا، تطلع إليه القايد عباس ينتظره بشغف، إن وراء مجيئه الساعة عجلا سرا، حيا حميدَه وقال:

- هل سمعت آخر الأنباء؟

ظهر الاهتمام جليا على وجه القايد عباس وقال:

- خيرا، ماذا وقع؟

- فرسي الطالب هو وعائلته، لم يجده في الصباح.

وراح يسرد لسيدة الحكاية كما بلغته، وراح القايد عباس يستمع

باهتمام بالغ، وحين بلغت الحكاية نهايتها، قال ضاحكا:
- قد نفتح أعيننا صلبا فنرى عرش أولاد سيدي علي خاليا من
أبنائه.

*** **

7

راح أولاد سيدي علي يتوافدون على بيت الشيخ لكحلّ الذي كان
منهارا في فراشه، وقد عض الزمان كل شبر في جسده، لا يسمع منه إلا
أنات يرفع بها صوته من حين لآخر، امتلأت غرفته عن آخرها، وامتلات
الغرف الأخرى بالزائرين والزائرات، وتجمع خلق كبير خارج البيت،
يختلفون مرة ويتفقون مرة أخرى في تحديد الجاني ودوافعه، مبددين أسفهم
للحالة التي وصل إليها الشيخ لكحلّ، انزوى البغدادي مع الزيتوني
وبسط الأمر من جديد، قال البغدادي:

- البلاء يولد دون ضرع.
- لكن بلاء الشيخ لكحلّ ولد بأنيابه.
علق الزيتوني وهو يرمي كتلة الشمة التي كانت تركز تحت شفته
السفلى، قال البغدادي:

- العار لحقنا جميعا، هل فكرتم في حل؟
تنهد الزيتوني كأنما يبحث في أعماقه عن حل سحري وقال:
- أرجح أن كلاب القايد عباس هم الذين خطفوا الطاهر، سأختار منا
جماعة ونقصده غدا في بيته ونضعه أمام الأمر الواقع.
أبدى البغدادي اهتماما كبيرا لهذا التطور وقال:
- فكرة الجماعة جيدة، ولكن كيف نضعه أمام الأمر الواقع؟
أسرع الزيتوني يكشف عن رأيه:

- نقولها له صراحة، إما أن يطلق سراح الطاهر أو نعاملهم بالمثل.
قطب البغدادي جبينه فاهتزت عمامته الصغيرة إلى الأعلى واتسعت
عيناه وقال:

- وهل نقدر على تحديهم؟

- وإلى متى لا نقدر؟ وهل نحن نساء؟

رد الزيتوني بغضب، فمد البغدادي يده إلى الأرض وتناول عودا راح
يمسد جسده ببطء، وقال:

- لسنا كذلك يا الزيتوني ولكننا أضعف من أن نفعل ذلك.

اشتد غضب الزيتوني حتى احمر وجهه وقال:

- لن نكون الأضعف منذ الآن، إما أن يعيد الطاهر أو سأعامله هذه
المرّة بالمثل، سأدفع كل أولادي وأخي سالم ليصيروا قطاع طرق، سأخرب
بيت عباس الكلب، دعونا عليه وانتظرنا انتقام الله لكن الله - استغفر
الله - ...، سأسود حياته وحياة عرشه.

وارتفع صوته حتى لفت إليه الانتباه وانضمت مجموعة من الحاضرين
إليهما، قال عيونه:

- وأنا في صفك، كلفني سأريك ما يسرك ويسر العرش، أيعظن نفسه
رباً؟

قال البغدادي مبدياً ليوثة:

- ماذا لو اتصلنا بعمار شيخ الزاوية؟

قال عيونه بانفعال:

- كلب أكبر وأشرس، والكلب لا يأكل كلبا ياعمي البغدادي.

رد الزيتوني وقد هدأ بعض روعه مؤيدا الفكرة:

- سنذهب إليه أيضا، لن ننتظر منه خيرا، ولكن سنشهده أيضا على
كل ما يمكن أن يقع.

وبدا الحضور يتفرقون عائدين إلى بيوتهم.
لزم الزيتوني وعبوبه الشيخ لكحل، ومع زوجته عقيلة بقيت العَلَجَه
بنت المكي وسروله بنت خليفة.
قالت العَلَجَه لزوجها وهي تتأمل الشيخ لكحل وقد ظهر فاقدًا
للوعي:

- مسكين، حتى سي الطالب فر من القرية.
وضع الزيتوني يده على جبهة الشيخ لكحل وراح يناديه:
- الشيخ لكحل.. الشيخ لكحل.
أنَّ الشيخ لكحل يرد على الزيتوني، وحرك شفثيه دون أن يقدر على
النطق، قال الزيتوني ويده ماتزال على جبهته:
- بخير إن شاء الله، تجلد قليلا.
وتوجه إلى زوجته بنت المكي، مشيرا بإصبعه آمرا:
- اطلبي من بنت خليفة أن تسرع بالحساء، إنه واهن، لم يأكل منذ
البارحة.

وماكاد يكمل كلامه حتى دخلت سرّوله بنت خليفة تحمل في يديها
صحنا فخاريا من حساء المقطّعة[□]، وضعته أمام الزيتوني وعادت فأتت
بالكسرة ذات قطع صغيرة في طبق من الحلفاء، تناول الزيتوني ملعقة
الخشب وراح يحرك المقطعة يبردها، حتى إذا اطمأن إلى ذلك طلب من
العَلَجَه أن تعينه في إجلاس الشيخ لكحل الذي تحامل بصعوبة واعتدل
في جلسته، وراح الزيتوني يغرف المقطّعة في فمه ذاكرا الله في كل مرة.
اجتمع الزيتوني مساء مع ولديه الكبيرين وأخيه سالم، جلسوا
يستمعون إليه باهتمام كبير دون أن يجروا أحد على مناقشته أو الرد عليه،
وقريبا منهم كان يجلس عيُوبه ينقل بصره بين الزيتوني وبينهم، أعاد

□- أكلة شعبية، تشبه الشربة، يقطع فيها العجين خيوطا رقيقة ثم يطبخ في المرق.

الزيتوني حكاية الصراع مع أولاد النش إلى جذورها الأولى، مروراً بمقتل أبيه بلخير، إلى فرار العربي وحمامه، إلى مدهامة بيت الشيخ لكحل، ومقتل البُهلي لخضر، وفرار سي الطالب، إلى اختطاف الطاهر، وقال في نهاية تذكيره:

- لم يعد بمقدورنا أن نسكت، إما أن نتحدى القايد عباس، أو نلبس لباس النساء ونمكث في البيوت.

قال عيُوبَه وقد دمعت عيناه:

- أنت يا الزيتوني السبب، نحن جميعاً ننتظر تحركاتك وأوامرك لكنك لم تفعل شيئاً.

فعلاً الزيتوني هو من كان يرجئ كل شيء، ويتمهل دائماً، غير أن الرياح أبت إلا أن تمعن في الهبوب ضدهم، ليس من السهل أن يتحرك المرء ضد القايد عباس ورجاله وعرشه، لأنه بذلك يعلن الحرب على فرنسا، ولكن لا مناص الآن من المواجهة، مهما كانت النتائج، توجه إلى عيُوبَه وقال:

- مهمتك أن تسافر بحثاً عن العربي وحمامه، فقط.

ابتلع عيُوبَه الأمر وراح يجتره، لماذا يكلف هو بالذات؟ هل هو انتقاص من رجولته؟ وسريعاً هضم الأمر وأشرقت نفسه فرحاً، إنها فرصة لملاقاة حمامه، التي بنى لها ذات زمان عشا من الحب والأحلام، ثم طارت منه فجأة دون إنذار، وتركته يكتوي بنار الوجد.

تطلع إليه الزيتوني كأنما ينتظر منه رداً وقال:

- لم سكت؟

رد عيُوبَه سريعاً:

- أنا لها.

علق الزيتوني بلطف وهو يربت كتفه:

- مهمة البحث تحتاج شابا قويا وذكيا، ومن في العرش كله يقدر على ذلك غيرك؟ أنت لبق ويمكن أن تصل إلى مكان العربي وحمامه أكثر من غيرك، وأنا أضع فيك مطلق الثقة، استعد ستسافر من الغد.
ثم نقل نظره إلى ابنه وأخيه وقال بلهجة صارمة أمرة:
- أنتم يجب أن تستعدوا للانتقام، يجب أن نعلن في الناس جميعا أن بلخير مازال حيا.

ثم خرج يسحب معه عيوبه الذي بدا وهو يتبع الزيتوني ككلب صيد أمين، يرسم في نفسه منذ الآن خطة سفره، ويحلم بالمدينة التي لم يدخلها في حياته، يحلم ببنائاتها الضخمة، بنسائها الجميلات، بمجرميها وقطاع الطرق فيها، يحلم برؤية حمامه والعربي والعودة بهما، أو بخبرهما، فيصير في نظر الجميع فارس العرش.

*** **

8

اندمج العربي الموستاش تماما في الحديقة، صارت عشقه الأول بعد حمامه، يأتيها صباحا مندفعا في شوق كبير، وينزرع في تربتها، يقلبها، يبذر في جوفها الحياة، يداعب أغصانها وأزهارها بلطف وحنان، ينام نهارا في حضنها كما ينام الرضيع في حضن أمه، وتغيرت الحديقة، صارت جنة تعبق بالحياة.

وذا الصباح يتوج ملكا على الكون، والشمس ترسل شلالها عبر أغصان الأشجار الخضراء المطرزة بسبائك الأوراق والثمار، وقد انتشى العربي الموستاش، كما انتشت الأطيوار والسواقي والأزهار، ودق قلبه وهو يتحسس طيفا يقترب منه يعزف على الأرض، رفع بصره قليلا رآها مقبلة من بعيد تدغدغ بساقيها الأعشاب الخضراء، اقتربت منه، تذكر وصية

رئيس العمال: لا ترفع رأسك، اذهب إلى الجحيم أيها اللعين، رفع رأسه بهدوء وقد وصلت إليه كأنه يرفعه في وجه إله، يارب هل خلقتها من الجبن؟ من النور؟ من القمر؟ من الشمس؟ هل هي من حوريات الجنة التي تعود سي الطالب أن يتحدث عنهن، آه سوزان (Susane)...

ووقفت بجواره لم يعد يرى إلا ساقبيها الناعمين، همّ أن يلمسهما، أعاد نظره إلى الأرض مرتعدا، تذكر حمامه، أحسها تصرخ فيه: أيها الخائن اللعين، ومدت أناملها إلى كتفه ترفعه إليها فارتفع كريشة تجذبها نسمة رقيقة، كانت أقل منه بشبر تقريبا، سبحت عيناه في صدرها الناهد، في عينها الخضراوين، في جيدها البلوري، في ثغرها الساحر، وانسجبت تبعث في غنج ودلال، حين اختفت في قصرها أفق من سباته، غشيه الظلام وشمسه تغرب خلف الجدران، عاد إلى الأرض من رحلته السماوية، بسمل وحوقل، تنفس عميقا، كم هي ظالمة هذه الحياة! كيف تتدفق هذه النبعة النميرة السلسبيلة على صخرة صماء مثل فرانكو الملعون؟ كيف يعانق هذا الشوك اليابس زهرة فواحة مثل سوزان؟

اغتسل العربي المُوسْتَأَشُّ مساء، واندفع يغادر الحديقة، عند البوابة اصطدم بفرانكو اللعين وقد عاد ثملا، راح يرحمه بأطنان من السباب المقذع، بدا له كخنزير هرم واهم، يقطر حقدا على كل من حوله، لم يأبه به مطلقا، وراح يهرول باتجاه محل أمقران الحداد، حين وصله وجده مازال منهمكا في عمله، سلم وقل:

- هل أساعدك؟

- لا، اجلس على الكرسي وانتظر لآتيك بالقهوة ساخنة.

جلس العربي المُوسْتَأَشُّ حيث أشار أمقران، وراح يسبح بخياله مع ذلك الملاك، أي ملاك يمشي على الأرض، أكره الفرنسيين ولكني أعشق نساءهم، لو كان الاستعمار كله مثل سوزان ماترددت لحظة لأحبه.

وأخرجه أمقران من سبحاته وهو يجلس بجواره وقد أكمل عمله، قال
أمقران:

- أراك تائها علي غير عادتك، مالذي وقع؟
واندفع العربي المُوسْتَأَشُّ يحكي ماشاهده اليوم، ومبلغ تأثره بالمشهد،
وأكمله ضاحكا:

- وأشبعني فرانكو الخنزير شتما.

- لايجسن إلا أن يشتم العرب الذين هم في نظره أحمره وبغال، ناسيا
أنه أكبر بغل في الوجود.

ارتشف العربي المُوسْتَأَشُّ من فنجانه، وردد في نفسه: يسب العرب
ولد الكلب، العرب أشرف منه ومن كل قومه، ثم هم أن يعود إلى
الحديث عن سوزان، لكن أمقران قاطعه قائلا:

- دعك من النجاسة، سأخبر حمامه.

صرخ العربي المُوسْتَأَشُّ في وجهه:

- إياك يا أمقران يا أخي ستسود حياتي، سوزان هذه ملك من السماء.

فتح أمقران عينيه وأطلق تصفيرة طويلة وقال:

- لا تقل لي هي أجمل وأحلى من وريدة المرقومة.

وريدة المرقومة! وهزته المفجأة، من هي وريدة هذه؟ هل هي عشيقه

أمقران؟ آه أيها الماكر، ولذلك تترك عائلتك بعيدا في الريف، أم هي مجرد

فاتنة في هذه المدينة تبيع جمالها لكل راغب؟

تعالت رائحة القهوة تملأ أنف العربي الموشتاش، أسرع أمقران يبعدها

عن الجمر ويصب فنجانين، ويخوض في وصف وريدة المرقومة، وفي

حكاياتها التي لا تنتهي، ولم يجد العربي الموشتاش مندوحة من أن يستمع

إليه بكل جواره، مقارنا بينها وبين سوزان، مرددا في نفسه: مالي

ولسوزان؟ فعلا قد أعجبت بها، ولكنها لن تنظر إلي إلا مجرد خادم

مستعمر يجب أن يخضع لأمثالها من المحتلين، ومالي ولوريدة المرقومة التي تباع جسدها لكل راغب؟ حمامه أجمل وأشرف وأطهر من الجميع.

بعد الانتهاء من رشف القهوة، دخل أمقران إلى غرفة صغيرة ليغير ملبسه، دخل معه العربي المُوسْتَأَشُّ كما العادة ليذهبها بعدها إلى مجالس الضامة[□]، انهمك أمقران يغتسل، وراح العربي المُوسْتَأَشُّ يقلب أوراقا وكتبا تناثرت فوق مكتب صغير إلى جوار مرقد مرتفع عن الأرض، بعض الكتب كان بالعربية وبعضها بالفرنسية، ومعهما أوراق كتبت برموز لم يفهم منها شيئا، إنها طلاس كالتلاس التي تعود سي الطالب أن يحملها إليهم في كتبه، أو يكتبها حروزا وتماثم للطالين.

سأل العربي المُوسْتَأَشُّ في فضول أمقران الذي كان يحفف وجهه:

- حيرتني أمقران، كم من لغة تفهم؟

- أتتجى العربية والفرنسية فقط.

واندفع يتأمل ماكان العربي المُوسْتَأَشُّ يتصفحها، مواصلا:

- دعك من تفاهاتي، أنا رجل مجنون، لقد رأها سي رابح مرارا

واتهمني بالجنون.

وأصر العربي المُوسْتَأَشُّ على أمقران أن يكشف له السر، ووزع بصره في الحجرة كلها، صناديق موضوع بعضها فوق بعض وقد امتلأت كتبا، هل أمقران عالم أيضا يخفي ذلك عنه؟ هل هو مشعوذ ساحر؟ طالما حدثه فوجهه رجلا مجدا في عمله، لكنه مستهتر بالحياة لا يقيم لها وزنا، فما السر من ورائه؟

جلس أمقران إلى جواره، وأخبره أنه بلحث في الروحانيات، يهتم بها كثيرا، ويسعى لإحضار أرواح أجدادنا الأمازيغ، الذين عمروا هذه الأرض

□ - لعبة تشبه الشطرنج، الأصل فيها أنها لعبة فرنسية، دخلت الجزائر مع الاستعمار، وسريعا تحولت إلى لعبة شعبية.

قرونا قبل مجيء العرب والإسلام، وخاضوا حروباً ضد الرومان والوندال والبيزنطيين، وامتزجوا مع الفنيقيين، وأقاموا دولاً وممالك، وكانت بينهم نزاعات وأحقاد وصراعات، وكانت لهم أسرار طواها الزمن، وهو يسعى للكشف عن حقيقتها، مؤكداً أن ما يراه من حروف لم يفهما هي التيفناغ، وهي الحروف التي كتب بها أجدادنا الأمازيغ منذ بداية التاريخ. ثم نهض وهو يسوي شمة تحت شفته العليا، مشيراً إلى صورة لكومة من الصخور وقال:

- هل تعرف ماهذا؟

وأسرع العربي المُوسْتَأَشُّ يتأمل الصورة جيداً، وقال:

- لا، ربما هي كومة من حجارة.

وراح أمقران يحدّثه عن تَيْنِهَيْنَانَ الملكة المتمرّدة، صاحبة الحكمة والدهاء، الكثيرة السفر والترحال، حتى سميت تَيْنِهَيْنَانَ أي ناصبة الخيام، والتي دافعت عن أرضها وشعبها ضد الغزاة، وما زال التوارق في أقصى الصحراء يتناقلون حكاياتها وأعاجيبها، ومنها أن قطعان الغزلان والنوق كانت تأمن لوجودها وتطمئن لحضورها.

وتقول الروايات أن تَيْنِهَيْنَانَ قدمت من منطقة "تافيالنت" الواقعة بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى ممتطية ناقتها البيضاء، وبرفقة خادمتها "تاكامات" وعدد من العبيد، لتستقر بقافلتها الصغيرة في منطقة "الأهقار" الجبلية بعد رحلة متعبة وشاقة، مليئة بالمخاطر.

وقيل إن قافلة الملكة طال بها السفر ونفذ زادها، وكاد أفرادها أن يهلكوا جوعاً، وفي لحظات صعبة تفتنت خادمتها الخاصة "تاكامات" لقوافل النمل على طريقها، وهي تحمل حبات القمح والشعير، فأمرت تَيْنِهَيْنَانَ بمواصلة الطريق في المنحى المعاكس لمنحى سير قوافل النمل، إلى أن وصلت إلى الأهقار، فوجدت به الأمن والماء، فشيدت صرح مملكتها

هناك.

ويروى بأن تينهياناً استغلت جمالها لتسيطر به سياسيا على منطقة مزدهرة وقتها، وحكمت عددا كبيرا من القبائل التي تنحدر منها جميع قبائل التوارق الحالية، في بلدان الصحراء الإفريقية الكبرى.

كما تروى حكايات كثيرة عن شجاعته وأوصافها الروحية، ومشاعرها النبيلة، وهي صفات جعلت سكان الأهقار ينصبونها ملكة عليهم، وهذا هو سبب انتقال صفات النبل عن طريق النساء في المجتمع الترقى، حتى أن الأطفال في العائلات النبيلة ينسبون لأمهاتهم وليس لأبائهم، كما هو الشأن في المجتمعات الأخرى.

طوى أمقران كتبه، وقال كأنما يستعجل الخروج:

- غير أنني اكتشفت أن مملكتها أول الأمر كانت هنا، نعم هنا، لا يراها الناس لكني أراها، بمجرد أن أستحضر روحها حتى تحضر مملكتها بكل سكانها.

اقشعر جسد العربي المستاش، هل أمقران صحيح معافى؟ أبه مس من الجن؟ وراحَ وهما يسيران معا صامتين يتذكر قرابة جده سيدي علي الولي الصالح، وما كان يراه من حين لآخر في منامه وصحوه، وانقطع الآن عنه كل شيء، إنه غضب الأولياء الصالحين، والكرامات لا تظهر إلا للمخلصين..

في طريقهما التقاهما شمعون المونشو ثملا، صافحاه مسرعين، لكنه أصر على إبقائهما ليسمعهما آخر اكتشافاته.

- لقد اكتشفنا أخيرا مقبرة المدينة، مدينة كوبكول، المدينة الحلمة التي نامت تحت الأرض قرونا، سأثبت لفرانكو اللعين أن جدي كان هناك قبل مجيء أجداده الرومان، وإذ ذاك سأقيم حفلا عظيما أدعو إليه الجميع، الجميع دون استثناء، حتى أنت يا أمقران وأنت يا العربي المستاش.

ومد يده ليمس شاربي العربي لكنه اختل وكاد يسقط أرضا.
تبعد كويكول عن سطيف بأربعين ميلا، وهي مدينة رومانية بنيت
زمن الإمبراطور الروماني نيرفا، بها عدد من المعابد، ومحكمة، ومسرح
يتسع لحوالي ثلاثة آلاف مشاهد، وساحة كبيرة تقع إلى جانب المسرح مبنية
بالحجر، وفي كويكول حي مسيحي به معبد الباتستار حيث كانت تتم
عملية التنصير.

وقد شهدت المنطقة بأسرها صراعا كبيرا بين الرومان والأمازيغ، من
أشهر ذلك المعركة الفاصلة بين يوغرطا وماريوس، كما شهدت نشوب
ثورات، أشهرها ثورة تاكفاريناس الذي كان عضوا في الجيش الروماني، ثم
انقلب عليهم.

جاءت من بعدهم قبائل ريغة القبالة كما يعرفون الآن، وهي من قبائل
زناتة، وكان على رأسهم الملك البربري الشاب المغوار "ألقاتهن"،
والأمير "زيليوس" البطل الشجاع المذكور في الروايات والقصائد
البربرية الشعبية، وهما من أسسا مدينة مزلق، وكانا يهيئانها لتكون
عاصمة نوميديا جديدة، لكن قُتل الملك "ألقاتهن" والأمير "زيليوس"
بالسم غدرا وغيلة، في مأدبة عشاء أقامها الملك على شرف القبائل المنظمة
تحت لوائه في يوم النائر، فترك أتباعهما مزلق وتوجهوا إلى كاستيلوم
فارطانيانس التي هي الآن قصر الطير، لكن أيدي الغدر عاثت في
صفوفهم حتى شارفوا على الانقراض، وقد تم الأمر عملا برأي المنجيين
اليهود الذين أشاروا بذلك، منعا من تحقق النبوءة التي تحكي عن ظهور
القيصر الموعود الذي سيسترد عرش أبيه، ويبنى مملكته على كافة الشمال،
ومن البحر إلى النهر، ثم عصف زلزال سنة 419 م بالمنطقة فدمر كل
شيء.

تم اكتشاف المقبرة داخل مدينة كويكول سنة 1910، وكان العمر

فرانكو يخرج إليها كل يوم محملاً بمعداته، ظل ينتقل إليها بمفرده أول الأمر، ثم صار يلزمه شمعون المونشو، ورغم أنهما يقصدان مكاناً واحداً، إلا أن تنافساً كبيراً كان بينهما، كان شمعون يؤكد أن المدينة بناها اليهود، وهو يبحث في المقبرة عن دلائل تثبت ذلك، وكان فرانكو يؤكد أن كل ما في المقبرة دليل على أن المدينة كانت مسيحية، وأن أهلها جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح.

ما كان كل منهما يخبئه عن الآخر، أن كليهما ظل يبحث عن كنز من الذهب، تشير روايات كثيرة أنه دفن في هذه المقبرة مع جثة إحدى أكبر ثريات المدينة.

** ** ** **

9

كلما خرجت حمامه في الصباح الباكر رفقة لالا تركية إلى الحمام أعادت عليها الوصية: امشي في طريقك دون التفات، ودون أن ترفعي رأسك في أحد، صدقت لالاً تُرْكِيَه ، لقد تغيرت أخلاق الناس في المدن، بمجرد أن تخرج المرأة وتخطو في الشارع حتى ترصدها العيون الثاقبة، الناس هنا خليط من قبائل متفرقة، والنساء أكثر جرأة، لعل ضيق الأزقة وتلاصق المنازل مزق ستار الحياء على بعض الوجوه، قليل منهم يخرجون سافرات تقليداً للفرنسيات، وهن في الغالب اللواتي تعلمن في المدارس الفرنسية، وبعضهن يرتدين لحافاً أبيض، وأكثرهن يخرجن ملتحفات بملاءات سوداء تغطي الرأس والجسد ما عدا الصدر الذي يظل عارياً محدقاً، وحتى فج النهدين الذي تنزلق عليه عيون الرجال طلباً لاكتشاف المخبوء، ولعل المرأة أحياناً تتجراً فتظهر ذراعيها، ليومض بياض اللحم حتى رأس الكتفين والإبطيين، وجميعهن يضعن النقاب.

وكثيرا ما حدثتها الخالة تركية عن أعلاجيب لو وقعت في القرية لسال جراءها الدم الهادر، كأن تشير بقولها: فلانة عاهرة، وبيت فلان لا يعيشون إلا من العهر، وفلان لقيط لا يعرف له أب، وأمه لم تتزوج في حياتها. ولذلك يناديه الناس باسم أمه، وكم كانت فاجعة حمامه كبيرة حين ذكرت لها لآلاً تُرْكِيَه أن هناك بيتا ضخما للزنا يسميه الناس دار الفساد، فيه العشرات ممن يمتهن حرفة البغاء وتشرف الدولة الفرنسية على تسييره. وظلت تتوجس خيفة من هذا المكان على أخلاق العربي المستاش، وهي التي تعرف رغبته الشديدة في المرأة، وما كادت تفتحه في الأمر حتى ثار في وجهها رعدا قاصفا: وما دخلك أنت في هذه التفاهات؟ أنتن النساء كالخنفساء لا تحسن إلا نقل القاذورات، وهددها أن يبقيا في البيت، إن أعادت الحديث عن الموضوع مرة أخرى، وراح يتذكر ملامح حدة المخرومة التي اقتحمت عليهم المقهى دون حياء، ويعيد إلى ذاكرته أوصاف وريده المرقومة التي رسمها خيال أمقران ذات يوم.

حين دخلت حمامه أول أمرها للحمام أصيبت بالدهشة والذهول، صادفتها عشرات النساء العاريات دون حياء على اختلاف الأشكال والألوان، بعضهن كحوريات الجنة، وبعضهن كالساحرات الشمطاطوات، تدخل المرأة أول أمرها محملة بعنادها، ترتقي مع الأخريات منصة طويلة، تنزع ثيابها، تضعها جانبا، وتحمل عتاد الاستحمام وتدخل الحجرة الساخنة، تتمدد على البلاط حتى إذا تعرقت، جاءتها الطيابة[□] وربما اثنتان، فتقوم بدلكها وتنظيف جسدها، ثم غسلها بالصابون، تخرج ملفوفة بفوطة كبيرة إلى حجرة الاستراحة، حتى إذا برد جسدها وجف لبست ثيابها الجديدة، وأغدقت عليها العطور والطيوب.

والحمام كما ذكرت لآلاً تُرْكِيَه ذو طابع تركي، مغطى من الداخل

□- اسم يطلق على المرأة التي تشتغل داخل الحمام بتدليك أجساد النسوة.

بالزليج المزخرف والملون، وبه أعمدة كبيرة وأقواس ضخمة، به غرف، إحداها ساخنة للاستحمام، وأخرى باردة للراحة وتغيير الملابس، وبينهما ثلاثة صغيرة للاستراحة، وفي الزاوية اليسرى غرفة صغيرة تسمى غرفة العرائس، وعند الباب تجلس عادة لآلاً تُرْكِيَه، تعطي الأوامر للخدمات وللزبائن، وتقبض الأجرة من كل من تغادر، وهي لا تغفل عن شيء، ولا يفوتها أمر أبدا، تراقب الداخل والخارج، وتتابع حركات النسوة، وتدعو إليها في كل مرة واحدة من خدماتها لتنبيهها إلى امرأة منحرفة، قد تشكل خطرا على المستحبات.

عند المدخل بابان، باب داخلي وآخر خارجي بينهما سقيفة زينت بأعمدة مصفورة، تنتظر النسوة فيها أزواجهن عند الانتهاء من الحمام، وخلف لآلاً تُرْكِيَه نافذة صغيرة تمد منها رقبتها من حين لآخر آمرة العامل الذي يهرع بسرعة لتنفيذ الأوامر، يضيف كميات الفحم، أو يعدل من حرارة الحمام، أو يهرع لإبعاد بعض المتسكعين.

أما يوم العروس فهو حقا مختلف ومشهود، تأتي العروس في محفل بهيج كالأميرة تحتال بين قريباتها، وقد تعلى ضرب الدف، وتلألأت الشموع ورشت العطور، ونثرت حبات الحلوى واللوز.

والحمام نقطة للمواعيد، ونقل الرسائل بين العشاق والعاشقات، بل هو سوق لبيع اللذة أيضا عبر سماسرته المتمرسات، وكثيرا ما كانت تقع المعارك الطاحنة، تبدأ بين امرأتين وتنتهي بين مجموعتين، تشج فيها الرؤوس، وتقطع الشعور، وتمزق الملابس، وتتهافل أطنان من السباب المقذع الذي لم تسمع حمامه مثله في حياتها.

وما أكثر ما تتفنن النسوة في وضع الحناء، في الأيدي والأقدام والشعور، وهو أمر عاد، غير أن ما أثار دهشة حمامه هو تنافس النسوة في الوشم، وللوشم خبيرات يتقنه ويستزقن منه، والنسوة يضعن الوشم على الجباه

والذقن والأفخاذ والنهود أيضا، وكثيرا ما يكون الوشم اسم حبيب وفاء له، أو صورة قلب وسهم، وربما صورة عقرب دفعا للعين، وارتبكت حمامه واحمرت خجلا ولالا تركية تخبرها أن الوشم يوضع أيضا بين الأفخاذ، ليمنع عن المرأة فض بكارتها إذا تعرضت للاغتصاب.

حين دخلت حمامه أول أمرها للحمام أصيبت بالدهشة والذهول، لقد انتقلت إلى عالم جديد كل الجلة عن عالمها، مختلف كل الاختلاف عن محيطها، وأصيبت بالاشمزاز حين تغزلت بها امرأة علمت فيما بعد من لآلَ تَرْكِيَه أنها سحاقيّة، وكم أشفقت عليها حين أقبلت عليها لالا تركية وصفعتها بقوة مرددة: خالجة، وأخرجتها من الحمام نصف عارية تتقاطر ماء، ومد ذاك لم ترها.

ولذلك فإن كثيرا من الأمور غير المحترمة تقع بعيدا عن عيني لآلَ تَرْكِيَه التي لا تتسامح أبدا في ذلك، وهي تردد دائما على مسمع حمامه ما يقوله لها سي رابح: الحمام للطهارة لا للقذارة، وهو مصدر رزق يجب أن يكون حلالا لا مغمسا ببول الشيطان.

وكم كانت دهشتها كبيرة وهي ترى وريدة المرقومة تدخل الحمام ذات يوم، لم يكن يُرى حين دخولها من تحت ملاءتها السوداء إلا عينها السوداءوان كقمرين دريين في ظلمة حالكة، وحين تهاوت الملاءة حواليتها بدت كحورية نزلت لتوها من جنة الخلد، ولم تتمالك النسوة أنفسهن فتهن في جمالها، تسمرت حمامه في فتنها وتذكرت قصة النبي يوسف وتمتت: سبحان الله، وانسلت وريدة تدخل الحمام عارية، وراحت حمامه تتابع الخطوط التي رقت بها رجليها وساقها.

انتهى المشهد دون أن تنطق لالا تركية، لا لشيء إلا لأن وريدة المرقومة تنضبط تماما بأوامرها داخل الحمام، بل وتساهم في فرض الاحترام داخله، ولا تنسى أن تكرر على مسمع لالا تركية وهي خارجة: الحمام حمامنا

ياخالتي تركية، سلمى لي على عمي رابح.
ولألاً تُرْكِيَه مثال للحكمة والتعقل، ذات شخصية قوية مع الجميع
نساء ورجالا، ولكنها أمام سي رابح تصير ريشة في مهب الريح، وبقدر ما
تهابه تحبه، وبقدر ما هو جبار عنيد، هو عطوف رحيم، والناس يروون عنه
حكايات عجيبة، منها أنه كلما رأى فتاة جميلة معدمة تزوجها قائلا وهو
يضحك: الخير كثير، دعوها تقتل الفقر بخيري.

والحمام بعد منتصف النهار يفتح صدره للرجال الذين يقصدونه
بكثرة، وقد تغيرت فيه كثير من ممارسات النساء، ويتحول ليلا إلى مرقد
يقصده الغرباء وعابرو السبيل، يسجلون أسماءهم لتحمل إلى الشرطة
ليلا، ثم يتجاوزون صفا طويلا يقابله صف آخر، وتباع في الحمام القهوة
والشاي والزعر والحار والشمة والسجائر، وتروى الحكايات والقصص،
وإذا كان سي رابح يعمل مساء مستعينا ببعض الخدم فإنه يسند الأمر ليلا
لمن يثق به منهم.

وقد طالت السهرة فيه هذه الليلة، قص عليهم القوال قصة السيد
علي وراس الغول، وقص عليهم قصة النبي يوسف وزليخة، وقص عليهم
قصة بقرة اليتامى، انتشى العربي المُوسْتَأْسُ كثيرا ليس للقصص فهو
يعرفها بأدق تفاصيلها، لكنه انتشى لصوت القوال الذي كان ينغم به
حكاياته، بخلاف سي الطالب الذي كان يقدمها باردة، كما انتشى لصوت
الرباب التي كان يعزف عليها إيقاعات تزرع الروح في الحكايات.

ومذ ذاك قرر العربي المُوسْتَأْسُ أن يظهر عبقريته في العزف على
القصبة، مغنيا أحيانا ما كتبه هو من قصائد غزل في الحب، أو ما كتبه غيره،
خاصة قصيدة محمد بن قيطون في حيزية:

عَزُونِي يَا امْلَاحُ، فِي رَايسِ لَبْنَاتٍ، سَكَنْتُ تَحْتَ اللُّحُودِ،
نَارِي مَقْدِيَا
يَا حَسْرَاهُ عَلَى اَقْيِيْلٍ، كُنَّا فِي تَاوِيْلٍ، كِنُورِ الْعَطِيْلِ،
شَاوِ النَّقْضِيَا
مَا شَفْنَا مِنْ دَلَالٍ، كِضْيِ لَحْيَالٍ، رَا حَتْ جَلِي الْعُزَالِ،
بَا لُجْهَدْ اَعْلِيَا
خَذَهَا وَرْدُ الصَّبَاحِ، وَاقْرُنْفَلُ وُضَّاحِ، الدَّمُ عَلَيْهِ سَا حِ،
وَقْتُ الضَّحْوِيَا
وَالْفَمُ امْثِيْلُ عَا جِ، وَا الْمَضْحَكُ لَعَا جِ، رِيْقَكُ سِي النَّعَا جِ،
عَسَلُ الشَّهَيَا
شُوفِ الرَّقْبَةَ اخْيَارِ، مَنْ طَلَعَتْ جُمَارِ، جَعْبَةٌ بَلَارِ،
وَالْعَوَا قَدْ دَهَبِيَا
صَدْرَكَ مَثَلِ الرَّخَامِ، فِيهِ اَثْنِيْنِ اَتْوَامِ، مَنْ تُفَا حِ السُّقَامِ،
مَسُوهُ اِديَا
فِي ذَا لَيْلِهِ اُوفَاتِ، عَادَتْ فَالْمَا تِ، كَحَلِ الرَّمَقَاتِ،
وَدَعَتْ دَارِ الدُّنْيَا
لَضِيَّتْ اخْتِي لِلصَّدْرِي، مَاتَتْ فِي حِجْرِي، دَمَعَهُ فِي بَصْرِي،
عَلَى اخْدُوْدِي جَرَّايَا
يَا حَفَارِ الْقُبُورِ، سَايسِ رِيْمِ الْبُورِ، مَا طِيْحَشِ الصَّخُورِ،
عَلَى حِيْزِيَا

ولا يملك العربي المُوسْتَأَشُ نفسه فينفجر باكيا، كلما ردد هذه المقاطع
من القصيدة الخالدة، متعاطفا مع سعيد العاشق الذي غدر الموت به
فاختطف حبيته حيزية، مسقطا ذلك على قصته ومغامراته مع حبيته
حمامه.

ماكاد العربي يفتن لتأخر الوقت حتى أسرع يجز سي رابح عائدين،
ليس من حقه أن يتأخر من الآن، حمامه حامل، وموعد وضعها يقترب
بسرعة، ويجب أن يكون قريبا منها دائما، رغم ثقته الكبيرة في الحالة تركية.
حين ناما يتبادلان الدفء قالت حمامه، وقد ترددت كثيرا متخوفة:

- هل سمعت يا العربي بوريدة المرقومة؟

نظ قلبه يفتح مسامعه، وماكاد حتى ثار كالرعد:

- وأنى لك أن تعرفي العاهرات؟

خف صوت حمامه قائلة:

- لاعلاقة لي بها سوى أنني رأيتها اليوم في الحمام، لم يخلق الله مثلها
في الأرض.

وصممت فجذبها العربي إلى صدره، وراح يحلم بوريدة المرقومة، متمنيا
لو تحدثت عنها حمامه طويلا.

*** ** ** **

10

ما كاد العربي المستاش يخرج من العمل مساء حتى انساب إلى ملخور
المدينة أو دار الفساد كما يسميها الناس، ما الذي يمنعه من رؤيتها؟ بل ما
الذي يدفعه لزيارتها؟ هل هو مجرد فضول لاغير، أم هو جمال وريدة المرقومة
وفتنها التي صارت على كل لسان؟ هو على يقين أن لا امرأة تشغله في
الوجود بعد حمامه وسوزان، استدار يمينا، تراءى له باب الملخور من بعيد،
بعض من الشباب يقفون أمامه يعاكسون فتيات شبه عاريات، حين كاد
يقتررب تفرق الجميع، خرج كهل في الستين مخمورا وراح يتمايل بعيدا،
أمام الباب كانت تجلس حلة المخرومة تمص الدخان بشراهة، وقد فقدت
كثيرا من أسنانها وأرنبه أنفها، أصيب بالغثيان وهو يرى هذه المشاهد

المقرفة، هل تعيش وريدة في هذا العفن؟ واستدار راجعا غير مبالي بحدة المخرومة ولا بصوتها المزعج ترفعه طالبة منه العودة، فوجئ بثلاثة فتيان يندفعون باتجاهه، تبدو عليهم علائم الانحراف والجريمة، وقف اثنان خلفه، وتحده الثالث بنظرات صارمة في عينيه، ضرب الأرض بزجاجة خمر فارغة تشظت في كل مكان، أمسك العربي الموستاش عصاه جيدا، يمكنه أن يردي هؤلاء جميعا بضربة واحدة، قال زعيمهم:

- نحن عصابة الموت، وأنا خلاف التيقر، لو عدت ثانية إلى هذا المكان سأمص دمك.

وانصرفوا، فانصرف العربي الموستاش مرددا: عصابة الموت؟ خلاف التيقر؟ يالهم من أنذال أوباش!

ما الذي دفع به إلى هذه المذيلة التي لا ينجذب إليها إلا الذباب؟ هل يتجرأ أولاد بلخير على التمرغ في العفن؟ خير له أن يذهب إلى الحمام، ليس أفضل من أن يجلس إلى سي رايح، هذا الرجل الذي اعتبره منذ أول لقاء بينهما لغزا كبيرا، كلما اكتشف فيه جانبا غمضت فيه جوانب، له شخصية تشبه إلى حد كبير الكهف ذا التجاويف، عالم لا ينتهي من السحر، وجده عند الباب كعادته يجلس على الكرسي الحجري المطرز بالفسيفساء، جلس إلى جواره بعد أن حياه، كان سي رايح حزينا، وكان المساء حزينا أيضا، كأنما انتقلت إليه العدوى، فجأة ارتفع صياح صبية ورجال الدرك الفرنسيون يطاردونهم، كما تطارد الكلاب الأرانب، ويتعثر أحدهم فينهشونه بركلاتهم الحمقاء، غير أبهين بصرخاته المستنجلة، لم يكن لهم من ذنب سوى أنهم تسوروا حديقة أحد المعمرين ليسرقوا من أشجارها فواكه.

إنها مشاهد صارت تتكرر أمام أعين الناس دائما، لم يمر إلا أسبوع على قتلهم شابا مخمورا، حين أفرغ في رأسه ضابط الشرطة ثلاث

رصاصات متهما بجريمة تحرشه بفتاة فرنسية.

لم يكن العربي المُوسْتَأَشُّ في قريته يعرف كل هذه الحقائق، فالفرنسيون لا يشاهدون إلا قليلا، أما هنا في سطيف فيراهم كل يوم، في مساكنهم الراقية، في حدائقهم البديعة، في مخامرهم، في مقابرهم، في كنائسهم الضخمة، الفروق بين الطرفين عميقة، ليس للعرب من هذه الأرض إلا تجمعات لبيوت بائسة كثير منها تأنف من سكنها حتى الكلاب المشردة.

سأل العربي المُوسْتَأَشُّ سي رابح عن تفسير لكل الذي يراه، فراح يحكي كشلال متدفق، حدثه وهو يرسم على الأرض أرض فرنسا وأرض الجزائر، وتحدث طويلا عن الداي، وسيدي فرج، والأمير عبد القادر، وأحمد باي، ولالا فاطمة، وعن كايين (Cayenne).

صدمته الدهشة، من أين لسي رابح بكل هذه المعلومات؟ لا يعرف العربي المُوسْتَأَشُّ عنها شيئا، تذكر ما كان يرويه سي الطالب كلما سأله عن انتهاك الجنود الفرنسيين لأولاد سيدي علي، كان يقول: إن الله في الأزل خلق غرابا وأعطاه صرتين إحداهما مليئة بالذهب والثانية بالقمل، وطلب منه أن يرمي الأولى على رؤوس العرب والثانية على رؤوس النصراري، فأخطأ وعكس الأمر، وكانت أصوات الجميع تتعالى لاعنة الغراب والقمل والنصراري، ويستاء سي الطالب قائلا: هذا وقع في الأزل وستسير عليه الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وحين تتعالى حوله بعض الأصوات رافضة هذا القدر يقول: جزاؤنا الجنة، الدنيا للكفار، والدنيا فانية، أما المؤمنون فعليهم أن يعملوا للأخرة، والآخرة دائمة وسرمدية، وتسكت الأصوات راضية، حاملة بجنات عرضها السماوات والأرض.

عاد العربي المُوسْتَأَشُّ سريعا إلى واقعه وسأل سي رابح عن الحل:
- هل يمكن أن نقبض على الغراب؟ ونفرض عليه إعادة الحقوق

لأهلها؟

تبسم سي رايح بمرارة وهو ينشق من قرنه، وقد فهم مقصد العربي
الموستاش وقال:

- الغراب؟ نفرض عليه أم نترجاه؟ وهل نطالبه بإعادة الحقوق، أم
يقسم الحظين بيننا بالتساوي؟ ومن يستطيع جمع القمل من رؤوسنا، وقطع
الذهب من جيوبهم؟

وراح سي رايح يضحك بمرارة، وراح العربي المُوسْتاشُ يتأمله وقد بدا
له أكثر غموضا، عم يتحدث؟ إنه يهزأ به، نعم يهزأ به دون شك، وغير
مجرى حديثه هروبا من هذا الموضوع:

- عمي رايح ذكرت لي كلمة كايين، هل هي أرض بعيدة؟
وسكت سي رايح مجللا بالحزن، ولكنه حزن ساخر، وتخيله يقول في
نفسه: كأن هذا الأحمق فهم كل ملحدثته عنه، ولم يبق له إلا كايين.
ونهض سي رايح فنهض معه العربي المُوسْتاشُ، يتبعه مستسلما، دخلا
مقصورة الحمام، أشار بإصبعه إلى صورة معلقة عليها كتابة بالفرنسية،
وقال:

- كل ما تراه مرسوما على هذه الورقة هي الأرض، هنا بالضبط أرضنا
الجزائر، وهنا أرض فرنسا، وبيننا بحر.

بحر، بيننا بحر، وما الذي جاء بهؤلاء الملاعين إلينا؟ لماذا لا يتركون أرضنا
ويعودون إلى أرضهم؟ هكذا تساءل العربي المُوسْتاشُ في قرارة نفسه،
وفجأة انتقلت إصبع سي رايح إلى أقصى يسار الصورة وقال:

- هذه كايين، بلاد بعيدة، حين يكون عندنا نهار يكون عندهم ليل،
وهي بلاد ملك للفرنسيين، وقد نفت فرنسا إليها الكثير من الجزائريين
الذين ترمدوا عليها.

وغشيت العربي المُوسْتاشُ أمواج من الحيرة والقلق والخوف والكره،

وتخيل هذه الأرض دون شمس، ظلام سرمدي يعيش فيه المنفيون حتى يقضى عليهم، وفجأة قفز إلى ذهنه دعاء أمه كلما سخطت على أحدهم: أخذك الله إلى كيان، هل كانت أمه أيضا تعرف كايين؟

وتذكر عمه سي محمود، هل أخذوه أيضا إلى كيان، أم قضى شهيدا في المعارك، أم هو الآن يرسف في أحد سجون فرنسا الظلمة؟ سأل سي رابح: - هل سألت عن صديقك الذي اشترك في معركة عين توتة؟

غشي حزن شديد ملامح سي رابح وقال:

- أخي وصديقي العزيز سعدان الغول؟ لقد قضى شهيدا، التهب سعار فرنسا وهي ترى الناس ينتفضون ضدها فأبادتهم بوحشية. صمت لحظات ثم اندفع يحكي كالخبير، والعربي المستأش يركز فيه عينيه فاغرا فاه كطفل صغير يسمع الحكايات العجيبة الساحرة:

- يا العربي يا ولدي، خريف 1916 ضاق الأحرار في عين التوتة وبريكة بظلم النصارى الماكزين، فتجمعوا أول أمرهم في قرية بومعزاز، واتفقوا على إعلان الجهاد، وانتشر النبا سريعا، فتهاطل المجاهدون من كل حدب وصوب، وأسرعت فرنسا تحشد قواتها البربرية، قوات الموت والفناء، قطعت الاتصالات وحاصرت الملتحقين بنداء الانتفاضة، واندفع الأحرار يجربون خطوط الهاتف والتلغراف وحتى الجسور، وهاجموا الفرنسيين واليهود، وأحرقوا منازلهم وممتلكاتهم، وأبادوا عملاءهم في كل مكان، والتهبت الثورة في كل الأوراس الأشم، وصرع المجاهدون نائب عمالة باتنة، وخرَّبوا برج ماك ماهون (Mac-mahon) بعد أن فرت حاميته العسكرية، كما حاصر الأحرار مدينة بريكة كلها.

وأحست فرنسا بالخطر الدائم وهي في قلب أتون الحرب العالمية الأولى فراحت تحشد آلاف الجنود، مدججين بأحدث الأسلحة الفتاكة، بقيادة الجنرال مونبي Mounier، واستعانَت بالطائرات مرتكبة أبشع

الجرائم ضد العزل، انتقاما منهم على الانتفاضة، بعد عامين تقريبا مخدمت جذوة المقاومة، وسأقت فرنسا ثلاثة آلاف أسير إلى معتقلاتها، وصادرت من السكان حتى أقواتهم.

وسكت سي رابح مطرقا وقد ترقرت عيناه بالدموع، لزم العربي المُوسْتاشُ الصمت تقديرا له، واصل سي رابح.

- بعدها بأشهر زرت المنطقة ووقفت على قبر صديقي الشهيد، رحمة الله عليك يا سعدان الغول وعلى كل الشهداء الأطهار.

عادت الحيرة تلح على العربي المُوسْتاشُ من جديد، هل قتل أخوه سي محمود وسي سليمان بن البغدادي حقا كما أشيع، أم أنهما في أحد معتقلات فرنسا؟ أم تم نفيهما في مكان ما من العالم؟ وهم أن يطلب من سي رابح مرافقته للمنطقة للبحث عن سي محمود، ثم غير اهتمامه قائلا:
- وهل سنثور نحن أيضا مرة أخرى يا عمي رابح؟

رفع فيه سي رابح عينيه وقال:

- لا بد أن نفعل، هذا الشعب لن يستكين حتى يطرد الظالمين إلى غير رجعة، فشلت ثورة المقراني سنة 1871، ثم فشلت أيضا ثورة الأوراس 1916، يجب أن نعد العدة لثورتنا نحن أيضا، هذه الأرض مازالت ظمئة إلى دماء الطاهرين.

في الطريق إلى البيت دخلا مقهى العرب، التي كانت كالمكان المقدس لا بد أن يزوره الجميع، جلسا يحتسيان فنجاني قهوة أسرع بهما علال القهواجي بمجرد أن جلسا، ثم عاد ليجلس خلف المحسب طاويا يديه مادا رقبته العارية كنسر هرم نحيف، رفع فيه سي رابح بصره وقال:

- مالي أراك كتيبا ياعلال؟ كأن الأمواج التهمت أساطيلك.

رد علال القهواجي دون أن يتحرك أو يغير وضعيته:

- إبه ياسي رابح، كل الناس وجدت لهم حلولا إلا أنا تركتني تائها

كأبي نواس.

نظر فيه سي رابح لحظات وأصابه تدير الفنجان وقال:

- أنت يا صديقي تطلب النجوم.

أسرع علال القهواجي يجلس إليهما يكاد يهمس في أذن سي رابح:

- حلمي أن أتزوج وريدة المرقومة، وأنجب أولادا كباقي الناس، هل

هذا حرام؟

رشف سي رابح من فنجانه لازما الصمت، واصل علال:

- أو أنني فقير وكبير لا أستحق وريدة المرقومة؟ أعتقد أن الحب لا

يؤمن بالسن والمال.

علق العربي المستاش مؤيدا:

- معك حق، الحب لا يؤمن بذلك فعلا، ولا بد أن تدافع عن حبك يا

علال.

ودون أن يغير علال القهواجي نظره عن سي رابح واصل كأنه لم

يسمع تعليق العربي المستاش:

- أعرف أن الناس جميعا سيحسدونني، علي أن أبقى هكذا أفضل من

أن أحسد فيها فنهلك معا.

ونهض من مكانه فنهض سي رابح والعربي المستاش:

- دع الأمر للمقادير يا علال.

وخرجا، وراح علال القهواجي يتابع انصرافهما وقد بدت على ملامحه

حرقة وأسى.

في الطريق وجد العربي المستاش الفرصة مناسبة ليسأل سي رابح

عن خلاف التيقر وعصابة الموت، راح يقدم له عرضا شاملا عن تفشي

الجريمة في المدينة، وانتشار الإدمان وكثرة العصابات، مركزا على عصابة

الموت التي لا تمتهن إلا الابتزاز والقتل، وراح يقدم له قائمة بالجرائم التي

تنسب إليها وإلى زعيمها خلاف التيقن بالذات، وختم كلامه بوجوب تجنب الدخول معهم في صراع قد لا تحمد عقباه.

بعد العشاء كانت الحيرة بادية على العربي المستأش، تأمله سي رابح طويلاً، هو يعرف أن هذا الشاب الهارب بحبه، المفجوع في أهله وأرضه، يتحمل أكثر مما يطيق، ولكن أي من الناس لم يتحمل؟ قال سي رابح:
- إيه يا العربي لو حكيت لك معاناتي لنسيت كل شيء، فلا تحمل همًا ودع المقادير تسري في أعنتها.

وأعجب العربي المستأش بالفكرة، يحكي له سي رابح عن حياته؟ ذاك ما كان يبغي، فاندفع مشجعاً.

- لا أعتقد أن حياتك أقسى من حياتي يا عمي رابح.

وكانت الليلة ليلته وهو يقص حياته، أو على الأقل جزء من حياته. حتى سي رابح ابن القرية، ذاق مرارة اليتيم مذ كان صغيراً، ودرج في أسرة كبيرة، بقدر مافيها من التعاون والتراحم، فيها من الأناية والصراع، ترك البيت الكبير فراراً من تطلحن ظهر بين إخوته على أشبار من الأرض، دخل سطيف غريباً لا يعرف فيها أحداً، وجد نفسه عاملاً في طريق السكة الحديدية الذي يربط سطيف بقسنطينة والجزائر العاصمة، كم كانت تلك الأيام قاسية! ليس أقسى منها إلا الموت، يعملون كالبعال من الفجر حتى المغرب، كأنهم مساجين ينفذون حكماً بالأشغال الشاقة.

كانت الفترة التي قضاها سي رابح في سطيف كافية لأن ينسج فيها شبكة ضخمة من العلاقات، وتوصل إلى معرفة طباع الناس والجماعات، واطمأن إلى حكم لا نقاش فيه، إذا أردت تحقيق أهدافك فارتق سلم اليهود، إذا صاحبت يهودياً، يكفيك ذلك لتصل إلى الفرنسيين وإلى غير الفرنسيين أيضاً، ولا هم لليهودي إلا أن يحقق هدفه الذي يكون في الغالب مادياً، وهو من أجل ذلك يستعمل لباقة ودهاء كبيرين، فالغاية

عنده تبرر الوسيلة، واليهود في الجزائر نوعان، يهود تواجدوا بالجزائر قبل الاستعمار الفرنسي، وهم أقرب بكثير إلى الجزائريين، وبين الطرفين علاقات عميقة، ويهود جاءوا مع الاستعمار اللعين وفيهم طباعه الغليظة الشريرة.

تقرب رابح في فتوته من يهودي كان يعمل تحت تصرفه، واستطاع أن يكسب ثقته فأرسله ليعمل عند أخيه بقسنطينة، ولم يضع رابح الفرصة فأسرع بالسفر، وهناك انخرط في العمل إلى قمة رأسه، كان اليهودي - واسمه إمبراطور الحمامات - في حاجة ماسة إلى شاب مجد مخلص مثل رابح، الذي استغل كل دقيقة ليتعلم الحياة كل الحياة، كان يعتبر نفسه تلميذا في مدرسة كبيرة.

لقد تعلم الكثير ولكنه خسر الكثير أيضا، كلما ذكر سي رابح هذه الفترة أحس بمرارة في نفسه كلها، أحس أن لا معنى للحياة بعدها، لقد ضيع أول امرأة أحبها، أول امرأة أشرفت على قلبه ثم انطفأت فجأة لتعشش فيه خيبة باردة، ظلما كافرا حقيرا.

لزم سي رابح صمتا مطبقا، نظر فيه العربي المستأش كأنما يجثه أن يكمل الحكاية لكنه توقف، لم يعد لسانه يقوى على الحركة، قرأ على ملامحه عواصف للمأساة، أراد أن يخرج منها فلم يزد على أن قال بحذر:

- عمي رابح.

تنهد سي رابح كأنما خرج من كهف عميق وقال:

- هل تعلم يا العربي أن الحياة هي الحب؟ ولا معنى لحياة دون حب، ولا معنى لقلب لم يخفق حبا، لقد صدق أجدادنا حين قالوا: الدنيا امرأة والأخرة امرأة، إذا أحببتك المرأة أعطتك الدنيا، وإن كرهتك أحرقت عليك الدنيا.

لزم العربي المستأش الصمت تقديرا لمشاعر سي رابح، إذن لقد عاش

قصة حب رهيبة، استمر سي رابح يقول:

- للأسف يا العربي قصتي الجميلة، انتهت بمأساة.

ودمعت عيناه، حقلاً حزن يبكي الرجال غير حزن الحب، ولا ألم يعصر القلب غير ألم الحب، وإذا كان سي رابح يبكيه الحب، فكيف لا يبكي غيره، أراد العربي المُوسْتَأَشُّ أن يغير اتجاه الحديث ليخرج سي رابح من كابوسه المرعب، ليس للرجال أن يبكوا خاصة إذا كانوا في حجم هذا الرجل الكبير، لكن سي رابح واصل الحديث كأنما كان يتمتع به أيضاً، يتلذذ باستمراره، يعاقب نفسه بالألم والعيول:

- حين رأيتك لأول وهلة أدركت أنك هارب بعشقتك، فحميتك، أردت أن أنتقم لنفسي فيك من الزمان الذي خانني ذات يوم.

إلى هنا زالت حيرة العربي المُوسْتَأَشُّ، لقد وصله الجواب الذي طالما حيره، ما السر في اهتمام سي رابح به؟

كان العربي المُوسْتَأَشُّ يفكر في قصة الحب التي عاشها سي رابح، وانتهت بمأساة ذابحة، لم يجروُ على الاستفسار منه، لزم الصمت، الأيام كفيلة بمعرفة الحقيقة.

ودلفت لآلاً تُرْكِيه عليهم الباب تطلب مساعدة، حممه على وشك الوضع، واندفع سي رابح بسرعة خارجاً وهو يقول:

- سأعود ببهجة الولاية.

رمت لآلاً تركية بجبل للعربي وأمرته بتعليقه، فعجل يربطه بخشب السقف لتمسك به حممه كالتأرجحة فيساعددها على الوضع، وأسرعت تسخن الماء، وتعد ثياب القماط، وتحفر حفرة صغيرة وسط الدار، تذرّها بقطع القماش كأنها تعد عشا دافئاً للفرّاح.

علق العربي المُوسْتَأَشُّ الحبل وأعان حممه على الإمساك به، ووقف معهما يتلوى، وقد انتقل إليه ألمها، رافعا عينيه إلى السماء يدعو الله.

11

قرر القايد عباس أن يلعب ورقة أخرى في القبض على العربي وحمامه، وهي أن يستعين بالحاكم الفرنسي ذاته، ولكن ما الذي يقوله له؟ هل يقول له الحقيقة في أن المبرر في القبض عليه هو رغبته في الزواج من حمامه؟ أم عليه أن يلفق له تهمة ما كالتحريض على عصيان الأوامر؟ وما الفائدة من ذلك؟ سيقبض عليه ويزج به في السجن، فعلا وماذا يريد هو غير ذلك؟ ينفى أو يسجن أو يذهب إلى الجحيم، المهم أنه سيتخلص منه إلى الأبد، وستعود حمامه إليه ذليلة صاغرة.

قرر القايد عباس إذن أن يلعب هذه الورقة، لكن لا مندوحة من أن يطلب مشورة الشيخ عمار، بل والاستعانة به أمام الحاكم، فهو أكثر وزنا وأكثر ثقة، بل وأكثر جرأة على مخاطبة الحاكم.

ماكادت الشمس تبسط سطوتها على الأرض حتى شد الرحال إليه، وقف وسط الزاوية مع حميده، وهرع إليه خدام الزاوية مرحبين، كان لطلبة القرآن دوي شديد، وكان الشيخ عمار مشغولا مع بعض المرضى، يرقئهم ويكتب لهم الحروز والتمائم، ويصارع ما سكنهم من شياطين الجن والإنس، وماكاد الشيخ يعلم بوصول القايد عباس حتى ترك كل التزاماته وهرع إلى صاحبه يجالسه أمام موقد كبير من حطب البلوط، ويقدم إليه كل أنواع المشروبات الساخنة.

عند الغداء صارحه القايد عباس قائلاً:

- ياشيخ نفعنا الله ببركتك، جئتك للاستشارة والمساعدة، ولكن على وجهك ملامح غضب وحيرة.

حول الشيخ عمار الحديث باتجاه آخر لم يكن في بال القايد عباس:

- يا أخي عباس، رمضان كما تعلم على الأبواب.
جاراه عباس قائلاً:
- جعلنا الله من صيامه وقيامه.
واصل الشيخ عمار:
- ستنافسنا زاوية أولاد سيدي محسن في تحديد يوم الصيام والإفطار،
وسنختلف كالعادة.
- منذ سنوات طويلة والناس ينقسمون بين الزاويتين، ونحن دائماً
معكم فلم الغضب؟
قالها القايد عباس مؤكداً على مؤازرة الشيخ عمار وزاويته، لكن
الشيخ قال بمرارة:
- أحس أننا سنفقد بعض العروش هذه السنة.
فهم القايد عباس ما يرمي إليه الشيخ، كلما فقدت الزاوية ولاء عرش
معناه أنها فقدت سلطتها الروحية عليه، وبالتالي فقدت دعم العرش
المادي، فقدت ما كان يغدقه الناس عليها من حبوب وأنعام وحطب.
لزم القايد عباس الصمت، راغباً في أن يخرج الشيخ من دوامته، ويهتم
به، وفعلاً هو ما أعلنه الشيخ عمار:
- معذرة شغلتك بمشاكلي عن مشكلتك.
استوى القايد عباس معتدلاً وقال:
- لا يا شيخ عمار، مشاكل الزاوية هي مشاكلنا، ونحن خدامها أبا عن
جد.
- هل من جديد عن العربي وحمامه؟
وفتح الشيخ للقايد عباس بسؤاله هذا ينبوع الحديث عن قصد أو
دون قصد فاندفع يقول:
- يا شيخ لا بد من الاستعانة بالحاكم، الحاكم الفرنسي وحده قادر على

رده إيلنا، لم أعد قادرا على تحديه طويلا، جعل مني أضحوكة أمام الناس.
هدأ الشيخ من روع القايد عباس مستحسنا الفكرة، إن تحدي القايد
عباس هو تحدي الشيخ عمار، وتحدي أولاد النش هو تحد لأولاد سيدي
بوقبه أيضا، واتفقا على كامل الخطة، مراحل تنفيذها ومبرراتها، والنتائج
المرتبة عليها.

تهلل وجه القايد عباس غبطة، لقد أمسك الآن بزمام المبادرة،
واسترجاع حماته ليس إلا مسألة أيام.
قال القايد عباس وهو يودع الشيخ:
- حفظك الله شيخنا، لم تردني خائبا أبدا.
وكانت الكلمة التي انتظرها الشيخ ليضغط على الزناد أيضا:
- ولكنك رددتني خائبا يا عباس.
- حاشا لله، كلنا فداك.

ويدت الحيرة على ملامح القايد عباس، ما الذي خيب فيه ظن الشيخ
عمار وهو الذي ظل داعما له ولزاويته؟ وراح يعيد لذاكرته كل ما مر،
متذكرا كل طلباته، أحس الشيخ بحيرة القايد عباس فقال:
- أراك حائرا، لا يذهب بك الظن بعيدا، ما زلت أصر على أخذ
سلافه الرومية.

وضحك القايد عباس بملء صدره وقال:
- اللعينة، شغفتك حبا، لك أن تذبجها وتسلخها أيضا، ولكن كيف؟
هل تريد أن نخطفها لك؟

وراح الشيخ عمار يشرح خطته بكل تفاصيلها، فبدا أمام القايد عباس
رجلا داهية أكثر مما كان يعرفه عنه، لا شيخ زاوية، وقف القايد عباس
مودعا وهو يقول:

- اطمئن ستكون عندك غدا، سنطبق الخطة بكل حذافيرها.

مساء شرح القايد عباس الخطة جيدا لحميده ورجاله، وبعد يومين بدأوا التنفيذ صباحا، وقد انتشر ما أشاعوه عنها في العرش كله.
داهم القايد عباس وحميده وبعض الرجال بيت سلافه الرومية، أمسكوا بها بقوة غير مبالين بصرخاتها التي وصلت مسامع كل السكان القريين من منزلها، وضعوها مكبلة على حمار، وانطلقوا بها وقد أحاطوها من كل جانب.

حين راحوا يبتعدون، كانت تعليقات الناس مختلفة متضاربة، قال أحدهم للقايد عباس:

- سمعنا أن المسكينة قد جنت.

رد القايد عباس مرسخا الإشاعة:

- سكنها جني خطير، لا بد أن تمكث في الزاوية أياما، لن يقدر على جنيها إلا الشيخ عمار.

وانسحب مبتعدا، وقد اختفى رجاله عن عينيه:

- تخلصنا منك أيتها العاهرة، بارك الله فيك يا شيخنا عمار، وفي عقلك النير.

عاد خليفة سريعا من الجبل فور سماعه بالخبر الذي نزل عليه كالصاعقة، واندesh القايد عباس وهو يشاهده مقبلا من بعيد هائجا، فحث خطاه يقترب من بيته، يمكن أن يحتمي بأولاده وحتى بكلابه مادام رجاله غائبين الآن، خليفة مجنون كأبيه، ولا يؤتمن جانبه أبدا، صرخ خليفة في وجهه:

- اتق الله يا عباس، يداك ملطختان بالدم، وضميرك ملوث بالآثام، اتق الله يا عباس، سلافه زوجة أبيك، وحرمتها من حرمتك.

انصرف القايد عباس مبتعدا خطوات ثم نظر إليه وقال:

- وهل للعاهرة حرمة يا مجنون؟ ثم ما دخلك أنت مادامت هي زوجة

أبي؟ سيكون الدور عليك في المرة القادمة يا مجنون، يجب أن أظهر العرش منك ومن جنونك، اذهب عليك اللعنة، اذهب عليك اللعنة.
واندفع يدخل البيت، وانحدر خليفة يملأ سمع النهار شتما وسبابا مقذعا في هستيرية شديدة كأنما اختل عقله، لا بد أن يصل سكان العرش فردا فردا ليكشف لهم الأعيب القايد عباس وجرائمه، لا أحد يستطيع أن يوقف غطرسته إلا اتحاد أولاد النش ضده، إن القايد عباس وصمة عار يجب التخلص منها في أسرع فرصة.

** ** ** **

12

وصل الزيتوني والبغدي صباحا إلى زاوية سيدي بوقبه، وقد قادا معهما كبشا هدية للزاوية التي يعرفان جيدا دورها الجليل لدى السابقين، ولم يطل انتظارهما حتى استقبلهما الشيخ عمار، وأحسن ضيافتهما، آثر الزيتوني الصمت هذه المرة، قال البغدي دون أن يد يدعه إلى فنجان القهوة:

- ياشيخ أنت تعرف ما وصلت إليه أمورنا، وتعرف ظلم القايد عباس لنا.

ظهر الغضب على الشيخ عمار، لكنه لم يصرح به، راح البغدي يشرح له كل صغيرة وكبيرة، محاولا استمالة قلبه، مركزا على ما آل إليه حال الشيخ لكحل، مسد الشيخ عمار لحيته التي خطها الشيب من كل ناحية وقال:

- أعتقد أن ما تقولونه هو مجرد اتهامات، القايد عباس وضعته الدولة الفرانساوية لحماية الناس وليس لترعيهم.
طبعا أولاد سيدي علي جميعا لا يملكون دليلا واحدا على ما وقع

ضدهم من جرائم، لا أحد يقدر أن يثبت أن قاتل بلخير هو القايد عباس ورجاله، ولا أحد يثبت أيضا تورطه في قتل البُهلي لخضر، ولا في خطف الطاهر بن الشيخ لكحل، نكس الرجلان نظريهما والخيبة تعصرهما، أحس الزيتوني بمرارة القهوة في فمه فوضع الفنجان، وقال:

- ألا ترى هروب سي الطالب ورسالته التي تركها يتهم فيها القايد عباس دليلا كافيا؟

- ولماذا لا يكون سي الطالب كذابا؟ علمنا أنه كان على علاقة بحمامه، فلما خشي افترض أمره فر ليل فرار الجبناء.

تحيز الشيخ عمار للقايد عباس، وتحامله على سي الطالب، بل وعلى شرف العرش كله واضح ولا يحتاج إلى دليل، والاستمرار في جداله لا معنى له، قرر الزيتوني أن ينصرف، لافائدة من الاستعانة به، هو كان يعرف هذا الموقف مسبقا ولولا إلحاح البغادي ما حضر.

هل يمكن أن تخفى جرائم هذا الكلب، وهو الذي لم يرحم حتى زوجة أبيه سلافه الرومية، ولم يرحم زوجة خليفة التي أرباها قتيلة جهارا نهارا، وتشجع البغادي قائلا:

- وقتله الرِّيحُ بنت إبراهيم أمام زوجها وابنتها، هل تنفيه أيضا ياشيخ؟

وثار غضب الشيخ عمار حتى أنه لم يحسن ترتيب كلامه:

- ومن أدراك أنه قتلها؟ هل منكم من شاهد ذلك؟ ونهض الرجلان يغادران وقد جللتهما الخيبة المرة، واستمر الشيخ عمار يقول:

- وحتى لو قتلها هذا أمر يخص عرش أولاد النش ولا يعني أحدا آخر، عباس هو سيد العرش، وهي امرأة، وليس من حق المرأة عصيان الرجل، خاصة إذا كان سيد قومه.

عاد الرجلان يجران ألما شديدا، لقد خيب الشيخ عمار ظنهما، كان الشيخ البغدادي يغلي كالرجل، عجيب بعد أن كانت الزاوية ملاذ المظلومين والمضطهدين، صارت اليوم معقلا لدعم الظلم والفساد، تنحح الزيتوني كأنما يحث رفيقه على الكلام، قال البغدادي للزيتوني وهما يهبطان تل الغربان:

- لقد خيب ظننا.

- الكلب لا يأكل أخه يا البغدادي، لو أخذت برأيي ما ذهبنا إليه.
ندم البغدادي على ما أقدم عليه، تمنى لو أخذ برأي الجماعة، لا ينفع مع هؤلاء الكلاب إلا استعمال العنف، وهم الآن مخيرون بين أمرين، إما المواجهة بالقوة، وإما الاستسلام للذل والهوان، ليس هناك طريق ثالث، فرنسا لن تتخلى عن خادمها الأمين وتضع يدها في أيديهم، ما يهمها هو مصلحتها لا الحق، والزاوية التي ظلت لعقود منارة للخير والعدل والتقوى هاهي تنحرف لتقف مع الظلم.

أدرك الجميع وهم يستقبلون العائدين خيبة المسعى، قالت العُلجَه بنت المكي:

- ليس لنا إلا الله، اللهم خذهم كما أخذت فرعون وهامان.
اشتدت حالة الشيخ لكحلٌ تدهورا، وأمسى نفسه ضعيفا، وحرارته متدنية، وانقطع عن الأكل تماما، لا يمر على بلعومه إلا الماء، ولا يردد على لسانه إلا اسم ولده الوحيد.

اشتد حزن الجميع متحلقين من حوله، بعض النساء راحت دموعهن تنهمر، ومع المغرب وصلت كل بناته المتزوجات هنا وهناك، عرض الطعام فلم تمتد إليه إلا بعض الأيدي على حزن، تكوم بعض الرجال في غرفة مجاورة وشرعوا يقرأون القرآن جماعيا وبصوت عال، وظل عيونه عند رأس عمه لكحلٌ لا يكف عن ترديد سورة يس، كان على يقين أنها تخفف

خروج روحه وتطهره من الذنوب، إن سمحت له المأساة يوماً أن يرتكب ذنوباً.

في الثلث الأخير من الليل أسلم الشيخ لكَحَلِّ الروح إلى بارئها، أجهشت زوجته عقيلة بالبكاء، ثم صرخت كأنما تسعى لتمزيق خيمة الليل البهيم مرددة:

- أينك يا حمامه يا الحبيبة لتري ما حل بأبيك؟ أينك يا حمامه يا الحبيبة لتودعي أباك؟ أينك يا الطاهر يا ولدي، لقد خرب البيت يارب، خرب البيت يارب... ياسيدي علي يا سيد الطاهرين الصالحين، يا حمامة يا الطاهر، يا....

وحولها تعالى البكاء والعيول، ولطم الخدود، وترديد مناقب الميت، وبات الرجال يقرأون القرآن دون توقف.

بعد الظهر حمل الرجال الجثة وقد ارتفع تهليلهم وتكبيرهم، وفي البيت ارتفع فجأة العويل والنواح ولطم الخدود، كان الحشد كبيراً في المقبرة، حين فرغوا من صلاة الجنائز، انزوى بعضهم بعيداً وانطلقوا يقرأون سورة يس، أتموها مع انتهاء الجميع من مراسم الدفن، وعادوا وقد امتلأ الكون أمامهم حزناً وألماً.

لقد حكم الدهر من الآن على عقيلة أن تبقى وحيدة، وحكم على عيُوبَه أن يؤنس وحدتها إلى ماشاء الله، وحكم على الزيتوني أن تزيد همومه وأتعبه.

لم يبق في البيت مع المساء إلا أقرب المقربين، غشي الكون ظلام دامس، خلد أكثر الحاضرين إلى النوم متكومين في أفرشة ضيقة، يتقاسم الخمسة منهم غطاء واحداً، ومخدة واحدة بطول الذراعين أو أكثر، بات الزيتوني مستيقظاً تصك أذنيه أنات عقيلة وقد غار جرحها إلى ما لانهاية، وأنات بعض بناتها ممزوجة بنباح الكلاب كأنما تشترك مع الجميع في سنفونية

الحزن، بعد منتصف الليل سرق النوم الزيتوني متشنجا، وحين فتح عينيه فجرا، أحس بثقل شديد في ذراعه اليمنى، حاول أن يحركها دون جدوى، واكتشف صباحا والناس يحيطون به أن ذراعه قد شلت.

*** **

13

عاد رابح من العمل مساء السبت، كان العمل في السكة الحديدية مرهقا متعبا، وبدا رابح على غير عادته مريضا مهموما، تقدم منه رئيس العمال يستفسره عما أصابه فغير حالته من الجد والنشاط والحيوية إلى الخمول والضعف، ثم سرحه ليستريح، وانطلق رابح يغير ثيابه عائدا إلى الأكواخ التي بنوها لإقامتهم ضواحي المدينة، حيث استحم وانتقى ما رآه مناسبا من ملابسه، وحشا جيبه ببعض الفرنكات وانطلق إلى المدينة.

تلقيه أحد أصدقائه، وترافقا باتجاه مقهى العرب حيث تعودا الجلوس ولعب الدومينو، أطل رابح داخل المقهى، كانت الأفرشة مكتظة بالناس يتجمعون في ثلاث حلقات غارقين في ألعابهم لاعبين ومشاهدين، داهمته رائحة الأجساد العطنة فأسرع يسحب جسده، نبهه رفيقه إلى طاوله وكرسيين في الزاوية، سحبه رابح معه خارجا مشيرا بإصبعه يقول:

- فلنجلس خارج المقهى.

جلسا يمين الباب، تمايل الكرسي برابح فسقط أرضا، وأسرع إلى الطاولة الثانية، قال الصديق:

- لقد سمت، عجز الكرسي عن حملك.

علق رابح بحسرة:

- يا صديقي، هذا من سوء طالعي، حتى هذا الكرسي المتسخ أبى أن

يحملني.

وأسرع إليهما علال القهوجي صارخا:

- الكراسي لبني البشر وليست للبقر.

وأسرع يرتب الكرسي في مكانه، متلفتا إلى رابح قائلا:

- ما تشربان؟

ضحك الصديق وقال:

- بيرة.

رفع فيه علال القهوجي عينيه بغضب، وبدا أكثر بشاعة، وقد ظهرت

أسنانه المتهترئة من أثر التدخين والخمرة، وقال:

- البيرة يشربها الأسياد لا الجبناء.

وأسرع إليهما بقهوتين من مغلاته الصدئة، وضعهما على الطاولة

وقال:

- اشربا قهوة كالنساء.

وراحا يرتشفان قهوتيهما على مهل يجللها الصمت، غير مباليين

بتصرفات علال ولا بصياح اللاعبين الذين ملأوا المقهى، ولا بأدخنة

سجائرهم التي حولت النافذة حيث يجلسان إلى مدخنة كبيرة، ملامح واحدة

كانت تملأ على رابح حياته، إنها ملامح حليلة المتسولة، ذات اللون

الأشقر والعينين الخضراوين، وتناهى إليه فجأة صوتها تسأل الناس،

وأسرع الصديق ينبهه:

- هاهي قد اقتربت، ومعها امرأة أخرى.

مد رابح عنقه باتجاهها وهو يقول:

- نعم سمعتها، تشممت رائحتها حين خرجت من بيتها.

تأمله رقيقه بجيرة وقال في نفسه: لا يلام العاشق، واقتربت حليلة أكثر

فنهضا معا، قال الصديق:

- إن معها امرأة عمياء.

ودون أن يحول رابح عنها نظره قال:
- إنها أمها.

قال الصديق متمتما:

- متسولة وأمها عمياء؟.... ولكنها فاتنة.

حين وصلت إليهما، أمسك رابح بيدها وراح يبعتها عن الجميع،
ولحق به رفيقه، قالت حليلة غاضبة:

- ابتعد عن طريقي أرجوك، لا تغلق باب الرزق في وجهي.

قال رابح كالمسترحم:

- يا حليلة، أرغب في الزواج منك، مذ رأيتك أحببتك، حرام أن يتسول
هذا الجمال.

ونظر في أمها وراح يقول:

- ما رأيك ياخاله، أليس أفضل لها من هذا التشرد الذي تعيشه؟

سكتت الأم العمياء فردت حليلة المتسولة:

- سأقبل يارابح بشرط واحد.

اندفع رابح يجيب:

- كل شروطك مستجابة، أنت...

لم تسمح له حليلة ليسترسل في كلامه فقالت مقاطعة:

- أن تبقى أومي معي.

وتفجر الفرح ينابيع من وجه رابح وهي تزف إليه البشري، وهل يقدر
على ترك أمها المكفوفة، ليس لأنه يحب حليلة فقط، بل لأنه صاحب
أحاسيس ومشاعر جياشة، يشمل عطفه الناس جميعا دون استثناء.

وخرج علال القهوة يزرع المتسولة بعيدا عن مقهاه، صابا عليها
أطنانا من السباب، شرب رابح قهوته دفعة واحدة، وقام غاضبا في وجه
علال الذي ماكاد يرى ذلك حتى انسحب داخلا، ولحقه رفيقه فاتكأ على

المحسب الهرم المسود الذي تمايل حتى كاد ينهار ثم اعتدل، نقده رابع ثمن القهوتين وخرج.

كانت حليلة وأمها قد ابتعدتا، لم يعد يرى طيفها ولا يسمع نداءاتها، ولم تَمْضِ إلا أيام حتى تم الزواج، الذي لم يتمتع رابع به طويلا، لا بد له أن يرحل إلى قسنطينة للعمل تاركا حليلة وأمها في البيت الكبير مع أخوته، لا أحد يعرف حقيقة حليلة، ولكنهم ظلوا جميعا ينظرون إليها على أنها غريبة، ولا شيء عمق هذه الغربة غير جمالها الذي أثار في نفوس كل النساء اللواتي يحطن بها حسدا وغيره، وملأن قلوب الرجال حقدا بوشاياتهن المحكمة النسج.

أقسم أخو زوجها ذات مساء بارد عليها وعلى أمها أن يغادرا البيت، وانهال عليهما ضربا بعصاه التي يرمى بها غنمه، راحت الأم العمياء تصيح فيه وقد شق قلبها عويل ابنتها:

- ارحمها إنها حامل، وأين نذهب في هذا البرد؟

وغادرتا البيت على كره، كان الظلام قد بدأ يغلف الطبيعة، وزاد من حلكته ثلج مسعور، دخلت أول بيت صادفها على بعد مئات الأمتار، مترنحة تحت حملها، ساحبة أمها خلفها، عند الفجر لحق بها أخو زوجها وقد علم بوجودها هناك، هدد ابن عمه بالقتل إن هو آواها قائلا:

- لقد طلقتها، فكيف تأويها عندك..

وبدأت حليلة وأمها مسيرة العذاب عائدتين إلى سطيف، في الطريق أنجبت بنتين، ماتت إحداهما من شدة البرد، دستها في المكان ذاته ورحلت، أسئلة حائرة ظلت تطرق رأسها، هل تعود للتسول الذي أخرجها منه رابع؟ أم تخضع لإغراءات الساقطين وتصير مجرد ساقطة وهي التي فضلت ذات يوم التسول على الدعارة؟ هل تنتظر رابع أم تنساه؟

وقررت ذات صباح أن تلحق به إلى قسنطينة، لا بد أن تجده، أن تقص

عليه الحكاية من أولها، ليس يهمها أن ينتقم لها، ولكن يهمها أن تعود إلى حبه، إلى قلبه العاشق.

وكم خيبتها الأيام! لم تجد رابح، بحثت عنه في الحمامات، في الأسواق، في البيوت الشعبية القذرة، قدرها أن تُعَبَّ المأساة دائماً، ووجدت نفسها عاملة في بيت من بيوت الأغنياء، لا بد أن تعيش من أجل رابح، ولا بد لابنتها أن تكبر عزيزة كريمة كما كان يحلم رابح حين حدثها عن المستقبل الذي يريده لأبنائه.

سكت سي رابح، لن ينسى هذه المأساة وما ينبغي له أن ينساها، كانت حليلة أول حبه، وكانت حليلة آخر حبه أيضاً، وليس من السهل الآن أن يروي كل حكايتها، كل جزء منها هو حكاية، وكل جزء منها هو فاجعة تمزق القلب، وليس من السهل أن ينساها، حب يُنسى هو حب زائف، حب يُستبدل هو حب مغشوش.

قال العربي المستأش وقد تجمد أمام قصة رابح كصخرة صماء:
- ماكنت أعتقد أن الكبار يجون، أدركت الآن أن لا كبير أمام الحب، قلب الإنسان يجب أن يخفق بلحب حتى يموت، القلب العاشق لا يفنى ولا يموت.

نظر فيه سي رابح ملياً وقال بحسرة:

- لقد بحثت عنها في كل مكان دون جدوى، ومازلت أبحث ولن أنساها حتى ألقى الله، ولقد ناصبت مذ ذاك أهلي العداء فلم أعد إليهم من يومها، وما سمعت بقصة عاشقين إلا هرعت للجمع بينهما وحماية حبهما.

وأعاد العربي المُستأش في ذاكرته اللحظات الأولى التي رآه فيها سي رابح، لم يسأله كثيراً، بل راح ينجز له ما كان يحتاج إليه، وراح يأخذ معه إلى البيت ويؤويه، مما أثار في نفسه الريبة، هذا رجل محتال دون شك، لكن

ظنه كان إثما مبيّنا، لم يكن سي رابح كما يناديه الناس، أو عمي رابح كما كان يناديه العربي المُوسْتَأْسُ إِلَّا قَلْبًا حَنُونًا رَحِيمًا، إِلَّا يَدًا مَبْسُوطَةً بِالْعَطَاءِ وَالْجُودِ، إِلَّا نَفْسًا مَلِيئَةً بِالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ، يَجِبُ الْجَمِيعَ وَيَسْعَى فِي خَيْرِ الْجَمِيعِ.

لقد تزوج سي رابح بعدها امرأتين وأنجب أولادا، ثم تزوج لآلاً تُرْكِيَّةً، لكنه ظل دائما يذكر حلّيمة، عشقه الأول، حبه السرمدى.

نهض سي رابح من كرسيه داخل الحمام، لبس برنسه، أشار للعربي بالانصراف، لا بد من العودة إلى البيت، مازالت حمامه النفساء تحتاج إلى رعاية واهتمام، سبقه العربي يسير الهوينى، حين هم سي رابح بالخروج فلجأه رجال الدرك بألبستهم الخضراء ورشاشاتهم الطويلة السوداء.

توجه الضابط مباشرة إلى سي رابح يسأله بفرنسية:

- نحن نبحث عن رجل متمرد فار من أولاد سيدي علي يسمى

العربي بن بلخير ومعه فتاة تسمى حمامه بنت لكحل.

اضطرب سي رابح، وتمايل في وقفته، وتلعثم في كلامه، وقال:

- العربي بن بلخير وحمامه بنت لكحل... لا، لا أعرفهما ولم أسمع

عنهما.

استعد الضابط للانصراف وهو يقول:

- نعتمد عليك، ربما يلجآن إلى الحمام، الحاكم شخصا يطلبهما.

ماكاد رجال الدرك يستديرون حتى أسرع سي رابح يجر العربي المُوسْتَأْسُ بِقُوَّةٍ، مِمَّا أَثَارَ حَيْرَتَهُ، حِينَ ابْتَعَدَا تَوَقَّفَ سَي رَابِحٌ فَسَأَلَ الْعَرَبِيَّ الْمُوَسْتَأْسَ:

- مدهاك؟ ماذا أراد رجال الدرك؟

- ما دهاني؟ كانوا يبحثون عنك، وعن حمامه يا نائم؟

قالها بسخرية ومرارة، ثم أردف:

- القايد عباس من وراء هذه المصيبة، لابد أن نتدبر الأمر بسرعة.
سأل العربي المُوسْتَأَشُّ بِخوف ظاهر.

- ما العمل يا عمي رابح؟

- اترك الأمر علي.

لم يسلك سي رابح الطريق نحو البيت بل راح يشق المدينة شرقا، ولم يجد العربي المُوسْتَأَشُّ مناصا من أن يتبعه، وصلا مسجدا يكاد يكتمل، تسللا من مدخل خلفي، في حجرة فسيحة لم ينته بناؤها بعد وجدا مجموعة من الرجال، منهم مسعود بولقباقب، صافحهم سي رابح وقبل أوسطهم على كتفه، ربما كان في الأربعين من عمره، اسمر اللون، خفيف اللحية، جلس سي رابح قبالة، أخرج رزمة نقود ملفوفة في قطعة قماش وسلمها له، فسلمها بدوره لأحد الحاضرين، وقال مازحا:

- اشهد حتى لا تقول استأثر بها البشير.

رد سي رابح باحترام شديد:

- حاشا أن تأكل أموال المسجد.

- ومن قال إنني أكل الورق، هل تراني فأرا؟

وغرق الجميع في الضحك، وانطلق سي رابح يودعهم، لم يفهم العربي المُوسْتَأَشُّ شيئا، سوى أن هذا الرجل اسمه البشير.

في الطريق كشف له سي رابح عن حقيقة الرجل، اسمه الكامل البشير الإبراهيمي، من كبار العلماء، طاف كثيرا من الدول العربية كمصر والسعودية وبلاد الشام.

وأين تقع بلاد الشام هذه، لم يسمع بها إلا من خلال مثل أمه الذي تضربه من حين لآخر غاضبة: الشامي شامي، والبغداي بغداي.

وأخبره سي رابح أن الرجل قد افتتح منذ سنوات مدرسة لتعليم الناس، وهو يشرف على إتمام بناء المسجد، كما أخبره أن الشيخ ابن

باديس سيزور مدينة سطيف هذا الأسبوع، وهو مكلف بتحضير كل ما
ينجح الزيارة.

لم يشأ العربي المُوسْتَأْسُ أن يسأل كثيرا، سي رابح لا تنتهي عجائبه،
وكل يوم يتكشف عن جديد مثير، كان العربي المُوسْتَأْسُ يحرص على
الوصول إلى البيت خشية أن يعود ذلك الضابط اللعين ويلقي عليه
القبض.

وبات العربي المُوسْتَأْسُ وحمامه ليلتهما تلك في بيت سي رابح، كان
هو خائفا محتاطا لكل مفاجأة، لكن حمامة لم تدرك حقيقة الأمر وقد قدم سي
رابح لها عذر مرضه المفاجئ الذي يلزم بقاء زوجها معه ليلا.

** ** * * *

14

قبل الثامنة صباحا كان سي رابح يحث الخطى مع العربي المُوسْتَأْسُ
باتجاه دار البلدية، توقفا في مقهى العرب، اختارا طاولة في الزاوية وجلسا،
راح العربي المُوسْتَأْسُ يتأمل الجدران كأنه يراها لأول مرة، قال سي رابح
بسخرية:

- هل أعجبتك جدران المقهى؟

مط العربي المُوسْتَأْسُ شفتيه وقال:

- إنها مدعاة للشفقة، لعلها لم تطل مذ بنيت.

ضحك سي رابح وقال:

- لا ترفع صوتك كي لا يسمعك عللاً.

كان علال القهواجي منهما في إذكاء النار، وترتيب أباريقه ومغاليه،
يلبي طلبات الزبائن في شرب القهوة والزعر والحرار، دون أن يغفل عن
كل من يدخل ومن يخرج، وأسرع إليهما بشير النادل بقهوتين تعودا أن

يشربها دائما.

فجأة دخل مسعود بولقباق ينط على يديه، يكاد توازنه يختل لثقل الصندوق على ظهره، وإلى جواره حفيده الصغير وقد كشرت على ملامحه المناسبة، أسرع إليه سي رابح يستقبله ويأتي لهما بقهوتين، شرباها وانصرفا دون أن يدفعا ثمنا لذلك.

لحق بهما رجلان من عمال سي رابح في الحمام، وطلبا قهوتين أيضا، بسرعة ارتشفوا ما طلبوا، وانطلقوا معا إلى دار البلدية، حين دخلوا أمرهم سي رابح أن ينتظروه في زاوية قصية، واتجه إلى موظف ما إن رآه حتى هس في وجهه مرحبا، لم يطل الحديث بينهما حتى لوح للثلاثة فالتحقوا به، طلب من العربي المُستأش أن يجلس على كرسي قبالته، وراح يقدمه:

- هذا العربي الذي حدثك عنه، يحتاج إلى تسجيل هويته هو وزوجته.

أبدى الموظف ليونة فائقة وهو يقول:

- من حقه سي رابح، وأنت محل ثقة تكفي شهادتك فقط.

- بل جئت بشاهدين هاهما.

وراح يقدمهما للموظف، الذي أخرج دفاتره وانهمك يسجل سائلا

سي رابح كأنه المعني بالأمر:

- الاسم؟

سأل الموظف فأجاب سي رابح:

- العربي.

- اللقب؟

- خيار الناس.

خيار الناس؟ من أين جاء سي رابح بهذا اللقب، وهم بالحديث فنظر

فيه سي رابح شزرا أن اسكت، وأشار العربي المُستأش برأسه موافقا،

وواصل الموظف سائلا:

- العربي خيار الناس، ابن من؟

- العربي خيار الناس بن محمد وخديجة خيار الناس.

- المولود سنة؟

سأل الموظف، فرجع سي رابح في العربي المستاش عينيه متأملا كأنما
يُخمن سنة ميلاده، ومطط شفثيه لحظات وقال:

- المولود سنة 1905 بسطيف.

هل أصاب الهدف، أم اقترب منه، أم أخطأه؟ لا أحد يعرف بالضبط
سنة ميلاده حتى هو، كل ماكان يسمعه من أهله أنه أقل من فلان بكذا
وأكثر من فلان بكذا.

أكمل الموظف ملء الاستمارة، وقدمها للشاهدين من أجل التوقيع
عليها، ثم تحول لوثائق حمامه، ووثائق عقد الزواج بينهما، وتسجيل
الصغير الذي اختار له العربي اسم والده بَلْخَيْرٍ، وقد كان سي رابح
يجيب عن أسئلة الموظف، كأن ماقاله حقيقة يعرفها جيدا.

دس في يد الموظف أوراقا نقدية، ثم قام وهو يطوي الوثائق، مد يده
مصافحا شاكرا، قال سي رابح:

- أتركك كوهين في أمان الله.

ابتسم كوهين مودعا، وقال:

- أنا في الخدمة دائما.

وخرجوا يغادرون البلدية، سلم الوثائق للعربي المستاش فدهسها في
جيبه، قال سي رابح:

- هذا موظف يهودي اسمه كُوهينٌ وهو أحد أخلص أصدقائي، يمكن

أن يبيع فرنسا كلها مقابل رشوة.

عند المقهى دس سي رابح قطعا نقدية أخرى في يدي الشاهدين

فانطلقا مبتعدين، ابتسم سي رابح، وقال:

- هل فهمت؟

- جعلتني استسلم تماما، دون أن أفهم شيئا.

- إنهم يبحثون عنك، وهكذا لاشيء يثبت أنك المطلوب.

ودع سي رابح العربي المُوسْتَأَشُ وانطلق عائدا إلى الحمام.

ظل العربي المُوسْتَأَشُ يجتُر الحادثة المرة تلو الأخرى، مندهشا مرة، ضاحكا مرة أخرى، لا أحد يقدر على ما يقدر عليه سي رابح، كل شيء ممكن عنده، ماذا كان يمكن أن أفعل لولا هذا الرجل الطيب؟
اندفع العربي المُوسْتَأَشُ عائدا إلى البيت في حماس، كأنما يحمل إلى زوجته كنزا ثمينا، حين دخل البيت قال والفرحة على وجهه:

- تخيلي بماذا جئتك؟

وانطلقت حمامه وقد ظهر عليها تعب النفاس تتكهن أطمعة أو ملابس أو عطورا، لكن العربي المُوسْتَأَشُ خيب ظنها وهو يخرج لها من جيبه أوراقا، سألت بقلق:

- ماهذا؟

جلس العربي المُوسْتَأَشُ إلى جوارها وراح يشرح لها الأمر، واختلط على محياها خوف ودهشة، وراحت تسأل:

- لم تخبرني أيها المجنون أن رجال الدرك يبحثون عنا.

- لم أشأ أن أزعجك، أنت نفساء وأمر كهذا سيؤثر عليك كثيرا، وقد يجفف نهديك من الحليب.

وسكت العربي المُوسْتَأَشُ يتطلع إليها، وفي عينيها أسئلة: من أين له بهذه المعلومة؟ واصل العربي المُوسْتَأَشُ كلامه:

- عمي رابح أخبرني بذلك.

طوق عنقها بذراعه اليمنى وقال:

- المهّم نحن الآن في مأمّن، حتى ولو وصلوا إلينا فنحن لسنا من يبحثون عنهما.

- نحن في مأمّن، لاتهمك إلا نفسك، وأهلنا هناك لم يصلنا أي خبر عنهم، نفسي لاتحدثني إلا شرا.

واندفعت تبكي بحرقه، لم ينطق العربي المُوسْتاشُ بل احترّم مشاعرها وجلله حزن أسود، كيف حال العرش؟ وأي مصيبة وقعت فيهم؟ أليس هروبه أنانية وضِعَةً؟ لا بد أن يفتح سي رابح في الأمر، لن يعوزه حل أبدا، عليه أن يعجل بالأمر، لم يعد قادرا على الانتظار أكثر.

نهضت حمامه تمسح دموعها وخرجت إلى بيت لآلاً تُرْكِيه، وانبطح العربي المُوسْتاشُ أمام صغيره بلخير، يناغيه في محاولة لتناسي همومه، والطفل يتجاوب معه، لقد سماه على اسم والده بلخير وفاء له، هل يكفي ذلك؟ أم أن من الخيانة التسليم في دم الوالد؟ وكيف سيكون مستقبل بلخير؟ هل سيعود به ذات يوم إلى أولاد سيدي علي؟ هل يدخل به إلى القُرَابَة ويقبس له من بركة الولي الصالح؟ هل يسير به عند القبور ليذكره بالذي فعل القايد عباس الخائن ومعه أولاد النش؟ أم أن الحياة ستجري في ساقية أخرى؟

*** ** ** **

15

استولت سوزان بقوة على كل مشاعر العربي المُوسْتاش، ولم تعد تلح على الحضور في خياله عندما يكون في حقلها فحسب، بل لم تعد تفارقه حتى وهو في البيت وفي الحمام وفي السوق، منفردا أو مع غيره، ولم يستطع أن يفسر هذا الشعور، هل هو حب؟ أم رغبة جنسية لا غير؟ كيف يمكن أن يجب نصرانية مستعمرة لأرضه؟ وهل يجروُ أن يتطلع إلى ممارسة الجنس

معها؟ وما المانع؟ لن يتردد إن كانت راغبة، تفوه عليك اللعنة أيها الخائن،
وتخيل حمامه تشتمه ثم تضربه، ثم تدس رأسها في صدره، هل تخون
حمامتك يا العربي؟ وأنا التي تحديت الجميع من أجلك؟

أعاد العربي المُوسْتَأَشُ إلى مخيلته لقطات البارحة، كانت سوزان تقف
خلف الستار الأبيض الرقيق في أبهى زينتها وقد تخففت من ملابسها،
تتابع العربي المُوسْتَأَشُ وهو يدغدغ الأرض، أمسكت بالستار فلفته
وأمسكته بأصابعها البضة كأنما تريد أن تتعلق فيه، لفت عليه ساقها
وكادت ترتفع إلى الأعلى لولا خوفها من سقوطه.

لقد بالغت سوزان في الاهتمام به، صارت تأتيه كل يوم بغدائه
وقهوته، وتمنحه أحيانا بعض الألبسة، وصافحته أكثر من مرة، وما يكاد
يلامس أصابعها البيضاء الملساء حتى يغيب عن واقعه، وتحس هي به
فتبتسم له، كالشمس الربيعية تشرق على صباح بارد.

سأل أمقراناً مرة، فشجعه على هتك عرضها كما يهتك الفرنسيون
عرض بلد بأكملها، ضحك العربي المُوسْتَأَشُ لكنه لم يستسغ هذا التفكير،
سوزان قمة في اللطف والجمال والمحبة، هي ليست الاستعمار، وحتى لو
كانت فنعم الاستعمار سوزان، لم يجرؤ أن يفتح سي رابح فبينهما سد من
الاحترام والتقدير، لكن سي رابح أدرك الأمر من كثرة حديث العربي
المُوسْتَأَشُ عنها، سألها مرة:

- العربي، كأنك وقعت في حب سوزان؟
اضطرب العربي المُوسْتَأَشُ، وبدا الحياء على وجهه، وفضحته تمتته،
قال سي رابح:

- أنا تزوجت ثلاثا، وسأتزوج أي امرأة تعجبني حتى أموت، المرأة
فاكهة الله، المرأة أجمل فاكهة خلقها الله للرجل، فلا ترفض فاكهة الله.
دفع سي رابح عمامته لتستوي على جانب رأسه الأيسر فيظهر جانبه

الأيمن حليقا، وواصل وهو يمتلى حيلة:

- أسرُّ إليك ولا تبحُ بسري.

ومال إلى العربي المُوسْتَأَشُّ خافضا صوته:

- حين اشتريت الحمام كان شريكى رجل يهودى، وكان صديقا هميما ومخلصا، ووقعت في حب ابنته خدوج، التي بادلتني أعمق مشاعر الحب، لكن حظي كان تعيسا، ماكاد أقاربها يعلمون حتى ضغطوا على أبيها لفض الشراكة بيننا، ثم رحل مع ابنته إلى حيث لا أعلم.

هملق العربي المُوسْتَأَشُّ في سي رابح مجللا بالدهشة والحيرة، كم من مغامرة خاض هذا الرجل؟ قصصه لا تحصى مع النساء، إذا كان سي رابح قد أحب يهودية وتعلق بها، كيف لا أحب أنا نصرانية وأتعلق بها؟ أخرجته سي رابح من حيرته بقوله:

- هل تعلم أن نبينا - صلى الله عليه وسلم - تزوج إحدى عشرة امرأة، فيهن يهودية ومسيحية؟

فغر العربي المُوسْتَأَشُّ فاه مشدوها وقال:

- الله ونحن على سنة نبينا - صلى الله عليه وسلم - سائرون.

اعتدل سي رابح في جلسته، واسترد شيئا من وقاره وقال:

- ولكن لا تنس قول المجدوب:

ما أزيَنُ النِّسَاءُ بَضَحَكَتْ، لو كان فيها يُدْومُوا

الحوتُ يُعُومُ فَالْمَا، وَهُمَا بِلَا مَا يُعُومُوا

سوقُ النِّسَاءِ سوقُ مَطْيَارٍ، يا داخِلُوا رُدُّ بَالِكُ

يُورِيوَلِكُ مَ الرِّبْحُ قُنطار، وَيُدِّيوَلِكُ راسُ مالِكُ

وراح يضحك مقهقهقا كأنما يتشفى، لم ير العربي المُوسْتَأَشُّ رجلا منفتحا على النساء مثل سي رابح، يتحدث مع الجميع، وتأنس به كل النساء فيملن إليه، ويسألنه العون حتى في أدق خصائصهن، ولكن ما

علاقة الزواج بالمشاعر التي يحملها لسوزان؟

واصل سي رايح، يتحدث كأنه خير:

- المرأة لا تحب الجبان، المرأة لا تستسلم إلا للجسور.

بات العربي يتقلب بين صحو ونوم، كلما أسدل النعاس ستائره على جفنيه رفعته كلمات سي رايح: المرأة فاكهة الله، فلا ترفض فاكهة الله، وكلما غلق عليه أبوابه أسرعت أنامل وريدة المرقومة تدقه كأنما تعزف عليه.

نهض العربي الموستاش صباحا، في جسده حيوية وفي نفسه حيرة، اغتسل ولبس أفضل ما عنده فبدا لنفسه أكثر وسامة وجاذبية وتألقا، ضمخ ثيابه بالعطر وانسل من الباب متهاديا كأنما نبت له أجنحة للطيران، الحياة جميلة، لكنها ليست كذلك إلا بالنساء، وتزاحمت الصور في ذهنه، حمامه، سوزان، وريدة، أيهما أجمل؟ لا يمكن أن يحصر الحسن في امرأة واحدة، كلهن جميلات، لم ينتبه إلى نفسه حتى وجد قدميه تقفان أمام دار الفساد، كانت حدة المخرومة تجلس عند الباب تمص سجارتها بنهم، وقد تهدل وجهها وعلتها سحب دخان كثيف، حك أنفها المخروم وابتسمت، فبدا فمها مغارة مظلمة، وقد تساقطت معظم أسنانه وتسربل ما تبقى بالسوس وسواد التبغ، قالت حدة المخرومة:

- لم أر في حياتي رجلا مترددا مثلك.

صافحها العربي الموستاش وجلس بجوارها معتمدا على قدميه،

واصلت:

- حين كنت فتية كان الرجال يتدافعون علي ويتناطحون حولي

كالجانين، فتنتي ألقى بي في أتون البلايا، رحم الله عشيقتي عزوز، حين اشتدت غيرته كسر أسناني وخرم بخنجره أنفي ثم غرز خنجره في قلبه أمام الملاء، لم يكن يريدني إلا لنفسه.

وامتصت دفعة واحدة ما تبقى من سجارتها، ودفعت ما في جوفها من دخان، حتى كادت أنفاسها تنقطع وقالت بأسى:

- إيه يا العربي، حين كنا صغارا كانت الدنيا كبيرة وعظيمة، وكم صارت صغيرة وتافهة حين كبرنا!

لم يرد العربي المستأش فواصلت وهي تلطم خده بيمنها:

- أعرف يا العربي المستأش أنك وقعت في عشق وريدة المرقومة، لا ألومك فمثلها لا يمكن إلا أن يعشق، ولكني أخاف عليك، عشق النساء جنون.

وأطلت وريدة المرقومة من الباب وقد تهدل شعرها الأسود حتى كاد يغطيها، وبدت رقبتها البيضاء الممتدة كدرب التبانة، وبدا صدرها الناهد هدية نازلة من السماوات العلى.

قالت حدة المخرومة تحرضها:

- وريدة هاهو العربي المستأش، يهفو قلبه لكنه متردد.

أسرعت وريدة مرحبة:

- صباح الخير العربي المستأش.

- صباح الخير.

ومد يده مصافحا.

حرضتها حدة المخرومة وهي تمسك العربي المستأش من ثيابه وتدفعه

إلى الداخل:

- خذيه إلى الداخل، العربي رجل طيب يستحق كل خير.

وتزاحمت في مخيلته صورتا حمامه وسوزان، ولسعته فجأة سياط التأنيب،

سحب أصابعه وانطلق مغادرا صارخا في نفسه: لا، لا أريد أن أخون، ما

بيني وبين وريدة ليس سوى فضول، ليس سوى إعجاب بالجسد، أما الحب

فهو أسمى وأرفع، الجمال الذي نعشقه بعيوننا ينطفئ سريعاً، لا جمال إلا ما

نعشقه بقلوبنا، حيي الأوحد لحمامه، حب لن أنساه، الحب الذي يُنسى
حب زائف، الحب الذي يُستبدل حب مغشوش، لكني أحب سوزان أيضا،
أحبها أحبها.

دخل متأخرا إلى حديقة فرانكو، استرد أنفاسه وطرده عن نفسه كل
هواجسها، وانغمس في العمل، كان الجو قائظا صهدا كاويا، لم يكن
العربي المُوسْتَأْسُ يبالي بذلك، هذا الجو عنده يصلح حتى للسباحة، كان
قد اغتسل هذا الصباح، وغير ملابسه فأحس بنشاط كبير، وكانت يده
تزدادان نشوة وهما تلامسان تربة ندية مخضبة بدماء الساقية، تسري في
عروق مختلف النباتات فتزيدها تألقا وبهاء، وتزيدها موسيقى الطيور فرحا
وانشراحا، وسوزان وردته اليتيمة تجلس قريبا منه، تحتفي من لهب الشمس
في ظل شجرة عملاقة، تعتمر قبعتها الكبيرة، وقد تدلى شعرها الأشقر
على نهديها، كأنها شمس لطيفة تهرب من شمس متوحشة، يرفع العربي
المُوسْتَأْسُ رأسه إليها بين حين وآخر فتبادله الابتسام، ويعود هو ليغرق في
خيالاته التي لا تنتهي.

بدأ وقت الغداء يقترب وراحت دقائق قلبه تزداد، إنه ينتظرها أن
تنهض من مكانها تغيب لحظات ثم تعود إليه بالطعام، يجلس في ظل
شجرة ويلتهمه على مهل، وفعلا نهضت سوزان قصدته وقفت بجانبه
تعقب عليه محبة وودا، وراحت تسأله بعربية عرجاء عن الورد، والأشجار،
وفجأة أمسكت بيده وراحت تحثه على السير معها، حين دخلا الغرفة
الأولى ظل مندهشا فاغرا فمه، يالها من غرفة عملاقة! مساحتها بحجم كل
غرفة وغرف سي رايح، تزينها صور كبيرة تملأ الجدران، وتتهاوى من
السقف ثريات كالنجوم، وتؤثثها تماثيل وتحف بدیعة لا تصلح إلا للتأمل،
طلبت منه أن يغسل يديه، ثم طلبت منه أن يجلس على كرسي وثير إلى
طاولة كبيرة، وراحت تضع أمامه صحونا ملئت طعاما وفواكه وجبنا مختلفا

أنواعه، تساءل العربي المُوسْتَأَشُّ، وهل ستضع خمرًا؟ وإن فعلت هل سيشرب، نعم سيفعل في حرم هذا الجمال الفتان، وهل بقي له سكر آخر غيره؟

اندفعت موسيقى خافتة تدغدغ الروح، وجلست قبالته وطلبت منه الأكل فبدأ يأكلان، لم يكن العربي المُوسْتَأَشُّ يأكل من الصحون وهو يبادلها الابتسام والحديث أحيانًا، بل كان يأكل من فاكهة وجنتيها وثمرها وجيدها وصدورها التفاحي، وظل رغم ما كانت تظهره له يتهجى على ملاحظها حزنا عميقًا.

فعلا لم تكن سوزان تحس بالسعادة في هذا القصر المنيف، كل شيء حولها كان غريبًا، حين جاءت هذه المدينة كان عمرها عشرين سنة، وقد ارتبطت بعلاقة مع فرانكو توهمتها حبًا، وحين زفت إليه منذ سبع سنوات ظنت أنها فازت بجنة الخلد، لكنها وجدت نفسها فيما يشبه مدينة رومانية، لا ينقصها شيء من ماديات الدنيا لكنها بلا روح، كان فرانكو أكبر منها بعشرين سنة، يفيض جشعًا، لم يترك شيئًا لم يستول عليه، الأراضي الشاسعة، قطعان الأنعام التي لا عد لها، البساتين العملاقة، لكنه فشل في الاستيلاء على قلب سوزان، كما فشل في الإنجاب منها، كما فشل في العثور على كنزه المزعوم في مقبرة كويكول بمساعدة شمعون المونشو، وغرق في الحمرة فاستولت على عقله وروحه، وجعلت منه رجلًا ضعيفًا أمام سوزان.

ماكاد العربي المُوسْتَأَشُّ يكمل طعامه حتى نهض ينسحب، ولم تفلح سوزان في إبقائه رغم إصرارها الشديد، أمور كثيرة كانت تمور داخله، ماذا لو فاجأه فرانكو داخل بيته سيقتله لا محالة؟ وماذا لو أحست حمامه به؟ ألا يصير أمامها قشة تافهة؟ حمامه لا تستحق أن تخان، وظل ذلك المساء يصارع هواجسه وهو يصارع بالفأس جذع شجرة نُحْرها الدود، فيقتلعها من

جذوعها.

كانت الشمس تزحف نحو المغيب، جلس العربي المُوسْتَأْسُ يلتقط أنفاسه، ففجأته سوزان من خلفه، حتى اندفع واقفا، ضحك وضحكت، حلم بلحضانها، طلبت منه أن يتوقف عن العمل، رمى الفأس من يده، أحس في نفسه جراءة أكبر، أمسكت بيده وقادته إلى قصرها، استسلم وراح يسير معها، دفعت به مباشرة إلى الحمام، تعرى وبدأ يغتسل سريعا بنشوة عارمة ممزوجة بخوف وحذر، وكله استعداد أن يقتل فرانكو إن هاجمه، حين خرج من الحمام لم يجد سوزان، تلفت هنا وهناك دون جدوى، حين اندفع خارجا فجأته وقد ملأت الغرفة ضحكا، كل شيء فيها قد تغير وقد أخذت زينتها ولبست فستانا أبيض شفافا.

ووجد نفسه معها على سرير واحد، هذه العشية وكل الصباحات والعشيات اللاحقة، كم كان يتصور سوزان حورية هاربة من الجنة، وكم كان يتصور سوزان شهرزاد التي سلبت قلب شهريار وقصت عليه ألف ليلة وليلة، وراحت سوزان تنتعش وتشرق الحياة على وجهها، يطفئ شلال الحب جحيم حياة عاشتها مع رجل لا تحبه، قد يخون الرجل مع الحب، المرأة وحدها لا تخون من تحبه.

لم يكن العربي المُوسْتَأْسُ يخفي شيئا عن أمقران الذي كان يخبر سي رابح بذلك، كان أمقران يشجعه على ذلك قائلا: دونك انكحها انتقاما لشعب كامل نكحه قومها، ورغم أنه كان يضحك في حضرة أمقران إلا أنه كان يرفض منطقه، العلاقة مع سوزان هي علاقة حب لا علاقة جنس، وكان سي رابح يشجعه بطريق خفي قائلا: من حق الرجل أن يتلذذ بكل نساء الأرض، ويستشهد بالأية الكريمة: وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، وتفسيره لها أن مثنى تعني أربعة، وثلاثا تعني ستا، ورباعا تعني ثمان، وكم يشجعه قول سي رابح وهو يتعمق في التفسير:

والقرآن قال انكحوا ولم يقل وتزوجوا.

ويضحك العربي المُوسْتَأَشُّ دُونَ أَنْ يعلِقَ، إنه على يقين أن سي رابح يشجعه في علاقته مع سوزان، وسي رابح ليس أحب إليه في الدنيا من النساء، ونقطة ضعفه النساء، ولا يجب جمع المال والثروة إلا من أجل النساء.

سأله العربي المُوسْتَأَشُّ يوماً عن حليمة، استولى عليه حزن قائم، وقال: تلك حبي الأول والأخير، النساء بعدها لذة، هل هناك فرق بين اللذة والحب، وما علاقة العربي المُوسْتَأَشُّ بحمامه وسوزان، أيهما حبه وأيها شهوته؟ يصعب عليه أن يفرق، كلاهما حبه وكلاهما لذته، آه لو يقدر على أن يؤاخي بينهما، آه لو يستطيع أن يطير بهما إلى مكان قصي ليعيشوا هناك أحلى أيام الحياة!

لقد شغفته سوزان، وسدت عليه كل آفاقه، ما أسعده وهو يعزف على قصبته، ويغني:

يا ناسْ خافوا ربي لا تَلُمُونِي
في حبي لِلرُّومِيَّةِ وَاغْدُرُونِي
هذي حُورِيَّةٌ هبطت مَ الْجَنَّةِ؟
وَأَلَّا مَ الْمَلَائِكَةُ فَهَمُونِي؟

** ** *

الوجهُ مَدُورٌ كَالشَّمْسِ الضَّوَّايَةِ
دَافِي وَاحْنِينُ نَارِو كَوَّايَةِ
قلبي عَشَّقَهَا مَا تُسَيِّئُوا بِهَا الظَّنَّةَ
ما تَقُولُوا عَلَيْهَا شَيْطَانُ غَوَايَةِ

** ** *

عَيْنِهَا يَخَاوَتِي جَوَاهِرُ تَلْمَعُ

خُضُورُهُ قُدَّامَهُمْ قَلْبِي يَرْكَعُ
وَاشْعَرُهَا عَمَارٌ سُبُولٌ فِيهِ الْبَنَّةُ
وَقَدْهَا قَدُّ غَزَالٍ فَ الصَّحْرَا يَرْتَعُ

** ** *

خَدَّهَا كِ التُّفَّاحِ أَحْمَرٌ مُورِدٌ
فِي فَمِّي كِ لَعْسَلٌ مُشْهَدٌ
وَصَوْتُهَا مُوسِيقَى صَافِيَةِ الْغَنَّةِ
وَأَنْفَاسُهَا نَسْمَةٌ تَنْعَشُ وَتَجَدُّدٌ

** ** *

16

كان النهار قد آذن على الانتصاف حين دخل عيُوبه فوق حماره مدينة سطييف، سأل أولا عن اسطبل البهائم، حيث ربط حماره ودفع أجرة مبيتته تلك الليلة، ثم سأل عن السوق وراح يعرج مرتقيا إليه دون أن يكف عن مص سجارته، كان السوق غاصا بالناس، غاصا بالسلع، ورغم الدهشة التي تملكته عيُوبه لما رأى، إلا أنه لم يكن غافلا أبدا عن مراقبة كل الوجوه، لم يكن طامعا في العثور على حمامه، فكل النساء كن ملتحفات منقبات، لكنه كان يركز على الرجال، السنوات التي مرت لن تغير كثيرا من ملامح العربي الموستاش، ولاشك أن وجوده في سوق أمر شبه مؤكد، كان الظن لديه أن الرجل لا يجد عملا أفضل من التجارة، تجول في جناح الخضر والفواكه، وبجانبه سوق البقالة، ثم تسلل إلى سوق الأنعام والبهائم، ومنه إلى سوق الملابس، ثم خيم المأكولات والمشروبات، ودغدغت رائحة الشواء والحمص معدته، فركن إلى خيمة ولجها، جلس على كرسي خشبي طويل، وسريعا أقبل إليه النادل بصحن حديدي مليء

بالحمص العائم في مرق أحمر، وضع إلى جواره نصف خبزة، واندفع عيوبه يلتهم ما وضع أمامه في تَلذذ شديد، حين عب إناء الماء كله في جوفه تذكر أنه لم يطلب شواء، ولكن معدته امتلأت فنهض متجشئا، فك عقال صرته القماشية التي مكنها جيدا مكانا قصيا من صدريته، نقد النادل وغادر المكان.

وصله من الخلف صوت يناديه:

- محمد.

التفت، كان النادل يلحق له عصاه التي نسيها، وهو رغم عرجته لا يستعمل العصا أبدا، لكن الزيتوني ألح عليه في حملها، سلاحا يستعمله في حماية نفسه، ومعها خنجر حاد يضعه في تلافيف ملابسه، أحس بالأنس للنادل، ماكان يعتقد أن سكان المدينة طيبون، فقال:

- المثل عندنا يقول: من أَلَفَ الحفا نسي حذاه.

ضحك النادل للمثل الطريف وقال:

- كلنا ننسى، كأن عقولنا رفرفت من رؤوسنا.

تحول عيوبه إلى الجدد مستغلا هذا المدخل فسأله:

- هل تعينني على العثور عن ضالتي؟

- وماضالتك؟

رد النادل دون أن ينسى أن أصواتا تتعالى تطلب طعاما:

- أبحث عن العربي بن بلخير.

وأراد أن يضيف وحمامه بنت لَكْحَلْ لكنه أمسك، طلب منه النادل أن يعود إلى مكانه، وراح يليي طلبات الزبائن، ثم عاد إليه حاملا فنجانا من القهوة، وضعه أمامه قائلا:

- لا بد لك من قهوة تزيل تعبك، من أي الأعراش أنت؟

- من عرش أولاد سيدي علي.

رد عيوبه، وهو يلف سجارة، وفي نفسه ريبة من هذه الأسئلة:

- خيار الناس، وما قصة العربي ولد بلخير؟
وراح عيوبه يقص عليه حكاية العربي ولد بلخير، التي استمع إليها
الناطل بكثير من الاهتمام مقاطعا عيوبه بين الفينة والأخرى، ملبيا أوامر
الزبائن الذين بدأوا يتناقصون.
قال الناطل:

- أنصحك أن تسأل في الحمام، ذاك مكان يقصده كل الوافدين
ويبيتون فيه وحتما ستجد ضالتك.

- وأنت من أي الأعراس؟

سأل عيوبة فأسرع الناطل مجيبا دون أن يغفل عن طلبات الزبائن:
- نحن من بلاد الشاوية، نتنقل من سوق لآخر، نطبخ للناس ما يذهب
جوعهم، وسأسأل عنه في كل سوق أحل به، وسأعود الأسبوع القادم في
مثل هذا اليوم، فاطلبي هنا.

وقام عيوبه مغادرا، ثم ما فتى أن عاد يسأل:

- هل تعرف المدينة جيدا؟

- نعم، عم تسأل فيها؟

تردد عيوبة لحظات ثم قال كالتمتم:

- أريد أن تدلني على أهم جهاتها.

وراح الناطل يشير بيده ذاكرا المحطة، وعين الفوارة، والكنسية أو جامع
النصارى كما سماه، والكنيس أو جامع اليهود كما سماه، وجامع العرب،
وشارع النصارى، وحي التمارة، وختم ضاحكا:

- ودار الفساد حاشاك جنوبا قريبا من السوق.

ولاحظ الناطل اهتمام عيوبة الذي هم أن يسأل، ثم اضطرب وسكت،
وفهم الناطل أن هذا ما كان يبحث عنه فقال بصوت خافت:

- المحذر من هنا ثم در يمينا، أمام بابه ستجد حلة المخرومة تسف
الدخان سفا، وعلى قدر هديتك لها ستدلك على الأحلى والأجمل.

ودعه عيوبة شاكرا واندفع إلى قلب المدينة، كانت بدايته جيدة، لقد
تجنب حتى الآن اللصوص وقطاع الطرق، وضمن رحالة يبحث معه عن
العربي وحمامه، واندفع يقصد الحمام يسأل عنه كل من يلقاه في طريقه ممن
يتوسم فيه خيرا.

حين وقف عند الحمام راح يتهجي ماكتب عليه بخط مغربي: حمام
الصالحين، وعند الباب كان سي رابح يجلس على كرسي حجري، يدير
مفتاح ساعته الجييبة المذهبة، ألقى عيُوبَه السلام، وسأل بتردد:

- هل يمكن أن أبيت في الحمام؟

رد سي رابح ساعته إلى جيبه الصغير المخصص لها، تاركا سلسلتها
متدحرجة لماعة، وقال:

- طبعا، تبيت وتتعشى، وإن شئت زوجناك.

وضحك سي رابح، فأنس عيُوبَه، وجلس إلى جواره مليبا دعوة سي
رابح في الجلوس، أخرج سي رابح قرن الشمة واستنشق منه نفسا عميقا،
وقدمه لعيوبة ففعل مثله وقال وهو يعطس بشدة:

- يرحمك الله، ذكرتني بعمي بلخير.

أثار الاسم فضولا في نفس سي رابح، فراح يتأمل عيُوبَه متذكرا كل ما
قاله عنه العربي الموستاش، وسأل:

- من أي الأعراش أنت؟

- من عرش أولاد سيدي علي.

قال سي رابح في سره إذن أنت هو عيُوبَه؟ واندفع عيُوبَه يقول:

- ملامحك تدل على طبيتك، أنا في حاجة إلى مساعدتك.

وراح عيوبه يقص عليه الحكاية من بدايتها، من صراعهم المرير مع

أولاد النش، إلى فرار العربي وحمامه، ومقتل البُهلي لخضر، إلى اختطاف الطاهر، وفرار سي الطالب إلى موت الشيخ لكحل، إلى اختطاف سلافه الرومية متهمة بالجنون، والشلل الذي ضرب يمين الزيتوني، وراح يدقق فلم يترك شيئا.

قال سي رابح، وهو يستمع بإمعان شديد:

- لقد جئت بالعيش وفراخه.

اندفع عيُوبَه يسأل:

- هل تعرف شيئا مما ذكرت لك؟ هل تعرف العربي ولد بلخير

وحمامه بنت لكحل؟

- لا، لكني ربما أستطيع مساعدتك.

ورفع صوته مناديا أحد عماله، فهرع إليه ملبيا:

- هذا ضيفنا العزيز، اختر له مكانا لائقا للنوم، ضع صرته في مكان

أمين، ووفر له العشاء والقهوة، وإن طلب منك جولة في المدينة فلا تتردد.

واندفع عيُوبَه يقبله على عمامته، اعترافا بفضله، دخل عيُوبَه الحمام،

وانطلق سي رابح باحثا عن العربي المستاش، أخبار كثيرة يجب أن

يعرفها، ستسوءه حتما، وربما تدمره، وتدمر زوجته.

وتناهى إلى سمعه أصوات صياح أطفال، رفع بصره، رآهم كسرب

عصافير يتفرون حيننا ويجمعون أخرى، يرمون الشرطة بالحجارة وهي

تطاردهم في كل مكان، اندفع سي رابح مقتربا، كان أمقران يحاول أن يقنع

الأطفال بتجنب مصادمة الشرطة دون أن يفلح، أسرع سي رابح يسأله:

- ما الذي وقع؟

أجاب أمقران والحزن يجلله:

- كان الأطفال في طابور لدخول السينما، كالعادة أدخل ماران كل

أطفال الفرنسيين واليهود، ورفض إدخال أطفال العرب، وماكادات

أصواتهم ترتفع محتجة حتى انهال عليهم ضربا بعصاه، لقد شج رأس حفيد مسعود بولقباق وحمل إلى بيته والدماء تغطيه، ومن هنا بدأ غضب الأطفال.

أفلح سي رابح وأمقران في تفريق الأطفال حماية لهم من حقد المعمرين والشرطة، وأسرعوا معا إلى بيت مسعود بولقباق لعيادة الصغير والاطمئنان على عائلته، ووجدا نفسيهما مرغمين على البقاء هناك حتى الصباح.

*** **

17

تملكت الوسوس القاتلة نفس العربي الموستاش، أليس ما يفعله مع سوزان فعلا خطيرا، وتزلزل كيانه وهو يتخيلها حاملا منه، بل ماذا لو كانت الآن حاملا؟ كم كان مجنونا وهو يخوض هذه المغامرة، لم لم يحسب لها حسابا دقيقا؟ كيف ستضع؟ سيقتلها فرانكو، ويقتل معها الصبي البريء، بل سيجتمع عليها وعليه كل النصراري ليرجما في ساحة المدينة كالمجرمين.

واندفع مبتعدا، لابد أن يستشير سي رابح وأمقران، هما وحدهما المسؤولان عن هذه المصيبة، لقد شجعه عليها كثيرا، هو يعرف أن أمقران سيتلقى الأمر بطيش ولامبالاة، أما سي رابح، ربما سيجد له حلا، وأي حل يجد؟ ربما سيذهب به إلى إمام المسجد العتيق ويعرض عليه الأمر، هل يقبل الإمام الرشوة أيضا ككوهين اليهودي؟ ولكن لا جدوى من الرشوة، القضية ليست شكلية، تبا له ولغبائه، بل ومن من الفرنسيين سيقبل بصعلوك مثله زوجا لابنته؟ وساورته حيرة الزواج من نصرانية، هل يسمح دينهم بزواج بناتهم من مسلمين؟ لا أدري، أما نحن فيجوز دون

شك، ألم يتزوج نيينا - صلى الله عليه وسلم - نصرانية ويهودية؟ ثم ما حوريات اللجنة الشقراوات اللواتي ظل سي الطالب يصفهن في جلساته ويميننا بهن حتى يسيل لعابنا إلا نصرانيات، وإلا كيف يكن شقراوات؟ حين اقترب من محل أمقران، ضحك من غبائه، عن أي شرع يسأل؟ ألم يكن يمارس الزنا مع سوزان؟ سيوبخه الإمام، ويواجهه بالآيات والأحاديث الزاجرة، لن يذهب، يكفيه أن يرسل أمقران وسي رابع.

كان الحل مغلقا، بوابته الخشبية الغليظة المسودة، توحى بالرهبة، أين ذهب هذا الطائش؟ أهذا هو الوقت الذي يغيب فيه؟ وراح يلق الباب بقوة وإصرار شديد، وراح اليأس يتسلل إلى قلبه فاستدار مبتعدا.

حين كاد ينحرف عند أول منعطف وصل سمعه صرير الباب، عاد سريعا متلهفا، أطل أمقران برأسه، سأل العربي المُستأشُ بغضب:

- تغلق بابك حين أكون في حاجة ماسة إليك؟

أبدى أمقران انزعاجا وقال:

- وأنت لم تحتاجني حين أكون محتاجا إلى نفسي؟

ودخلا، اجتازا المستودع، ودلغا خلوة أمقران، وقد امتلأ كل شبر فيها بالكتب المفتوحة، ظل العربي المُستأشُ يمسح المكان سريعا على الضوء المتسلل من نافذة صغيرة في أعلى الجدار، وقد بدأت عليه الدهشة، سأل:

- ماهذا الجنون، لا تقل لي أنك كنت غارقا في الخزعبلات؟

أمسكه أمقران من يده وأجلسه قريبا منه، تخلص من الشمة التي تركزت تحت شفته السفلى، ورمى ببصاقه بعيدا، وراح يُسِر له بفرح غامر:

- لقد وجدتها، هل تصدق؟ لقد وجدتها.

تمنى العربي المُستأشُ لو يسكت، لا بد أن يسكت ليحدثه عن الكارثة التي وقعت له، يجب عليه أن يخبر سي رابع، وعليهما أن يتعاونوا لإخراجه من مصيبتة، لكن أمقران استمر يحكي، بتأثر بالغ:

- وجدتها يا أخي العربي، مدينة الأجداد، بت ليلتي في وادي الهف، أصبت بالذعر، لولا شجاعتي هلكت، أحس بها تتغشاني لتقتلني كلما تملكني الذعر، وتنهزم أمامي كلما اندفعت إليها، لقد رأيت ما لم ير أحد، هناك كانت تسكن جدتنا تَيْنِهِنَانُ، أميرة الأميرات وسيدة الملكات، هل تعرف وادي الهف؟ ستذهب معي الليلة القادمة، ألا تريد أن تكشف حقيقة أجدادك؟ وغرق في سرد حكاية عجيبة ساحرة مخيفة، ليس لها شبيه إلا في قصص ألف ليلة وليلة.

وسرى خوف شديد في قلب العربي المستاش، مابه هذا المجنون يتحدث عن أمور لا تخطر على بال بشر، وأعاد لذهنه ما كان يراه دائما في قُرَابَةِ جده الولي الصالح سيدي علي، وتذكر ما كان يفعله البُهلي الخضر، وما يروى عن كل الأولياء الصالحين من كرامات، هل يمكن أن تكون تينهينان ولية صلحة؟ أم أن الأمر من فعل الجن؟ وأمقران لا يتورع عن قراءة مثل هذه الطلاسم؟

تذكر العربي المستاش فرانكو وشمعون وهما يلهثان كل يوم وراء أوهامهما، هل يكون ما يبحث عنه أمقران هو حلم وليس وهما؟ كل يبحث عن حلمه، الفرق الوحيد، أن أمقران يبحث في أرضه عن جذوره، وهما يبحثان عن سراب في أرض هما فيها من الغرباء.

واندفع أمقران يحكي، لكن العربي المُوسْتَأَشُ زم فمه بيده وقال:

- اسمعني أرجوك، أنا في مصيبة.

لم يبال به أمقران وقال منتشيا:

- ليس أهم من اكتشافي العظيم يا العربي.

وقف العربي المُوسْتَأَشُ غاضبا وقال:

- أنا أحدثك عن الواقع، عن الأحياء، وأنت تحدثني عن الماضي

السحيق، عن الأوهام، عن عالم الأموات، وعالم الجن والعفاريت؟ أرجوك

اسمعي، اسمعي.

وقف أمقران، واندفع يفتح كتابا ضخما وضعه أمامه، لكن دقا عنيفا اهتز له الباب، سأل العربي المستاش:

- من يكون؟

- ربما سي رابح.

واندفع يفتح الباب، دخل سي رابح وعلى ملامحه قلق شديد، قال العربي المُوسْتاشُ في سره: هل هي مصيبة جديدة؟ وسمح له أمقران ليجلس في مكانه، وصوبا إليه النظر صامتين منتظرين كلامه.

شرب سي رابح من بوقالة[□] كانت أمامه معطرة بالقطران، وقال موجها نظره إلى العربي المستاش:

- هل تعرف مع من كنت الآن؟

وبسرعة اندفع العربي المُوسْتاشُ قائلا:

- مع سوزان، أ.. أ.. فرانكو اللعين.

وخيب سي رابح ظنه وهو يلوح برأسه نافيا، ولاحظ أمقران هلعا شديدا على ملامح العربي المُوسْتاشُ، فراح يسرّع سي رابح:

- أخبره بسرعة، يكاد يموت.

وراح سي رابح يحكي، وكلما أمعن في الحكي، ازداد ارتجاف العربي المستاش، ثم تحول إلى بكاء جارف، أشار أمقران لسي رابح أن يسكت، قال سي رابح وقد أكمل كلامه:

- هذه هي الحقيقة التي ظل العربي المُوسْتاشُ يتهرب منها.

قال أمقران غاضبا:

- لا بد من قتل القايد عباس.

اندفع العربي المُوسْتاشُ قائلا دون أن تنبسط أساريه القلقة، وقد

□ - جرة تغطى بخيش لتبريد الماء.

ضرب أمقران على وتر حساس في قلبه:

- نعم لا بد من قتله، لا بد من قتله، لا بد من قتله.

قال أمقران وهو يجلس على صندوق خشبي جذبه من الركن:

- أليس من الأجدر أن نكلف عصابة الموت بقتله، خلاف التيقن وحده كفيف بإزهاق روحه.

ارتجف العربي المستاش وكأنما طعنته كلمات أمقران وقال:

- لا يا أمقران يا أخي، الثأر ثأري، عار علي أن أكلف به غيري، إما أن تقفوا معي وتمدوا إلي يد العون أو أقوم بالمهمة وحلي.

ربت العربي المستاش كتفه مطمئنا وقال:

- لك ما تريد، ثأرك هو ثأرنا جميعا، لكن لا بد من خطة.

أشرق وجه العربي المستاش فجأة وقال:

- لي خطة تقتله حتما كما يقتل الكلب، أرجو أن أضمن دعمكما.

وقرأ على وجهيهما إخلاصا واستعدادا، فأشرقت أعماقه إنه يومه الموعود، فنسي أوهامه مع سوزان، وخرج عائدا إلى البيت مع سي رابح، تاركين أمقران يعود ليغوص في طلاسيمه.

*** **

18

عاد عيُوبه إلى العرش، لم يكن راضيا عن نتائج بحثه، لكنه لم يكن ساخطا أيضا، لقد دخل المدينة بقوة وخرج منها سالما معافى، وتعرف فيها على كثير من الخلق أولهم على الإطلاق نادل خيمة الشواء والحمص، الذي مازال طعمه اللذيذ في فمه، ورائحتهما الزكية في أنفه، وأهمهم سي رابح صاحب الحمام، الرجل الشهم النبيل الذي لم ير له نظيرا في رجولته وجوده، لقد حمله وهو عائد بكثير من الخيرات، قال له وزعها على كل

الأسر القريبة منك، ووعد خيرا في البحث عن العربي ولد بلخير وحمامه بنت الشيخ لَكْحَلْ رحمة الله عليه، ومفجأته الكبرى دار الفساد التي قصدها عجلا وتعرف على حدة المخرومة، ليتفرج بعدها على عشرات الأجساد العارية تعرض عليه ببيع المتعة، فيختار من شاء ليلي رغبته سريعا، هو الذي لم يعرف اللذة في حياته، ولم يمارسها إلا في الأحلام أو مع أتان عمه بلخير رحمه الله، لكنه حتما سيعود، من يجرب هذه اللذة لن يصبر عنها.

وصل عيُوبَه مساء إلى العرش واستقبله الجميع استقبال الفاتح، خاصة وهو يدخل السرور على قلوبهم بالهدايا التي حملها إليهم، وبالوعد الذي أعطاه له سي رابح في العثور على حمامه والعربي، ولم يتوقف عيُوبَه مذ وصل عن الحديث عن رحلته ومغامراته فيها، مبالغا في بعض جوانبها، مدققا الوصف في جوانب أخرى.

ظلت أم حمامه تبكي وهي لم تكف عن البكاء منذ فرت ابنتها، وزاد جرحها حين خُطف ابنها، ومات زوجها مهموما، حاول عيُوبَه الذي أصبح يعيش معها في بيتها، أن يزرع الأمل في نفسها دون جدوى، لم تلمس ما قدمه لها من هدايا جاء بها من المدينة، رغم أنه انتقى لها الأفضل.

مغربا أقبل الزيتوني برفقة زوجته العَلَجَه بنت المَكِّي، حاملين العشاء لعقيلة وعيوبه، كان البيت مجللا بالحزن لم يستطع المصباح الضئيل أن يخفف منه، وضعت العَلَجَه أمامهما العشاء حائثة عقيلة على الأكل:

- استحلّفك بالله ياخاله، حزنك لا يغير من القدر شيئا.

ومدت يدها المعروقة إلى لقيمات لم تزد عليها، سأل الزيتوني عيُوبَه:

- أنت تعرف المدينة جيدا، وتعرف سي رابح؟

وفتح عيُوبَه الملف من جديد في الحديث عن المدينة وعجائبها وعن

سي رابح وفضائله، وحين أتم حديثه المكرور قال الزيتوني الذي كان

يستمتع مكرها:

- سنعود معا الأسبوع القادم، نعم سأعود معك هذه المرة.
وسمعا طرقا على الباب وصوتا يرتفع مناديا الزيتوني، خرج عيُوبه وعاد
بخليفة.

قال الزيتوني بدهشة:

- خيرا خليفة، ما الذي جاء بك ليلا؟
- خيرا، سمعت بعودة عيُوبه فجئت أتقصي الأخبار، هل من جديد؟
أراد عيُوبه أن يعيد حديثا اجتره اليوم عشرات المرات، لكن الزيتوني
قاطعته:

- لاجديد، يظهر أن عيُوبه قد خيب ظننا، المرة القادمة سأعود معه،
وحين...

قاطعته خليفة:

- لا، أنت مريض، ذراعك المشلولة لا تسمح بذلك، وبقاؤك في
العرش ضروري.

- ومن سيرافقه؟

قال هذا واعتدل في جلسته، فرد خليفة:

- أنا، أنا سأكون رفيقا لعيوبه، الثأر نأرنا جميعا، والجرح جرحنا كلنا.
أظهر عيوبه تحرجا كبيرا من اقتراح خليفة، كما كان متحرجا من اقتراح
الزيتوني وقال:

- لا أحد يتعب نفسه معي، أعرف المدينة جيدا وسأعود وحدي، هذه
مهمتي وحدي.

خرج خليفة صلبا وتوجه إلى أولاد سيدي بوقبه، وزار مقام وليهم
الصالح، أشعل في حضرته الشموع، والبخور، وبكى، بكى بحرقة: ياسيدي
بلقاسم ياولي الله الصالح، ببركتك وكراماتك فلينصرنا الله، لقد غمرنا

الظلم، وقطع منا الأنفاس.

وعلى حين غفلة من الجميع تسلل ليرى سلافه الرومية، وفوجئ وهو يرى شبحا يقف أمامه، عيناها تسبحان في بحيرتين من الحزن الحالك، لم يستطع أن يسألها عن حالها، وقلحةً سؤالها، أخرجته من اضطرابه قائلة:
- سأموت قريبا.

فوجئ بقولها، وتمتم ليرد، لكنها واصلت:

- أسألك بما بيننا من محبة وتقدير أن تبحث عن ابني يوسف، أردت أن أهربه من فم العفريت، أحس أنه وقع في فم الغول.
أحس بسحب من التفاهة تغشى سماء نفسه، اللعنة عليهم جميعا إن كانوا رجالا، لقد صار الظلم يعدو على أربعة أرجل، مشهرا سيفه الظالم، دون أن يتحدها أحد، دون أن يتصدى له أحد، دون أن يصرخ في وجهه أحد.

إلى متى ينهنا الجبن؟ وإلى متى تنهنا الخلافات التافهة اللثيمة؟ وإلى متى نجرف كحصى الوادي أمام سيل عباس الأحمق؟
وأحس خليفة أن حملة الآن أثقل، إنه الآن مسؤول أيضا عن أحزان سلافه الرومية، والظاهر وأمه، ودم كل من مات بيد القايد عباس الأثمة ويد زبائنته.

صباحا زار خليفة ابنته، شرب معها القهوة، احتضنها بقوة وهو يودعها، كأنما كان يحس أن هذا آخر لقاء بها، كان يردد في سره يخاطبها: إلى الملتقى في عالم الخلد بنيتي، أن أن ألق بأمك الغالية، لقد تخلفت عنها كثيرا، من الجبن أن أفعل، كم هي حقيرة هذه الدنيا دونها! أتركك يا فلانة كبدي في حفظ الله ورحمته.

وسار عائدا إلى عرش أولاد النش دون أن تغادر البندقية ظهره، في طريقه دخل قُرَابَةَ سيدي علي، وقف طويلا بحضورته، تلمس الأماكن التي

كان يجلس فيها البُهلي لخصر، تتبع آثار جره وقتله، صرخ وهو يتوجه
بوجهه إلى السماء: يارب هل من نهاية للظالم؟

وخرج يدفعه ألمه وحزنه، والكون كله يتقاطر كآبة ومأساة، حين دخل
العرش عرج على بيت سلافة الرومية، كان صامتا باردا أطلاقا باكية، ولم
يكن بيته مختلفا عن ذلك، حين تخلص من بندقيته أو تخلصت منه وقد
امتطت ظهره سنوات دون جدوى، داهمه رجال القايد عباس، أحاطوا به
يتفرسون فيه شزرا، لحق بهم القايد عباس وعيناه تقدحان حقدا:

- أنت تلعب بالنار يا خليفة، ولولا كلام الناس أن القايد عباس
يقتل أبناء عرشه لقتلتك الساعة.

لزم خليفة الصمت، ليس من صالحه أن يرد الآن فيستفز هذا الخنزير
الذي لا يتردد في فعل أي حماقة.

أشار القايد عباس إلى رجاله فخرجوا، لحق بهم، أغلق الباب بقوة حتى
كاد يتهاوى، التفت خلفه وتفل:

- تفوه.

بقي خليفة جامدا في مكانه لحظات، ثم نشط خارجا، اتجه إلى مقبرة
العرش وزار قبر زوجته الرِّيح بنت إبراهيم قبل المغرب بلحظات، وأقسم
أمامه: أقسم لك بالله العلي العظيم أني لن أعود إلى هذا العرش إلا قاتلا
أو مقتولا جثة هاملة تدفن بجوارك، ثم ودع قبرها واندفع يغادر العرش إلى
غير رجعة.

ليس له ما يربطه الآن بعرش أولاد النش، لقد ضيع كل شيء حتى
سلافه الرومية التي كان يتبادل معها احتساء كؤوس الهم، اتهمت بلجنون
ونقلت عنوة إلى الزاوية، بحجة علاجها من الجن ببركة الشيخ عمار الذي
لا يترك فرصة لقاء بامرأة إلا سعى للعلق شهدها.

*** **

بعد منتصف الليل بقليل أحس خليفة بحركة الخيل أمام بيت عباس، تحسس مكحلتها وخرج بجذر شديد، رجلاان يظهران على فرسيهما كأنما يتأهبان للسفر، راح يتقدم بجذره، وصله صوت القايد عباس واضحا ببحته، ثم وصله صوت حميدَه أيضا، أي جريمة سيرتكبان الليلة، هذه فرصته فليتبعتها من بعيد، سيكون الليل معينا على اختفائه، ولن تمكنهما وقع حوافر الخيل من سماع حركته خلفها ولو كان قريبا منهما. وانطلقا، فانطلق خلفهما.

كان القايد عباس يلزم صمتا مطبقا، لم تكن له فرصة للحديث مع فارسه حميده، كان الخيال يسبح به بعيدا في فضاء الأحلام، لقد وصله استدعاء من الحاكم يدعوه للاتصال بمقره سريعا، ما المفاجأة التي يحملها إليه السيد الحاكم؟ إن الحظ يتسم له، يشرع له بواباته ليدخل دون استئذان، هل سينقله الحاكم للعمل معه في مقر عمله؟ ربما سيكون سعيدا بذلك، سيمنحه مقرا ضخما أيضا وضياعا وخدمات، ولا وظيفة عنده سوى أن يحضر الاجتماعات ويشارك في الاحتفالات الرسمية، وما سيفعل بهذه العروش الحقيمة؟ سيبول عليها جميعا، كما يبول الكلب على حشيشة يابسة.

ولن تكون لحمامه منزلة عنده فلتذهب إلى الجحيم، هذه البدوية الجلفة، له ما يكفيه في نساء المدينة، أو العمريات[□] كما تعود أبوه تسميتهن، سيترك كل زوجاته مع أولادهن في عرش أولاد النش، وسيكلف ابنه الأكبر جلوس بخلافته حتى لا تخرج القيادة من أسرته، سيجدد حياته في المدينة.

□ - اسم يطلق على نساء سطيف على اعتبار أن السكان من أولاد عامر.

وتذكر العربي المستاش، أه أيها الفأر الحقير، أما أنت فلا مفر لك مني، سأجرعك الموت الزؤام، ليس في الوجود من يتحدى عباس، القايد عباس.

وإلى جانبه كان حُمَيْدَه يمشي متقدما عليه، دون أن يزعج أحلام سيده، كان يزرع الأرض بعينيه شبرا شبرا، يدقق السمع في كل حركة، يمسك بندقيته بقوة، وهو على أتم الاستعداد للإطلاق.

لا يبشر هذا الليل بجيز، بَقَرَ حُمَيْدَه وحده أو مع رجاله آلاف الليالي، ونفذ عشرات العمليات خطفا وقتلا وتنكيلا وحرقا، ولم يحس بالقلق كهذه الليلة، حُمَيْدَه ككلب الصيد يمكنه أن يشتم رائحة الخيانة والمكيدة. تمهل حُمَيْدَه حتى تساوى مع القايد عباس، الذي مازال غارقا في أحلامه، تنح كَأَمَّا يئبئه من صمته، لكن القايد ظل صامتا، وحميده يعرف أن سيده لا يغرق في صمته إلا إذا كان حالما، تأخر قليلا وراح يتلفت خلفه، الخيانة في العادة تأتي في الظهر، أحس القايد عباس بقلق حُمَيْدَه فتوقف سائلا:

- خيرا إن شاء الله.

- لاشيء، الحذر واجب.

رد حُمَيْدَه دون أن تتوقف عينه عن الالتفات، قال القايد عباس:

- هل تحس شيئا؟

- نحن مستهدفان، وكل شيء محتمل، لا بد أن نُحِث السير، كدنا نصل،

لقد كاد الفجر الأول يبرز.

واندفع عباس بقوة، فاندفع معه حميده، نزلا واديا صغيرا، وخرجا منه سالمين، تنفس حُمَيْدَه بعمق، لقد أحس بجبات العرق تراقص على جبينه رغم الجو البارد، اقتربا من أطلال بيت قديم لم تبق منه إلا أنصاف جدران، كان حُمَيْدَه يحلم أن يعبرها بسرعة البرق، ودوى الرصاص فجأة

يمزق سكون الكون، لقد سقط القايد عباس، وماكاد حُميدَه يلتفت حتى
أسقطته طلقات أخرى، وجفل الفرسان ثم راحا بيتعدان.
خرج الثلاثة من مكمنهم، قال العربي المُوسْتاشُ وهو يتأمل جثة القايد
عباس:

- انظر جيدا أيها الكلب، هل تعرفني؟ أنا العربي، العربي ولد
بلخير، ها أنذا أقتلك ككلب حقير.

قلب أمقران الجثة الثانية، وسأل العربي المُوسْتاشُ:
- ومن هذا الجيفة؟

جثا العربي المُوسْتاشُ على ركبتيه يتأمل ملامحه وقال باستهزاء:

- يا لحظي الليلة، هذا كلبه المسعور، حُميدَه القتال، زعيم العصابة
ورئيسها.

وراح سي رابح يحثهم على الانطلاق، لا مجال لارتكاب الخطأ، لا بد أن
يكونوا في بيوتهم قبل الصبح، ومد يده يجرد الرجلين من أسلحتهم،
ركب أمقران فرس القايد عباس، وركب العربي المُوسْتاشُ مردفا خلفه
سي رابح فرس حُميدَه وانطلقوا مبتعدين.

وأغلق الكون عينيه في الظلام الدامس مستسلما لنوم عميق، لكن
القايد عباس فتح عينيه متحاملا على جراحه الراحفة، وراح يعيد إلى نفسه
شريط الغدر، آه يا عباس، كيف تقع في هذا الفخ اللعين، هل سيلحق
رجالك الآن قبل أن يراق دمك على هذه الأرض الخلاء؟ هل سيحس
الحاكم بتأخره فيرسل جنوده ليتقصوا خبرك؟ آه يا العربي يا ولد الكلب
كنت أخطط لك فخدعتني.

وتحامل على ألمه وراح يزحف ليختبئ خلف الحجاره، لعل القتلة
يعودون، وماكاد يبلغها حتى تنهى إلى سمعه صوت أقدام تقترب، دون أن
يتبين له شيء، ودون أن يصله كلام أيضا، هل عادوا؟ ربما، لكن أغلب

الظن أن القادم مفرد راجل، وتظهر من وقع أقدامه سرعته في المشي، حتما
سمع طلقات البارود، ولعل الله قد أرسله إليه منقذا.

ورآه، لم يكن إلا رجلا واحدا، لم يتبين ملامحه، إنه يغطي نصف وجهه
بلاثام قمت به رأسه أيضا، إنه يحمل بندقية وقد أعدها للإطلاق، ربما هو
لص، هي فرصة سيمنحه مايريد سيعطيه نصف ماله إن هو أنقذه، وجثا
الرجل عند حَمِيْدَه، قلبه مرارا، تأمل ملامحه جيدا، ونهض من مكانه
يتلفت حواليه، وتناهى إليه صوت يستغيثه، وطار من مكانه ليحط إلى
جواره:

- أنا القايد عباس، غدر بي الخونة، أنقذني ولك نصف مالي.
قالها متقطعة كجسده الذي اخترقه الرصاص، القايد عباس؟! ياله من
كنز ثمين، ومد الرجل يده يزيل اللثام، وفغر عباس فمه وعينيه متناسيا
جراحه العميقة:
- خليفة!؟

وابتلع ريقه خوفا كأنما يبتلع زجاجا، واصل القايد عباس:
- قتلني العربي ولد الكلب، لقد مرغ عرش أولاد سي علي شرف
عرشنا في التراب، وقد أرسلك الله لتتقذني فتتقذ بي شرف عرشك.
أعد خليفة بندقيته جيدا، سدد فوهتها إلى رأس القايد عباس وهو
يقول:

- سأنقذ شرفي أولا، هل تذكر يا عباس الربح، زوجتي الطاهرة التي
قتلتها ظلما وعدوانا.
- والله ما فعلت إلا لأنقذك من شرها، والله ما.. أرجو.. لا تقتلني.. يا
خليفة يا أخي.. أنا أخوك.. كن عاقلا.. ستقتلك فرنسا.. أنا عباس.. القايد
عباس..
وانطلقت رصاصات وفيه، من بندقية وفيه، من قلب خليفة الوفي،

وتفجر رأس عباس كالبطيخة، وتطير مخه إلى كل مكان.
لم يشأ خليفة أن يغادر المكان، راح يذرع المسافة بين القايد عباس
وحميده كأنما لم يتأكد من موتهما، وكانت روحه تحلق مع روح الرِّيح بنت
إبراهيم.

*** **

20

فتح أمقران باب مستودعه على عجل، فدفع سي رابح والعربي
بالفرسين إلى حوش خلفي تكاد تغطيه ثلاث أشجار، دخلوا إلى حجرة
الاستراحة وراحوا يكومون الكتب في الزاوية فاسحين لأنفسهم أماكن
للنوم، تمدد سي رابح على سرير صغير، وتقاسم أمقران والعربي فراش
حلفاء طرح على الأرض منذ زمن فظهر مسودا، قال سي رابح معلقا:

- من يرى هذه الكتب يعتقد أن أمقران عالم كبير.

لم يعلق أمقران، ظل صامتا ينظر إلى السقف ويعيد إلى ذهنه الحادثة من
أولها إلى آخرها، غير سي رابح اتجه الحديث إلى العربي المستأش:

- لم أكن أعرف أنك عفريت إلى هذه الدرجة، خطتك كانت محكمة.

- لولاك ما نفذنا شيئا، أنت سيد الأذكياء.

رد العربي المُوسْتَأَشُ بسرعة وهو يحس بتعب شديد ينهش كل جسده،

قال أمقران:

- بمجرد أن وصله الاستدعاء الوهمي أسرع تسبقه أحلامه وأطماعه.

بدا سي رابح في غاية الراحة والاطمئنان رغم أنه لم يقتل في حياته
عصفورا، وكان العربي المُوسْتَأَشُ يحس بانتشاء كبير، لقد انتقم لأبيه
ولكل المظلومين، لقد رفع أنف أولاد سيدي علي عاليا، وأزال عنهم غبنا
شديدا، ولكن...، وجلس قائلا:

- أرجو أن لا يفظنوا إلينا.

وتوجه بالحديث إلى سي رابع.

- إذا اكتشف أمرنا..

قاطعهم أمقران معنفا.

- سنذهب إلى السجن، السجن للأبطال يجبان.

تأمله العربي المُوسْتَأْسُ بنظرة لائمة وقال:

- أحشى من الثأر، ليس مني، بل من عرشي كله، أريد أن أضع حدا

لسلسلة القتل التي دامت عقودا، ولم نجن منها إلا الهلاك.

قال أمقران ضاحكا، وهو يدس الشممة تحت شفته العليا بكثير من

الانتشاء:

- سأستريح قليلا وأقوم للفرسين أغير ملاحظتهما ثم نبيعهما.

ضحك وهو يواصل:

- يمكن أن أجعل منهما حمارين أو بقرتين أو حتى معزتين، لن

يعرفهما أحد، حتى رجال الدرك الذين سيتملكهم السعار، وسيتفرقون

بجثا عن الفرسين.

ضحك العربي المُوسْتَأْسُ وهو يكبر عبقرية أمقران، لكن سي رابع

ظل صامتا غائبا عن كل ما يحيط به، لقد امتدت يده فقتلت عباس المجرم،

ليس لأنه ظالم للعربي المُوسْتَأْسُ فحسب، بل لأنه عميل لفرنسا، فرنسا

التي تحتل هذه الأرض الطيبة منذ قرون، وإذا فشلت كل الثورات السابقة

في هزيمتها، فلن نفشل هذه المرة، الطوفان قادم، متى، وكيف؟ ليس يدري.

إنه يحس أن في الأفق أمرا ما، إن دماء في عروق هذا الوطن قد بدأت

تسري.

أخرجه العربي المُوسْتَأْسُ من شروده قائلا:

- فيم تفكر عمي رابع؟ يظهر أن ثمن الفرسين قد شغلك.

ضحك العربي المُوسْتَأَشُ وأمقران فيما بقي سي رابح صامتاً للحظات، ثم قال:

- ثمن الفرسين يجب أن يعطى للجامع.

وصمت يرنو إلى الأفق الذي بدأ يحتضن أولى أشعة الشمس، نظراً إليه معاً، سأل أمقران:

- ما يشغل بالك، هل أرعبتك الدماء التي سالت من الجرمين؟

- هذه الدماء قد تكون بداية لنهر جارف منها.

نظر سي رابح في ساعته الجيبية المذهبة، وبسرعة أعادها إلى جيبه، ونهض يغادر المستودع دون أن يتلفظ بكلمة واحدة، كان النهار قد بدأ يشرق، والحركة بدأت تملأ الشوارع، دس أمقران البنادق في دهليز صغير تحت السرير، وفتح محله، خرج العربي المُوسْتَأَشُ ملتحقاً بعمله في بيت فرانكو، وراح أمقران يعالج الفرسين يحاول تغيير ملامحهما.

بدا العربي المُوسْتَأَشُ منصهراً كلية في الحديقة خائفاً، لا يدري ما سيقع هذا اليوم وفي ما يأتي من الأيام، هل تسكت فرنسا عن قتل أكبر عملائها المخلصين؟ وهل سيسكت أولاد النش عن قتل زعيمهم الأكبر؟ بل وهل سيسكت أولاد سيلبي بوقبه وقد انهدهم سور منيع طالما احتموا به؟ إنه يشتم رائحة الموت ورائحة الدم، هل أخطأ فيما أقدم عليه، لا، لا، صرخ في نفسه، لقد انتقم لشرف عرش كامل، انتقم للشرفاء الذين داسهم عباس الكلب بجبروته، ولتنهمر السماء على الجميع موتاً، لا وشم دون دم، ولا وشم دون ألم.

ظلت سوزان تجلس في الشرفة مكتفية بمراقبة العربي المُوسْتَأَشُ من بعيد، لقد اشتركت هي أيضاً في العملية، هي من سهل الحصول على الدعوة المزورة، وهي من قامت بإرسالها، وسوزان في الحقيقة ليست فرنسية الجذور، في عروقها تجري دماء ألمانية أيضاً، لقد هاجر أبوها الألماني منذ

شبابه إلى شرق فرنسا لاهثا خلف فتاة فرنسية وقع في شباك حبها، ولم ينجب منها إلا سوزان، لقد قتلتها رحى الحرب العالمية الأولى، وغرقت أمها في وحل الإدمان، ووحل الفقر المدقع.

وكانت سوزان رقيقة المشاعر، راقية العواطف، لم يكن يروق لها ما يفعله الفرنسيون في الجزائريين، طالما طرحت على نفسها الأسئلة الملححة: هذه الأرض ليست فرنسية، فلماذا يحرم منها أهلها، ويرمون في أشداق الجوع والفقر والجهل في حين ينعم الفرنسيون بكل هذه الخيرات؟ إنه الظلم أن يصير السيد عبدا في داره لغريب لا علاقة له به.

في المساء قامت قوات الدرك والجيش الفرنسيين بتفتيش المدينة كلها، بحثا عن الفرسين والبندقيتين، وفتشوا كل مشتبه فيه، وساقوا الكثير منهم إلى محتشد كبير، كان العربي المُوسْتَأْسُ مرعوبا وهو يقف مع هذه الجموع البريئة، تنتظر مصيرها كما ينتظر هو مصيره، قال أحدهم:

- سيزجون بنا دون محاكمة في معتقلاتهم البعيدة.

رد آخر:

- لكننا لم نفعل شيئا.

تقدم أحد المتعاونين مع الفرنسيين وقال:

- نحن ننتظر وصول أبناء القايد عباس لعلهم يتعرفون على القاتل

من بينكم.

تملك الهلع العربي المُوسْتَأْسُ وهو يسمع كلام المتعاون، هذه نهايته، سيتعرفون عليه لا محالة، وسيأخذونه سواء اتهموه بالقتل أم لم يتهموه، انزوى بعيدا وجلس على صخرة قرب شجرة مهموما، وصله صوت المتعاون يناديه.

- العربي خيار الناس.

اندفع ملبيا وقد ازدادت دقات قلبه، متمما، اللهم سترك.

حين دخل المكتب، منتظرا رؤية أبناء عباس، اندهش وهو يرى سوزان ومعها سي رابح، سلم الضابط الفرنسي الوثائق الثبوتية للعربي المستاش مستسما على الإزعاج، بعد أن ضمنت سوزان وسي رابح براءته من أي انحراف.

شكر سي رابح سوزان بشدة وخرجا، قريبا من باب مركز الشرطة تجمهر جمع من الناس يترقبون ما يصدر على المحوسين، وهرع إليه أمقران وسي الهادي يعانقانه مهنيين على السلامة، قال أمقران:
- خشيت شرا من هذا التوقيف.

رد سي رابح مداعبا:

- خشيت على نفسك أيها الجبان.

ضحك أمقران ورد:

- مادمننا في سبحة واحدة فلن أخشى، سأكون تعيسا حين أسجن وحدي وتبقون طلقاء.
وانخرطوا في الضحك.

توجه العربي المستاش عائدا إلى بيته ليطمئن حماته، هو على يقين أنها قلقة، وفعلا وجدها تقف عند الباب وقد ترحلت المحرمة من فوق شعرها الأملس، وتدلت ذؤابات حائرة على جبهتها، وترددت عند الباب تستعجله في الوصول وتهم بالانطلاق لاحتضانه.
دفعها داخل الفناء واحتضنها يطوقها بذراعيه ويضغطها إلى صدره، أجهشت تبكي وهي توغل في شم رائحته المميزة.

داخل الحمام بقي سي رابح وأمقران متقابلين على احتساء القهوة، رفع أمقران رأسه في رابح الذي بقي صامتا غارقا في بحر من التفكير، قال:
- أراك تأنها، هل هناك ما يشغلك؟

ترك سي رابح لفنجانه فرصة للاستراحة وقال:

- لا بد لنا من تشكيل مجموعتنا في القريب العاجل، عندنا الرجال
وعندنا الأسلحة.

أشرق وجه أمقران للفكرة التي انتظر تجسيدها طويلا، وضع فنجان
قهوته بجانب فنجان سي رابح وقال:

- هذا حلمنا جميعا يا سي رابح، كلنا فداء للوطن.

** ** * * * **

أعدت إلي حوبه مسودة الجزء الثاني من الحكايتة بعد أن قرأتها، كنت منتشيا جدا حتى الثمالة، ما أجمل أن تقرأ لك امرأة لأنها تنازلت لك عن عرش الحكيم، كنت معجبا جدا بشخصيتة سي رابح، وبشخصيتة أمقران والعربي المستاش، كان عندي حدس أن بصمتهم ستكون قويية جدا في الجزء الثالث من الحكايتة.

نظرت في حوبه مليا، ابتسمت كما شمس الربيع، كأنما تهديني باقة من تغاريد الطيور، ثم قالت:

- أعرف أن رأسك ناشفتة إياك أن تذهب إلى شعبتة الهف، لم يرجع كل الذين ذهبوا قبلك إلا مجانين.

دون أن أنطق أشرت برأسي أنني لن أذهب، ابتسمت غير مصدقة، هي تعرف شدة عنادي وإصراري على اكتشاف كل مخبوء، بل وهي على يقين أنني سأذهب فعلا، فاجأتني وهي تسألني سؤالها الغريب:

- خبرني، هل الدماء التي تجري في عروقك هلالية أم أمازيغية؟

فتحت عيني دهشة دون أن أجيب، أنا لا أومن بنقاء الأجناس

البشرية، ولا معنى لهذا النقاء، ولا للانتماء إليها، لاشك أني مزيج بين كثير من الدماء التي هدرت كالموج قديما وحديثا على هذه الأرض، وأغلب تقديري أني هلازيغي، أفضل الانتماء إلى الأرض، أنا ابن الأرض، والبشرية جميعا عشيرتي وأهلي.

حين تبرقع الكون تسللت من المدينة تاركا صخبها وقد راح ينفور خلفي، توغلت داخل أشجار الوادي تتقاذفني أمواج التخمين والحيرة، في أي أنحاء الوادي بالضبط توجد شعبة الهف، بدأت الأشجار تقل، وصارت حافتا الوادي صخورا صلبة مدببة تزداد صلابته وضخامة وقوة كلما أمعنت السير، وبدأ الوادي يضيق مشكلا حنجرة صخرية، قلت في نفسي هذا مدخل شعبة الهف دون شك، وتجمدت مكاني والرياح تعزف على الحنجرة لحنا جنائزيا مرعبا، تأكدت أني في شعبة الهف، وأن هذا الصوت هو ما كان يسمعه الناس فيتوهمونه صوت جن، ويعطونه تفاسير مختلفة.

روت حوبه أن أمقران قال رواية عن السابقين: أن الجن تعزف هذا اللحن الجنائزي مستنفرة حين يدخل بشري حماها، إن الجن بريء والطبيعة بريئة أيضا، إن العيب في عقول البشر، ولكن كيف كانوا يتوهمون أنهم رأوا مدنا بكاملها تقوم

داخل الوادي ضاجت بالحياة، كلما جن الليل ثم تختفي مع
الصباح؟

وظهر لي عمق الوادي كأنه ديناغول كبير، وفركت عيني
وأنا أرى المدينة قائمة فعلا، ذات دور وقصور وأبراج وأقواس،
تتنسم فيها مصابيح خافتة، وتضج بالحركة، تأتيها مخلوقات
لايمكن أن أتبين ملامحها، وتجمدت مكاني وأنا أتأمل
المشهد، وقد انهار جسدي متكئا على جذع شجرة تحتضنها
الصخور، وامتدت يدي تلمس مؤخرتي فسرى في جسدي خدر
الهلع الشديد، ورأيت أمامي مخلوقا في حجم عنزة ينط
كالكنغر، وله أذنان طويلتان يديرهما حيث يشاء، وتلفت
إلي، كانت عيناه كبيرتين تحتلان معظم وجهه الذي يشبه
وجه الحمار أو ربما الزرافة، مع أنف مفلطحة كالخنزير،
وبدرت منه تجاهي ابتسامته ساخرة، ثم صرف وجهه ورأيت
ذنبه يطول متجها إلي رغم اندفاعه بعيدا عني، ضرب الذنب
الشجرة وعاد إلى أصله، ترنحت مكاني وسقطت على قفائي،
ورأيت الشجرة تنبت رؤوسا لا عد لها تشبه رأس المخلوق الذي مر
بي منذ لحظات، وداهمتني رائحة نتنة ملأت المكان كله، وراح
جلدي ينبث أشواكا حادة مؤلمة، لم أكن أكف عن

الاستعانة بكلمات لا أدري ماهي، ولا لمن كنت أتوجه بها.
ولم أدركم مر علي حتى فتحت عيني ثانية. كان الظلام
قد أكمل سيطرته على الكون بجيشي الإعماء والصمت
الرهيب، وبحذر شديد وألم رهيب دفعت جسدي إلى الأعلى
مركزا نظري على بطن الوادي من خلال حنجرتي، لم أر أمامي
شيئا غير ظلمة حالكة وصمت مطبق.

أحقيقتا ما رأيت؟ هل فعلا توجد هنا مدينة للجن؟ أم
مدينة للإنس كانت قديما وعصف بها السحر فمسخها؟ وهل
هي المدينة التي ظل أمقران يبحث عنها طوال سنوات، ويجادل
الجميع في حقيقتها؟ إذن فإن حكاية أمقران التي روتها حوبه
صحيحة، ولكن أين يمكن أن نجد ما كان يستعين به من
كتب وطلاسم؟

** ** * * *

البوح الثالث

النهر المقدس

كنت قد تعافيت من هلعي الذي تملكني، وبدأت أدب في البيت، جلست في شرفتي المطلّة على الشارع الكبير في منامتي، وغرقت في قراءة الجزء الثاني من الرواية لعلي أمنحه عمقا أكبر، تناهى إلى سمعي بوق سيارة ارتجف له قلبي شوقا، إنها حوبه، وقفت على حافة الشرفة ومددت نظري إلى الأسفل، راحت تلوح بيدها تدعوني للنزول، رجوتها أن تصعد إلى البيت فأنا متعب مرهق ومازلت في حاجة إلى الراحة، ألحت علي في الإسراع بالنزول واصفّة إياي بالكسول، أسرعت أغير ملابسي، وماكدت حتى فاجأتني قائلة:

- أعرف أنك تتماطل، ولو لم أصعد إليك ما أسرعت.

كنت قد أكملت إعداد نفسي، تأملتني بابتسامته وقالت:

- أنت أحلى حبيب.

قلت مداعبا:

- وراء كل جميل امرأة جميلة.

راحت منتشيتة تمسك بيدي تعيني على نزول الدرجات،

حين استويينا في السيارة تأملت السماء عبر الزجاج وقلت:

- أخاف أن تمطر الدنيا.

تبسمت وراحت تردد شعر نزار قباني:

أخاف أن تمطر الدنيا ولست معي

فمنذ رحت وعندي عقدة المطر

ومدت يدها تشغل الشريط، فتعالى صوت كاظم الساهر

يتغنى بالقصيدة.

ورحت عبر الزجاج أعانق التضاريس الجميلة من حولي،

معيدا إلى ذاكرتي كل مغامراتي مع حوبه، كل ربوة، كل

جبل، كل متنزه، كل غابة، كل بساط أخضر، شاهد على

حبنا، على إخلاص كل منا لصاحبه، هل سأكتب يوما ما

قصة حبنا أيضا، كما أكتب الآن قصة العربي الموستاش

وحمامه؟

دخلنا الجامعة، اختلينا في ناديها، طلبنا فنجانين من

القهوة، تأملت وجهها المشرق وقلت:

ليتنا يا حوبتي سلكا ضياء

نغدو معا في الفضاء

نسقي عيون البشر

جمالا وبهاء

وليلاً نمتطي صهوة النجوم

نرصد بالبسمت عيون السماء

صفقت حوبه بحرارة وقد أشرق وجهها، رشفت من فنجانها
وراحت تكمل حكايتها، ولم أجد مندوحة من أن أخرج
قلمي لأسجل بعض مفاصلها لأستعين بها لاحقاً حين أعيد
تدوينها.

قالت حوبه وهي تقلب عينيها السوداوين الواسعتين كأنما
تقلد شهرزاد:

بلغني أيها الحبيب الظريف، ذو الخلق اللطيف، أن.....
وانهمرت تحكي.....

** ** * * * **

1

كان النهار قد أسفر على عرش أولاد سيدي علي حين كان خليفة يسابقه متسللا إلى بيت أصهاره، عند الباب صادفه سالم، لم يزد على أن قبّل كتفه مرحبا، دعاه للدخول واندفع أمامه، كانت سرّوله غارقة في كنس الحوش من بعُر الأنعام، اندفعت واقفة متهللة وقد تناهى إلى سمعها صوت أبيها، اكفهرت ملاحظها فجأة وهي ترى تعباً وقلقا يتمددان على كل وجهه، قبلته على كتفه محيية، ضغطها إلى صدره كما لم يضغطها من قبل، قبل جبهتها بحرارة، رأت في صفحة عينيه دموعاً تبرق كما يبرق الضوء على الماء، تجاوزها باتجاه غرفة الزيتوني، الذي أحس به فخرج عند عتبة الباب مرحبا، دخلا فانصرف سالم، واستمرت سرّوله في عملها، سريعا لحقت العُلجَه بنت المكيّ بالقهوة، وضعتها أمامهما محيية، كانت ترغب في الجلوس لكن رفضا كان يلمع من عيني زوجها فخرجت، أسرعرت إليها سرّوله تسألها:

- مابه أبي، هل حدثك عن شيء؟
- لا لم ينطق معي نصف كلمة.
- مأاً الزيتوني الفنجانيين سائلا:
- ماذا تخفي، كأنك كنت في حرب؟
- رشف خليفة من فنجانهِ ورد وقد أثقل النعاس عينيه:
- نعم صدقت كنت في حرب.
- اندفع الزيتوني مهتما:
- هل لحقك مكروه من عباس الكلب، هل فعل بك شيئا؟
- وضع خليفة فنجانهِ، وقد تغشته ثقة كبيرة.
- لا تخش، هذه المرة أنا الذي فعلت به.

اندفع الزيتوني متقدما حتى كاد يلمس خليفة دون أن يضع فنجان القهوة وسأل بلهفة:

- ماذا تقول؟؟ ما الذي حصل؟

وضع خليفة فنجانه، تنحنح كأنما يكنس حنجرته من تعب ليلة كاملة وقال بثقة كبيرة:

- لقد قتلت عباس.

جحظت عينا الزيتوني وبدا الاندهاش على كل وجهه، وأسرع يغلق الباب، ويعود إلى مكانه ملتصقا بخليفة وقد تحول كل جسده إلى آذان، اعتدل خليفة وراح يحكي، يفيض على الزيتوني كالمطر، لا يدع شيئا إلا حكاه، منذ انطلق كالشبح خلف عدوِّيه حتى تركهما هامدين، كان الزيتوني وهو يستمع ينتعش كربوة خصبة في فصل الربيع، حين أكمل خليفة احتضنه الزيتوني وراح يقبل كل جزء في جسده، وكاد يخرج مهللا مكبرا، لكنه تمالك نفسه، ثم مافتى أن راوده الشك، وقرأ خليفة ذلك على صفحة وجهه، فطرح أمامه مخلاة كان يعلقها على ظهره، وفاجأه وهو يخرج منها عمامة القايد عباس وبرنسيه، قائلا:

- خذ هي لك.

وراح الزيتوني يقلبها وقد زادت دهشته، ثم حملها سريعا وراح يدهسها في صندوقه تحت ثيابه وأغراضه الخاصة، ويعيد غلق الصندوق بإحكام.

قال خليفة والزيتوني يجلس إليه مرة ثانية:

- دعني الآن أم، أنا مرهق جدا، مازالت عندي مهمة هذه الليلة.

سحب الباب خلف خليفة وخرج، في الحوش نطت حيرة من عيون سرَّوله والعلجة منتظرتين جوابا من الزيتوني، وقد أحستا بتغير حالته فجأة، نظر فيهما مرددا في نفسه: ستعرفان قريبا، ثم قال:

- أرجو ألا تزعجا خليفة، هو مرهق دعه ينم.

وخرج أسرع مما تعود كأنما شفي من شلله، وجد أخه سالم، طلب منه أن يتبعه، ماكاد يجتاز البيدر حتى التقى الشيخ البغدادي حثه أن يسير معه، ثم راح يجره من يده دون أن يتكلم كأنما يخشى هروبه، قال البغدادي:

- إلى أين، ماذا وقع يا الزيتوني؟

رد دون أن يتوقف ودون أن يلتفت إليهما أو يترك البغدادي:

- يجب أن تذهبا معي إلى المقبرة.

قال الزيتوني في حيرة:

- خيرا لِمَ نذهب إلى المقبرة؟

- لا تسأل كثيرا، سأخبركما بكل شيء حين نصل، ليس سوى الخير.

واستسلما للأمر فراحا يسايرانه، متعجبين لما ظهر منه من قوة، وهو يشد على يد البغدادي، وهو يتقدم عليهما رغم شلل يده، كانا يلزمان صمتا مطبقا، لكن خيالهما كان يعمل بقوة، ليس لسالم أن يعارض أو حتى أن يسأل، هو لم يتعود إلا على التنفيذ، الزيتوني هو أخوه الأكبر، الذي خلف أباه في العائلة، والواجب يقتضي أن يطيعه طاعة عمياء، وليس بين الزيتوني والبغدادي إلا سنوات قليلة قد تصل الست، إلا أن الجميع في العرش تعود على احترام الزيتوني وطاعته، وقد ورث ذلك من مكانة أبيه التي كان يحظى بها في أولاد سيدي علي، وهما لم يطوقا رقاب الناس بشيء سوى بما يغدقان على الجميع من محبة وكرم وأبوة.

دخل الثلاثة المقبرة، وراح الزيتوني يشقها مرددا: السلام عليكم أهل قوم مؤمنين أنتم السابقون ونحن اللاحقون، وراح سالم والبغدادي يرددان معه بصوت خافت، وقد زادت حيرتهما، توقف الزيتوني عند قبر أبيه، جثا على ركبتيه، سحب البغدادي إلى الأرض بجواره، فجثا سالم عن يمينه أيضا، نزع عمامته، وقال:

- السلام عليك أبت، السلام عليك سيدي، وسيد أولاد سيدي علي،

جئت لأزف إليك البشري، بشري طالما انتظرتها وحملتها في عنقي أمانة،
ياسيدي يا أبت، لقد قتل عباس الكلب، ياسيدي يا..

أرعى البغدادي يديه اللتين كان يبسط كفيهما للسماء، والتفت إلى
الزيتوني مقاطعاً:

- ماذا قلت؟ قُتل الكلب؟

واستمر الزيتوني غير آبه:

- يا أبت، لقد قتل حَمِيْدَه الكلب.

ظهرت الدهشة على ملامح البغدادي وسالم الذي كبح صرخة فرح
كادت تدوي في المكان، حول البغدادي بصره إلى الزيتوني، وأراد أن يسأل
مرة ثانية، ثم تراجع واستمر يبسط كفيه، واستمر الزيتوني.

- لقد قتلا يا سيدي شر قتلة، قتلا كما تقتل الكلاب المشردة، ثم في
قبرك هانئا ياسيدي، يا أبتِ وانعم بجنة الخلد، وليذهب أعداؤك إلى
الجحيم، يا عمي لكحل، يا خالتي الرَّبْحُ بنت ابراهيم، يا كل ضحاياه،
اهنأوا في قبوركم، وانعموا بجنة الخلد، لقد زف الخنزير إلى نار سقر.
ورفع الزيتوني كفيه وقد خفت صوته وقال بصوت ممدود:
- الفاتحة.

وبسطا معه أكفهما وراح الجميع يتلون أم الكتاب بين الجهر
والخفوت.

ماكاد يسكت حتى اندفع سالم والبغدادي يعينانه على النهوض، وراح
البغدادي يسأل بلهفة برزت من عيني سالم أيضاً:
- ماذا تقول يارجل؟

وزف الزيتوني إليهما الخبر دون أن يخبرهما باشتراك خليفة في القتل،
ظهرت الحيرة على وجه سالم فسأل:

- ومن قتله في رأيك يا الزيتوني؟

قال الزيتوني بحسرة:

- كنت أتمنى لو كنت أنا أو أحد إخوتي، ثأر أبينا دين في رقابنا،
ولكن...

قاطعته البغدادي بقلق:

- دم بلخير ثأرنا جميعا.

عاد البغدادي يلح في السؤال وهم يعودون إلى البيت:

- كيف عرفت الأمر يا زيتوني بمقتل الكلب؟ من أخبرك؟ ومن تظن
أنه الفاعل؟

لم يرد الزيتوني كأنه لم يسمع، كان يحث الخطأ عائدا إلى البيت، قال
البغدادي:

سيفرح الكون كله بقتله، علينا أن نقيم الأفراح إظهارا للتشفي.

وغير الزيتوني اتجاه الحديث، كأنه لم يسمع كلام البغدادي، قائلا:

علينا الآن أن نبحت عن الطاهر، نحن جميعا مسؤولون عنه.

سأل سالم:

- وهل تعتقد أنه مازال حيا؟

منذ اختطف القايد عباس الطاهر، لم يظهر عنه خبر، ولكن الإشاعات
لم تتوقف مطلقا، أشيع أنه في زاوية أولاد سيدي بوقبه، وأشيع أنه في
كهوف الجبل الأسود، وأشيع أن رجال الدرك الفرنسيين استلموه وزجوا
به في السجن، وكم من مرة وصلتهم أبناء مقتله وأنه شوهد جثة هنا أو
هناك..

وكم قضت أمه الساعات الطوال منتحبة، ترافق الشمس والقمر
والنجوم تسري في الفضاء، مستنجلة بالولي الصالح سيدي علي، تجلس
عند قبره الساعات تشعل الشموع، تحرق البخور، تتلمس كرامة تعيد
إليها وحدها.

ياسيدي علي يا صاحب البركات
يامفرج الكربات
ياسيدي علي يا صاحب الجناحين
يا سليل الحسين
يا سيدي علي يابن الزهراء
يابن سيد الأنبياء

ثم لا تذكر طلبها، تلزم الصمت، وتقلب بصرها في كل أرجاء
الْقُرَابَةِ، ثم تغلق عينيها طويلاً، هي على يقين أن روح الولي الصالح
ترفرف حواليتها، وأنه يراها ويسمعها، وهو يعلم السر وأخفى، وحين
يحظى طلبها بالإجابة سيعود ابنها لا محالة.

** ** * * * **

2

لم ينم خليفة طويلاً، مشاعر عملاقة كانت تمور في صدره، إنه يحس
بالراحة الكبرى تساقط على قلبه روحا وريحانا، ويحس بروح زوجته الربّح
ترفرف حواليه فرحة، ثم ينتشي أكثر وهو يرى نفسه بطلاً فعل ما عجز
عنه الآخرون، ولكنه ما يفتأ أن يدخل دوامة الحيرة والقلق، من قتل القائد
وحميده؟ تبا له جعل بطولته منقوصة، ليته لم يخبر الزيتوني بالحقيقة، لو
ادعى أنه القاتل الوحيد لتحول في نظر الجميع إلى أسطورة.

عند المساء تعشى خليفة مع الزيتوني قبل غروب الشمس، شرب
فنجانين من القهوة، وخرج مغادراً عرش أولاد سيدي علي، سأله الزيتوني:
- إلى أين يا خليفة، أهل الهالك في حقد كبير وسيقتلونك شر قتلة إن
وجدوك، قد يشتبهون بك، وحتى إن لم يشتبهوا فهم يكرهونك ويعرفون
مدى سعادتك بمقتل الهالك.

مد خليفة يده وضغط على كتف الزيتوني مركزا فيه عينيه وقال:
- لا تحش، احفظ بندقيتي عندك، مازالت عندي مهمة واحدة، قد أعود
إليك منتصف الليل أو قبله بقليل لأخذ أمانتي.

وراح يتعد ممتطيا فرس الزيتوني، لم يتحرك الزيتوني من مكانه، ظل جامدا يتابع خطوات خليفة، وفي نفسه عواطف للإعجاب والغيرة، لقد صرت بطلا يا خليفة، هنيئا لك، حتى لو قتلت الآن فلا يهم، أنت الآن في نظر الجميع وفي نظر نفسك بالأساس بطل، بطل كبير، وراودته وساوس كثيرة، هل معنى ذلك أننا نساء، أو على الأقل أنصاف رجال؟ كيف سينظر الناس إلينا، أليس الثأر ثأرنا؟ إذن ما دخل خليفة، ليسرق منا ثأر أبينا أولا، ويسرق منا المجد ثانيا؟ هو أيضا من حقه أن يقتله، في رقبة ثأر زوجته، وزوجته خالتي، نعم خالتي الربح، تبا لنا جميعا في رقابنا ثأران، ثأر أبينا وثأر خالتنا.

ومد نظره بعيدا يبحث عن خليفة، لقد اختفى، إلى أين يقصد هذا البطل المجنون؟ هل سيذهب إلى بيت عباس؟ من واجبه أن يفعل ويقدم العزاء، لأن غيابة المفاجئ سيثير حوله الشكوك، هل سينتهز هذه الفرصة ليرتكب جريمة أخرى؟ ربما، ربما سيقتل عمار شيخ الزاوية، لكنه ترك بندقيته، هل سيستعمل خنجرا؟ يمكن ذلك إنه أسهل وأبسط، علي اللعنة كيف غاب عن ذهني كل هذا؟

واندفع إلى الأمام كأنما يهم أن يلحق به، ثم تراجع وجمد في مكانه، يولد الأبطال أبطالا، طالما ردد أبوه بلخير على مسمعه هذه العبارة، طالما قال له: الأبطال أكبر من الموت، الأبطال أكبر من الخوف.

كيف تقبله أبوه؟ بم رد عليه حين بشره بموت عباس وحميله؟ وارتعش في مكانه وتغيرت ملامح وجهه، هل يمكن أن يلعنه، وأحس به، يبصق في وجهه: تفوه عليك اللعنه، تبشرني بانتصار صنعه غيرك، اذهب عليك

اللعة، وأسرع يخفي وجهه بيديه، كطفل صغير يتجنب صفعات كبير.
أشرف خليفة على عرش أولاد النش، تراءى له من بعيد وقد غربت
الشمس مئات الناس حول بيت القايد عباس، ستكون الجنازة مهيبة، كل
العروش القريبة والبعيدة وكل القياد، وشيوخ الزوايا وحتى بعض
الفرنسيين، ربما سيحضر الحاكم شخصيا، وشيوخ البلديات والنواب
والأعيان و... مما يعرف الناس ومما لا يعرفون.

تسلل خليفة باتجاه المقبرة، عبر قبورا متراسة معظمها حديث حيث
حصدت المجاعة والأوبئة العشرات، وقف عند قبر زوجته الربح، جلس
يفترش التراب، حمل حفنة من تراب القبر قبلها، مد أصابعه بجنان إلى
شاهد رأسها، غمرته أمواج من العواطف. عادت به الذكرى إلى زمن
سبحا معا في بحر الحب، فأنعشتها أمواجه ونسماته.

لك وحدك أخلص حيي، لن تتربع غيرك على عرش قلبي، سأبقى وفيا
لك حتى ألقاك، لقد أخذت بئارك، لقد أرت دمى كما أراق دمك، بل لقد
فجرت رأسه كبطيخة ننتة، لو شاهدت الكلب اللعين وهو يسترحمني،
أشبه ما يكون... نامي إذن حبيبي، وانعمي بجنة الخلد، مازالت في عنقي
مهمات أخرى، لم يشأ القدر أن يأخذني هذه المرة رغم شوقي للقائك.
مد رقبتة ساجدا على القبر وطبع قبلات عليه في كل مكان منه
ونفض، ماسحا راحتي يديه على صدره، واستدار مبتعدا، خطا خطوتين ثم
عاد.

ابنتك سرّوله بخير، إنها تقرئك السلام، إنها حامل، نعم حامل، إن
أنجبت بنتا ستسميها الرّبح، نعم الرّبح لتبقي حية معها، وإن أنجبت ذكرا
سيسميه سالم بلخير، نعم بلخير الرجل العظيم الذي قتله الكلب غدرا
وخديعة، مع السلامة أتركك في رعاية الله حبيبي.

حمل شيئا من تراب القبر وضعه في جيبه الأيمن، واستدار يبتعد، حين

خرج من بين القبور مال يمينا يدخل قُرَابَةَ البُهْلِي لِحَضْر، وقف عند الضريح، ألقى السلام، جثا، قبله، ها أنا قد جئتك يا سيدي لأزف إليك نبأ مقتل الطاغية، لقد أخذت بثأري وثأرك وثأر كل المظلومين، دمكم لم يذهب هدرا يا سيدي، لقد ألحقت روحه بأرواحكم فافعلوا بها ما تشاءون، ومد يده فحمل شيئا من تراب القبر وضعه في جيبه الأيسر وانصرف.

دخل عرش أولاد سيدي بوقبه قبل المغرب، تراءت له الزاوية في حضن الجبل كأنما يطوقها بذراعيه في حنو شديد، غرف عديدة تقاربت تُتخذ أقساما لتعليم القرآن وبعض علومه، وأخرى تتخذ مأوى للطلبة ومعلميهم، عن يسارها قام مسكن الشيخ حيث أولاده وزوجاته، وقد التف بالأشجار، وبينهما مقر الشيخ فيه يلقي مريديه وزواره، ويقدم فيه بركاته للقاصدين، وغير بعيد قامت الإسطبلات الواسعة للأنعام تتكسد خلفها أكوام التبن والقش وغرف الرعاة، وصل الزاوية دون أن يكف ذهنه عن التخطيط، ودون أن تكف عيناه عن مراقبة كل شيء، لم يكن في الزاوية إلا بعض الخدم، تلقاه أحدهم، سريعا دس في يده نقودا وقبّل يده، أخذت الخدام الدهشة وهو يتحول إلى ولي صالح، وهو يتلقى هذا المبلغ الذي لم يحلم به في حياته، سأله عما يحتاج من خدمة، قال:

- عندي أخت مريضة عندكم، وكنت غائبا لم أعد إلا الليلة لحضور جنازة القايد عباس، فرغبت في رؤيتها.

وإن هي إلا لحظات حتى كانت سلافه الرومية أمامه، واندفع خليفة يعانقها بشوق كبير، رافعا صوته:

- آه يا أختي سلافه العزيزة، لقد اشتقت إليك، اعذريني، لم أستطع العودة من غربتي المريرة.

واطمأنت سلافه فراحت تسايهه في تبادل العواطف، غير أن دموعا

حارة انفجرت تغسل خديها، تحولت إلى إجهاش لم تستطع أن توقف تدفقه الشديد، واطمأن الخادم إليهما فراح يبتعد، وأسرع خليفة ففس نقودا أخرى في يمينه، فاندفع طائرا على أجنحة الفرخ، واستغل خليفة الفرصة فأسرع يبتعد بسلافة، التي لم تسمح لها الدهشة بأن تتلفظ مستفسرة أو معترضة، امتطيا الفرس وانطلقا باتجاه عرش أولاد سيدي علي.

كان الظلام قد أغلق كل المنافذ عن عيون البشر، مشرعا منافله لكائناته الليلية، كانت النجوم ترصع صفحة السماء باستحياء، وكان نباح الكلاب خناجرَ تسعى لتمزيق رداء الليل الأسود الكثيف دون جدوى. وأحس الزيتوني بخطوات تقترب من البيت، إنه خليفة دون شك، فاندفع يلقاه مشهرا بندقيته، مستعدا لكل طارئ، وظهر خليفة أمامه يستعجله، سأله الزيتوني عما فعل، وأين ذهب، قال خليفة وهو يسلمه زمام الفرس:

- لقد خطفت سلافه الرومية، دين علي أن أهربها من الظلمين. وانطلق غير آبه بالزيتوني، الذي وقف يغالب دهشة لبسته من كل جانب، هكذا إذن يا خليفة، فجأة أظهرت كل هذه الرجولة، أهي رجولة أبيك الذي تحدى الجميع، وأثر أن يموت عزيزا على أن يرضى بالذل؟ ممكن، أم هي رجولة أخيك الذي أبى إلا أن ينضم إلى الثوار في الأوراس ويستشهد هناك؟ ممكن، أم هما معا؟ ومن شابه آباءه فما ظلم، ولكن لم لم أشبه أنا أباي؟ ألم تكن النساء تسكتن أطفالهن بمجرد ذكر اسمه؟ ألم يكن العفريت يفر من الشعبة إذا أحس بتطاير بول بلخير؟ ألم يقض أخي محمود أيضا شهيدا في معارك الأوراس؟

آه... كم هي قاسية حسراتي!

وفطن إلى نفسه فضرب جبهته براحة يسراه، متمتما: تبا لي، كيف لم أر

سلافه الرومية؟ كان يمكن أن أختلق أي عذر لأراها، لأرى هذه الفاتنة التي أسالت لعاب الرجال جميعا، هل كان خليفة يخشى اقترابي منها فانطلق بها عجلا؟ ولم يغار عليها؟ أبينهما حب؟

واندفع خطوات إلى الأمام، كأنما يهم أن يلحق بخليفة، لقد نسي أيضا أن يوصيه بالبحث عن العربي وحمامه، وهم أن يرفع صوته مناديا لكنه أحجم وعيُّوبَه يباغته سائلا:

- الزيتوني، مع من كنت؟

ودون أن يحول إليه نظره أجاب:

- مع خليفة، لقد فعلها ثانية...

قاطععه عيُّوبَه غير آبه بما أراد أن يقول له:

- لقد علمت خالتي عقيلة بمقتل القايد عباس وقلبه حميده، باتت

الليل كله تدعو لقاتله، لكن جرح الطاهر لم يندمل، باتت تبكي وتئن.

أراد الزيتوني أن يخبر عيُّوبَه بما فعل خليفة أيضا هذه الليلة، ثم أحجم،

هل سيتجراً خليفة أيضا وينقذ الطاهر الذي لا يعرف أحد مكانه؟ أو

على الأقل يكتشف جثته، نعم قتل، لا شك أنه قتل، وإلا كيف يخفيه طول

هذه المدة؟ انطلق مبتعدا عائدا إلى البيت، غير مبال بعيوبه الذي بقي

جامدا في مكانه لحظات، هناك ما يخفيه الزيتوني عنه، أي شيء هو؟ ولم كان

مع خليفة؟ وأين ذهب خليفة الآن؟

*** **

3

لم يكن خليفة يعرف شيئا عن المدينة، فهو يدخلها لأول مرة في حياته،

على مقربة من السوق تفرقا، على أمل لقاء قريب بعد أن يكتري خليفة

بيتا، دخلت سلافه الرومية الحمام، الذي لم تدخله في حياتها إلا مرة واحدة،

منذ عشرين سنة لم يتغير كثيرا، غير أن القائمين عليه قد تغيروا، لا تذكر أنها رأت في ذلك الزمن هذه المرأة التي تجلس كالأميرة تدير شؤون الحمام، ويناديها الناس لآلاً تُرْكِيَه، تأملت ملاحظها كانت نحيفة شقراء معتدلة الطول، في عينيها جمال أخاذ، هل هي تركية الأصل حقيقة، وفي الجزائر بقايا من أتراك من يطلق عليهم الناس الكراغلة، وهم جزائريون من أمهات تركيات، بقوا في الجزائر حين خرج الأتراك بعد الدخول الفرنسي، محافظين على تركة كبيرة من العقار، يتصفون عن عامة الناس بالتأنق في ملابسهم، وعادة الرجال وضع قبعات حمراء، وحمل عصي منقوشة من الخيزران، أم هو مجرد اسم اختاره لها أهلها هكذا اعتباطاً؟.

أحست تركية سريعا بجيرة سلافه الرومية التي كانت مرهقة متعبة لا تكاد تقوى على الوقوف، أشارت بطرف خفي إلى حمامه التي أسرع إليها تسألها عن مطلبها ثم تسحبها عند تركية، وهكذا تعودت، لا تحل إلا المشكلات البسيطة، فإن كان في الأمر شيء من التعقيد أسرعته تحيله إلى صاحبة الشأن، التي أسرعته ترحب بسلافة الرومية، وتدعوها سريعا أن تجلس إلى جوارها، قائلة لحمامه:

- كأس قهوة لعمتك.

آه، كأنها قرأت ما يجول في خاطرها، هي فعلا بحاجة الآن إلى فنجان قهوة، نزعت سلافه الرومية نقابها، وجلست على متكأ صوفي مطرز فأحست بالتعب الشديد يتهاوى من فوق جسدها كله، وتركت عجارها الأبيض يتدحرج من فوق رأسها وكتفيها ليتجمع حوالي خصرها، وأسرعته حمامه تقدم لها فنجان القهوة الذي راحت ترشفه على مهل، منتظرة أسئلة تركية التي لم تأت، فراحت تحرك جمراها:

- أنا غريبة عن هذه المدينة، خطف الموت زوجي منذ سنوات طويلة، لي ابن وحيد هاجر إلى سطيف بحثا عن العمل، لكنه لم يعد، لا أحد اهتم

بي من أبناء عرشي، فقررت أن أهاجر بحثا عنه:
- رد الله غربته.

قالتها تركية وهي تقبض ثمن الحمام من امرأتين تهمان بالانصراف،
متمتمة: على هذه الغربية مسحة جمال رهيب، لو التقاها سي رابع من
عشرين سنة ما ارتضى غيرها زوجة، وراحت تتأملها عن جنب، كان
الزمن القاسي قد خط أثلامه على وجهها، وسرق بريق اللون من شعرها
فكاد يكفنه استعدادا لدفنه.

قالت سلافه وهي تكمل فنجان القهوة وتحمد الله:
- هل أجد مأوى في الحمام، أم أجد بيتا للكراء؟ لن أعود حتى أجد
ابني يوسف.

- أنت ضيف الله عندي الليلة.

لزمت سلافه الرومية الصمت وقد وجدت حلا مؤقتا لمشكلتها.
ولم يدم بقاؤها طويلا في الحمام حتى راحت تركية تصطحبها معها إلى
البيت.

لم يكن خليفة يعرف المدينة جيدا، لكنه سريعا استطاع العثور على
بيت للكراء، لم يكن يهمله شكل البيت ولا مستواه ولا ثمن كرائه ولا
حتى مكان تواجد، المهم أن يجد بيتا يأويه، ويأوي مكحلته التي حرص
على إخفائها تحت برنسه، ويأوي معه بعد ذلك سلافه الرومية التي قد لا
تجد من يعيلها سواه.

ما كاد خليفة يرتب أموره في البيت الجديد حتى انزرع في المدينة
يبحث عن سلافه الرومية، يسعى في كل الاتجاهات، ويهرول خلف كل
امرأة يشك فيها، ويسأل بعض المارة ممن يثق فيهم، وقف طويلا عند
الكنيسة وطاف في حديقتها متوجسا خيفة، ودخل حي اليهود وهاله
لباسهم المختلف، وتكتلمهم مع بعضهم البعض، وعبر إلى عين الفوارة

وقد جلس قريبا بعض الفرنسيين واليهود تتعالى ضحكاتهم، فوقف طويلا يتأمل تماثلا من بعيد، واقترب من الجامع وقد ارتفع منه آذان الظهر، دخله مترددا، توضأ وصلى وعينه لا تكفان عن تصفح الناس، وعند خروجه راح يتأمل مجموعة النساء المتسولات المتكومات عند بابه، ثم عاد أدراجه يسير شرقا عائدا إلى بيته الذي اكتراه في الأحياء العربية الضيقة، وقد هالته الطرق المرصوفة بالحجارة، والبنائيات الشاهقة العملاقة، وخضرة الأشجار التي زينت كل الشوارع، ولكن دقات قلبه كانت تزداد تسارعا كلما رأى رجال الدرك أو الجيش راجلين أو راكبين، ووقف فجأة عند لافتة حمام، دخله سريعا وهو يتمتم: أنسب مكان يمكن أن تذهب إليه سلافه الرومية.

عند الباب تلقاه سي رابح، أدرك بسرعة أنه من القرى المجاورة وأنه يبحث عن شخص ما، أسرع إليه يزيل خوفه:

- مرحبا مرحبا، تفضل تفضل.

أجاب خليفة متوجسا:

- وبك.

- هل تريد مأوى تبيت فيه؟ تفضل الحمام حمامك.

قالها سي رابح ليقهر اضطرابا رآه على ملامح خليفة الذي رد متلعثما، وهو يضغط أصابعه على مقبض عصاه، كأنما يعدها للقتال:

- أسأل عن امرأة، جئنا معا من عرشنا لكنها ضاعت مني.

ضحك سي رابح وقال بنبرة مداعبة:

- أحسنت، هكذا يفعل الرجال، يضيعون نساءهم.

وأدخله سي رابح الحمام ليعرف منه السر، من هذا الشخص؟ ومن هي المرأة؟ وما علاقته بها؟ كأنما يحس بمسؤوليته عن كل ما يقع في هذه المدينة، جلس خليفة داخل الحمام وراح يقلب بصره في الرجال العراة،

وقد ستروا عوراتهم بقماش يجزموه عند الخصر ثم بين الفخذين، مازال خليفة مترددا مضطربا، في المدينة يجب أن تكون ذئبا أو ستأكلك الذئاب، يجب أن تغربل كل حركة، وكل سكون، وكل لفضة، وكل سكتة، يجب أن تقرأ حتى النوايا في القلوب:

- تغديت أم نأتيك بالغداء؟

سأل سي رابح فرد خليفة:

- لا، الحمد لله.

وأشار سي رابح إلى الخادم فجاءه بكأس زعتر ساخن، ودون أن يُسأل راح يقدم نفسه:

- المرأة خالتي، فقدت زوجها منذ خمس عشرة سنة تقريبا، ولم يخلف لها إلا ابنا وحيدا، هاجر من سنوات وتركها، انتظرت عودته طويلا لكنه لم يفعل، فترجيتي أن أساعدها في البحث عنه، تركتها ورحت أبحث عن بيت للكرام، وحين عدت لم أجدها.

مطط سي رابح شفقيه وقال في نفسه: أسرع بتقديم الجرعة دفعة واحدة، أنت كاذب في كل ما قلت، أو في معظم ماقلت، أي سر بين هذا الرجل والمرأة؟ أهما عاشقان أيضا؟ هذا أمر مستبعد، إن الرجل في الخمسين من عمره أو أقل، أسرع يسأل:

- كم عمر خالتك يا سي محمد؟

- اسمي عبد الحميد، وخالتي عمرها أكبر من الأربعين بقليل.

هكذا أسرع خليفة يقدم اسما خاطئا، قال رابح وهو يقلب صفحات وجه خليفة: كل شيء ممكن، الحب لا يأبه بالسن، لعل بينهما حبا، أو لعلهما ارتكبا فضيحة فاضطرا للهروب، وهل هما أول الهاربين؟ كم سترت هذه المدينة من فضائح! وكم آوت من مطاردين هاربين بأسرارهم وخبياتهم!

قال سي رابح وهو يخرج مع خليفة عند الباب:

- لا تحمل هما، عد إلي غدا لعل أخبارا تظهر عن خالتك.

اندفع خليفة مبتعدا لا بد أن يعود إلى بيته سريعا، ليس يأمن اللصوص والخمارين، وليس يأمن الفرنسيين واليهود، وفجأه سؤال رهيب: هل عادت سلافه الرومية إلى بيت الدعارة؟ تبا له ما أحمقه كيف غاب عنه هذا الأمر؟ ألم تكن سلافه في بداية حياتها عاهرة تعمل في ماخور المدينة؟ وما الذي يمنعها أن تعود إليه؟ لاشك أن لها معارفها، بل ربما لجأت إلى بعض أصدقائها القدامى من الذين كانت تمنحهم اللنة، وأحس بالغيرة تمزق قلبه، فصرخ في أعماقه، عليك اللعنة أيتها العاهرة، هل أنقذتك لتعودي إلى العهر لأمزقنك شر ممزق.

وعاد إلى الحمام بعد أن كاد يخرج منه، سيسأل سي رابح عن مكان الماخور، وجمد في مكانه، وهل يجرو؟ سيتهمه بالفجور، وربما سيضربه أيضا، تلعثم قليلا ثم راح يخرج دون أن ينطق، ودون أن يسأله سي رابح أيضا، الذي انتظر كلامه ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة قائلا في سره: مازال الحياء في أبناء القرى.

دخل سي رابح بيته بعد صلاة المغرب، وفوجئ بسلافة الرومية وقد استضافتها تركية، أعاد كل الشريط الذي قاله له عبد الحميد، فعلا هي تبحث عن ابنها الذي قالت أن اسمه يوسف، وقدمت وصفا دقيقا له، وراح سي رابح يساعدها في وصفه، كان طويلا نحيفا، أشقر اللون، مجعد الشعر، أزرق العينين، عريض المنكبين، في جانب أنفه الأيسر خانة بنية كحبة القهوة، هو ذاته، كأن سي رابح ينظر إليه الساعة، هتفت سلافه الرومية:

- هو، والله هو.

وأجهشت بالبكاء.

- كان عاملا عند علال القهواجي، اشتغل عنده أكثر من عام، وبعدها رحل إلى العاصمة، علمت أنه يعمل في الميناء.
 مسحت دموعها كأنما أحست ببعض الاطمئنان وقالت:
 - هل يمكن أن نجده؟ سأرحل خلفه، أو سأرسل خليفة وراءه.
 خليفة إذن وليس عبد الحميد، لقد أخفى اسمه، تتم سي رابح الجملة فلم تفهم منها سلافه شيئا وقال:
 - بحول الله، سأساعدك للعثور عليه، سنجده اطمئني سنجده حتما.
 ثم خرج ليبيت في غرفة معزولة في الفناء، تاركا الضيفة مع زوجته التي أغدقت عليها كرما زائدا، وأغدقت عليها سلافه الرومية حكايا تستلها سلا من تاريخها المكثوم، تصرح مرة وتلمح مرات كي لا تتفطن تركية لحقيقتها.

** ** * ** * **

4

قلَّ عدد المعزين، لم يبق في بيت عباس إلا أقرب المقربين من عائلته وجيرانه وأبناء العرش، كان التعب باديا على كل الوجوه، ومازالت عليها آثار حزن عميق، لا أحد استساغ هذه الموتة المفاجئة، وظل ابنه جُلُول يردد على مسمع كل من يكلمه: عجباً كيف تقتل الفران سيد الأسود!؟
 هذا الصباح اجتمع كل أفراد الأسرة، نساء عباس وأولاده وبعض أفراد العائلة، كانت أم جُلُول الأقوى التي يجب أن يستمع إليها الجميع، قالت:
 - لا تبقوا أضحوكة أمام الأعداء، عباس مات ولكن ترك من صلبه رجلا أقوى وأشد.

حركوا رؤوسهم موافقين، وكلهم تحفز لإكمال المسيرة، واصلت الأم:
 - جُلُول سيخلف أباه، هو الأكبر وهو الأقوى، وعلينا جميعا أن نستمر

على النهج نفسه، حلم عباس أن يكون أولاد النش السادة والقادة لكل العروش المحيطة.

قام الجميع، يقبلون رأس جُلُول كأنما يبائعونه، ورغم الحزن الذي كان يجلل وجه الأم تراقص عليه فرح خجول، لم تكن تثق بأن القيادة ستنتقل إلى ابنها بسهولة، قال جُلُول مخاطبا أشقائه وإخوته:
- لاهم لنا من الآن إلا دم أبينا، يجب أن ننتقم...

استفزت هذه الحماقات أمه، لم تكن تريده أن يخوض مغامرات أخرى تؤدي إلى هلاكه كما هلك أبوه، على ابنها أن يستفيد من الدروس، وأن يسعى لاحتواء الجميع وكسب ودهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، قاطعته وفي كلامها نبرة صارمة أمرية:

- دم أبيك تكفل به الحاكم وأمام الأشهداء، لقد قال في خطبته يوم التشيع: فرنسا لن تسمح في دم المخلصين لها.

واصل جلول مركزا نظره في أشقائه، كأنما لم يسمع ما قالت أمه:
- يجب أن نثار بأنفسنا، دم أبينا في رقبتنا وليس في رقبة أحد، إذا لم نثار بأنفسنا ضاعت هيبتنا.
قال أحد إخوته:

- فلنقتل كل أولاد سيدي علي، لن نأخذ بالثار إلا إذا قتلناهم جميعا.
وقف جُلُول في مكانه كأنما يستعد لفعل شيء ما، وقال:
- لا، يجب أن نعرف من أجرم في حق سيد الرجال، سأعلقه وسط العرش وأدعه يموت عضوا فعضوا.

وسألت أمه كأنما تريد أن تغلق باب هذا النقاش:
- وما نفعل بهذا الأسير الذي ظل مربوطا كالكلب؟
واندفع جُلُول كالمسعود يحمل بندقية أبيه، كأنما كان هذا الأسير غائبا عن ذهنه تماما:

- وما نفعل به غير قتله كالكلب؟

وانطلق خارجا من البيت، قطع الحوش هرولة، دخل بوابة كبيرة تؤدي إلى حوش فإسطبلات كبيرة قسمت بين الخيول والأبقار والأغنام، ومنها دخل إلى فناء صغير تنفتح عليه حجرة صغيرة تتسورها حيطان عالية، هناك قبع الطاهر زمنا مربوطا بالسلاسل كالحيوان، دخل عليه جُلُول تسبقه سهام حقله وسدد في رأسه بندقيته، صارخا:

- أنت سبب مقتل والدي، أنت أيها القدر.

لم يتحرك الطاهر، كان مرهقا، نحيفا، لعب الموت على كل ملاحه، رفع عينيه بهدوء، لم يكن يعنيه أن يُقتل فهو ميت منذ سنوات، لقد آمن يقينا أن كل شيء بقضاء وقدر، وضع جُلُول فوهة بندقيته على جبهة الطاهر وعلا صراخه:

- من ينقذك مني الآن؟ أحتك العاهرة؟ أم أبوك الديوث؟ أم...

وصرخت فيه أمه من خلفه تنهاه، ترجوه أن لا يفعل:

- ستكون أضحوكة أمام الرجال، تريداهم أن يقولوا قتل ضعيفا

أسيرا؟

هدأت ثورة جُلُول فانسحب تاركا البندقية عند أمه، لحق بها إخوته،

اتجهت إليهم تأمرهم:

- هذا المساء أريد أن تحملوه حتى تضعوه قريبا من بيتهم، دون أن

يحس أحد بكم.

حين راح المغرب يلقي بظلاله الداكنة على الكون، حمل الطاهر ثلاثة

من رجال عباس، بلغا به قُرَابَةَ سيدي علي ومداده على الأرض، ثم عادا

أدراجهما، لم يكن يصدق ما وقع له، راح يتشمم الأرض، يفتح أذنيه يتأكد

من وقع سنابك الفرسين تبتعد، نهض في مكانه بصعوبة ثم سقط، لماذا

أصرت أم جُلُول على إطلاق سراحه؟ هل فعلا لأنها كانت ترى في قتله

انتقاصا من رجولة أبنائها؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون انتقاما من زوجها الذي أسرني من أجل حمامه التي كادت تأخذ مكانها وتربع على عرش البيت وعرش العرش؟

حبا كالصغير أمتارا ثم قام وراح يمشي ببطء متجها إلى البيت، متسائلا في نفسه، أمازال أهله أحياء؟ ما الذي حصل في عرش أولاد سيدي علي؟ وما الذي وقع لحمامه والعربي؟ ومن قتل القايد عباس وكلبه حميدَه؟

وكان الفرح بلقائه لا حد له، وراح الناس يتوافدون إلى البيت من كل فج عميق، يفتحون آذانهم كالحاقتن يتقصون حقيقة الأمر، ليجعلوا منه حكاية يتناقلونها ويمططونها، ويزيدون وينقصون ليملاؤها بها فراغهم، ويتنكتوا بها زمنا، حتى تظهر لهم حكاية أخرى، لكن الطاهر صدمهم وهو يخفي عنهم كل شيء، لم يزد عن أنه خطف من رجال ملثمين، عصبوا عينيه ليجد نفسه في بيت كبير عالي الأسوار، يأتيه ما يحتاج إليه كل حين من شخص ملثم، وبالطريقة نفسها رمي على مقربة من عرشهم آخر الليل، لم يكن يريد أن يفتح مع أولاد النش جراحا أخرى لا تندمل، ولم يكن يريد أن يتحول على ألسنة الناس إلى حكاية لا يتوقفون عن روايتها. ورغم ذلك فقد ذهبوا فيما سمعوا منه مذاهب شتى، واختلقوا حكايات أدخلوا فيها الجن والشياطين والعفرات، وذهبوا إلى أن في شعبة العفريت مدينة للجن، وأنهم يخطفون إليها من حين لآخر بعضا من الإنس عقابا لهم على جرم اقترفوه في حقهم.

في الغد أحس جُلُول بمرحلة غير عادية في القرية كلها، أسر بكاملها راحت تنزاح مبتعدة كأنما هي الهجرة، لم تطل حيرته حتى وصله الحاج فرحات، من سادة العرش الذين يحسب لهم ألف حساب، أسرع جُلُول يلقاه مرحبا:

- صباح الخير عمي الحاج.

جلس على الأرض فجلس جُلُولُ قبالتة، ركز عصاه على الأرض وخط بها خطا متعرجا:

- اسمع يا جلول، عرشنا سينقسم قسمين، ستبقى وأبناء عمومتك الأقربين قبلة العرش، وسنستقر نحن غربكم يفصل بيننا الوادي. ظهرت الدهشة على ملامح جلول، وقبل أن يسأل واصل الشيخ:
- حكمننا أبوك ظلما وطغيانا، وشوه عرشنا حتى صرنا قطاع طرق وخدام استعمار، والآن ستحكمننا أمك.
وانطلق مبتعدا، في حين بقي جُلُولُ حيث هو يكاد يحترق غضبا، مرددا بغضب:

- اذهب إلى الجحيم يا بن العاهرة، يا شيخ السوء.
صار عباس الآن في نظر شطر من العرش ظلما طاغية، وصار جُلُولُ لا معنى له، لأن الحاكم الفعلي هو أمه، أحس جُلُولُ بكيانه كله ينهار، كان يرجو أن يتقوى بعرشه ليخضع باقي العروش، فإذا به يفقد شطرا كاملا من أبناء عمومته، هل بدأت رياح الانهيار تعصف بمجد الأسرة؟
عاد جُلُولُ إلى البيت كئيبا، وجلس دون أن يجيب عن أسئلة أمه التي وصلتها الأخبار أيضا، قالت الأم تغير مجرى الحديث:
- عندي خبر أشد وأنكى أيضا، ومادامت مياهك كدرة فلنكدرها دفعة واحدة.

رفع جُلُولُ عينيه في أمه باهتمام شديد دون أن ينطق، قالت أمه:
- لقد فرت سلافه الرومية.
اعتدل جُلُولُ في مكانه، ما ينبغي لسلافة الرومية أن تفر، وما ينبغي لابنها المهاجر أن يستقوي بها، ويعودا لينغصا عليه حياته، واصلت الأم:
- لقد تبين أن خليفة هو من ساعدها على الهروب.
وتردد صدى الاسم في رأس جلول، خليفة، خليفة، خليفة، واندفع

يقول:

- هل تعلمين؟ لم أره في جنازة أبي، بل ولم أره حتى قبلها، هل..؟؟
ووقف جامدا في مكانه تدور عيناه حقدا وغضبا، تلفت إلى أمه وجدها
تحلق فيه تنتظر أن يكمل كلامه، واصل:

- هل هو قاتل أبي وحميله؟
بقيت أمه تنظر فيه دون أن تحيب، فهم جُلُول أنها توافق على ذلك،
هل يمكن أن يقتل خليفة أبي، ولم لا؟ لقد كان أبوه عدوا لأبي، وفرنسا
حاصرته بدعم من أبي حتى مات، وأزهق أبي روح زوجته أمام سمعه
وبصره، إذن لقد انتقم، علي اللعنة كيف لم أنتبه، ما أغبانني! ما أغبانني!
وراح يضرب جبهته بلكمته، حتى تهاوت عمامته من فوق رأسه.

*** **

5

باءت كل محاولات عمار شيخ الزاوية بالفشل، كاد يقلب كل صخرة
وكل نبتة وكل بيت بحثا عن سلافه الرومية دون جدوى، منذ أن اختطفها
عنده تحت ذريعة المرض وهو يراودها عن نفسها، مظهرا رغبته مرة في
الزواج منها، كاشفا لها حبه وإعجابه مرارا، غير أن تحقيق الهدف بقي
بعيدا، حين كان يسمع عنها من بعيد كان يشتهيها للفراش، وكانت
حكايات عبقريتها في ممارسة الجنس تصله من كل حدب وصوب، يضيف
إليها خيال الناقلين الكثير من التوابل فتصير لها نكهة مغرية تسيل
اللعاب، لكنه حين رآها غرق قلبه في بحر حبها، وأعذر السعيد القايد في
كل ما فعل، لا يمكن أن ترى سلافه ولا تحبها، ولا يمكن أن تسمع كلامها
ولا تعشقها، إنها تملك سحرا جبارا يمكن أن يجر خلفه حتى الجبال
الرواسي.

وهاهو بجمقه يضيعها، كمن وجد ينبوع ماء في صحراء ثم غاض فجأة، ضيعها طمعُ خدامه وغباؤهم، وهل يكفي أنه طردهم من خدمته؟ وهل يكفي ما عاناه من حزن قاتل؟ وهل سيتكتم عن الأمر فيبحث عن سلافته سرا؟

كان الشيخ عمار، وهو يتجه ممتطيا فرسه محاطا بجراسه إلى أولاد النش، غارقا في تخمينات لا أول لها ولا آخر، أرجحها أنها تختبئ في بيت من بيوت العرش، لا يمكن أن تذهب بعيدا أبدا، وأنى لامرأة أن تسافر وحدها بعيدا مهما كانت تملك من القوة والحيلة والمعرفة مثلما تملك سلافه وخليفة؟ ولكن أين هو خليفة؟ هل هو مختبئ معها أيضا؟ وأحس جُلُولُ باقتراب الشيخ عمار، فأمر بذبح خروف وإعداد الطعام سريعا إحياء لسنة أبيه، وماكادا يلتقيان حتى راحا يتبادلان الأحزان، قال القايد جلول:

- حسن ما تفعل، تسير مع حراس أشداء غلاظ.
استدار عمار إلى حراسه الذين وقفوا بعيدا ينتظرون أوامره، وتأملهم وقد امتلأ قلبه ثقة فيهم وإعجابا بهم وقال:
- منذ أن قتل والدك السبع، لم تعد لي ثقة في أحد، الدنيا غدارة يا ولدي.

- فعلا صدقت، من قال إن والدي السبع يقتل ببساطة؟
دخل البيت وجلسا على الزرابي الثمينة التي نمت الأرضية والجران أيضا، قال الشيخ عمار:

- هل تحوم شكوكم حول أحد أو جماعة؟
رد جُلُولُ مندفعا مظهرها رجولة وعنترية:
- ورأسك ياسيدي، ورأس أبيك وأجدادك الصالحين، وقداسة دم أبي الغالي، إن عرفت أحدهم لأشوين لحمه أمام الملاء في ساحة العرش وأرمين

به للكلاب قطعة قطعة.

- صدقت لا يصلح لحم هذا الغادر إلا أن يكون لحماً مشويًا للكلاب، ولكن هل..

وقاطعه جُلُول يجب عن السؤال قبل طرحه، كأنما قرأه من ملامح الشيخ عمار، أو كأنما بقي له من كلام سابق لم يكمله:
- ذهبت ظنون البعض إلى اتهام خليفة الذي اختطف كما سمعنا سلافه الرومية.

قاطعه الشيخ عمار مندفعاً:

- إذن هو خليفة؟

وراح جُلُول يحدثه عن سوابق خليفة، وسوابق أسرته داخل العرش وخارجه، مؤكداً له على علاقته المشبوهة مع سلافه الرومية تحت حجج مختلفة، خاصة بعد زواج ابنته وموت زوجته الثانية.

ووجد الشيخ عمار ما يحقق رغبته في الانتقام من خليفة فاندفع يقول:
- إذن بينهما حب وعشق؟ فرت الملعونة مع عشيقها؟ لن تهدأ لي نفس حتى أعيدهما وأجعل منهما عبرة لكل من تسول له نفسه أن يتحداني.

وغير دفة الحديث فجأة وقد لمعت عيناه كأنما اكتشف جديداً:

- وأنت يا جُلُول عليك أن تنتقم منه، لا أحد قتل أبك غيره، سأطلب من الحاكم أن يساعدك في القبض عليه.
ودخل الخادم بالقهوة وضعها بينهما وراح يملأ الفنجانين، قال جُلُول بثقة كبيرة:

- لكني قلبت الأمر من كل الزوايا وتأكدت لي براءة خليفة.

- وكيف تأكد لك ذلك؟

قاطعه الشيخ عمار وواصل جُلُول بنفس الثقة:

- أولا مهما أوتي خليفة من قوة ودهاء لا يقدر على أن يغدر بأبي وحميده، ثانيا أن الطلقات لم تكن من بندقية واحدة كما أكد التحقيق.

قاطعته الشيخ عمار ثانية وبلهجة الواثق:

- لا تنس أنه استعان في صدره بظلام الليل، لا أحد غيره فعلها... ألا يمكن أن يستعين بأصهاره؟ الزيتوني مثلا أو سالم أو..
قاطعته جُلُول واثقا:

- لقد وصل استدعاء لأبي من الحاكم بالمدينة، وحين لبي الدعوة قتل في الطريق، ثم تبين أن الدعوة مزورة وأن الحاكم لم يرسل شيئا لأبي.
بدا الاندهاش على وجه الشيخ عمار وقال:

- هكذا إذن، هل تريد أن تقول أن القاتل مقرب من الحاكم؟ ربما..
وتاه سارحا في اللاشيء، لقد أفسد جُلُول بهذه المعلومات كل تخمينات الشيخ عمار، وألقى في نفسه عواصف من الحيرة، هذا الذي يضرب مختفيا بالحاكم يمكن أن يضربه هو أيضا، وتخيل استدعاء يصله، هل يلي أم يرفض؟

وقف جُلُول متكئا على جذع الزيتون وهو يودع الشيخ عمار الذي رفض تلبية الدعوة إلى الطعام، متحججا بضيوف سيأتونه لاحقا، وكانت ظنونه تحوم حول سلافه الرومية، هل يمكن أن تكون هي القاتلة؟ لقد كانت تحمل لأبي حقدا دفيناً، هربت ابنها يوسف إلى المدينة، وهناك نسج شبكة عنكبوت مع معارف أمه القدامى، فيسروا له أمر تزوير الاستدعاء ثم تربصوا بأبي وقتلوه، سلافه وابنها رأس الخيط لاكتشاف القتلة، وماكاد حتى طرد الشك من قلبه، لقد كانت سلافه عند الشيخ عمار، فهذأت نفسه.

غير أن انشطار العرش أحدث في نفسه شرخا كبيرا، وعصف بكل آماله وطموحاته، لقد صار أولاد النش الآن عرشين، أولاد النش لقبالة،

وأولاد النش الظهارة[□].

وجلس على الأرض وراح يرسم بعود في يده خطوطا طويلة متعرجة، لن يسمح بمخادعة المارقين عليه، الفضل في الاستيلاء على هذه الأراضي الخصبية يعود لأبيه وجده، لن يأخذوا هم إلا أراضي البور، وحتى المقبرة الواقعة في أرض البور قريبا من سفح الجبل لن يأخذوها، ولن يدفنوا فيها موتاهم، ولن تحل عليهم بركة البُهلي خضر، أليس والذي هو السبب في إقامة قرأبته؟

واندفع أحد إخوانه يصيح وسط العرش بكلام لم يستطع فهمه ولا هضمه حتى، وهرع يعدو باتجاهه، وجده وقد أجهده الصياح، وامتنع لونه، وارتجفت أعضاؤه، وتهاطلت دموعه وبع صوته، سأله جُلُول وقد اجتمع حوله خلق كبير:

- عليك اللعنة، ما الذي حل بك؟

وأصيب الجميع بالدهشة، فارتفعت حناجرهم بالحوقلة، وهو يشير بإصبعه إلى قرابة البهلي خضر، ثم هرعوا يعدون باتجاه المقبرة، ووسطهم جُلُول يعدو بكل ما أوتي من قوة، أما أخوه فقد انهار مكانه لا يقوى على الحركة، متسائلا هل يمكن أن يحدث ما حدث؟
وقف جُلُول عند ضريح البُهلي خضر وراح يقلب عينيه وكفيه، ويزيل الأقمشة الخضراء الطويلة التي غطت أرضية القُرابة كلها، لكن لا أثر للقبر، هل سُرق القبر؟ ولكن لا أثر للحفر؟ هل فر البُهلي خضر؟
يمكن..

□- للعلامة عندنا وجهتان أساسيتان، القبلي هو ما كان باتجاه القبلة، بمعنى الشرقي، وعكسه الظهري أي ما كان في اتجاه ظهرك وأنت مستقبل القبلة، ويسمون الشمال البحري لأنه البحر في الشمال أما الجنوب فيسمونه الشهيبي، وهو اسم الريح الساخنة، ولعلها من شاهله أي شامته وغلظ عليه.

صاح جُلُول في الجميع: البُهلي لخضر غاضب لتفرقنا، لقد ذهب ولن يعود، وستحل علينا اللعنة الماحقة، ستحل علينا اللعنة الماحقة، ستحل علينا... وراح صوته يضيع بين طيات صياح الناس وصرخاتهم.

ليلا بات يرتعد في مكانه من شدة الخوف، ينكمش في مكانه تحت الأغطية، ثم يقف طويلا أمام الباب يتسمع كل حركة، ويمد بصره على النافذة الصغيرة، يحاول أن يخترق أستار الظلام السمكية، يمكن لهذا الولي الصالح أن يدخل عليه الآن ويزهق روحه خنقا أو شنقا، ثم ما يكاد أن يهدأ ويطمئن فيعود إلى مكانه، البهلي رجل صالح ولن يأخذن مجريرة ارتكبتها أبوه وحارسه حميده.

** ** ** **

6

لم يلبُ القايد جلول دعوة الشيخ عمار عجلا، كان المساء ينهار سريعا فاسحا المجال لليل لم يعد يثق فيه هو ولا أهله، آخر الليل خرج عند الباب، ووقف يرقب بمصباحي رأسه الفجر وهو يتخبط في مهاوي الظلام، حتى إذا سلخ الكونُ ملاءة الليل، وفتح النهار عينيه عن آخرهما، امتطى جواده، عجلت أمه تلحقه، أمسكت باللجام وراحت تعيد نصائحها وتحذيراتها، لا توجهها إلى ابنها، بقدر ما توجهها إلى حارسه الذي خلف حميده، إنها تثق أكثر في كفاءته وشجاعته وذكائه.

وظل الشيخ عمار يقف أمام الزاوية لأكثر من ساعتين، يرسل بصره بعيدا منتظرا ضيفه، وحين تملكته الوسواس أسرع يرسل أحد فرسانه لتقصي الأمر، وماكاد حتى عاد برفقة القايد جلول وحارسه، وكان الاستقبال كبيرا، اختلى الشيخ عمار بضيفه، الذي أحس بأهمية ما دعي إليه، قال الشيخ عمار يحس نبض القايد جلول:

- أين وصلت أمورك يا قياد؟
وزفر القايد جلول بعمق، كأنما يطرد أكواما من الهموم، وحك ناصيته
وقال:
- والله ياعم كأن الدهر يناصرني العداء، بعض الناس يأتيهم الحظ
صاغرا، أما أنا...
وسكت لحظات كأنما يسترجع أنفاسه وواصل:
- قتل والدي شر قتلة، وانقسم العرش قسمين، وكل أعدائنا مازالوا
طلقاء يتشفون.
- واستغل الشيخ عمار هذا المنفذ، فتسلل منه قائلا:
- ولكني لن أسكت، لن أسمح لهم أبدا كي ينعموا بانتصاراتهم.
وظهر القايد جلول غير متحمس للأمر، لم يتعود الشيخ عمار أن
يفعل، وإنما تعود أن يقول، تاركا التنفيذ لأبيه، مستغلا هيمنته الروحية
على الجميع، قال القايد جلول:
- يا شيخ عمار، مات الذين كانوا يفعلون دون أن يقولوا.
وتذمر الشيخ وهو يتلقى طعنة الاستهزاء التي وجهها إليه هذا الشاب،
ولكنه سرعان ما امتص غضبه وقال:
- رحم الله القايد عباس، ذاك كان فارسا شجاعا، ورجلا شهما، ولكنه
أيضا كان يعرف للرجال منازلهم.
- ثم أسرع يغير الحديث، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة:
- لاتحمل هما يا جُلُول يا ولدي، عمك هذه المرة سيخطط وسيفعل،
بل خطط وانتهى، ولم يبق إلا التنفيذ.
- وفتح جُلُول كل منافذ السمع لديه، وراح يتابع حركات الشيخ الذي
بدا أكثر ثقة بنفسه:
- كل همي أن أنتقم من سلافه الرومية والذي هربها، وأنتقم وفاء

لصديقي القايد عباس من العربي وصاحبته حمامه.
ووقع الحديث من نفس جُلُول موقع القبول، هؤلاء جميعا أعداؤه،
وأعداء أبيه، وقتلهم مما يسعده ويريح نفسه، وتمنى لو أضاف الشيخ معهم
يوسف بن سلافه الرومية، لكنه أرجأ الأمر إلى حينه، واندفع يقول:
- يا شيخ لا أريد قتلهم لأن ذلك سهل ميسور، لكني أريدهم أحياء،
أريد أن أعلقهم في ساحة العرش وأقتلهم على مهل.
ضحك الشيخ عمار، وضرب بكفه على كف جُلُول، وقال:
- صدقت وهو ما خططت له، كأنك اطلعت على الغيب.
وأعتدل القايد جلول متباهيا وقد أغواه الإطراء، واصل الشيخ عمار:
- لقد اخترت لهذه المهمة شابا يلتهب التهابا، كأنه الشعلة، مهمته هي
خطف الأربعة والسير بهم إلينا مكبلين أذلاء.
كان القايد جلول يخشى أن يكلف هو ورجاله بالتنفيذ، وهي مهمة طالما
كُلف بها أبوه حتى دفع ثمن ذلك، لكن الشيخ عمار أسرع يقول:
- وأنت تعرف يا جلول يا ولدي أن المهمة مكلفة.
بلل جُلُول شفثيه بلسانه وقال في نفسه: لا يرضى هذا الخنزير إلا أن
يمص دمننا بطريقة أو بأخرى، ولكن لا حرج، الخير عميم، ولأن أدفع مالا
خير من أن أدفع روجي كما دفعها أبي.
وقبل أن يسأل القايد جلول عن الشخص، وعن تفاصيل الخطة،
التفت الشيخ خلفه إلى الباب الثاني، وعلا تصفيقه، وسريعا ظهر شاب
أسمر اللون، مفتول العضلات، في عينيه جحوظ ولعان، وعلى جبهته ندبة
غائرة، وتوزعت على وجهه نقاط وشم هنا وهناك.
أشرق وجه الشيخ عمار فرحا ببطله، اعتدل جُلُول في جلسته محدقا في
الداخل، وترددت كلمات بين شفثيه دون أن تتمكن من الانفلات، قال
الشيخ عمار:

- أقدم لك سي خَلَّافٌ، خَلَّافٌ التِّيَقْرُ.

وتدافعت في ذهن القايد جُلُول أمواج من الحيرة، لماذا سي خلاف؟ هل هو متعلم؟ لا يبدو عليه، مظهره يدل على أنه مجرم ومجرم خطير، ثم ما معنى التيقر التي أضافها لاسمه.

جلس خَلَّافٌ التِّيَقْرُ إلى جانب الشيخ مصافحا ينظر إلى القايد جلُول متبسما كأنما يبعد عنه الرعب الذي استولى عليه، قال الشيخ عمار وهو يضرب ظهر خَلَّافٌ التِّيَقْرُ كأنما يضرب هضبة:

- هذا فارسنا يا جلُول، هو ابن سطيف، يعرفها شبرا شبرا، بيتا بيتا، شخصا شخصا، والكل فيها يهابه، وله عصا، يمكن أن تسجن الشمس في قنينة صغيرة.

بدا البشر على محيا القايد جلُول، وتحرر من أسر تهيبه فقال:

- فليدع الشمس حيث هي، وليأتينا بما نطلب.

ضحك الشيخ عمار، واعتدل ثانية في مكانه يجمع أطرافه إليه، وزوى خَلَّافٌ التِّيَقْرُ عينيه وقطب جبينه، وضغط يسراه يميناه محدثا فرقة في أصابعه وقال:

- هم جميعا مجرد أطفال عندي، أمهلوني بعض الوقت وسأتي بهم جميعا كالسائمة في حبل واحد.

رفع الشيخ عمار عينيه في القايد جلُول كأنما ينتظر رده، الذي جاء سريعا:

- وأنا مستعد لدفع كل ما تطلب.

وانفض اللقاء، رحل خَلَّافٌ التِّيَقْرُ حالما بالثراء الذي لم يخطر على باله يوما، وراح عمار وجلُول يتابعان ابتعاده وهما يسبحان في بحر الآمال العراض بالصيد الوفير.

ولم يضيع خَلَّافٌ التِّيَقْرُ الفرصة، بمجرد أن دخل المدينة راح ككلب

صيد ماهر يشتم رائحة المظلومين، يتعرف على حقيقتهم، وتحركاتهم، وعلاقاتهم، واستغل المساء ليدخل الحمام ويستحم فيه وهو الذي لم يدخله في حياته، وتتبع في الليل خليفة وهو يتسلل إلى محل أمقران، وبقي يرصده حتى خرج، ثم تتبعه أيضا حتى شيعه إلى بيته قريبا من مسجد الخطة، وأحس العربي المستأش بخطوات مريبة ترصده حيناً وتنط خلفه حيناً آخر متجلبية بظلام المغرب.

وبات العربي المُوسْتَأَشُّ يطارد نوما نافرا، يتقلب في كل اتجاه دون جدوى، وأحست به حمامه فأرسلت صوتها دون أن تفتح عينيها تطلب منه أن ينام، ولم يدم سكوته طويلا، حتى جلس في مكانه قائلا:

- هل تعتقدين يا حمامه أن أولاد النش سيسكتون عن ثأرهم؟
ورفرف النوم فزعا هاربا من بين جفنيها فاستوت جالسة، وقالت وهي تفك أهداب عينيها من آخر قيود النوم:

- ما الذي ذكرك بذلك؟
رد وهو يدفع بظهره إلى الجدار يستنله:
- لا أدري، ليس هناك ما يريب، ولكن ليس أولاد النش من يسكت عن ذلك.

سألت بحيرة:
- وأنى لهم أن يعرفوا القاتل؟ أم تظن أن السر سيفشى؟
- ربما.

قالها العربي المُوسْتَأَشُّ واستدار في فراشه ونام نوما متقطعا.
لكنها لم تنم، باتت تسترجع كل الذي فات، متمسعة إلى كل حركة خارج المنزل، ما تكاد تصك أذنيها حتى تلتصق بالعربي كأنما تستنجد دفأه.

*** ** ** **

كان الجو حارا، ألسنة نيران تتراعى تمد أصابعها الطويلة المعروقة تحاصره من كل جانب، تسد سمعه طقطقاتها تقضم الأخضر واليابس، يتراعى له فج أخضر، يهرع إليه يلججه بقوة، يتنزل عليه الغيث بردا وسلاما، يسترد أنفاسه، يجول بناظره، يتراعى له البُهلي لخضر من بعيد، واقفا عند نبع ماء وقد أحاطت به هالة عظيمة، سرى الفرح والبشر في نفسه، تقدم منه، بدا له غاضبا، وقف أمامه متذلا، جثا على ركبتيه، قبله على ظهر يمينه، وقال: أعرف أني أخطأت، أعتذر إليك يا سيدي، نفص البُهلي لخضر فجأة جناحيه وطار، مخلفا خلفه تيارا من النور، فطن العربي المُستأش من نومه وهو يصيح مناديا:

- البُهلي لخضر.. البُهلي لخضر.

خنقته عبراته وهو يجيش كالطفل، هرعت إليه حمامه تساعد على الجلوس، وتقدم له الماء، وهي تقول:

- خيرا خيرا إن شاء الله.

جرع كأس الماء الذي قدمته له دفعة واحدة كأنما يسقي أعماقه الجافة، وقال:

- خيرا، لقد زارني البُهلي لخضر، إنه غاضب مني. وهب يقف، ويسرع في تغيير ملابسه، وظهرت الدهشة في عيني حمامه، فسألت بحيرة:

- إلى أين ستذهب؟ الليل لم ينتصف بعد.
رد وهو يشد حزام سرواله:
- لا بد أن أزور قُرابة سيدي علي، لا بد أن أزورها.
حين كاد يخرج، كانت حمامه قد أكملت أيضا إعداد نفسها، هي فرصتها

لتزور أمها، وقربتها التي غادرتها فرارا منذ سنوات، وانطلقا تذرهما عباءة الليل البهيم.

حين دخلوا المقبرة كان الليل في آخره، وقفا عند قبر الأب بلخير، جثا العربي المُوسْتَأْسُ أمامه، قبله، راح ينالجه:

- يا أبت كنت أسدا مهيبا وتركت من صلبك أسودا، لقد أخذت بثأرك، وأرقت دم الكلب اللعين.

وفعل الأمر نفسه مع قبر والدته، وهرع عجلا يدخل القُرَابَةَ، أمر زوجته أن تبقى بعيدا، وكظمان يلهث إلى نبع ماء، دخلها الهوينى، يجس ترابها بقدميه الحافيتين، امتلأ المكان نورا، تراجع مندهشا، ثم راح يتقدم مغتبطا، مرددا عبارات الولاء، جلس عند الضريح، وضع جبهته على قبر الولي الصالح، مجهشا بالبكاء، أحس بيد تمتد إلى كتفه، امتلأ جسده قشعريرة، اشتدت دقات قلبه فزعا، رفع رأسه، ظهر أمامه البُهْلِي الخضر، اندفع يقبل يده بنهم شديد، أظلم المكان فجأة واختفى كل شيء من أمامه. حين خرج من القُرَابَةَ كان الفجر قد بدأ يمد خيوطه المضيئة، تلفت يبحث عن حمامه، بعيدا كانت تجلس منتحبة، مد يده يوقفها دون أن يسألها عن سبب بكائها، دار في خلده أنها بحثت عن قبر أبيها فلم تعرفه، وقد امتلأت المقبرة.

أول من رآهما عيُوبَه الذي تعود أن ينهض قبل الجميع، رفع صوته يشق الفضاء معلنا عن عودة حمامه، وهرع الطاهر خارجا، ولحقت به أمه تتكئ على مرضها وتعبها ومآسيها، وارتمت في أحضان ابنتها، وسقطتا أرضا تكاد الواحدة تلج أعماق الثانية، وتغسلها بدموعها، ووقف العربي المُوسْتَأْسُ يتبادل العناق والتقبيل مع الطاهر وعيوبه الذي ماكاد يفتن لنفسه حتى أسرع يععجن الأرض إلى بيت الزيتوني يزف الخبر للجميع. أشبار من الزمن وامتلا البيت عن آخره، لم يبق أحد إلا أسرع يسبقه

فضوله ومشاعره الطيبة، وتعالى الزغاريد تحضبها الدموع، وذبحت
الخرفان وأقيمت الوليمة التي تليق بفارسين لم يسكتا مذ وصلا عن حكاية
ملحمتهما، غير أن مقتل القايد عباس لم يُسر به العربي المُوسَّش إلا
لأخيه الزيتوني طالبا منه كتمانها إلى حين.

ظل الزيتوني يحمل بلخير الصغير، يتهاطل عليه تقبيلا يقدمه لكل
من يصل قائلا:

- هذا بلخير بعث إلى الحياة.

ويحتفي به الجميع ملاحظين الشبه الكبير بينه وبين جده.
قال عيُوبُه ضاحكا:

- أنا أولى بالطفل لأنني كنت أقرب من الجميع إلى عمي بلخير.
واندفع يرفعه إلى الأعلى، على إيقاع ضحكات الجميع ومباركتهم،
وعلى رضى شعشع من عيني الزيتوني الذي نسي كل همومه، وامتلاً
غبطة وسعادة.

ليلا حين خلا البيت من الجميع التأم شمل العائلة، لم تغادر حمامه
حضن والدتها عقيلة كأنها طفلة صغيرة، تنعم بحنانها ودفئها، وتملاً سمعها
برنين صوتها، ولا تملك نفسها فتنفجر باكية من حين لآخر، ورغم كثرة
أسئلة العَلَجِه بنت المَكِّي إلا أن حمامه أجلت كل إجاباتها إلى الغد، إذ ما
كاد جمع النسوة يتضاعف وافدا من كل جهات العرش حتى انطلقت حمامه
متوسطة الجمع كالأميرة تتحدث عن رحلتها في المدينة، عن عاداتها
وتقاليدها، عن أسواقها وأزقتها، عن دكاكينها وحماماتها، عن يهودها
ونصارها، عن حركة الوعي التي كان يتحدث عنها سي سليمان بن
البغدادي وسي محمود بن بلخير، المفقودان في حرب الأوراس دون أن
يفهمها أحد من أهل العرش، ولا من العروش المجاورة، ولا تنسى حمامه أن
تذكر سي رابح وزوجته تركية في كل مقطع من حديثها حتى صارا لازمة

حفظتها كل النسوة.

ومع الرجال بات العربي المُوسْتَأَشُّ حتى مطلع الفجر، يحدثهم مبهورا عن حياة المدينة التي لا تمت لحياتهم بصلة، عن علاقة العرب بالفرنسيين واليهود، عن كنائسهم وبيعهم، عن مخامرهم وحدائقهم، عن شرطتهم ودركهم وجنودهم، عن فرانكو وشعون المونشو وبارال وقج وماران، عن فقر الناس وتعاستهم، عن أسواقهم وحماماتهم، عن مغامرات سي رابح الذي احتضنه بأريحية حين نزل مدينة سطيف، عن سي الهادي وعن أمقران الحداد وجنونه وكتبه، وعن سطيف المدينة الأسطورة، المدينة الحاملة، ترتبع على التلال السود، تزينها هالات من حدائق القمح البليوني، وأشجار الزيتون، عيونها ينابيع ماء، جداول رقراقة، دقات قلبها عشق للوطن، تهفو أن تمسح عنه أحزانه، تهفو أن تبلسم جراحاته، تهفو أن تعيد إليه أمجاده المغصوبة.

وحين اختلى بأخيه الزيتوني قص عليه بتفصيل دقيق حكاية مقتل القايد عباس وحمله، منذ إرسال الاستدعاء إليه، إلى الكمين الذي نصبوه له، إلى قتلها ونهب فرسيهما وبنديتهما.

وكان الزيتوني يتلذذ طعم الحكاية، هي القصة كما أخبره خليفة، لقد كان شاهدا عليها، وكان كاتب كلماتها الأخيرة، وأخذ الزيتوني أخاه إلى حجرته واستل له من صندوقه الخشي عمامة القايد عباس وبرنسه الأحمر، وثارَت في نفس العربي المُوسْتَأَشُّ زوابع للدهشة فسأل:

- وكيف حصلت على هذا؟

- لأن القايد عباس لم يمت.

وارتج العربي المستأش في مكانه وقد هزته المفاجأة وقال:

- ماتقول؟

ضحك الزيتوني وراح يحدثه عن خليفة وعن مغامرته المجنونة، التي

أوصلته إلى طي كتاب القايد عباس إلى يوم القيامة، وربما كان للقصة مجرى آخر لو لم يجهز عليه مطلقا، وظهرت علامات الشك على ملامح العربي المُوسْتَأَشُّ والزيتوني يحدّثه عن تخليص خليفة لسلافة الرومية من براثن الشيخ عمار والفرار بها إلى سطيّف.

هي، نعم هي، راح يتذكرها وقد جاءت مع حمامه وتركية تلك الأمسية وباتت عندهم، الملامح نفسها التي يصفها خيال الزيتوني، امرأة شقراء، خضراء العينين، نحيفة الجسد، ممتدة الطول، في العقد الرابع من عمرها، الله إنها هي، وكانت تبحث عن ابنها يوسف، واندفع يقول:

- لقد باتت عندنا دون أن أعرفها، لقد موهت علينا حين لم تذكر الجهة التي جاءت منها.

لكن العربي المُوسْتَأَشُّ لم يلتق بخليفة، ولو التقاه لعرفه، ولوقف معه في غربته، قال الزيتوني وهو يضع يده في يد أخيه كأنما يطلب منه عهدا.

- يجب أن تبحث عن خليفة، نعم الرجل هو، ويمكن أن تجده سندا لك في الملمات والشدائد.

عند المساء رحل العربي المُوسْتَأَشُّ وحمامه، عائدين إلى سطيّف، لكنهما هذه المرة لم يكونا بمفرديهما فقط، بل صحبهما الطاهر أخو حمامه وعقيلة أمها، واجتمع خلق كبير لتوديع الجميع، وقد تلالأت في العيون دموع تهمني من حزن خيم على الوجوه والقلوب، ولم ينس العربي أن يوصي أخاه سالم بأن يسمي مولوده إن كان ذكرا محمود إحياء لاسم أخيه الشهيد، وفاطمة الزهراء إن كانت أنثى إحياء لاسم أمهم.

اختلفت مشاعر الطاهر ومشاعر أمه وهما يندفعان باتجاه المدينة، كان الأمل يعصر عقيلة، كشجرة أجتثت تاركة جذورها العميقة خلفها بين التربة، وكان الطاهر يرفرف فرحا برحلته الجديدة، في المدينة سيحقق أحلاما كثيرة طالما حرم منها وحرم منها أبوه قبله، أول ما يبحث عنه هو

عمل قار، مازال شابا قويا وسيحرص على جمع ثروة تمكنه من الحياة السعيدة، وسيتزوج ولكنه لن يفوت فرصة اقتناص زوجة من أسرة ثرية، فرصته الوحيدة ليرجع إلى الأبد، فرصته الوحيدة ليعيش سعيدا، فرصته الوحيدة ليكون شخصا مهما يحشى أمثال عباس من الاعتداء عليه، ويسعى ليعوض أمه المسكينة كل ما فاتها.

واختلفت مشاعر حمامه ومشاعر العربي المستاش، كان يرى أن مجيئهما معه سيزيد من حمله، عواطفه جياشة، وإحساسه بالمسؤولية كبير جدا، ومعنى ذلك أنه يحمل هموم الجميع، وكانت حمامه تحس بالانتشاء وقد أنقذت أحاها وأمها من مخالب القرية حيث كل مآسي الحياة.

لم يمنع الليل سي رابح من الاهتمام بالوافدين، فراح يحتفي بهما ويطمئنهما على وجودهما في المدينة، عارضا عليهما خبراته وقدراته، ودعا الجميع إلى العشاء عنده، دون أن يسهرا بعدها، كان التعب يخيم على عيون الجميع، حتى العربي المستاش الذي كان يهفو إلى حكاية تفاصيل رحلته لسي رابح.

** ** *

8

استيقظ العربي المستاش متأخرا، لم يجد سي رابح في البيت لقد خرج باكرا دون أن يوقظه كالعادة، وقف طويلا أمام الباب مترددا، هل سيذهب للعمل؟ شوقه لسوزان أكبر من أن يقاوم، لكن رغبته في البوح بالسر لسي رابح، ورغبته في لقاء خليفة لا تقاوم أيضا، أين يمكن أن يكون خليفة وسلافة الرومية الآن، هل هما فعلا في سطيف، أم غادراها إلى مدينة أخرى؟ هل هما معا أم ذهب كل إلى حال سبيله؟ وكيف استطاعت سلافه الرومية أن تخفي نفسها عنهم فلم يتعرفوا عليها، وهل حقيقة

خادعت سي رابح أيضا فلم ينتبه للأمر؟ لاشيء يمر على عمي رابح دون أن يعرفه هو مباشرة أو توصله إليه عيونه، عمي رابح هو أبو هذه المدينة، يحس أنه مسؤول عن كل الناس فيها، خاصة الذين طاردتهم خيبتهم من قراهم وعروشهم كما طاردته هو ذات سنة.

دخل العربي المُوسْتَأَشُّ حَي اليهود، وراح يتجول في شوارعه متنقلا بين دكاكينه، من باعة الشيفون حيث سأل حيم، إلى باعة الذهب والفضة حيث سأل شمعون المونشو، لا أثر لخليفة، تجول في المقاهي العربية، شرب هنا قهوة جزوة، وهناك حارا، متصفحاً كل الوجوه لا أثر لخليفة، بقي أن يسأل في مسجد المحطة والبيوت المحيطة به لا شك أنه هناك.

وفي طريقه عرج على الحمام، كان سي رابح يجلس أمامه وقد امتلأ حيوية، زاده لباسه العربي الجديد أنيقة وإشراقاً، حليق اللحية، خفيف الشارب، يسند ظهره إلى فسيفساء الجدار فتميل عمامته تغطي جبينه، تتدل سلسلة ساعته الذهبية عاكسة أشعة الشمس، يمد ساقيه إلى الأمام، واضعا رجله اليمنى على يسراه، ألقى العربي المُوسْتَأَشُّ التحية مضافاً، وقبل أن يضيف بادره سي رابح:

- عينك تتقاطران أسئلة.

جلس العربي المُوسْتَأَشُّ بجواره على كرسي الرخام الطويل، وقال:

- صدقت عمي رابح، مذعدت من زيارة الأهل عدت بانشغال كبير.

فجأه سي رابح حتى فغرفاه حين قال وهو ينشق شمته:

- أنت تبحت عن عبد الحميد؟

ولم يترك للعربي المُوسْتَأَشُّ فرصة لمقاطعته فواصل:

- ... أقصد تبحت عن خليفة؟

قال العربي المُوسْتَأَشُّ وقد نضحت عيناه دهشة:

- فعلا، كيف عرفت؟

واصل سي رابح، وهو يغلق قرن الشمة ويعيده إلى جيبه:

- وتساءل عن المرأة التي كانت معه تبحث عن ابنها يوسف؟

قلب العربي المُوسْتَأْسُ عينيه، وقال:

- عمي رابح، هل سُنَحرت لك الجن؟

دله سي رابح على مكان تواجدهما قريبا من مسجد المحطة كما خمن

العربي، وأخبره أن ابنها هو يوسف الرُّوجُ الذي اشتغل أياما مع علال

القهبواجي، ثم قرر الهجرة إلى الجزائر العاصمة ليعمل هناك.

اندفع العربي المُوسْتَأْسُ واقفا، وهو يتذكر ملامح يوسف الرُّوجُ الذي

عمل فعلا عند علال القهبواجي، فوقف معه سي رابح قائلا:

- أنت متلهف إلى رؤية خليفة، سأذهب معك إليه.

وأعاد العربي المُوسْتَأْسُ إلى مكانه بجواره قائلا:

- لنتمهل قليلا، كيف تركت الأهل والعرش.

- إيه يا عمي رابح لقد أخذني حلم أفزعني ليلا، فوجدت في العرش

ما أفزعني حقيقة.

وراح يحدّثه عن رحلته إلى العرش وعن كل ما صادفه فيها، من مأس

ومحن، عن الفقر والأمراض والأحقاد، عن جشع المعمر بارال الذي تمدى

في قهر العروش، والاستيلاء على كل أراضيهم، عن مغامرات خليفة

المدهشة والعجيبة، ولم يتمالك سي رابح نفسه، وقد أشرق وجهه فاندفع

قائلا:

- الله هذا رجل كبير، يجب أن نتعرف عليه ونتقرب منه!

- فعلا هذا رجل لايجود الزمان كثيرا بأمثاله، سيفيدنا كثيرا.

وراح يحدّثه عنه منذ ترمد أبيه على فرنسا وأذناؤها، واشترك أخيه في

ثورة الأوراس، إلى مقتل زوجته الرَّبَّحُ على يد القايد عباس، إلى زواج سالم

من ابنته سَرَوُلُه، ثم حدّثه عن حكاية المرأة التي رافقته، منذ تزوجها

السعيد القايد حتى فرارها مع خليفة.

اندفع سرب من النسوة يدخلن الحمام مدثرات بملاءاتهن السوداء، خيل للعربي المستاش أنهن أغربة تملأ المدينة، ماذا لو طرن الآن وحلقن في الفضاء، سيدهش الناس لهذه الأغربة العملاقة، سأل سي رابح:

- النساء يقبلن اليوم على الحمام بكثرة.

- نحن في آخر الأسبوع، وهذا موسم الأعراس، ولا هم للنساء إلا أن

يأخذن زينتهن.

وانطلقا للبحث عن خليفة، حيث تصور سي رابح وجوده، ألح سؤال غريب على ذهن العربي المستاش، سؤال طالما حيره مذ دخل المدينة، ماسر اختيار المرأة السطيفية هذا اللباس؟ فراح يطرحه.

- عمي رابح، ماسر ارتداء النساء في المدينة لهذه الملاءات السوداء؟

قال سي رابح سريعا:

- لقد قامت هنا أول دولة شيعية في العالم هي دولة الفاطميين، ومن عادتهم لبس السواد حزنا على مقتل سيدنا الحسين، فأخذ السكان العادة، وهناك من يرى أنها أقرب من ذلك، لقد لبست النساء السواد حزنا على مقتل صالح باي وهو رجل تركي كان حاكما لقسنطينة وما حولها، وعرف بالعدل والتقوى، وعرف الناس في عهده رخاء كبيرا، لكن اليهود اغتالوه، فحزن الناس حزنا شديدا ومذ ذاك وهم يرتدون السواد، وأنا أميل إلى الرأي الأول.

قال العربي المستاش:

- اليهود وراء كل الشرور.

لم يعلق سي رابح على رده وواصل:

- ومن هنا أيضا انطلق جوهر الدين الصقلي مع آلاف المتطوعين،

فاستولوا على مصر، وبنوا القاهرة، وجامعها الأزهر.

لم يعلق العربي الموستاش، كثير من كلام سي رابح عصي عليه، وأنى له أن يعرف الفاطميين ودولتهم؟ أو يعرف صالح باي وعدالته؟
وصلا الحي، وباغتا خليفة يبيع الشمة، يحمل عصاه في ذراعه كطفل مدلل، كان اللقاء بينهما مفاجأة كبرى لكليهما، خليفة والعربي الموستاش،
صاح خليفة مندهشا:

-أخي العربي.

وارتمى في حضنه يعانقه، ويضغطه إليه بشدة.

قال العربي الموستاش، وهو يضغط بشدة على أصابع خليفة مصافحا:
-خليفة، أيها البطل الهمام، تأتي سطيف دون أن تسأل عني؟ أنا
غاضب منك.

أسرع خليفة يحمل كيسه ويسير معهما إلى البيت الذي اكتراه،
واستقبلتهما سلافه الرومية بحفاوة، وقد أدهشها مجيئهما مع خليفة كأنه
على سابق معرفة بهما، راح سي رابح يتأملهما معا مرددا: صدق حدسي
لقد هربا معا مجبهما، وتقاقت حيرة على وجه العربي الموستاش، كبلها
خليفة سريعا وهو ييوح:

- هذه سلافه الرومية، لقد تزوجنا منذ أيام على سنة الله ورسوله،
كلانا غريب فلنقتل غربتنا بلجتماعنا.

قال سي رابح في سره: بل كنتما على حب، اشم رائحة العاشقين كما
يشتم السلوقي صيده.

نظر خليفة إلى سلافه وقال:

- وهذا العربي الذي حدثتك عنه.

حين استوت القهوة أمامهما، طلب العربي الموستاش من خليفة أن
يعيد عليهما قصة مقتل القايد عباس، وتوجس خليفة خوفا فراح يقلب
عينيه في المكان، قال العربي الموستاش مشجعا:

- لآخوف عليك؁ لقد رأيت عمامته وبرنسه الأحمر عند الزيتونى الذى قص على الحكاية؁ وأريد أن أسمعها منك.

وأمن خليفة فراح يعيد سرد الحكاية من جذورها متعمدا النظر إلى سلافه الرومية التى جلست قريبا منهما كأنما يشهدها على صدق كلامه؁ وماكاد يكملها حتى سأل العربى المستاش:

- وهل رأيت الذين أطلقوا النار على عباس وحميده؟

وماكاد النفى يصل أذنيه؁ حتى راح العربى المُستَاشُ يعيد سرد الحكاية من بدايتها؁ واستسلم خليفة وسلافة لسماعها وقد غشيهما خدر المفاجأة؁ وماكادت الحكاية تنتهى حتى قفز خليفة يقبلهما اعترافا ببطولتهما قائلا:

- أنا رجل ابن رجال؁ لم ولن أحن هامى لظالم أبدا؁ وأحب الرجال أمثالى.

وهرعت سلافه الرومية تخرج من خزانة صغيرة قنينة عطر وراحت تضمخ بها العربى المستاش وسي رابح قائلة:

- تستحقان كل تمجيد؁ لقد تأرتم لنا جميعا.

وقف سي رابح يهم بالانصراف؁ مديده يشد على يد خليفة:

- كثر الله خيركم؁ نحن الآن أسرة واحدة يا عبد الحميد.

وغرقا فى الضحك؁ واغتنمت سلافه الرومية الفرصة فاندفعت تسأل:

- سي رابح؁ هل وصلك خبر عن ابنى يوسف؟

- يوسف الرُّوجُ؟ لقد أرسلت إليه مع أحد المسافرين إلى العاصمة؁

أرجو أن يعود إلى سطيف؁ أو أن يكلمنى بالهاتف.

قالها سي رابح وفى نفسه ثقة بعودة يوسف الرُّوجُ قريبا؁ قال العربى المُستَاشُ معلقا:

- كل مهمة ينهض بها عمى رابح تكلل بالنجاح؁ أنا واثق أنه سيعود قريبا.

- إن شاء الله.

قالتها سلافة، وراحت تكررهما مؤكدة عليها، رافعة عينيها إلى السماء.
خرج سي رابح والعربي المُوسْتَأْسُ عائدين إلى البيت، قال خليفة وهو
يعيد غلق الباب خلفهما:

- لقد عوضنا الله عن أهلنا أهلاً.

فردت سلافة، وعلى ملامحها حيرة وخوف:

- هل تعتقد أن أولاد النش سيسكتون عن ثأرهم؟ علمت أنهم
نصبوا ابنه جُلُول مكان أبيه.

كل هذه الهواجس ظلت تراود خليفة أيضاً، ليس من السهل أن
يسكت أولاد النش عن الأخذ بالثأر، ولعل ما يؤخرهم هو عدم تأكدهم
من الفاعل لا غير، وقد زادت هواجس خليفة تلك حين أحس أكثر من
مرة بأشباح ترصد تحركاته وتعد خطواته، وزادت أكثر وهو يخرج ذات
صباح بارد فيجد خلاف التيقر يراقب باب البيت من بعيد.

أسرع خليفة يطرد الوسواس عن نفسه، خوفاً من انتقالها إلى سلافه
الرومية، وجلس يحدثها عن علاقته بأولاد سيدي علي، وبأسرة بلخير
خاصة، وبفضائلها الكثيرة التي تناقل الناس أخبارها.

ثم سكت فجأة وغرق في تأمل سلافه الرومية التي كانت تضع ذقنها
في كفها وتجلس مجللة بالصمت كتمثال حزين، قفز إلى ذهنه طيف الريح
بنت إبراهيم حبه الأول والأخير، هل يرضيها في قبرها أن يتزوج سلافه
الرومية، وغرق في هواجسه المتصارعة بين الرفض والقبول، بين الانبساط
والانقباض.

تأخر سي رابح في المسجد الجديد ليحضر اجتماعاً للجنة تحت
إشراف الإبراهيمي، إعداداً لإقامة حفل تدشينه، بحضور ضيوف من جهات
مختلفة يتقدمهم ابن باديس، أما العربي المُوسْتَأْسُ فحث السير عائداً إلى

البيت، متلفتنا خلفه من حين لآخر، عله يلاحظ من يرصد حركاته، هناك أمر ما يدبر في الخفاء، ماكاد يتوسط المدينة حتى التقاه من يخبره أن سوزان تطلبه اللحظة عاجلا، فأسرع تتسابق رجلاه.

تهاوى على كرسي خشبي قريب منها وهي تفاجئه بجملمها، كم كان مجنونا وهو يخوض هذه المغامرة! لقد أعمته اللذة فلم يحسب للأمر حسابا، اللعنة لم يكن ما بينهما لذة، كان حبا شريفا صادقا، وليقع ما يقع، وليقطع إربا، وليرم للكلاب الضالة، قدر المحبين أن يضحوا، رفع فيها عينيه وقد كانت تجلس هادئة كأنما تسخر من حيرته، سأله:

- وما العمل؟

هزت كتفيها غير مبالية وقالت وعلى وجهها ابتسامة كنسيم الربيع:

- لاشيء، لقد منحتك نفسي عن حب، فليذهب الجميع إلى جهنم.

أسرع يقول:

- سنتزوج.

ضحكت من خوفه، وقالت:

- فلنتزوج.

واندفع خارجا، متجها مباشرة إلى بيته تتدافعه الهواجس كقارب مهمل في مهب العواصف.

حين دخل البيت رأى حمامه فزعة مرعوبة، سأله وهو يشدها إليه:

- مالك ترتعدين؟

- كأن أحدا تسور علينا جدار الفناء، لمحت أصابع تشد أعلى الجدار،

ثم انزلت محتفية.

مد العربي المُوسَّأشُ نظره إلى أعلى الجدار متقدما منه، وفجأة سأل

فزعا:

- أين بلخير؟

- بلخير، بلخير؟

ورفعت صوتها تناديه في فزع شديد، وهرع العربي المُستأش إلى الخارج، مناديا بأعلى صوته، مندفعاً في كل الاتجاهات، كأنما يريد أن يقسم نفسه، وقد ظهر على ملامحه فزع شديد، عند دكان متواضع فزع كل من كان فيه يلعب الضامة، راح يلقي بوابل من الأسئلة فلا يتلقى منهم إلا أسئلة جارحة أيضاً، وانتقل إليهم الخوف فتفرقوا جميعاً يبحثون، وهرعت الجارات إلى البيت فضولاً ومواساةً، وظلت لالا تركية وهي تكتم فزعها تشجع حمامه قامعة بركان رعبها.

وماكاد سي ربح يعلم الخبر حتى تداعى إلى البيت ولحق به خليفة وسلافة وأمقران، كان العربي المستأش وهو يقف بينهم كصفصافة قهرتها العواصف يقول:

- لا أحد غيره، إنه خلاف التيقر، تحركاته المريبة تدل على ذلك.
قال أمقران:

- فلنذهب إليه، علينا أن نقتحم بيته.

وارتفع في البيت نواح حمامه، فأسرع سي رابح يدخله، وانتقل تيار ذلك قويا إلى نفس العربي المستأش، فدخل البيت كالجنون، ثم عاد بعصاه الغليظة واندفع في الشوارع الضيقة ولحقه أمقران وخليفة.

كان الظلام قد اغتال كل فرص الرؤية حين حاصر الثلاثة بيت خلاف التيقر، واندفع العربي المستأش يلق الباب بعنف، وحين لم يصله جواب دفع الباب بقدمه فانهد إلى الأرض، وفي الحوش الصغير وقف خلاف التيقر مبهوراً فرعاً وهو يقول:

- خيراً خيراً، ما خطبكم؟

وهرع إلى زاوية، فحمل عصا حديدة واندفع يهاجم العربي المستأش الذي أسرع بوجه ضربة إلى يسراه، فتهافت منها عصاه، وانكفأ يتلوى من

الألم، واندفع العربي المستأش فطرحة أرضا كالقريسة وشد على تلايبه بقوة صائحا:

- يابن العاهرة تخطف أبناء الرجال؟

ولم يقدر خلاف التيقر على الرد وقد انقطع تنفسه، فركله أمقران، ثم ضغط بجذاه على وجهه وقال:

- انطق أو نكحتك كالنساء، أين الطفل، أسرع قل أين الطفل؟

وخرج خليفة من الحجرة اليتيمة قائلا:

- لاشيء في الغرفة.

ولحق بهم سي رابح فدفعهما عن خلاف التيقر الذي تنفس بعمق كأنما كان في أعماق البحر، ومد ذراعيه على الأرض دون أن يتحرك من مكانه، سأل سي رابح:

- هل وجدتم شيئا عنده؟

- لاشيء سوى نتانة تسود الغرفة، وزجاجات خمر.

أجاب خليفة وهو يمد بصره إلى باب الغرفة المشرع وقد تسلل منه ضوء خافت، دفع سي رابح الجميع أمامه قائلا:

- هيا يجب أن نخبز الشرطة.

عند الباب اعتدل خلاف التيقر جالسا في مكانه وقال:

- تذكر جيدا ما فعلت يا العربي.

وحين لم يتلق ردا واصل بصوت خافت:

- قريبا سأخلق شاربيك دون ماء، وسأسوقكم كالعبيد إلى الزاوية.

وأسند ظهره إلى الجدار وغرق في أحلام الثروة التي ينتظرها والتي لم يتسلم منها إلا جزء يسيرا.

*** ** **

قبل أن ينزرع الفجر انزرع الجميع في أزقة المدينة يتحسسون بلخير الصغير، وخاض اليراح[□] كل الأحياء مناديا بأعلى صوته:

- ياسامعين الخير والعافية، ضاع البارحة طفل...

ويستمر في تعداد أوصافه وملابسه، وكل ما يعين على التعرف عليه، واندفعت سلافه الرومية إلى الباب وهي تسمع دقا عنيفا، ماكادت تفتحه حتى هزتها المفاجأة، فصرخت بأعلى صوتها واندفعت إلى القفة التي تكوم فيها الطفل مقيدا مزموماً الفم، واندفعت لالا تركية ولحقتها حمامه تكاد أعضائها تتناثر على الأرض، وماكادت تراه حتى صرخت:

- ولدي، ولدي.

أسرعت سلافه تطمئنئها:

- إنه بخير، إنه بخير.

وخطفته حمامه تدخله صدرها وتوسعه تقبيلا، بدا الطفل شاحب اللون، خائفا مندهشا، يقلب عينيه في كل الوجوه التي أحاطت به. وبلغ الخبر العربي المستاش ومن معه فهرعوا جميعا إلى البيت. أسرعت لالا تركية تعد القهوة، وانزوى العربي في الغرفة يضم ابنه إلى صدره، ويمعن فيه النظر عله يجد في جسمه ما يدل على اعتداء جسدي، قال أمقران وهو يجلس على كرسي خشبي صغير:

- هل تعتقدون أن اختطاف بلخير ثم رده هو تحذير من شر قادم؟

رد خليفة وقد ظهر على محياه إجهاد وتعب:

- هذه الحادثة مريبة، تحتم علينا الحذر في كل تحركاتنا.

رفع العربي المستاش عينيه في الجميع وقال:

- الحمد لله أن انتهى الأمر هكذا، سنمنع بلخير من الخروج إلى

□ - شخص جهوري الصوت، يعلن في الناس مقابل أجر يتقاضاه، عن ضالة.

الشارع مرة ثانية إلا برفقة.

علق سي رابح وهو يدخل بالقهوة:

- لا بد من رد فعل مناسب ضد خلاف التيقر، ليس غيره من خطفه.
وتشعب الحديث بين الجميع، وقد اشتركت فيه النسوة، عن الخاطفين
وأسباب ذلك، وطرق التصدي لهم، وحين أحسوا أنهم قد أعطوا الموضوع
حقه خرجوا متفرقين تاركين العربي المستاش وحمامه مع طفلهما بلخير.

قال العربي المستاش مهيدا:

- لو وقع مكروه لابننا لكان عقابك شديدا.

لم ترد حمامه، بل طاطأت رأسها وقد أحست بذنبها، واصل العربي
المستاش:

- غفلتك عن ابنك كادت تودي بحياته.

ردت حمامه بصوت خافت منكسر حزين:

- لو وقع له مكروه لقتلت نفسي.

قبل العربي ابنه بعمق وكرر على مسمع زوجته وجوب اهتمامها
بالطفل، ثم خرج متجها إلى حديقة فرانكو حيث يعمل منذ سنوات، ينط
قلبه متحيرا بين زوجته وابنه اللذين تركهما في البيت تهددهما المخاطر
من كل جهة، وبين سوزان التي يكاد قلبه يسبقه لرؤيتها، وفوجئ برجال
الشرطة يحاصرونه، ثم يقتادونه بالقوة إلى مركزهم، دفعه أحدهم بغلظة
وحقد ليسقط أرضا، وارتطم بقوة بالأرضية الصلبة، لم يكن يهتم لذلك
بقدر ما كشرت في ذهنه الأسئلة المحيرة، ما بال هذه البلايا تتهاطل عليه؟ ما
سر اعتقاله؟ ومن وراءه؟ هل السبب هو ضربه خلاف التيقر البارحة؟ أو
لعل وراءه أولاد النش، وراح يمد بصره إلى الباب كلما سمع حركة أو
ضحيجا خلفه، ربما سيلحقون به خليفة أو حتى حمامه وسلافة الرومية، أو
ربما سيدخل عليه أبناء القايد عباس، قد يلجأ رجال الشرطة لتعذيبه

لينتزعوا منه اعترافا، لن يعترف ولن يشي بأمقران وسي رابح ولا خليفة ولو رموه طعما للكلاب التي ارتفعت زجرتها كأنها تهتم بافتراس سجين آخر، أو كأنها تعد نفسها للدخول عليه.

فجأة تنأى إلى سمعه صوت السيد فرانكو الذي كان يرغد ويزبد، متوعدا بقتل العربي المُوسْتَأْسُ شر قتلة، فتح الباب فاندفع إليه ومعه صديقه ماران ومحافظ وضابطان، أجلس العربي المُوسْتَأْسُ على كرسي حديدي مكبل اليدين، راح الضابط يطرح عليه جملة من الأسئلة، فهم من خلالها أن سوزان اختفت، وأن فرانكو يوجه التهمة مباشرة للعربي، وأحس العربي المُوسْتَأْسُ بدوار شديد يعصف بأعمقه، ليس خوفا على نفسه، ولكن خوفا على سوزان التي عشقها وتعلق بها، سريعا لحق أمقران ثم سي رابح، محدثين ضجة داخل المقر، مؤكدين براءة العربي المُوسْتَأْسُ من كل ما نسب إليه، واجه فرانكو سي رابح غاضبا مؤكدا على جرم العربي المُوسْتَأْسُ، هدا سي رابح من روعه وهو يقول:

- فرانكو يا صديقي العزيز، فلنترك الأمر لتحقيق الشرطة، وأنا أضمن عدم فرار العربي، سيكون تحت تصرف الشرطة حين تطلبه، تعرف لماذا؟
ظل فرانكو ينظر إلى سي رابح دون أن يرد، فواصل سي رابح:
- لأنه بريء.

وفعلا تم إطلاق سراحه مؤقتا.
في محل الحدادة باح العربي المُوسْتَأْسُ لصديقيه بسر اختفاء سوزان، لقد سافرت بعيدا خشية أن يكتشف أمر حملها، ولكنها ستعود في الوقت المناسب، قال سي رابح:

- إياك أن تبوح بالسر لأحد، من تنجبه هو ابننا.

قاطعته أمقران مازحا:

- أقترح أن تسلموه إلي ليتربى عندي.

قال العربي المُوسْتَأَشُ جادا:

- المهم أن تسير الأمور كما خططت، المولود سيتربى عندي.

نظر سي رابح في أمقران مبتسما وقال:

- أرايت؟ العربي المُوسْتَأَشُ صار خطيرا جدا.

دس العربي المُوسْتَأَشُ رأسه بين يديه مدثرا بحزن قلق وقال:

- لم أكن أريد ذلك، وما بيننا ليس لذة عابرة.

ثم نهض بقلق أشد، ونهض أمقران إلى جواره، في حين بقي سي رابح هادئا في مكانه، تاركا بينه وبين العربي المُوسْتَأَشُ مسافة أمان حتى لا ينقل إليه عدوى القلق، قال سي رابح مهدئا:

- لا تقلق يا العربي، لكل شيء حل، هذه فرنسا فعلت بنا الأفاعيل قرنا كاملا، وستحتفل هذه الأيام بذلك، وتقلق لمجرد أن أُنجبت من فرنسية أحببتك، فليذهبوا إلى الجحيم.

عاود العربي المُوسْتَأَشُ الجلوس، لا بد أن يقنع صديقيه بالفكرة، هو يعلم أن أمقران سيجازف معه، لكنه يخشى عناد سي رابح، لأنه لم يستشره في الأمر منذ البداية.

قال أمقران مستفسرا من العربي المُوسْتَأَشُ :

- مُوسْتَأَشُ كأنك تتردد في قول شيء ما، قل لا تتردد، ما الذي يزعجك؟

أيده سي رابح قائلا:

- لا تكتم عنا شيئا، فليس بيننا أسرار.

عاد العربي المُوسْتَأَشُ للجلوس مهللا محوقلا، وجلس أمقران إلى جواره يمتص رحيق شمة ربتها تحت شفته اللحظة، معمنا في الاستماع، قال العربي المُوسْتَأَشُ:

- لا أريد أن أنجب ولدا لقيطا، أريده شرعيا.

ضحك سي رابح وقال:

- هذا أمر يسير، ولكن سوزان متزوجة من فرانكو، وهذا...

أسرع العربي المُوسْتَأَشْ مقاطعة:

- لا إنهما في انفصال منذ أكثر من عام.

وفعلا كانت سوزان قد انفصلت عن فرانكو منذ أكثر من عام، وهي لا تمقت فرانكو لتصرفاته الحمقاء، ولا للفرق الكبير بينهما في السن والتفكير فحسب، بل أيضا لأنها تحمل شعورا معاديا لكل ماهو فرنسي، بل وتسعى للانتقام من كل ما هو فرنسي، مرجعة إلى الفرنسيين كل مآسي أسرتها الصغيرة.

نهض سي رابح نشطا، مد يده إلى العربي المُوسْتَأَشْ وأنهضه بقوة قائلا:

- لنذهب الآن للمسجد، ونعلن مع الإمام زواجكما.

سحب العربي المُوسْتَأَشْ يده مترددا وقال:

- وهل تعتقد أنه سيقبل؟ سيشرط سماعها أولا.

- وهو ما دخله؟

هكذا علق أمقران قلقا وأسرع يغلق باب محله، وانطلق الثلاثة إلى مسجد المحطة، كان العربي المُوسْتَأَشْ خائفا من رفض الشيخ، وكان أمقران يفكر في إرغامه إن رفض، لكن سي رابح كان واثقا تماما من قبوله.

حين دخلوا، تلقاهم الشيخ بترحيب كبير، جلسوا إليه، يقلبون النظر في بعضهم البعض، قال الشيخ مشجعا:

- أرى حيرة على الوجوه، تفضلوا كلي آذان.

قال سي رابح:

- جئنا من أجل أن نعقد زواجا شرعيا لأخينا العربي المُوسْتَأَشْ.

بارك الشيخ الإمام الزواج، وسأل سريعا عن الزوجة ووليها، وثار

ثأثرته وهو يسمع اسمها، فرفع صوته قائلاً:

- أعود بالله، من تزوج فرنسية فقد دخل الاستعمار بيته، هذه فتوى علماء الجزائر، ولا تجوز مخالفتها أبداً.

وأسرع سي رابح يؤكد له أن هذه السيدة من أصول ألمانية، وتكره فرنسا كما يكره المؤمن الشيطان، وأن زواج العربي المُوسْتَأَشُّ منها يعد مكسباً عظيماً لنا، وتم الزواج بسرعة، مثل فيه سي رابح ولي سوزان، ومثل فيه أمقران والإمام شاهدي عدل.

صافح العربي المُوسْتَأَشُّ الشيخ بجرارة وقبله على رأسه مراراً، قال الشيخ مداعباً:

- لا تتهرب من مأدبة العرس، أنا أنتظر دعوتك.

وخرج الثلاثة فرحين، استنشق العربي المُوسْتَأَشُّ كل ما حوله من هواء، ثم دفعه بقوة، وقال:

- الحمد لله، لقد أرحت ضميري بعد أن...

قاطعه أمقران مازحاً:

- سأشي بك إلى حمامه أيها الخائن.

واندفع مهرولاً أمام العربي المُوسْتَأَشُّ الذي طارده لحظات ثم عاد إلى سي رابح، واجتمع الشمل من جديد، فانطلقوا إلى الحمام، على أمل أن يغادروه بعد ذلك إلى مقهى العرب، لكن مفاجأتهم كانت كبيرة وهم يرون يوسف الرُّوجُ يقف أمام الباب منتظراً عودتهم.

قال أمقران لسي رابح:

- رأيت إنه يوسف الرُّوجُ، لقد عاد من العاصمة.

- فعلاً إنه بانتظارنا.

وهرعوا إليه، صافحه العربي المُوسْتَأَشُّ بجرارة وقال:

- والله يا يوسف لقد أخلطت كل حساباتها.

احتضنه سي رابح ثم راح يتأمل لباسه وقال ضاحكا:
- ماهذا يا يوسف الروح؟ هل بعث دينك، ولبست لباس النصرى
أيها المارق؟

وفعلا لم يبق يوسف الروحُ من لباسه التقليدي غير قبعة حمراء، مفضلا
لباسا حديثا، صدرية وسروالا.

وانطلق الجميع إلى بيت خليفة قرب مسجد الخطّة، أما العربي
الموستاش فقد آثر أن يعود سريعا إلى البيت، لم تغادر صورة حمّامه خياله،
ظل يتصورها توبخه وتلعنه، فلا يجد ما يرد به غير الصمت الجبان، وسأل
نفسه، لو علمت بسوزان ما سيقول لها؟ هل يكفيه الاعتذار؟ لا معنى أن
تعتذر لمن تغرز خنجرك في قلبه، كما لم يغادر ابنه قلبه، ظل يحس بالخطر
يتهدده في كل لحظة، وظل يعيش تمزقا بين الخوف والرجاء، بين الإخلاص
لحمّامه وحب سوزان، وبين الاهتمام بأسرته والنضال من أجل الوطن.

*** **

10

ما إن رأت سلافه الرومية ابنها يدخل عليها حتى هزت جنبات المكان
بزرودة مدوية، وارتقت في أحضانه تجهش بالبكاء، لم تسلم مذخلقت من
لسعات الدهر الخؤون، الذي سرق منها أبويها الفقيرين صغيرة، ثم رمى
بها في حضن زوج عجوز كنود، يصلي للفرنك آناء الليل وأطراف النهار،
ولم تجد من حل لتتخذ نفسها من برائنه وبرائث أولاده الذين تجرأوا حتى
على طلب كؤوس من اللذة معها سوى أن تفر بنفسها إلى المدينة، صارخة:
لم خلقتني يارب جميلة فاتنة؟

وماكادت تطأ قدمها المدينة حتى حاصرتها الذئاب المسعورة لتجد
نفسها عاهرة في ماخور المدينة، يصهل فوق جمالها كل من هب ودب،

لتحولهم بعدها إلى مجرد كلاب تلهث خلفها وتتصارع من أجلها، وماكاد السعيد القايد يقع في حبها حتى وجدتها فرصة لتفر من المقذرة التي وقعت في نتائجها رغما عنها.

ولم يرحمها الزمن أيضا فسرق منها السعيد، ليرمي بها بين شذقي عباس القايد الذي كانت تراه ضبعا جشعا، ثم عند الشيخ عمار المثقل بالنفاق، لقد ضيعت في دنياها كل شيء إلا يوسف الذي سلته سلا من بين أنياب الأيام، وظلت تراه كوكبا دريا في فضاءاتها القاتمة، وهذا الرجل المترع رجولة، خليفة الذي لم يطأطى رأسه للذل، ولم يرفع في جسدها نظرة ساقطة خسيصة، بل ظل يحميها ويصونها كأنها أخته، فهل أشفق عليها القدر أخيرا؟ هل ستبسم لها الحياة من جديد؟ هل ستعوض كل ما فاتها؟ ليست تسعى لمال ولا جاه، ولو رغبت في ذلك لحققته، كانت ترغب في أن تعيش محاطة بالحب والكرامة، أما الحياة فتكفيها خرقة من قماش، وقطعة من خبز.

مد خليفة يديه ففصل بين سلافه وابنها، وجلس الجميع على حصير من الحلفاء مسندين ظهورهم للوسائد التي صفتت بعناية، نظر خليفة في سلافه وهي تلتصق بابنها كأنما تخشى أن يفر منها وقال:

- ألا نستحق قهوة؟ أم أقوم أنا بالمهمة؟

ووقفت ملبية دون أن تحول عينيها عن ابنها، حتى إذا غابت فتحت أذنيها تستمع لكل ما يقول، نطق أمقران مهنتا:

- الحمد لله على سلامتك يا يوسف، خشيت أن لا تعود.

تنحج يوسف الرُّوجُ واعتدل في جلسته وقال:

- ماكادت رسالة عمي رابح تصلني حتى جئت، ليس لي في الدنيا أعز

من أمي.

قال خليفة مقاطعا:

- وهي ليس لها في الدنيا أعز منك، لقد تحملت من أجلك الكثير.
غير سي رايح دفة الحديث سائلا:
- كيف تركت العاصمة؟
اعتدل يوسف الرُّوجُ مرة ثانية في جلسته وقال:
- كأنها قدر يغلي على نار جهنم، والناس ينتظرون أمرا ما في الأفق،
لم يعد أحد يطبق بقاء فرنسا، فرنسا يجب أن ترحل.
ظهر الحماس على سي رايح فاندفع يقول:
- سيحتفل الأوباش هذه الأيام بمرور مئة عام على احتلالهم القدر
الجزائر، حلمين أنها أصبحت لهم.
قاطعته يوسف الرُّوجُ:
- حلم النائم، لقد بقي الرومان هنا خمسة قرون وخرجوا كالكلاب،
وستخرج فرنسا أيضا.
واندفع يحدثهم عن محطات مختلفة من تاريخ الجزائر القديم، حتى
أصيب الجميع بالدهشة، من أين جاءت يوسف الرُّوجُ كل هذه المعلومات؟
ماهذا الوعي النازل عليه فجأة كالوحي؟ ردد العربي المستأش في سره:
إنها العاصمة، تعلّم حتى الحمار، وردد خليفة: نحن تحولنا في قرانا إلى
حيوانات نتقاتل على التفاهات، وأسرعت سلافه تدخل بالقهوة، وقد
امتلاّت نفسها غبطة وسرورا، شكرا يا الله أن رزقتني ولدا أفخر به.
وواصل يوسف الرُّوجُ محلا الوضع:
- الحركة في العاصمة ثلاثة اتجاهات، جماعة مع رجال الإصلاح
ينشطون في المساجد والأندية خاصة نادي الترقى، ومن أشهر رجالهم عالم
كبير هو العقبي، الجميع يشهد له بالاستقامة والإخلاص، ويكتظ المسجد
بالناس إذا كان هو خطيبا وإماما، وعادة ما يحضر أيضا علماء آخرون
كالشيخ ابن باديس والإبراهيمي.

قاطعته سي رابح:

- التقيت مرارا بالشيخين ابن باديس والإبراهيمي، حلمهما تعليم الناس لغتهم ودينهم.

واصل يوسف الروج بثقة العارف غير مبال بمقاطعة سي رابح:

- الجماعة الثانية جماعة النجم وهي...

قاطعته سي رابح ثانية:

- نجم شمال إفريقيا، حزب مصالي الحاج.

واصل يوسف الروج موافقا:

- فعلا، لكن أصل تأسيس النجم يعود للأمير خالد حفيد الأمير عبد

القادر، وحاج علي عبد القادر، ويضم دول المغرب العربي، تونس والمغرب

والجزائر، لكن فرنسا خشيت من هذه الحركة فنفت الأمير خالد إلى مصر،

وحلت الحزب فتحول إلى السرية.

سأل العربي المستاش:

- وإلام يدعو هذا الحزب؟

أسرع يوسف الروج مجيبا:

- نحن ندعو لاستقلال الجزائر، لا بد من انسحاب فرنسا والتي هي

أحسن أو والتي هي أحسن.

وضحك الجميع، فسأل خليفة:

- هل أنت معهم يا يوسف؟

- نعم وكل العمال، وهو نشيط جدا خاصة في أوساط عمال الموانئ،

الذين أصبحت إضراباتهم تقلق الفرنسيين.

أحست سلافه الرومية بالغبطة وهي تسمع هذه الحقيقة عن ابنها،

ورفع أمقران إصبعه مستأذنا كالتلميذ وقال:

- أنا معكم، هؤلاء الكلاب لا ينفع معهم إلا العنف.

وأضاف العربي المستأش، وقد رفع جسده إلى الأعلى:
- وأنا أيضا.

رفع يوسف الرُّوحَ نظره في سي رابح وقال:

- لا أعتقد أنكما ستفعلان شيئا دون استشارة عمي رابح.

وتوجه إليهما، تصفح وجهيهما لحظات، ثم قال:

- لا تثق بهما يا يوسف، إنهما أخبث خلق الله.

وغرق الجميع في الضحك، وأسرعت سلافه الرومية تصب القهوة

حائه الجميع على شربها قبل أن تبرد، قال سي رابح وهو يرشف قهوته:

- أنا مع المصلحين، الثورة المجنونة لا تفيد في شيء، الشعب ليس

مستعدا للثورة بعد.

قال يوسف الرُّوحُ مؤيدا:

- ليس بين جماعة مصالي وجماعة المصلحين فرق كبير، المشكلة مع

النواب.

رفع أمقران صوته منددا:

- عليهم اللعنة بني وي وي[□]، يريدون بيعنا لفرنسا، كلهم أبناء قياد

وعملاء، ابتداء بابن جلول في قسنطينة، إلى فرحات عباس في جيجل، إلى

بلقاسم بن التهامي من مستغانم، وكل هؤلاء تخرجوا من جامعات فرنسا.

علق خليفة غاضبا:

- وكلبهم الأكبر صالح القاوري[□].

سأل يوسف الرُّوحُ عن صالح القاوري، فرد أمقران:

□- وي وي، كلمة فرنسية (oui oui) تقابلها في العربية كلمة نعم نعم، وتطلق على من

لا يعرفون إلا تأييد فرنسا في أفعالها، واستمرت تطلق على ضعيف الشخصية الإمعة.

□- لفظة القاوري تعني الرومي أو الفرنسي، وقيل هي لفظة تركية تعني الخنزير

وكانت تطلق على الأوروبي تحقيرا له.

- هذا شخص كالغراب، أراد أن يمشي مشية الحجلة، فنسي مشيته ولم يتعلم مشية الحجلة.

واصل العربي المستاش:

- فبقي ينط كالضفدعة.

وغرقوا في الضحك، قال سي رابح جادا.

- صالح القاوري، شاب تعلم عند الفرنسيين لأن أمه كانت خادمة في بيت أحدهم، وأتقن الفرنسية فعين معلما في المدرسة اللائكية (L'ecole laïque) بقلب المدينة، وهو حريص على تقليد الفرنسيين في حديثه، ولباسه، وكل حركاته وسكناته، وهو حريص أن لا يرى الكون إلا بعيونهم وعيون حضارتهم.

وأسرع يوسف الرُّوحُ يخرج من مزود ملابسه، مجموعة من المجلات والجرائد، وراح يوزعها على الجميع، حمل أمقران جريدة الأمة لسان النجم، وحمل سي رابح الشهاب وقرأ شعارها: "تستطيع الظروف أن تكيفنا، ولكنها لا تستطيع - بإذن الله - إتلافنا".

قال يوسف الرُّوحُ:

- إنه شعار ابن باديس في مجلته الشهرية الشهاب.

وانكبوا جميعا حولها يتصفحونها.

حين تفرق الجميع يجتمعون بكهوف النوم، سهر يوسف الروج مع أمه وخليفة حتى الفجر، استمع يوسف الروج بكثير من الانتشاء والتشفي لقصة مقتل القايد عباس، وإلى مغامرة خليفة من أجل تخلص أمه من براثن الشيخ عمار، واندفع يصافح خليفة بجرارة قائلا:

- أنتم رجال كبار، فعلتم ما كنت أخطط له.

واستغلت سلافه الرومية الفرصة وقد كانت تتحينها كلبوة تتربص

بفريستها فقالت:

- لن تكتمل فرحتي يا خليفة حتى أزوج يوسف.

واندفع خليفة يرحب بالفكرة بحماس شديد، وراحت سلافه الرومية تنقل طرفها بين خليفة وابنها الذي آثر الصمت دون أن يظهر عليه حماس شديد للفكرة، أراد أن يقول لأمه أنه يحمل هم وطن يجب أن يتحرر أولاً، والزواج مسؤولية كبيرة قد تعيقه عن أداء واجبه، ولكنه لم يقل شيئاً بل لزم الصمت لحظات ثم انتقل إلى غرفته لينام.

في الغد مساء أولت سلافه الرومية احتفاءً بعودة وحيدها، تعينها حمامه ولا لا تركية، طبخت كسكسا ولحماً، وأخرجت المثار والصحون إلى الشارع، ونشط الرجال، سي رابع وأمقران والعربي المستاش وخليفة في خدمة المدعويين الذين كانوا كل الجيران، بل كل عابر في الشارع، حتى تناقل الناس نبأ الوليمة ونبأ يوسف العائد من العاصمة، وقد استغل يوسف الراج ذلك فراح يتعرف على الجميع، محاولاً تقوية العلاقة بينه وبينهم، لا يراهم إلا مناضلين في النجم.

وأينعت سلافه الرومية من جديد، كزهرة لوى الظمأ عنقها، وحين كاد شبح الموت يخنقها، امتدت يد الغيث إليها فأنقذتها من جديد، فأشرقت توزع ابتسامتها على كل من حولها، لقد صارت إنساناً آخر، ونشط خليفة وهو يرى منها ذلك، فأقبل على الحياة كما لم يقبل عليها من قبل، وصارت سطيف في نظره مدينة للحلم بعد أن كان يتصورها منفى اضطرارياً، رغم أن طيف الريح بنت إبراهيم ظل يخلق في فضاءاته كل حين.

*** ** ** **

11

منتصف النهار، بدأ الشارع الكبير، أو شارع قسنطينة كما يسميه العامة يخلو من حركة الاحتفالات، لقد امتلأ منذ الصباح الباكر بالآلاف

المعمرين والجنود والمسؤولين، ومعهم احتشد أبناؤهم ونساؤهم، وسار معهم المئات من اليهود والقياد والمتعاونين وعلى رأسهم صالح القاوري والقياد جلول وعمار شيخ الزاوية، وتناوب جمع على المنصة لإلقاء كلمات الفرح والإشادة، إنها مئة سنة كاملة تمر منذ أن وطئت جيوش فرنسا أرض الجزائر، وها فرنسا تزرع في تضاريس هذه الأرض مدنا عملاقة، وتشق طرقا جبارة، وتقضي على كل حركات التمرد اليائسة، وهتف أحد قادة الجيش في الحشود المحتفلة: "عاشت فرنسا، عاش الصليب، فليسقط الهلال، فليسقط إلى الأبد"، وقوبلت كلماته بالتصفيق والهتاف، ورفعت الأعلام الفرنسية عالية، ودوت في المدينة طلقات البارود وطلقات المدافع. هدأت الحركة في الشارع الرئيسي وأهم ساحات الاحتفال، لكن الحركة ظلت قوية على الأرصفة وفي البيوت والحانات، خاصة في نادي الضباط، ومقهى فرنسا، وقريبا من عين الفوارة، وفي الكنيستين الكاثوليكية والبروستانتية، وفي ثكنة الجيش ومقرات الدرك والشرطة والمحكمة، وثبتت الأعلام الفرنسية على كل الشرفات، واشترك اليهود في هذه الاحتفالات بشكل لافت، مظهريين ذلك في كنيسهم القريب من البلدية، وفي محلاتهم التجارية الكثيرة، خاصة التي تباع الملابس والحلي، والتي تتوسط المدينة وتختلط مع دكاكين الجزائريين ومساكنهم.

اجتمع خلق كبير أمام مقهى العرب، جلس بعضهم على الأحصنة وبعضهم على كراس خشبية وحديدية، وبدا الغضب صارخا على وجوههم، قال أحدهم:

- أرايتم حتى اليهود عليهم اللعنة أظهروا اليوم حقدهم؟

رد ثان:

- لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.

رفع آخر صوته من الخلف بغضب:

- ذاك قديما، الآن حتى لو اتبعت ملتهم، ألا ترون النواب والقياد وبني
وي وي؟

ومن بعيد أقبل سي رابح، دخل مقهى العرب التي كانت مكتظة حد
التجشؤ، كان العربي المُوسَّشُ يجلس وحيدا يتابع الأحداث بصمت،
تبادلا التحية وخرجا، عند الباب التقيا بسي الهادي داخلا، أعادهما إلى
المقهى، وصاح في الجميع أن يسمعوا، دق علال القهواجي على الحسب
المتهرئ بزجاجة خمر فارغة، لعله جرعهما اللحظة طالبا الصمت، وأشار
بيده لبشير النادل، سكت الجميع تاركين كل ما كان أمامهم، وتسلسل بشير
إلى الشارع يقرب أي حركة مريبة قد تفاجئهم، قال سي الهادي:

- يا إخوان في مثل هذا اليوم احتلت فرنسا الظلمة أرضنا العزيزة،
ورغم التضحيات الجسام التي قدمها أجدادنا إلا أنهم انهزموا أمام
جبروت فرنسا وقوتها، والانهازم ليس عيبا، العيب هو الاستسلام، يجب
أن نظهر للفرنسيين أننا لن نرضى بتواجدهم بيننا، وهذا يقوم منذ الآن
على مقاطعة العمل عندهم، ومقاطعة سلعهم، بل و...
وقاطعه صوت غاضب:

- الثورة الثورة، هؤلاء لا يفهمون إلا لغة القوة.
راح سي الهادي يشير بيده لإسكات الجموع الغاضبة، لكنه لم يفلح، قال
آخر:

- فلنبدا باليهود، لقد خاننا اليهود عليهم اللعنة.
استمر سي الهادي في خطبته:
- لا تنسوا أن اليهود استفادوا من قانون كريميو (Crémieux) منذ
سنة 1871 وبموجبه حصلوا جميعا على الجنسية الفرنسية، فأصبحوا
فرنسيين لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، أما نحن فمواطنون
من الدرجة الثانية والثالثة، وبالها من مهزلة، أغراب في وطننا!

بدا القلق ظاهرا على علال القهواجي، كان يخاف أن تداهم الشرطة
المقهى، ويتهم بالتخاذ محله للتحريض ضد فرنسا، صفق بيديه وقال:

- انتهى لقد فهمتم، الخير فيما قل ودل.

وخرج سي الهادي تاركا وراءه زوبعة من الغضب، وارتفعت
الصيحات بسقوط فرنسا واليهود وبجيلة الجزائر.

خرج سي رابح برفقة العربي المسوتاش، في الطريق إلى مسجد الحطة،
التقيا شمعون المونشو متجها إلى الكنيس، اندفع نحوهما بابتسامة سخرية
واستهزاء، رغم الغضب المنفجر الذي ظهر على وجه سي رابح، قال سي
رابح وهو يصافحه بأطراف أصابعه:

- دع خداعك ونفاقك جانبا، أنتم اليهود كشفتم حقيقتكم، وحين
تهب العاصفة ستقتلحكم جميعا، حيناكم قرونا فختموننا عند أول فرصة.
تبسم شمعون المونشو مهدئا، وهو يعبث بالسلسلة التي يعلقها في
رقبته، وقال:

- ياسي رابح يجب أن تتعلم كيف تكتم غيظك.

بدا الانفعال شديدا على العربي المستاش، وهم أن يرد عليه، لكن
سي رابح أسرع يقول:

- للأسف المسافة بين لسان الجزائري وقلبه منعقدة، والتيار بينهما
قوي.

أطلق شمعون سلسلته لتعود إلى مكانها على صدره وقال:

- صدقت ولذلك كثرت ثوراتكم.

وأسرع يقطع الطريق أمام بركان غضب تكاد حممه تندلع من العربي
المستاش قائلا:

- ياسي رابح نحن أبناء عمومتمكم، ولكن تهمنا مصلحتنا، لقد حصلنا
على حقوقنا كاملة من فرنسا، فطالبوا بحقوقكم.

دفع العربي المُستأشُ سي رابح أمامه حانقا وقال:

- دعك من الوغد، سأقص يوما ما ذراعه الأخرى، هيا هيا.

اندفعا مبتعدين وقد بدا سي رابح هادئا دفعة واحدة، كأنما غطس في بحر بارد، وقال بكل هدوء:

- لم يعد يزعجني اليهود ولا النصارى مادام أبناء جلدتنا معهم، حتى صالح القاوري شاركهم احتفالاتهم، حتى القياد وبعض شيوخ الزوايا.

توقف العربي المستأش فجأة وقال:

- سر واحد أريد أن أعرفه.

- ماهو؟

سأل سي رابح وقد توقف مجارة للعربي المستأش الذي استمر قائلا:

- هل صالح القاوري ختون مثلنا، أم هو كالنصارى؟

تبسم سي رابح دون أن يرد، واستمر في السير، قال العربي المستأش:

- لا بد أن أكشف حقيقته، ورأسك ياعمي رابح لأختته إن وجدته

نصرانيا.

حين وصلوا إلى مسجد المحطة كان الناس قد تكاثروا أمامه، وكان بعض الشبان يوزعون منشورات معادية لفرنسا ولليهود، وتفرق بعضهم هنا وهناك يخطب في الناس، وكان مسعود بولقباق قرب بيته الجاور لبيت خليفه، يستند إلى الجدار، يملأ صندوقه الخشبي بمئات المناشير، يرفع صوته دون توقف، داعيا الناس إليها، يقصدونه لأخذها أو يرسلها إليهم مع حفيده ذي العشر سنوات.

تناهى صوت أمقران إلى الثلاثة فمالوا إلى حيث كان يقف محرضا، بجانبه كان يقف يوسف الرُّوجُ الذي انسحب مقتربا من سي رابح، سائلا:

- كيف تركتم الأحوال وسط المدينة؟

تنهد سي رابح وأجاب:

- مازال الفرنسيون واليهود يثيرون استفزازنا، بشعاراتهم وتصريحاتهم ومظاهر احتفالاتهم، ومازال الجزائريون يتجمعون في كل مكان مستائين.

أمسك يوسف الرُّوجُ بيد سي رابح وقال:

- سأنتقل ياعمي رابح إلى وسط المدينة، لابد أن أطوف بالأحياء العربية، هذه فرصتنا لشحذ الهمم، وصلتنا تعليمات سرية بذلك.

- سأنتقل معك.

قالها سي رابح فحرك يوسف الرُّوجُ إصبعه بالنفي قائلا:

- سأخذ معي العربي المُوسْتَأَشُ فقط، يجب أن تبقى هنا، لابد أن نسرع بتدشين المسجد ليكون منبرا لنا جميعا، يجمع كلمتنا وينشر وعي الاستقلال في النفوس ويفضح حقيقة الاستعمار.

سحب يوسف الرُّوجُ العربي المُوسْتَأَشُ من ذراعه وراحا بيتعدان، وبقي سي رابح يتأملهما من بعيد بفرح غامر، وفجأه خليفة محييا، رد سي رابح التحية، واستمر يلزم الصمت أيضا، نظر فيه خليفة عن جنب مرارا، ثم مزق ستار الصمت قائلا:

- لقد تغير كل شيء، أنا مصاب بالدهشة، المدن تكتنز وعيا كبيرا.

تلفت سي رابح إليه وقال، ومخايل ابتسامة قد أشرقت على محياه:

- صدقت وهذا الوعي يجب أن ينتقل أيضا إلى القرى، إلى الأصقاع، إلى كل شبر من أرضنا الحبيبة، وسنتنصر سنتنصر.

رد خليفة بحماس:

- نعم سنتنصر سنتنصر، هذا ما رده أبي منذ عقود، وهذا ما مات دونه، ومات دون الأحرار قبلنا.

علق سي رابح مؤكدا:

- صدقت ثورة هذا الشعب يا خليفة لم تتوقف لحظة، منذ سقوط

سيدي فرج، مرورا بالأمر عبد القادر إلى أحمد باي إلى لآلاً نسومر إلى الشيخ الحداد والمقراني إلى بوعمامة، إلى انتفاضة الأوراس.

وأصيب خليفة بالدهشة وهو يسمع كل هذه الأسماء لقادة ثورات لم يسمع عنها في حياته، ماعدا انتفاضة عين توتة أو الأوراس التي تطوع فيها أخوه ولم يرجع، كما لم يرجع منها سي سليمان ولد البغدادى ولا سي محمود ولد بلخير، ومعهم مجموعة من شبان العروش المجاورة لعرش أولاد سيدي علي، بعد أن فروا من التجنيد الإجباري في الحرب ضد ألمانيا.

وتذكر خليفة موقف الاندماجيين والنواب فأصيب بخيبة أمل، وبدا الأمل على وجهه، وقال:

- سيفسد النواب والاندماجيون علينا كل شيء، وأخشى أن يجروا الشعب المجروح إلى حيث يريدون.

ضحك سي رابح باستهزاء وقال:

- أولئك كالغصن الذي قطع من الشجرة، مصيره أن يجف ويموت.
ومن بعيد أقبلت سلافه الرومية برفقة حمامه وتركية في ملاءاتهن السوداء، علق سي رابح:

- هل رأيت؟ حتى النسوة، لقد حولن الحمام إلى منبر للتوعية.

- وظللت أتساءل، إلى أين ذهبت سلافة؟ هيا عشاؤكم اليوم عندي، سنأخذ أمقران ويوسف الرُّوجُ ونباغت النسوة، فنأكل ما أعددنه لأنفسهن.

حين اجتمعوا على العشاء ألح يوسف على خليفة والعربي إعادة ملحمة مقتل القايد عباس وحميده، كأنما يعن في التشفي، ولم يجدا بدا من إعادة التمثيلية بشكل هزلي، أغرق يوسف والجميع في أمواج القهقهات، حد البكاء.

واستغلت سلافه الرومية الفرصة وقد أكمل الجميع عشاءهم، ترجو سي رابح أن يقنع ابنها بالزواج، لم يعلق يوسف الروح، وراح الجميع ينتظرون رد سي رابح الذي جاء سريعا:

- ومن يتهرب من الخير؟ إن شاء زوجته الليلة ليس بامرأة واحدة بل بامراتين أو ثلاثا.

ضحك الجميع وتطلعوا ينتظرون رد يوسف الروح الذي قال:
-أقدر اهتمامكم، وأقدر حرص والدتي، لكنني على يقين أن الزواج سيصرفني عن النضال من أجل الوطن.

لم يوافق الجميع فيما ذهب إليه، وراح سي رابح يؤكد أن على الجزائريين جميعا أن يكثروا من الزوجات لتضاعف أعدادهم فيواجهوا التواجد الفرنسي بأرضهم.

في هذا الوقت كان خلاف التيقر قد وصل تحت جناح الليل البهيم إلى الزاوية، وما كاد الخدم يرونه حتى هرعوا يخبرون الشيخ فنشط لاستقباله، وإن هي إلا لحظات حتى حضر العشاء، وظل الشيخ ينتظر بفارغ الصبر أن يكف خلاف التيقر عن الأكل الذي استمر أكثر مما هو معتاد، كان الشيخ في شوق لأن يسمع أخبارا تسره، مد خلاف يده إلى الماء فعب من الجرة التي وضعت أمامه، لكن الشيخ جذبها منه ودعا إلى شرب اللبن فهو أفيد للصحة، وضع خلاف الجرة وتجشأ بقوة حتى سمع خارج الحجر، سأل الشيخ في ريبة:

- سرتنا زيارتك، فما تحمل إلينا يا وجه الخير؟

مسح خلاف التيقر فمه بكفه وقال:

- لاشيء يا شيخ، الأمر أصعب مما تصورت، والرجال يطلبون مالا.

تململ الشيخ عمار في مكانه وقال:

- أقدر صعوبة المهمة، أنت تعرف أنني وحدي أتحمّل كل شيء، ذلك

الغبي كأبيه لا يحسن إلا أن ينصب نفسه زعيماً.
- صدقت، قد لاحظت عليه ذلك.

قالها خلاف التيقر بجنث وراح يتابع رد فعل الشيخ الذي لم يتأخر:
- ماذا لو شطبنا على طلباته؟ وكيفيك أن تخطف سلافه الرومية
وليذهب البقية إلى الجحيم.

أحس خلاف أنه حقق شطر هدفه فقال:

- هذا عين الصواب ياشيخ.

اتفقنا إذن؟ ذاك الأحق يريد أن تخطف له المدينة برمتها.

تجشأ خلاف التيقر مرة ثانية وقال:

- لكنني أحتاج إلى مصاريف.

تملأ الشيخ مبدياً امتعاضاً، وتدافعت الكلمات بين شذقيه تأبى أن
تخرج، أحس خلاف التيقر بالأمر فقال:

- وحق رأسك الغالي ياشيخ، ورؤوس أجدادك الطيبين الطاهرين،
ماهذا بطلي، ولكنه طلب الرجال.

وقام الشيخ إلى صندوق صغير، فتحه بهدوء واستل من بطنه أوراقاً
نقدية سلمها له، دسها خلاف التيقر في جيبه، وخرج وقد بدا البشر عليه،
عند الباب قل الشيخ:

- أليس من اللائق أن تبيت عندنا؟

- دام خيرك ياشيخ.

قالها بسرعة واندفع عجلاً يغادر الزاوية، وبقي الشيخ جامداً في مكانه
يتابع شبح خلاف التيقر بيتعد، وفي نفسه حلم استرجاع سلافه الرومية
التي ظل يحلم أن تلين له فيطأها.

** ** * * *

صلى الناس في مسجد الخطة الجديد بعد حفل تدشينه، كان الإبراهيمي خطيبه الأول، واستمع إليه الناس الذين اكتظت بهم الجنبات بشغف كبير، تحدث عن أهمية العلم في رقي الشعوب وخروجها من الظلمات، وذكر بتاريخ الجزائر الحافل بالأجداد والمقاومات ضد الظلم والمستدمرين، ودعا سلطات الاستعمار إلى رفع اليد عن المساجد والمدارس والأوقاف، حتى يعيد الشعب مكانة لغته ودينه وثقافته إلى الوجود.

وخرج الناس مغتبطين بهذا الإنجاز الكبير، وهذه الكلمات التي حركت في نفوسهم النخوة والحمية، لا بد من تكاتف الجهود لتمزيق حجب الجهل والتخلف، العلم هو السبيل الوحيد لتحرر الأمم وتقدمها وازدهارها.

بعد الصلاة أحاط الناس بالضيوف، تعطش كبير لمعرفة كل شيء، سأل أحدهم الشيخ ابن باديس:

- أليس من الأجدي أن ندوب في فرنسا؟ ليس لنا مستقبل دونها.

نظر الشيخ فيه بسخرية وقال:

- هذا الكلام قاله أمثالكم حين كنا تحت الاستعمار الروماني، لكن إرادة المقاومة انتصرت، نحن لسنا فرنسا ولا يمكن أن نكون فرنسا ولو أراد بعضكم.

سأل يوسف الرُّوج متحمسا:

- جوزيت شيخنا، ولكن في دعوتكم ملايين ومداهنة للاستعمار.

أمسك الشيخ بذراعي يوسف الرُّوج ورفع فيه بصره وقال:

- تستطيع الظروف تكييفنا، ولكنها لا تستطيع إتلافنا.

وسحب بعضهم الشيخ والضيوف إلى مأدبة أقاموها على شرفهم،

فتفرق الجميع.

مساء كان الموعد في الحمام، في حجرة صغيرة بالطابق الأول، تتوسطها طاولة تحيط بها ثمانية كراس، تفتح في جدارها الشمالي نافذة صغيرة، كثيرا ما استعملت أساسا لمراقبة الحركة في الشارع، وفي قلب جدارها الأكبر ثبت سي رابح صورة كبيرة للأمير عبدالقادر.

وصل يوسف الروج وكان سي رابح ما يزال يتأمل اللوحة، لحق بهما العربي المُوسْتَأَسُّ وأمقران، قال سي رابح:

- هذه صورة الأمير، سيد المقاومة الجزائرية، ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، سنعقد اجتماعاتنا كلها تحت سمعه وبصره ليباركها. في الاجتماع قدم يوسف الروجُ تقريرا مشؤوما عن الأوضاع في البلاد، خاصة بعد احتفالات فرنسا بمرور مئة سنة على احتلالها الجزائر، ختمه بقوله:

- يا إخواني، أوضاع شعبنا ووطننا لا تبشر بالخير، وفرنسا المتجبرة ماضية في طغيانها، لقد صرخ الكاردينال لافيغري (Cardinal lavigerie) في هذا الاحتفال قائلا: "إن عهد الهلال في الجزائر قد ولى وإلى الأبد"، ورغم ذلك فهناك من أبناء هذا الوطن من يتسول من فرنسا دجنا فيها ومنحنا الجنسية الفرنسية، ومن هؤلاء ابن جلول من قسنطينة، وفرحات عباس من جيجل، وابن التوهامي من مستغانم، وغيرهم.

قاطعهم أمقران قائلا بغضب:

- لاقيمة لهم، هؤلاء بني وي وي سيرميهم التاريخ في المزبلة، ولذ...

قاطعهم يوسف الروجُ قائلا:

- وهم يتهمون كل من يحمل هذا الفكر بالتطرف والتعصب.

أمسك سي رابح بذراع أمقران كأنما يمنعه من الرد وقال:

- إذا كان التعصب يعني حب ديني وجنسي وبلادي فإنني من أشد

المتعصبين.

- تدخل العربي المُوسْتَأَشُ بعد طول سكوت فالتفت إليه الجميع:
- بارك الله فيكم، لكن ما الحل، كيف يمكن أن نتحرك، وماذا نفعل؟
فرقع يوسف الرُّوجُ أصابعه، وقال:
- ننتظر التعليمات، لاشك أن القيادة لن تبقى مكتوفة الأيدي.
قاطعته سي رابح:
- وهذا لا يمنع أبدا من أن نعمل على توعية الناس وإعدادهم،
الجميع في الأسواق والطرقات والمقاهي والمساجد، بل وحتى المخامر، لا بد
أن نزرع في نفوس الناس الرفض والتمرد.
- أعتقد أن الوعي قد تحقق في الجميع، هل لاحظتم الحضور اليوم في
الجامع، حتى علال القهوجي، وحتى بشير النادل.
ضحك أمقران وقال:
- والغالب أن زجاجات الخمر في جيبيهما.
- تكفي طهارة القلوب.
- وسكت فجأة، وقد تناهت إلى الأسماع أصوات أقدام تقترب، فتطلعوا
جميعا إلى الباب، وقد لزموا الصمت وفي عيونهم حيرة، واندفعوا
يضحكون وقد أطل عليهم سي الهادي:
- أعرف أنني جمدت الدم في عروقكم.
- ظنناك خائنا أو فرنسيا.
- قالها العربي المُوسْتَأَشُ وضحك فضحكوا، قال:
- وهل يغفل سي رابح؟ لقد زرع العيون في كل مكان.
وجلس سي الهادي وهو يقول:
- وصلني نبأ تحرك ابن باديس والابراهيمى وغيرهم لتأسيس جمعية
إصلاحية، هدفها المطالبة باستقلال المساجد واستقلال التعليم العربي.

قال يوسف الرُّوجُ بغضب:

- كنا ننتظر دعوة قوية للاستقلال التام عن فرنسا، فإذا بهم يدعون لتأسيس جمعية إصلاحية، تخضع الجبل فولد فأرا.

رد سي رابح بهدوء:

- أنت لا تثق في العلماء؟ الاستقلال لا يطالب به جهلة يا يوسف.

هدأت ملامح يوسف الرُّوجُ وقال:

- ياعمي رابح أنت لا تعرف علماء نادي الترقى، فيهم الطرقيون ورجال الزوايا وبني وي وي وأولاد القياد، هؤلاء لا ينتظر منهم خيرٌ مطلقا.

وأخرج سي الهادي من جيبه ظرفا سلمه لأمقران قائلًا:

- هذه دعوة يجب أن ترسلها إلى الشيخ الحافظي في بني ورتلان.

دس أمقران الدعوة في جيبه وقال:

- الشيخ الحافظي عالم كبير، وإذا سار معهم فسأكون معهم أيضا.
علق العربي المُوسْتَأَشُّ مازحا:

- من حقك، حتى أنت من العلماء.

وانفجروا ضاحكين، ثم راحوا يتسللون الواحد بعد الآخر خارجين.

عند الباب انفرد سي رابح بالعربي المُوسْتَأَشُّ وقال:

- يجب أن نكسب خليفة إلى صفوفنا، عنده حماس فياض.

صمت العربي المُوسْتَأَشُّ لحظات كأنما لم يجد منفذا للكلام ثم قال:

- لقد فاتحتة في الأمر، خليفة متحمس أكثر من اللازم، تصور ماذا قال

لي: حين تحتاجوني للقتل اطلبوني، أنا لا أحسن الكلام كثيرا.

علق سي رابح مبتسما:

- والله معه الحق، ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

وانطلقا عائدين إلى البيت.

دخل العربي المستاش بيته، تلقاه الصغير، احتضنه مداعبا، لاحظ صمت حمامه على غير عاداتها، ولاحظ حزنا قائما يكفن ملاحظها، كف عن مداعبة الصغير ولحق بها، وقفت باتجاه الخزانة، وقف خلفها وطوقها بذراعيه قائلا:

- ما يغضب حمامتي الغالية؟

وأطرقت حمامه تلزم صمما حزينا، دون أن تخلص نفسها من طوقه، كانت تسعد بذلك، بل تريده أن يضغط عليها أكثر، أعاد السؤال وقد لفحت بشرة جيدها أنفاسه الحارة:

- هل لي أن أعرف ما يزعج حمامتي؟

مدت يديها إلى ذراعيه تفكهما وقالت:

- لم تعد تبالي بنا.

رد العربي المستاش مداعبا دون أن يفك ذراعيه:

- تملكيني حب امرأة أخرى.

ردت بغضب رافعة صوتها:

- لا أخالك تمزح، أجل في حياتك امرأة أخرى.

واهتز العربي المستاش من أعماقه، وغشيه خدر، وراح يطرح على نفسه أسئلة سريعة: هل علمت بعلاقته مع سوزان؟ وكيف علمت؟ وسريعا أبعد الشكوك عن خياله وقال:

- وما المانع يا حمامتي؟ أحل الله لنا أربعا من النساء.

قالت حمامه وقد تخلصت منه:

- ولكنك تزوجت مشاكل لا تعيننا، فررنا من العرش لنعيش حينا، فإذا بك تغرق في هموم لا نهاية لها.

تنفس العربي المستاش الصعداء، تقدم منها طوقها بذراعيه، داعبت أصابعه ضفيرتها، ضغطها إلى صدره، وقال:

- لا يجوز التخلي عن الوطن حين يحتاج إلينا.
وتركها فأسرعت تعد العشاء، وجلس هو على حصير الحلفاء يطرح
صغيره على ظهره يداعب عضوه التناسلي مرددا بغنة:

- بشارة.. بشارتي، بشارة.. بشارتي.

وماكاد حتى عاد يعتدل في جلسته وراح يشرح بنبرة العارف لحمامه
وضع الجزائر وواجب الجزائريين نحو وطنهم الذي يحملون به حرا،
واستغرقت حمامه في صمتها تلتقط كل ما يقوله، وتحس بالفخر وقد
تغيرت أحلام زوجها واهتمامته وطموحه.

*** **

13

غادر العربي المُوسْتَأْشُ دكانه الصغير الذي فتحه بجوار دكاكين حبيم
اليهودي لبيع الملابس القديمة ساعة بعد فتحه، وهو يلاحظ نفاذ سلعته،
مخلفا عيوبه وقد استوى أمام باب المحل على كرسي خشبي طويل، ماكاد
يصل مقهى العرب حتى أصيب بالدهشة، أكثر الناس يحملون جرائد
وكتبا بالعربية وينكبون على قراءتها، حتى علال القهواجي ونادله بشير
اللذان لا يحسنان حتى كتابة الواو الأعور، ما الذي حل بالمدينة؟ أغلب
الناس أميون لا يقرأون ولا يكتبون، على طول الشارع المؤدي للحمام،
أمام الدكاكين والبيوت كان الناس يفعلون ذلك، ما الذي وقع دون أن
يدري؟ وصل الحمام، كان سي رابح ويوسف الرُّوجُ يقرآن أيضا، سلم، رد
يوسف الرُّوجُ التحية دون أن يتوقف عن القراءة، سأل بهدوء:

- عمي رابح ما الذي وقع؟

رفع فيه سي رابح عينيه دون أن يرد، واستمر في القراءة، وجه السؤال
إلى يوسف الرُّوجُ بغلظة:

- الراج أرجوك ما الذي وقع؟ الجميع يقرأ، ما الذي حل بالناس، ما الذي حل بالمدينة؟

طوى يوسف الرُّوحُ الجريدة وقال:

- يا رجل ألم نتفق على أن نمارس القراءة بالعربية جهارا في هذا اليوم...

قاطعته العربي المُوسْتَأَشُ مواصلا:

- إغاظة للفرنسيين، علي اللعنة نسيت.

واندفع يدخل الحمام، فأوقفه سي رابح:

- إلى أين؟

- إلى الحمام لآتي بجريدة.

أخرج سي رابح من تحت برنسه حزمة من الجرائد وسلمها إليه، قلبها فاختار واحدة وأرجع إليه البقية، فتحها عن آخرها وانطلق مرددا:

- سأذرع شوارع الفرنسيين واليهود، وأقرأها جهرا وعلانية.

كان ذلك اليوم مشهودا، حين اتفق الجميع على قراءة الصحف والكتب بالعربية، علانية أمام الفرنسيين في الشوارع والقطارات والحافلات والمؤسسات تأكيدا على الانتماء، ورفضاً لهيمنة فرنسا ولغتها، مما أثار دهشة المستعمرين حتى أن ماران صاح في زملائه: "بقاؤنا هنا مسألة وقت لاغير".

لم يبتعد العربي المُوسْتَأَشُ كثيرا حتى أوقفه أحدهم لاهثا، وقال:

- منذ ساعة وأنا أبحث عنك، سوزان في البيت تنتظرك.

سوزان، وارتجف كل الجسد شوقا وحنينا، طوى الجريدة في جيبه، وقال:

- سوزان.. سوزان.

ولم ينتظر ردا منه، واندفع مهرولا، دخل الحديقة، ثم البيت، وجدها واقفة تنتظره، كانت أنيقة، شاحبة اللون، كشجرة ربيع فقدت أزهارها

فجأة، تسمر أمامها مضطربا كالمذنب، وقد طأطأ رأسه:

- الحمد لله على عودتك أميرتي.

تبسمت وقالت:

- ولكني لست وحدي.

وتطلع يبحث عن غيرها، ومدت سوزان رأسها إلى السرير، فاندفع
يبعد الغطاء ويرى صبية تخلد للنوم، طبع على خدها قبلة ورفعها بين يديه،

قائلا:

- الله ما أحلاها! ما أحلى سوزان الصغيرة!

قالت سوزان وهي تنظر إليها:

- سأتركها أمانة عندك، حتى أعود، سأستل قلبك إن أهملتها.

نظر إليها وقد ترققت عيناه وقال:

- ابنتي تتركينها أمانة عندي؟ إنها ابنتي.

- وهي ابنتي أيضا.

رد وهو يعانقها:

- وذاك دافعي القوي للاعتناء بها، دونها روحي وكل ما أملك.

قبل الصغيرة ثانية وقال:

- سأسميها حورية.

سكت لحظات ينتظر ردها لكنها لم تعلق، واصل:

- لا أريدك أن تبتعدي عنا.

- سفري ضروري الآن، ارحل، هيا ارحل قبل أن يتفطن إليك أحد.

عانقها بجرارة، قبلها بجنون، قبلت ابنتها لآخر مرة، واندفع خارجا بها،

ناظرا خلفه يخزن من ملامح سوزان في ذاكرته، سمعها وهو يبتعد، توصيه

باكية:

- إنها أمانة في عنقك.

ماكاد بيتعد أمتارا عن البيت حتى شاهد فرانكو يعود مع صديقه ماران، وقد تملكه الغضب، ردد العربي المُوسْتَأَشُ في سره:

- اللهم حفظك، لقد عاد الخنزير.

بعد دقائق كان العربي المُوسْتَأَشُ يقف أمام بيته يعد نفسه لدخوله، مترددا خائفا، يكرر ابتلاع ريقه، ويمسح براحة يمينه على فمه، دخل البيت مفتعلا فرحا مندهشا، وماكادت حمامه تراه حتى أسرعته إليه تسأله مادة يدها نحو ما يحمل:

- ما هذا؟

رد وهو يضغطها إلى صدره كأنما يخاف عليهما:

- لقد رزقنا الله بنتا ياحمامه، بنتا، نعم بنتا.

وتملك حمامه العجب والدهشة وهي تمد يدها فتحمل الصغيرة، والعربي المُوسْتَأَشُ يقلب عينيه فيها داعيا في سره بالستر.

- ما قصة هذه الحلوة؟

وتلثم العربي المُوسْتَأَشُ، وهو يطل على الصغيرة.

- حلوة، نعم حلوة كالقمر، اللهم بارك فيها واحفظها.

نقلت فيه حمامه نظرها في تعجب وقالت:

- ما قصة هذه الصغيرة الشقراء؟

جلس العربي المُوسْتَأَشُ على مقعد خشبي صغير، وركز ناظريه على

الأرض مظهرا حزنا وقال:

- وجدتها هذا الصباح مرمية في الشارع، حين حملتها إلى عمي رابع

أستشيره في أمرها نصحني بتربيتها.

بدا التعجب على وجه حمامه وقالت باستغراب:

- تربيتها؟

رد باضطراب:

- نعم نربيها، قال لي عمي رابح سيعطينا الله أجرا عظيما، وذكر لي أن أقرب الناس في الجنة للرسول كافل اليتيم.

جلست على الأرض قريبا منه والصغيرة في حضنها وقالت:
- لعلها لقيطة.

- لالا أبدا، لها أم وأب، أقصد يستحيل أن تكون لقيطة، تعرفين أن المجاعة تعصف هذه الأيام بالناس، لم يجدوا ما يأكلون، صاروا يتخلصون من أبنائهم.

وأبعد الغطاء عن وجهها وقال:

- انظري إنها حلوة، بمجرد أن رأيتها دخلت قلبي، لقد أحببتها وأرجو أن تحبها.

قبلتها حمامه، فتنفس الصعداء واستمر يدعو الله في سره أن تتقبلها، نظرت فيه حمامه مبتسمة وقالت:

- سأربيها شرط أن نزوجها لابننا بلخير.

- لالا، إنها أخته استغفر الله.

قالها مضطربا متذبذبا، سألت حمامه وقد حام الشك في قلبها:

- أخته، أخته...؟

رد وقد حاول التحكم في اضطرابه.

- نعم ستصير أخته ستترى معه، سيكبران معا في رعايتك ورعايتي.

ارتفع بكاء الطفلة، فانصرفت حمامه تسكتها، وخرج العربي المُوسْتَأْسُ يبحث عن سي رابح لابد أن يخبره بهذه المشكلة، لابد أن لا تتناقض أقوالهما أمام حمامه التي بقيت جالسة مناغية الصغيرة، مقلبة كلام زوجها في نفسها بين الرفض والقبول.

قريبا من البيت كانت شاحنة، تتقدم ببطء شديد، لفت انتباهه صوت يعرفه يرتفع منها مناديا عارضا سلعته من الخضر والفواكه، إنه صوت

خلاف التَّيْقَرِّ، أسرع يطل عليها، كان خلاف يجلس في عربتها بين أكوام الخضر والفواكه، يرفع صوته عاليا مرة، ملبيا طلبات الزبائن مرات أخرى، توقفت الشاحنة لحظات أمام البيت، ثم انحدرت مبتعدة، تابعها العربي المستأش بعينيه، وقال في سره: إنه يستفزي، هل يخطط لشيء ما؟ ثم عاد من جديد إلى البيت، تأمل التحصينات التي أضافها على الجدران والأبواب، وراح ينبه حمامه التي راحت تضغط إليها بلخير وتحمل حورية في حضنها، حمل عصاه التي ظلت معلقة على الجدار مذ جاءت معه من عرشه ذات سنة وهو يفر بوجهه مع حمامه، وخرج إلى الحمام باحثا عن سي رابح ليخبره بأمر الصغيرة.

*** ** ** ** **

14

حين أخبر العربي المُوسْتَأَشُ سي رابح بأمر الصغيرة، أشار عليه أن يسجلها على أنها ابنة حمامه دون أن تشعر، ولم يعترض العربي المستأش، بل أسرع في الصباح الباكر يفعل ما أشار به سي رابح، وهكذا سيضمن حماية ابنته الصغيرة، ويمنع وقوع زواج بينها وبين أخيها إن خطفه الموت فجأة دون أن تعرف حمامه الحقيقة.

وكان القلق باديا على ملامح العربي المستأش، سأل سي رابح:
- هل أنت خائف من افتضاح الأمر؟ لا تخف.
لم يرد العربي المُوسْتَأَشُ وبقي سارحا، سأل سي رابح:
- ما يقلقك؟
توقف العربي المُوسْتَأَشُ صامتا لحظات ثم قال:
- فهمت من سوزان أنها ستغادر إلى أوروبا، عندها مهام هناك يجب أن تقوم بها، ربما ستزور أمها في فرنسا ثم تسافر لألمانيا.

- رافقتها السلامة، هل في ذلك ما يقلقك؟
- أخشى أنها لم تذهب، شاهدت فرانكو يعود إلى البيت غاضبا، ربما.
ربما.

قاطعته سي رابح:

- ربما قتلها؟ لا تخش، هي أذكى منه، يظهر أنه عنيف، لكنه غي.
وسكت داعيا العربي المستأش للسير معه باتجاه محل أمقران، واندفع
إلى جانبه دون أن يعترض أو يعلق، قال سي رابح:
- لا بد من الاجتماع بيوسف الروج لتقييم الأوضاع.
واستمر العربي المُستأش يسير إلى يمينه لازما الصمت، يشغله أمر
الصغيرة، وأمر سوزان.

في المحل وجدا أمقران ويوسف الروج يعملان على تركيب حدوة
لحصان أبيض، بدا البشر على سي رابح وقال، موجها الحديث ليوسف
الروج:

- وأخيرا وجدت عملا مناسباً، قوة عضلاتك لا تصلح إلا للحدادة.

ضحك يوسف الروج وقال:

- إنني أتدرب على ترويض الأحصنة لأروض جنود فرنسا.

علق العربي المستأش:

- رأيت يا عمي رابح؟ لقد صار يوسف الروج ينطق بالحكمة.

حرك سي رابح رأسه موافقا، وهو يردد في نفسه: صدقت يا يوسف

علينا جميعا أن نستعد لذلك.

استمر يوسف الروج منهمكا في عمله، وراح أمقران يجلس قريبا منهما

لباس عمله، رفع العربي المستأش عينيه في الشارع وقال:

- إنه سي الهادي لقد عاد من العاصمة.

واشربت إليه الأعناق، قام سي الهادي وبقي واقفا حيث هو يضع يمينه

على كتف أمقران، كأنما يتعجل وصول سي الهادي الذي ماكاد يسلم حتى راح أمقران يترك له مكانه للجلوس، وراح سي رابح يسأل وفي عينيه لهفة إلى معرفة الأخبار.

- عدت بسرعة، أية بشرى تحملها إلينا؟

فاندفع سي الهادي يقول:

- الحمد لله لقد أعلن أمس الخامس من شهر ماي بنادي الترقى بالعاصمة عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد أسندت الرئاسة لعبد الحميد بن باديس، واختير الإبراهيمي نائبا له.

علق يوسف الرُّوجُ مقاطعا وقد أكمل عمله:

- أنا شخصا كرهت مثل هذه الجمعيات، مع تقديري الكبير لعلمائنا، النضال ياإخواني يحتاج إلى تضحية، والاستعمار لايفهم إلا لغة القوة.

ظهر الاستياء على سي الهادي من مقاطعة يوسف الرُّوجُ، فقال متوجها بنظره لسي رابح:

- لاشيء يقتل مسيرتنا يا عمي رابح أكثر من التهور.

أمسك سي رابح بيدي يوسف الرُّوجُ وسي الهادي، وقال:

- أنتما ونحن جميعا، كأغصان شجرة واحدة مهما تشعبنا نرجع لأصل واحد، ونسعى لإنتاج ثمرة واحدة.

غشي الرضى قلوب الجميع وهم يستمعون لهذا التشبيه الجميل، قال يوسف الروج وهو يعيد مسح يديه جيدا:

- صدقت عمي رابح، أنت حكيم فعلا، لكن هل تعتقد أن الاندماجيين من أمثال فرحات عباس وابن جُلُول وسعدان فروع من هذه الشجرة أيضا؟

- نعم هم من هذه الشجرة.

قاطعہ أمقران مشیرا بیدیہ:

- سنقطع هذه الأغصان اليابسة.

ضحك الجميع مؤبدين، رد سي رابح:

- إذا كانت يابسة كما قلت ستسقط من تلقاء ذاتها، الطبيعة ترفض

الميت.

قال سي الهادي مغيرا مجرى الحديث:

- لكن الناس يتداولون أفكار فيوليت، أو ما سمي مشروع فيوليت

(Maurice viollette).

نظر إليه الجميع مستفهمين، قال العربي الموستاشُ ساخرا:

- ومن هذا اللعين موريس فيوليت؟

قال يوسف الرُّوحُ:

- أحد كلاب المستعمر، ولماذا تسأل عن حقيقته؟ المهم مامشروعہ.

واصل سي الهادي وهو يقرأ من صحيفة فرنسية أخرجها لتوه من جيبه:

- فيوليت هو أحد الغيورين على فرنسا، لقد صرخ في قومه

الفرنسيين: إن استمرار ظلم الفرنسيين في الجزائر سيقضي على مستقبل

الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، ولذلك...

قاطعہ سي رابح:

- وأخيرا بدأوا يعترفون أنهم ظلمة.

علق أمقران:

- فليردوا الحقوق وليخرجوا من أرضنا.

رفع سي الهادي عينيه في الجميع كأنما يطلب منهم الاستماع دون

مقاطعة وواصل:

- هو يقدم إصلاحات للبقاء في أرضنا، ومن ذلك إلغاء المحاكم الخاصة

بالجزائريين، وتأمين نفس حقوق وواجبات الفرنسيين لبعض الجزائريين.

سأل العربي المستاش:

- وماذا يقصد ببعض الجزائريين؟

أجاب سي رابح سريعا:

- النخبة والنواب والقياد، أي أتباع فرنسا، والموالون لها، من الذين استطاعت أن تدجنهم.

انصرف سي الهادي وسي رابح مودعين، وجلس أمقران بجانب العربي المستاش بعد أن ودعهما يدس الشمة تحت شفته، وعاد يوسف الروح إلى عمله، قال أمقران:

- مارأيك يا العربي في هذه الجمعيات؟ وفي مشروع فيوليت؟

إلى آخر الشارع راح العربي المستاش يمد نظره، وقد شاهد صالح القاوري ينحدر باتجاههم، قال وقد أشرق وجهه:

- أريأت إنه صالح القاوري أرجو أن تعيني عليه.

رد أمقران وهو ينفث ما التصق بشفتيه، ثم مسحهما بظاهر يده:

- دعك من النجاسة.

ولزما الصمت وهو يصل إليهما متأبطا الجريدة دون أن يغادر غليونه

فمه، وماكاد يجيي حتى نظر فيه الجميع وعلق العربي المستاش:

- مثل هذا بالضبط يا أخي أمقران، هنيئا لك ستصير فرنسا كمن

سبقك من اليهود.

وفهم صالح القَاوْرِي سريعا أنه يقصد مشروع فيوليت، قال بتعال:

- قلت لكم ألف مرة، إن الاستقلال عن فرنسا مستحيل، بل هو

جريمة لأنه هروب من نور الحضارة إلى ظلام المهمجية.

ضحك العربي المُوسْتَأَشُ وقال:

- إذن هنيئا لك نور الحضارة.

رد صالح القَاوْرِي سريعا، وهو يمص من غليونه وينفث دخانه عاليا:

- نعم هنيئا لكل النخبة من أمثالي، ومعنى هذا أن عدد الجزائريين الفرنسيين في الجزائر سيكون موازيا لعدد المعمرين، وهذا سيسحب صلاحية الحكم من أيديهم، وسوف نععم التعليم على الجميع، ومعنى ذلك أن أبناءكم وأحفادكم سيحصلون أيضا على الجنسية الفرنسية، وهكذا سنتحرر من الاستعمار الفرنسي.

قال أمقران كأنما يمثل دور صالح القَاوِري:

- نعم سنتحرر من الاستعمار الفرنسي لنصير جميعا فرنسيين، لغتنا الفرنسية، ودولتنا فرنسا، وعلمنا ذو الألوان الثلاثة الأزرق والأحمر والأبيض.

وصفقا معا إمعانا في السخرية، واندفاعا يضحكان، أضاف صالح القاوري متممدا إزعاج خصومه خاصة العربي المستاش الذي ظل يركز فيه عينيه، رافعا صوته ليسمع يوسف الروج.

- أنتم مثلا لأنكم حمقى وجهلة، عليكم أن ترضوا بالرتبة الثانية. ودفعه العربي المستاش بعيدا حتى كاد يسقط، وماكاد يتماسك حتى راح يهرول مبتعدا مرددا شامتا:

- ... حمقى جهلة، حمقى جهلة...

وهرول خلفه العربي المستاش، فخنقه بقوة، حتى تهاوى إلى الأرض، وراح يجره إلى الخلل، طالبا مساعدة يوسف الروج الذي حمله بين يده بسهولة، وأدخله الخلل فطرحه فوق طاولة حديدية.

اختطف العربي المستاش منجلا معلقا بالجدار، وراح يفك أزرار سرواله وهو يصيح مستغيثا، قال العربي المستاش:

- سنطلق سراحك إن كنت مَختونا، وإلا سأقطع الآن قُلُفتك أيها الخبيث لتصير كالرجال.

قال يوسف الروج، وهو يشد رجليه وجذعه:

- إنه مختون، دعك من اللعين.
- لا والله إنه ليس مختونا كالرجال، دعني أقص له كل شيء مادام يشبه النساء.

قالها العربي المستاش، ثم اكتفى أن بصق على عضوه التناسلي مرتين وهو يقول:

- تفوه تفوه عليك اللعنة يا شبيه النساء.
وأطلق سراحه، فانتفض كالطائر المرعوب، حمل غليونه وجريدته، واندفع بعيدا يشتمهما، وقد غرقا في الضحك.
ولم يسر إلا خطوات حتى أسرع إليه أمقران يرده إلى الخل، وهو لا يكاد يهدأ يقذف بجمم الشتائم المقذعة، راح يوسف الروج يجلسه ويقبل رأسه محاولا ترضيته:

- يارجل نحن نمزح معك لا غير أنت صديقنا وأخونا.

- ولكنكم همج، همج.

وهذا فوق كرسيه وظهر على وجهه رضى تجاوز به غضبه الشديد، وهي عادة صالح القاوري، سريع الغضب سريع الرضى، وصاح أمقران في العربي المستاش أمرا وهو يقف داخل الخل.
- هات لسيدك قهوة.

تمتم العربي المستاش: سود الله وجهه، وأسرع يصب له قهوة ويقدمها إليه، فوضع صالح القاوري رجلا على أخرى مزهوا بانتصاره عليهم وراح وهو يرشف القهوة، يتحدث عن أمه التي تربت مع الفرنسيين ولا تجيد إلا الفرنسية، ولكنها من أشد الناس محافظة على شعائر الإسلام، وستزور البيت الحرام هذا العام إن شاء الله.

مساء كان العربي المستاش وأمقران في مقهى العرب يجلسان متقابلين على كرسيين قديمين دون طاولة، وهرع إليهما البشير بقهوتين، في انتظار

أن تصلهما الضامة، وماكادا يرشfan حتى وقف عندهما علال القهواجي على غير عادته، رفعا إليه رأسيهما، وسأل أمقران:

- خيرا علال؟

وأخرج من جيبه رسالة سلمها للعربي المستاش، وقال:

- وصلتك هذا اليوم.

- لم يسأل العربي المستاش عن مصدرها، ولكنه وضع الفنجان على الأرض وراح يفض غلافها، وراح أمقران يتابع ما كتب عليها.

سأل العربي المستاش:

- من تعتقد أنه أرسلها إلي؟ لم تأتي رسالة في حياتي مطلقا.

رد أمقران مداعبا دون أن يحول عينيه عن الرسالة:

- أنت الآن رجل مهم، ولا بد أن يصلك ما يدل على ذلك.

تاهت عينا العربي المستاش في أسطر الرسالة التي لم يفهم منها شيئا، لقد كانت بلغة فرنسية، فقال:

- إنها مكتوبة بلغة اليهود، خذ أقرأها.

تسلمها أمقران بشماله دون أن يغادر فنجانه يمينه وراح يتصفحها

لحظات ثم قال:

- إيه يا العربي إنها رسالة حب.

جحظت عينا العربي المستاش وقال مبتسما:

- ما هذا الحب الذي راح يتساقط علي كالتمر على مريم العذراء؟

ومد أصابعه إلى طرف الرسالة يتأملها كأنما يستنطقها، لكن أمقران

صدمه وهو يقول:

- للأسف، إنها رسالة تهديد لك.

وتغيرت ملامح العربي المستاش، فوضع الفنجان مرة ثانية بعد أن

حمله وغرز عينيه في الرسالة:

- ماذا تقول، تهديد؟ من يهددني؟ ولماذا؟
قال أمقران، وهو يرشف بقلق من فنجانه:
- اسمع أقرأ لك.
وراح يقرأ:
- لقد خطفنا الصغير ثم أعدناه إشفافا عليه لأن في قلوبنا رحمة، هذه
المرّة سنخطف حمامه، بل نخطفك معها أيضا، عليك أن تكف عن حماقاتك.
وسكت أمقران، فعلق العربي المستاش:
- حماقاتي؟ ماذا يقصدون؟
- لست أدري.
رد أمقران ممططا شفّتيه، فقال العربي وقد غشي القلق محياه.
- هل تراهم يقصدون علاقتي بسوزان؟ أم...
قال أمقران مقاطعا:
- ربما، وربما يقصدون نشاطك ضد فرنسا، أو...
اندفع العربي مقاطعا:
- ألا تعتقد أن صالح الخنزير هو الذي بعثها؟ أو خلاف التيقّر؟ أو...
وتلاعبت بهما أمواج الظنون في كل اتجاه، ثم نهضا، اتجه العربي
الموستاش إلى بيته، تتسابق قدماه في صفع وجه الأرض، وراح أمقران باتجاه
الحمام.

*** **

15

دخل سي رابح محل العربي المستاش لبيع الملابس المستعملة، وجهه
أحسن حالا، لقد استوعب العاصفة التي هبت على قلبه من أعماق
الرسالة المجهولة، لم يدم جلوسهما طويل حتى خرجا مخلفين عيوبة في المحل،

اتجها إلى الحمام، قريبا منه تناهى إلى سمعها صخب وضجيج داخله، أسرع سي رايح يلجه، صدمه شاب يخرج متقيئا، كاد يسقط لولا أن الجدار سنده، جره العربي المُوسْتَأَشُّ بعيدا، ثم أعاده داخل الحمام، وقد تملكته الدهشة إنه هو لقبائلي، أه ياحمو الطيب أين كنت طول هذه الملة، أمر سي رايح الخدام بأخذه داخل الحمام ليغتسل ويغير ثيابه، ماكاد يخرج حتى تحول له سي رايح إلى جلاد يصفعه يمينا حتى إذا ترنح تلقاه بالشمال، صارخا فيه:

- لم تذلل نفسك يا حمو؟ لم تفلس أموالك أيها التعيس؟

وتدخل العربي المُوسْتَأَشُّ ببعده عنه، ويحتفي به، كان لقاؤه بمحمو القبائلي مفاجأة كبيرة، لقد افتقده منذ سنوات، أوصاه آخر مرة التقاه فيها بعرش أولاد سيدي علي بأن يأتيه ببعض أغراض الزينة لحمامه. في الصباح أقيمت لحمو القبائلي محاكمة في محل أمقران، حيث كان يستضيفه من حين لآخر هو وحماره كلما وفد على المدينة للتبضع، سأله أمقران:

- أين غبت كل هذه الملة حتى نسينا ملاحك؟

أطرق حمو القبائلي حزينا، وراح يسرد ظروفه وظروف أسرته الصعبة.

قاطعته سي رايح سائلا وعلى محياه تعاطف معه:

- مالذي دفعك للسكر ياحمو ياوللي، أنت شاب طيب، وخلفت

وراءك عائلة تنتظر إعالتك؟

بقي حمو مطرقا واجما، هو يعرف أنه أخطأ حين سكر، وأخطأ حين

قصد بسكره الحمام، تعود أن يدخل مدينة سطيف كل مساء أحد، ويتبضع

يوم الإثنين، ثم يبدأ رحلته من جديد إلى القرى، دافعا حماره أمامه، ينقل إلى

الأطفال في صندوقه الحلوى، وإلى النساء ماخف من أدوات الزينة، وقد

حظي عند الجميع بكثير من الحب والتقدير، يأكل في أي بيت صادفه فيه

وقت طعام، ويبيت حيثما حل، بل ويقوم بنقل أسرار الناس ورسائلهم

وأخبارهم، وهو على طبيته لا يملك نفسه أمام إغراء الحمرة حين يدخل المدينة، يشربها ويدمنها، حتى ينفق كل ما جمع من مال، متجنباً في كل مرة أن يراه سي رابح الذي يبيت في حماته وأمقران الذي يودع عنده السلعة. ماكادت الشمس تكمل شروقها حتى التقى الجميع مرة ثانية في محل أمقران، الذي كان يجلس إلى جوار سي رابح، نظراً ملياً في أمقران الذي كان يقف صامتا وقال:

- عمك رابح محق فيما فعل وفيما قال ياحمو، تركت أهلك وأسرتك من أجل أن تعمل، أن تتزوج، أتريد أن نخسر تَسْعِدِيْتْ؟
وَكَمَنْ بُعِثَ إِلَى الْحَيَاةِ انْتَفُضَ فِي مَكَانِهِ وَقَالَ:

- كنت أحلم أن تكون زوجتي، لكن يستحيل أن يقبل بي أبوها، أنا فقير، كل الجهد الذي بذلته لم أوفر به شرط الزواج.

أقترب سي رابح منه، جلس بجواره، وضع ذراعه على كتفه وقال:
- لا بأس، لا تحمل هما، لقد تضامن الجميع وجمعوا لك ما يحقق حلمك في الزواج، استعد سنسافر الآن إلى قريتك.
تغيرت ملامح هو حتى أشرقت، ثم قام نشيطاً، قال أمقران وهو يعطيه ورقة نقدية:

- خذ هذه، اشتر بعض الأغراض لأسرتك.
بعد ساعة انطلقت السيارة، كان الطريق إلى بني وَرْتِيْلَانْ صعباً شديداً الالتواء، يمر عبر الجبال والوديان، وكانت مظاهر البؤس والفاقة صارخة في كل مكان، أرض مجدبة، وأنعام جف منها ماء الحياة، وبشر شعث غُبر عراة أو في أسماهم البالية.

قال أمقران بحسرة:

- هل رأيتهم، الجفاف يمتص الحياة في كل مكان؟

رد سي رابح:

- مظاهر الفقر لا تحتمل، المئات من سكان القرى نزحوا إلى المدينة، ونحن لسنا أفضل منهم.

قال يوسف الرُّوحُ وكان يسوق السيارة:

- الحل في الاستقلال، هذا الشعب يجب أن يتحرر، وعليه أن يضحى،

من رغب في حُسن الوشم عليه أن يصبر للدم، لا وشم دون دم.

قال العربي المُوسْتَأَشُ وهو يتأمل مظاهر بائسة لأناس يحدقون ببلاهة

في السيارة:

- وهل تعتقد أن الناس لا يعرفون ذلك ولا يرغبون فيه؟

- وماذا ينتظرون إذن؟

رد يوسف الرُّوحُ بصوت عالٍ وقد بدا عليه الغضب، قال أمقران:

- لقد جرب أجدادهم من قبل ولم ينالوا إلا الحُيِّية والموت والنفي،

فرنسا لا بد لها من زلزال جبار.

وغير العربي المُوسْتَأَشُ دفعة الحديث:

- أرسلت البارحة الطاهر إلى قريتنا ليطلع على أخبار الأهل، مرت

أشهر لم يصلنا عنهم خبر وأخشى أن تكون المجاعة قد أتت عليهم.

ووجد هو القبائلي الفرصة ليتحدث حديث العارف عن تلك القرى

والعروش وعن أبنائها وأسرارها، وفجأ الجميع وهو يعيد عليهم ما طلبه

منه الزيتوني والقايد عباس معاً، وعن المال الكثير الذي أخذه من القايد

عباس دون أن يعود إليه، وأنه لو أراد أن يبيع ذمته لحقق حلمه في الزواج.

بقدر ما كان العربي المُوسْتَأَشُ يتابع الحكاية بشغف، كان خياله يخلق

بعيدا مع الطاهر في رحلته، فعلا كانت المجاعة بعد سنوات الجفاف قد

ضربت البلاد كلها، وفقد الناس أبسط ضروريات الحياة، حتى لجأوا إلى

شرب مياه الوديان الآسنة، وأكل النخالة وجذور بعض النباتات، وصارت

كسرة الشعير عندهم حلم الأسر الميسورة، أما القمح فقد نسي كثير من

الناس طعمه، وراحت أنعامهم تفنى وتزول وقد أزهقها الجوع والمرض.
كانت مثل هذه الأنبياء السيئة تصل مسمع الطاهر وهو في المدينة،
لكنه أبدا لم يكن يتصورها بمثل هذه الفداحة، حين وقف على تل الغربان،
ترأعت له القرية كسراب بقيعة، حتى جدران الطوب والحجارة ذبلت،
حتى قُرَابَة سيدي علي أفلت، حتى تراب الأرض احترق، لو اندلق عليه
البحر لامتصه في لحظات، جال ببصره، لم يصل أنفه إلا رائحة الحرائق، ولم
يصل سمعه إلا أين الأرض، لقد سُئِنَتْ ألسنة كل الطيور، اندفع نازلا
يقلب عينيه في جنبات القرية، حركة بطيئة هنا وهناك، تظهر ثم تختفي
فجأة، لم ير قطعان الأغنام والبهائم وأسراب الدجاج التي كانت تملأ المكان
حياة، وصل البيت، من خلفه ظهر سالم يسوق أمامه همارا ضعيفا يحمل
عليه قربة ماء ملأها لتوه من الحاسي، احتضنه وفي عينيه لوم كأنما يقول له:
لقد فررتم بأنفسكم وتركتمونا لقدرنا المحتوم، بدا سالم مرهقا غائر العينين
باهت اللون، أسرع الطاهر يحط القربة عن ظهر الحمار، علق سالم:

- امتصصتها من ثدي الأرض الجافة امتصاصا.

ظهرت أمامه مجموعة من الصبية وقد غارت عيونهم وانتفخت
بطونهم، جميعهم حفاة، بعضهم يستر جلده بخرقة أو خرقتين، لاحظ ترحيبا
شديدا من الزيتوني كأن ظهور الطاهر أعاد إليه الروح، راح يسأله عن
العربي المُوسْتَأَشْ وخليفة وسلافة الرومية، وعن الأحوال عموما، دس سالم
في يمين الزيتوني أوراقا نقدية وقال:

- هذه أرسلها إليك العربي المُوسْتَأَشْ، والأوضاع لا تبشر بخير، البلاد

مقبلة على فوضى قد تأكل الأخضر واليابس.

ابتسم الزيتوني وقال:

- وهل بقي أخضر أو يابس؟ لقد استولى بارال على كل أراضيها، كل

شبر نستصلحه يبتلعه، خالقا آلاف الأعدار، وقد داهمنا البارحة عدد

ضخم من الجنود، صادروا كل ما نملك، نزعوا حتى البرانس من فوق
أجساد الرجال، الوضع لا يطلق يا الطاهر يا بني، فلتكن الثورة، ولنحرق
ونحرق أعداءنا.

أقبلت العُلجَه بنت المَكِّي، لم تكن تحمل إبريق القهوة كما تعودت،
ولا حتى إناء الماء، وهي التي كان يضرب المثل بكرمها وجودها، في عينيها
سواد، وعلى شفثيها تشققات، كانت تدثر رأسها بِمَحْرَمَتَيْن، وقد فقدت
الكثير من وزنها، سلمت على الطاهر ولم يمنحها فرصة للجلوس، سلم
إليها صرة قائلاً:

- احتاج إلى شرب قهوة.

وأسرعت تخرج حاملة الصرة، وحلم الجميع برائحة القهوة تعطر
أنوفهم، وبطعمها يدغدغ ألسنتهم، كان العربي المُوسْتَأَشُ وخليفة
وسلافة والجميع قد تعاونوا على شراء كثير من الأغراض التي تحتاجها
الأسرة، من حليب وسكر وقهوة وكبريت ودقيق، وأرسلوا بها إلى
الزيتوني، وحين فعلوا كانوا يعلمون أنها ستوزع على البيوت القريبة.

قال الزيتوني وقد اعتدل في جلسته كأنما يستعد لاستقبال القهوة:

- سروله بنت خليفة مريضة، وأخشى أن يقضي الله فيها أمره.

اعتدل الطاهر في جلسته وقال:

- أعتقد أن إرسالها إلى المدينة أحسن، غدا تذهب معي هي وسالم،
يمكن له أن يجد عملاً هناك، ويمكنه أن يعرض سَرَّوْله على الطبيب، هناك
طبيب يهودي ماهر، يسمى قَجْجٌ، وهناك ولي صالح يسمى سيدي الخير، قد
نلتمس منه البركة، وقد تركت الناس يستعدون لإقامة الزردة عند ضريحه
طلباً للغيث.

- قَجْجٌ، فعلاً شهرته معلومة، أما سيدي الخير فهو سيد الأولياء
والصالحين.

رد الزيتوني، وقد اطمأن لهذا الاقتراح، فعلا الأحسن أن يلحق سالم
بأنخيه العربي، ومعه زوجته وأولاده الثلاثة، على الأقل حتى يخفف العبء
عنهم.

وحول نظره إلى الباب والعُلجَه بنت المكيّ تدخل مسرعة بالإبريق
والفناجين، فاندفعوا يشربون القهوة وقد علت الفرحة وجوههم.

فتحت سطيف جفניה صباحا على المئات يعدون أنفسهم للخروج إلى
ضريح الولي الصالح سيدي الخير، هو وحده يملك ببركته القدرة على
إغاثة الناس، إنه حامي المدينة وأهلها، والناس يتناقلون من كراماته ما لا
يتصوره أحد، خرج الناس يحملون رايات مختلفة الألوان، يرددون ابتهالات
وطقوسا، يعزفون على القصبه، ويضربون على الدف، حين تجمعوا هناك
راحوا يذبحون الأنعام، وينصبون القدور لطهو الطعام، سيأكل الجميع أمام
الضريح، وسيولى بالأكل الفقراء الضعفاء، وتحلق الناس في حلقة كبيرة
توسطها دراويش راحوا يرقصون يضربون الأرض بقوة ويتصايحون
مهللين مكبرين، راح بعضهم يلتهم الجمر كما التمر، وراح بعضهم
يقذف من فمه طيبا ونقودا، وتساقط بعضهم مغمى عليه وقد ظهرت
عليه علامات الموت، وتراقص بعضهم فوق جلد الدف دون أن يتمزق،
وأسلم المتبعون أمورهم لما يقع، مؤمنين بولاية هؤلاء الدراويش
وكرامتهم، وفي المساء امتلأت السماء بالسحب ولكنها لم تمطر، قال
أمقران مخاطبا سي رايح دون أن يحول عينيه عن الحشود العائدة مندفعة
تحمل الرايات، وتردد الابتهالات طالبة الغوث:

- هل تعتقد يا عمي رايح أن هناك من لم يخلص النية لسيدي الخير
ولينا الصالح فلم ينزل علينا الغيث؟

قال سي رايح وقد لمس شكاً في كلام أمقران:

- انتقل سيدي الخير عن الفانية منذ قرن تقريبا، فهل تعتقد أن

الأموات يمكن أن يفيدوا الأحياء؟

سكت أمقران، وسكت سي رابح أيضا، وراحا يتابعان حشود الناس
عائلة إلى الأحياء.

*** ** ** **

16

مثل مرض سروله خنجرا مسموما غرسه القدر في كبد خليفة وقلبه،
فانفصل عن كل ماحوله، وراح يقضي معظم وقته قريبا منها، يلي نداءها
إلى كل شيء، وينثر حواليتها عطفه وحنانه، لا يكف عن الابتهاج إلى الله
ليحفظها، مذكرا بما قدمه في حياته، كأنما يستعطف الله، ويرفع عينيه في
أبنائها فلا يقدر سد صبره عن منع انهماج الدموع التي كانت تراها سلافه
الرومية فلا تنبس بكلمة وإنما يركع قلبها أمامها تقديرا ومساندة.

وعادوا بها مرتين إلى ضريح الولي الصالح سيدي الخير، وانتقلوا بها
بين جمع ممن يعتقد فيهم البركة دون جدوى، لم يكن حالها يزداد إلا سوء،
كانت الصفرة تزحف على كل جسدها، وكان المرض كأفعى يمص جسدها
فيزداد نحولا بسرعة شديدة.

وينتهز خليفة الفرصة حين يقوم زوجها سالم على شؤونها فينسل
متلمسا علاجا سحريا عند كل من يعتقد أنه قادر على ذلك، مستمطرا
الدعوات الصالحات أفواه الصغار والمسنين والفقراء ورجال الدين،
ووقف طويلا أمام الكنيسة يهم بدخولها والتماس البركة من القديس
فيها، ولم تطاوعه نفسه في كثير من المرات لكنه تجرأ مرة ودخل يطلب
ذلك.

ورغم أنه لم ينم طول الليل إلا أنه خرج صباحا إلى السوق ليشتري
أعشابا من باعتهها كانت قد وصفت له لعلاجها، وتقاطع وهو يعبر

الشارع الكبير مع صالح القَاوَرِي الذي كان قصد على غير عادته مقهى العرب، اختار طاولة يستطيع من خلالها مراقبة كل حركة في الشارع، طلب قهوة، فتح جريدة بالفرنسية وراح يتصفحها على غير اطمئنان كدُورِي ينقر الحب في الشارع، يرفع رأسه في كل لحظة، وفي كل مرة يحس فيها بعبور شخص ما، يراوح غليونه المنطفئ بين فمه وشماله، لا بد أن يلتقي اليوم أحد المؤيدين لنهج العلماء أو لنهج النجم، لقد جاء أخيرا ما يدحض حججهم، ولمح فجأة وهو يكاد يدس رأسه في الجريدة العربي المُوسْتاشُ يعبر سريعا، وأسرع يمد رقبته من الباب مناديا، وهو يقول:

- هذا أحد الحمقى سأبدأ به.

وماكاد العربي المُوسْتاشُ يسمع صوته حتى لى سريعا، وقد علت وجهه الدهشة، جلس إلى كرسي بجواره محببا، ثم بادر بالسؤال:

- هل ستشرق الشمس اليوم من المغرب؟
لف صالح القَاوَرِي الجريدة، وقد فهم مغزى كلام العربي المُوسْتاشُ، وضع رجلا على رجل وقال:

- لا، ستشرق هذه المرة من بطن الأرض.
سأل العربي المُوسْتاشُ مجد.

- ليس من عادتك أن تجلس في مقهى العرب، يا صالح ألسنت من النخبة؟ درست عند فرنسا، وتعمل معلما للفرنسية، ألم تتعود على الجلوس في مقهى فرنسا بالشارع الرئيسي حيث يجلس الفرنسيون؟

رد صالح القَاوَرِي دون أن يتخلص من استهزائه:
- لا بأس، قررت اليوم أن أتواضع لكم، اشرب قهوة.

ورفع صوته يطلب بشير النادل الذي أسرع ملبيا، قال العربي المُوسْتاشُ:

- هل من جديد؟

طوى الجريدة ودهسها في جيبه وقال:

- أرجو أن أتمهل حتى يلحق الآخرون، على الأقل يوسف الرُّوجُ أو سي الهادي.

سأل العربي المستاش:

- لماذا كل هذا الحرص على جمعنا، هل الموضوع مهم لهذه الدرجة؟
مطط صالح القاوري ساقيه، ونفت دخانا سحبه بعمق من غليونه راح يتابع سحبه ترتفع متشبثة بالسقف الأسود المتهرئ وقال:
- لأثبت لكم أنني رجل، وذكي، ومثقف، أما...

انشغل العربي المستاش برشف قهوته على مهل، يمد نظره إلى المحسب يراقب علال القهواجي ينقر على المحسب بأصابعه الطويلة المعروقة، متمتما بأغنية شعبية يبدو منتشيا على إيقاعها، ورسمه العربي في خياله يجلس في جلسة خمر بين العاهرات، ضاربا على الدف، رافعا عقيرته بالغناء.

وعاد صالح القاوري إلى صحيفته يتابع أحرفها بعينه لا غير، أما ذهنه فكان يستعجل البقية، هؤلاء الهمج الذين أرادوا أن يجرموا الشعب من نور الحضارة ويقودوه على دروب شائكة من التخلف والهمجية.
وانتبه فجأة وهو يلحظ دخول يوسف الرُّوجُ وسي رابح، اللذين أسرعوا للجلوس وقد ظهرت عليهما الدهشة، وأسرع النادل إليهما بقهوتين كالعادة، قال يوسف الروح:

- خيرا صالح القاوري، ماهذا التواضع الكبير؟ ستخرج الدابة اليوم لا محالة.

- بل سيبعث الأنبياء.

وسكت لحظات مفكرا، عدل قبعته الجلدية، أبعث الغليون عن شفثيه وقال:

- أريد أن أحيطكم علما أن عملاقا كبيرا من عمالقة النخبة قد استقر نهائيا في سطيف، وأنه فتح لنفسه صيدلية وسط المدينة في شارع سيلاق (Silague).

أسرع يوسف الرُّوجُ بالسؤال وقد علتة الدهشة:

- لا تقل ابن جُلُول أو سعدان.

لم يول صالح القاوري سؤاله اهتماما وواصل:

- كنت معه البارحة، وأخبرني أنه سيفتح مكتبه في الغد في الشارع الخلفي، شارع الكاردينال لافيجري.

قال سي رايح مقاطعا وهو يعيد فنجان القهوة إلى الطاولة:

- لن يكون إلا فرحات عباس.

رفع صالح القَاوِرِي رأسه مؤيدا وقال:

- صدقت إنه الدكتور فرحات عباس، لقد اختار سطيف، وقرر أن

يستقر بها نهائيا، هو معجب بها وبالحركة التي نشأت فيها.

علق يوسف الرُّوجُ وهو يرشف قهوته عجلا:

- يجب أن نزوره مساء.

كان فرحات عباس قد أنهى دراسة الطب والصيدلية في الجزائر العاصمة، وكان إلى جانب ذلك شابا طموحا مثقفا مطلعاً بشكل عميق على آداب الغرب وثقافته، متأثرا بهما.

مساء التقى الجميع بفرحات في صيدليته، وقد سبقهم ولحق بهم حشد كبير، لقد سبق اسم فرحات عباس ومواقفه من فرنسا، ومواقفه من الحركات الأخرى في الجزائر، سبقت حضوره إلى سطيف التي اختارها من بين كل المدن ليستقر بها.

بدا البشر على ملامح فرحات عباس، لقد كان راضيا عن حفاوة الترحاب التي حظي بها من سكان المدينة، بل وعن معرفتهم به، وتبعمهم

لنشاطاته بالجزائر العاصمة، وتأثر بعضهم بها واعتناقهم لها.
رحب فرحات عباس بالوافدين عليه، وطلب من أحد معاونيه أن يوزع
المشروبات على الحاضرين، وقام صالح القَاوَرِي فألقى كلمة موجزة
بفرنسية راقية مزوجة بكلمات عربية عامية، معرفا بفرحات عباس:
- مدينة سطيف ترحب بشدة بالدكتور فرحات عباس، والدكتور
فرحات عباس غني عن التعريف، لقد كانت سيرته العطرة تصلنا من
بعيد، بمستواه العلمي أولا وبنضاله ثانيا.
هز الجميع رؤوسهم مؤيدين، نقل صالح القَاوَرِي فيهم عينيه وواصل،
وقد اشتد حماسه:

- وفرحات عباس من مؤسسي جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا،
وعمل رفقة الأمير خالد، ومواقفه مشرفة لتحصيل حقوق الجزائريين من
أيدي المعمرين، والمطالبة بالمساواة معهم، لقد تخرج فرحات عباس من
جامعة الجزائر، كلية طب وصيدلة، وأبى إلا أن يفتح صيدلية في هذه
المدينة، ومنها سيخوض نضاله النيابي، إنه كطائر النورس، يحب الحرية،
يجب التحليق في الفضاء المفتوح، يجب ارتياد الشواطئ ليختار أجملها
وأبهاها، وهذا شاطئه نرجو أن يجد رماله ناعمة و.....
قاطعه فرحات عباس وهو يرفع يده كأنما يريد أن يوقف اندفاعه:
- أشكرك جزيلا.

ثم مد يديه في خزانة كانت في الزاوية وأخرج نسخا من كتاب
بالفرنسية، وضعها على المحسب، وقال وهو يلوح بنسخة منه:
- أيها الإخوان، هذا كتابي الأول عنونته بـ "الشباب الجزائري"
أصدرته سنة 1931، تحدث فيه عن وضعية الإنسان الجزائري وما يعانیه
من قهر وإقصاء وتحلف.
وارتفع صوت من الحاضرين مثنيا:

- بارك الله فيك يا سي عباس.

وواصل فرحات عباس:

- والكتاب في حقيقته مجموعة مقالات كتبها في جريدة التقدم التي كان يشرف عليها الدكتور بلقاسم بن التهامي، وكنت اتخذ لها اسما مستعارا هو كمال بن سراج، أرجو أن تجدوا فيه ما يفيدكم.

وشرع فرحات عباس بمساعدة صالح القاوري يوزع كتابه على الحاضرين الذين آثر معظمهم الانصراف.

علق سي الهادي وهو يسير عن يمين يوسف الروج يقلب نسخة الكتاب في يده:

- من ضيع لسانه ضيع قلبه، القلب قارب، واللسان شراره.

رد سي رابح:

- صدقت، كتابته بالفرنسية، وحتى كلامه العادي، ولكني لا ألومه.

قال العربي المٌستأشُ متسائلا:

- لأنه درس بالفرنسية؟

توقف سي رابح فتوقفوا معه وقال:

- لو وضعنا قبرة في قفص قريبا من كلب وربطنا منقارها شهرا لا

تسمع فيه إلا نباح الكلب، هل تتصورون أنها ستغرد حين نفاك منقارها؟

رد العربي المٌستأشُ:

- سنتيح دون شك.

قال سي الهادي:

- وهذه النخبة نبحت وتريد أن تنقل نباحها إلينا.

قال يوسف الرُوجُ:

- وهذه هي النخبة التي يريد مشروع موريس فيوليت أن يمنحها

الجنسية، بمعنى لا تمنح الجنسية إلا لمن تأكدوا من ذوبانه داخلهم، أي من

صار يحسن النباح.

حين تفرقوا وسط المدينة، كان العربي المُوسْتاشُ يتجه إلى محله يعيد إلى ذاكرته لازمة البُهلي لخضر، "ياناس ياناس، عباس سيد الناس يرفع لباس، ويعلي الراس، اسمه بالعين يبدأ، والنفوس له تهدأ، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا"، متسائلا، هل هذا هو عباس الذي كان يقصده البُهلي لخضر؟ هل يمكن لهذا الرجل المنبطح أن يعيد حقوقنا المسلوبة وعزتنا المنهوبة؟

ثم سريعا انصرف باله إلى سروله وهي تصارع المرض، لا أمل في شفائها ولم يعد موتها إلا مسألة أيام لا غير، هذا حظ أخيه سالم وحق أبنائه الثلاثة الذين سيجرعون اليتيم صغارا، وعادت به الذكرى إلى تلك الأيام التي كان أخوه الزيتوني يلح على سالم للزواج من سروله تنفيذًا لوصية أمه.

عند باب الخلل لاحظ عيوبه ومسعود بولقباقب بقشابيته الدرعاء وعمامته الصفراء يتكئ على صندوقه، ويقف يمينه حفيده وقد امتزجت سمرة بصفرة وتدلّت سوائف شعره على أذنيه في غير انتظام، سلم مرحبا:

- أهلا وسهلا بعمي مسعود، والله زارتنا البركة، تفضل ادخل، الخلل محلك.

تخلص مسعود من قبعايبه فبدت يدها غليظتان، ومد يده مصافحا بحرارة، أحس العربي المُوسْتاشُ بحدابير في أصابعه وباطن كفه، ضغط يده كأنما يبدي تعاطفه، قال مسعود بولقباقب وقد فطن إلى إحساس العربي المُوسْتاشُ لنتوءات يده فقال متألما:

- إيه يا العربي ياولدي، حدابير الزمان أكبر.

وخيم عليه حزن فأطرق تعقلُ الهموم لسانه، أمسكه العربي المُوسْتاشُ

من تحت إبطيه وأدخله إلى الخلل، لقد تغشاه هو أيضا ألم حاد، ثم ما فتئ يعجل بمداراته، قال:

- إيه يا عمي مسعود، هذه هي الدنيا، تعلي وتسفل.

نظر مسعود خلفه ليتأكد من بُعد حفيده عنه، كان يجلس خارج الخلل على الصندوق يضع ذقنه في كف يده الصغيرة، سارحا بعينيه، قال مسعود بولقباقب:

- تعبت يا ولدي، مذ مات والدهم وأنا أسعى على رزقهم، لكن الزمان يرفض أن ينقاد، حتى...

وأجهش يبكي ..

احمرت عيناه ..

وتدحرجت دموع حارة مضطربة على خديه متسللة بين شعر لحيته الأشيب الذي وقف كإبر حادة، ومد إصبعيه فضغط عينيه كأنما يسد شرايين الدمع، ثم مدهما ثانية فنثر دموعا أخرى تسللت تحتفني استحياء في منخريه.

وغيم العربي الموستاش، ثم تمالك نفسه، واندفع إلى خزانة جانبية يختار أحسن ماعنده من اللباس، ثم استدار إلى مسعود بولقباقب وهو يدس نقودا في يده قائلا:

- يا عمي مسعود لا تحمل هما، والله نقتسم أرزاقنا بينما.

وراح مسعود يعيد النقود إلى العربي مظهرا أنفة وهي عادته:

- والله ما جئتك لشيء سوى أن أفرغ همومي وقد صارت مجرا تكاد أمواجه تجرفني.

دسها العربي الموستاش في جيب مسعود بولقباقب، وفي المساء حمل إلى بيته ملابس ودقيقا وشيئا من الخضر، ومن هناك عرج على بيت سالم لعيادة سروله، وجد خليفة يجلس عند رأسها وقد بدا عليه إرهاق شديد،

نشط إليه يختلي به، حدثه أنه قصد صيدلية فرحات عباس ووصف له حالها وأن قلبه قد تمزق هلعا وهو يقرأ الخوف من ملاحه وحركات شفثيه، ولم يزد أن منحه قنينة دواء داعيا بالشفاء مشيرا بأخذها إلى الطبيب اليهودي قج فهو أدرى بوصف الدواء لها.

*** **

17

بسيارته السوداء القديمة أقبل أمقران يشق الشوارع المتربة، لابد من أخذ سرّوله للطبيب اليهودي قج، أملهم الأخير في إنقاذها من الموت، وقد راحت تنهار سريعا إلى حافته، لم تجد معها كل العقاقير التي استخلصت من الأعشاب، ولا بركة الأولياء وحروز الشيوخ، حمل خليفة ابنته بين ذراعيه، وضعها في السيارة تسندها سلافه الرومية، وركب إلى جوارها، وركب في الأمام العربي الموستاش، وانطلقت السيارة، وجدوا الطبيب قج عند باب عيادته يمص غليونه، أسرع يحمل معهم المريضة ويدخلون العيادة، أدرك الطبيب منذ البداية أن حالتها خطيرة، إنها حالة التيفوس الذي انتشر في الجزائريين انتشار النار في الهشيم، فحص نبضها وضغطها، وتفحص عينيها، وأمر بحملها سريعا إلى المشفى بعد أن سلم وصفة لخليفة، حين أخرجوها إلى السيارة بقي خليفة واقفا كأنما ينتظر منه تطمينا، سأله الطبيب عن علاقته بها، حين أخبره أنه أبوها، مد يديه وضغط على كتفه قائلا:

- كن صلبا، حالتها لا تبشر بخير.

حملت سروله إلى المشفى على إيقاع دعوات ملحاحة، لكنها قضت نحبها في تلك الليلة، ولم يتوقف الأمر عندها لقد مد المرض برائته إلى عرش أولاد سيدي علي والعروش المجاورة فقضى على العشرات منهم،

توفي الشيخ البغدادي وزوجته واثنان من أولاد الزيتوني، وحمل عيُوبه إلى مشفى سطفى لينجو بأعجوبة، ووجد سالم الطريق ممهدا أمامه ليتزوج زكية التي انتظرت طويلا، وفازت بسالم راضية أن تخلف سرّوله المرحومة في تربية أولاده الثلاثة، بعد أن فقدت كل أفراد أسرتها.

أصر خليفة وهو واقع تحت الصدمة أن تدفن سروله في مقبرة العرش بجوار أمها، ولم يغير رأيه فيسمح بدفنها في مقبرة سيدي الخير إلا بعد ضغط الجميع عليه، وبقي خليفة الأشهر الطويلة يتحدى النعاس والجوع، ويأبى أن يتكئ أو حتى يجلس إلا إذا انهار، يقضي الأيام الطوال لا يتكلم، تدور عيناه في الفراغ، يحس أن القدر خصمه أيضا، ولن يقبل بالاستسلام، يجب أن يموت واقفا كما مات أبوه وأخوه، ولم يقنعه كل الذين يحيطون به بفكرة القضاء والقدر، مرددا في نفسه: ولماذا أنا بالذات يناصبني القدر العدا؟

وقضي العربي المُوسْتَأَشُ أسابيع حزينا كثيبا شاردا الدهن، لقد افترس المرض العشرات من أقاربه ومعارفه، ومازال يهدد المئات منهم، ولم تغادر سوزان خياله، يتذكرها في كل وقت وحين، ويشتم رائحة أخبارها دون جدوى، هل استطاعت أن تفر من سطوة الوحش؟ وأين هي إذن؟ ولم لم تصله أخبارها؟ هل وجدها الوحش في بيته وقتلها كما كان يتوعد؟

ثم لا يجد له عزاء، إلا ابنتهما حورية، فيغلق عليها من حبه وحنانه، وأبياته الشعرية متغزلا بها يرددها في كل حين باكيا، وتحاصره زوابع الشوق والهموم فيحمل الصغيرة، ويقود أختها بلخير ويمشي بعيدا خارج المدينة، طالبا الخلوة، يحلم أن يخرج من الدنيا كلها، وتتدرج دموعه أحيانا فيمد الطفل بلخير أصابعه الصغيرة لمسحها عن خده بحنان.

ما أكثر ما اختلس العربي النظر في فرانكو وهو يجلس في حانات الفرنسيين أو يمر عابرا الشوارع، كان يحاول أن يصل إلى الحقيقة من

ملاحم فرانكو، لم يكن يراه غاضبا كما عهدته، ولكنه لم يكن يراه سعيدا أيضا، كان يبدو له أقرب إلى الكآبة، وقد راحت شمس وجهه تأفل، لا يتوقف عن الحركة طول اليوم، يزور عماله في حقوله وبساتينه القائمة في أطراف المدينة، وينتقل مع صديقيه ماران وشمعون إلى كويكول بحثا عن الكنوز المزعومة، ولا يغادر الحانة إلا في ساعة متأخرة من الليل.

قال العربي المستاش في سره: لا بد أن أطلب مساعدة سي رابح لتقصي أخبار سوزان، لسأته الذلق، وشبكة معارفه قادران على تحقيق الأعاجيب، يكفي كوهين الموظف اليهودي بدار البلدية، كم من مرة سمعته يهمس في أذن سي رابح قائلا: أنا جزائري سكن أجدادي هذه الأرض منذ مئات السنين، قبل أن يأتي هؤلاء الإفرنج الملاعين، وكان كلما انصرف مع سي رابح قال له: لا تتق باليهودي، يقدم في الفرنسيين أمانا، ويقدم فينا أمامهم، اليهودي لا تهمه إلا مصلحته وليذهب الكون كله إلى الجحيم، وما يعيننا نحن إلا أن نحقق مصلحتنا معه أيضا.

في الطريق التقى يوسف الرُّوج، سأله سريعا عن سي رابح، قال وهو يدقق النظر فيه:

- كلنا سي رابح يا العربي، هل تحتاج مساعدة؟
- لا شكرا، أحتاج إلى عمي رابح .
- أجاب العربي المُوسْتاشُ وهم بالانصراف، أمسك يوسف الرُّوجُ بيمنه وراح يسير معه:
- عمي رابح سافر إلى قسنطينة.
- متى؟ ولماذا؟ لكنه لم يجبرني.
- طرح العربي المُوسْتاشُ جملة من الأسئلة دفعة واحدة وقد ظهرت على محياه حيرة:
- لا تقلق، ذهب لحضور اجتماع عقدته جمعية العلماء بشأن ظهور

جمعية علماء السنة.

توقف العربي المُوسْتَأَشُ ممسكا بشمال يوسف الرُّوجُ سائلا:

- ما هذا لهم، جمعية أخرى أيضا؟ فلاحنا في كثرة أحزابنا وجمعياتنا؟
- هذه طبيعتنا، لا نحسن إلا الانشقاق، كل واحد يسعى أن يكون القائد والزعيم.

ولزما الصمت كأنما يجرعان سم الإحباط، وانحرفا باتجاه مكتب فرحات عباس، كان العربي المُوسْتَأَشُ غارقا في همومه، لكنه انجر وراء رغبة يوسف الرُّوجُ لا غير، ولم يجدا في المكتب إلا صالح القَاوْرِي، وقد غرق في كومة من الكتب الفرنسية، بمجرد أن رآهما أسرع مرحبا، كم يحلو له أن يجد آذانا صاغية تناقشه، وكم يحلو له أن يغيظ العربي المُوسْتَأَشُ وجماعته، لقد سعد كثيرا بقدوم فرحات عباس إلى سطيف، وانتشى وهو يوفر له كثيرا من الأشياء التي كان يحلم بها، أولها السند المعنوي، وهذا المكتب الذي يمكن أن يترأس فيه الجلسات، قال صالح القَاوْرِي:

- كنت أقرأ ما كتبه فكتور هيغو، هل تعرفان فكتور هيغو؟ وهل للعرب شعراء بحجم هذا الرجل؟ ربما ليس للعرب شعراء، قرأت أن لهم عنتره بن شداد هذا الفارس الأسود.

وحين لم يجد ردا اندفع مغيرا دفعة الحديث، سأل يوسف الرُّوجُ أولا:

- هل تعرف يا يوسف ما سبيل تقدم الشعوب؟

لم يرد يوسف الرُّوجُ لكن العربي المُوسْتَأَشُ قال:

- العلم.

واصل صالح القَاوْرِي متوجها بالحديث إلى العربي المُوسْتَأَشُ، ناظرا إلى يوسف الرُّوجُ من حين لآخر:

- أحسنت بارك الله فيك.

قال العربي المُوسْتَأَشُ في سره: مabal هذا الأحمق؟ هل يعتقد أنني

تلميذ أمامه؟ سأبول في فمه المرة القادمة، وواصل يستمع بامعان.
- والقادة لابد أن يكونوا علماء أو على الأقل مثقفين، عباس فرحات
مثلا مثقف وطبيب وصيدلي ومؤلف ومفكر و..

قاطعته يوسف الرُّوحُ بغضب:

- لاتقل إنه نبي.

تمتم صالح القَاوِري وقال:

- لا، حاشا لله لأنبي بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

واستمر مغيرا وجهة حديثه كأنه لم يقاطع ولم يتوقف:

- ورجال جمعية العلماء رجال دين، ثقافتهم محصورة في التراث العربي
القديم، هم لم يقرأوا مثلا جون جاك روسو ولا لمارتين ولا هوجو ولا
فرجيل وصوفوكل ولا مَنْتِسْكيُو وكتابه الرائع روح الشرائع.

قاطعته يوسف الرُّوحُ مرة ثانية:

- إذن أنت تصنف نبيك فرحات عباس في الطبقة الأولى لأنه مثقف

ثقافة غربية، وتضع علماء الدين التقليديين السلفيين في الطبقة الثانية؟

رد صالح القَاوِري سريعا، وهو يضحك بتهكم:

- المشكلة ليست هنا، المشكلة في من يسير خلف زعيم جاهل وأحمق
لم يدخل المدرسة في حياته، ولا يحمل شهادة إلا شهادة الميلاد، طبعاً
وسيحمل قريبا شهادة الوفاة أيضا.

وانفجر ضاحكا، قام يوسف الرُّوحُ غاضبا، حمل في يده كتاب فيكتور
هيغو وقال:

- مصالي الحاج سيدك وسيد سيدك، لقد تعلم في جامعة الحياة، ويحمل
شهادة الإخلاص والوفاء لهذه الأرض، اللعنة عليكم يامن تحملون
شهادات الخيانة.

ورماه بالكتاب على وجهه، وخرج غاضبا، فخرج معه العربي المُوسْتَأْسُ

وقد ظهر الاشتزاز على ملاحظه قائلا:

- والله لا يستحق هذا الخائن إلا الموت شنقا.

في حين بقي صالح القاوري وقد انتشى فوق كرسيه، يمد رجليه إلى الأمام، ويعيد إشعال غليونه الذي كان قد انطفأ.

بعد العشاء التقى سي رابح والعربي المُوسْتاشُ وأمقران بمحل الحدادة، وما كاد الثلاثة يستريحون حتى لحق خليفة وسي الهادي ويوسف الرُّوجُ، قال سي رابح:

- أعتقد أن معظمنا قد حضر، ويهمني أن أسمع منكم ما فكرتم فيه.

قال أمقران وقد كان واقفا وراء العربي المُوسْتاشُ الذي كان يجلس

على كرسي خشبي:

- لا داعي أن نعيد الحديث في الفكرة، نحن جميعا موافقون، بقي أن

نتفق على اسمها.

أسرع العربي المُوسْتاشُ مقاطعا:

- أنا مازلت مصرا على تسميتها بحزب الثوار، لأن مهمتها الوحيدة

هي الاستعداد للثورة.

وضع خليفة رجلا على رجل وقال:

- وأنا معك في ذلك، لا أريد أن تنحرف جماعتنا إلى أي هدف آخر غير

الإعداد للثورة.

رفع يوسف الرُّوجُ ذراعه كأنما يستأذن وقال:

- أنا أوافق أيضا، وطبعا تواجدنا في هذه الجماعة لا يلغي حريتنا في

نشاطنا مع الأحزاب الأخرى المختلفة، طبعا أقصد العلماء والنجم فقط.

وهكذا تم تأسيس تنظيم سري سمي حزب الثوار، لم يضم بعد ذلك

إضافة للمؤسسين إلا حمامه ولألاً تُرْكِيَه وسلافة الرومية، وكان سي الهادي

مصرا على أن يكون العدد عشرا تيمنا بالعشرة المبشرين بالجنة، لكنهم

ترددوا في ضم عيُوبَه أو حَمُو القبائلي، وكلما اجتمعوا أصر الهادي على أن يضع كرسيًا شاغرا ليكون العدد عشرة أعضاء، وكان العربي الموستاش، لا يتخيل على الكرسي إلا سوزان.

وتم تكليف سي رابح بالتنسيق والإشراف، وأمقران بالتسليح، وخليفة والعربي الموستاش بالتخطيط وبقيادة العمليات، والبقية بالتوعية والرصد والتنفيذ، قال سي رابح موجها الكلام إلى أمقران:

- كم جمعنا حتى الآن من بنادق ومسدسات؟
- سبع بنادق وخمسة مسدسات، وعلينا أن نفكر في امتلاك متفجرات أيضا.

واتفق الجميع على أن يبدأوا من الغد حفر مخبأ في حوش المحل موها بالأشجار، حتى تدخر فيه الأسلحة، ومخبأ فيه المطلوبون.

قال سي رابح:

- ولي في الحمام مخبأ تحت الأرض أيضا، يمكن استعماله وقت الحاجة لا أحد يعلم عنه شيئا.

تسلل الجميع عائدين إلى بيوتهم، كان العربي الموستاش وهو يسير مع سي رابح يفكر في اختطاف خلاف التيقر وسجنه في المخبأ الذي ذكره سي رابح، فليكن أول فريسة يصطادونها، وليكن صالح القاوري ثاني فريسة.

أخرج سي رابح العربي الموستاش من حيرته وهو يسأل كأنما هتك حجب الغيب:

- فيم تفكر؟ هل تخطط لعملية نفتح بها نشاطنا؟
ماكاد يخلو بسي رابح داخل البيت حتى أسرع العربي الموستاش يقترح اختطاف خلاف التيقر بل وقتله، حك سي رابح عينه اليمنى بباطن إبهامه وطبع عليها قبلة وقال:

- يجب أن نعرف أولا من يقف وراء التيقر، إن كانت فرنسا فيمكن خطفه.

أسرع العربي المُستأشُ مقاطعا:

- وقد يكون مدفوعا من أولاد النش، يمكن أن يشتروا ذمته بأجنس الأثمان، وهم عملاء فرنسا.

- ممكن، هو مجرم يحسن ابتزاز الناس وربما هذا ما يسعى إليه، لاتحمل همه، سنؤدبه في الوقت المناسب، لا يجوز أن يصرفنا عن هدفنا الأسمى.

** ** ** **

18

لم يعد للجميع وقت يضيعونه، صار لزاما عليهم أن يتفرقوا في كل تضاريس المدينة، يجلسون للناس يناقشون، يخللون، يضيئون العقول المظلمة، يبذرون في القلوب أملا سيشرق قريبا، في كل حي أقاموا كتابا لتعليم الأطفال ذكورا وإناثا مبادئ العربية أولا، ثم حفظ القرآن الكريم ثانيا، ثم يتوسعون لبعض من يحالفه الحظ فيدرس بعض علوم الدين والدنيا خاصة الفقه والتفسير والحساب والتاريخ.

وبدا يوسف الروح أكثر نشاطا وهو يجوس خلال الأسواق والمتاجر بمفرده أو مع أحد من رفاقه، يجلس للناس، يحدثهم عن الوضع، ينبههم للمأساة التي يعيشها الوطن، يعيد إليهم الثقة في نفوسهم، واستطاع خلال زمن يسير أن يستقطب عشرات المؤيدين، شكل منهم خلايا تجتمع وتتذكر وتجمع الأموال.

وانتشى يوسف الروح أكثر وهو يشرف مع رفاقه على فتح ناد صغير بجوار الكنيسة البروستاتية أطلقوا عليه "نادي الشباب"، الذي صار كخلية النحل حافلا بالحركة، تعقد فيه الاجتماعات وتشدت النقاشات

وتلقى فيه المحاضرات بمناسبة وبغير مناسبة، قال له سي الهادي وهو يجلس على جدار الحديقة القريبة متأملاً كثرة الحركة في النادي:

- إننا نقرب من تحقيق الهدف.

رد يوسف وهو يطوي يديه على صدره دون أن يحول نظره عن تأمل

الحشود:

- أرجو ذلك، لكن ألا تلاحظ السعار الذي تملك المعمرين؟

- فعلا، رد فعل طبيعي، سيطردون من جنة هذا الوطن كما طرد

إبليس اللعين.

مساء كان الجميع على موعد مع محاضرة لفرحات عباس في قاعة المسرح، كان الحضور كبيرا، وكان الصمت يخيم على الجميع، رغم علامات الاستياء التي عجزت عن الاختفاء، ماكاد فرحات عباس ينطلق في خطابه حتى ارتفع تصفيق حار من القاعة ولكنه يتيم، وتلفت الجميع إليه، كان صالح القَاوُري يصفق إعجابا بفرحات عباس، ثم قام من مكانه وراح يصيح بالفرنسية:

- فليحي فرحات عباس، فليحي عباس ولتحي النخبة، ولتحي الجزائر فرنسية، حرية عدالة مساواة.

ووقف أمقران من زاوية القاعة ونزع حذاءه يهيم برميده على صالح القَاوُري صارخا:

- أسكتوا هذا الكلب.

خشى فرحات عباس انفلات الأمور، فوقف ومد يده مهدئا المندفعين، وحين راح الضجيج يهدأ قال بهدوء:

- يا جماعة، نحن بحاجة إلى توحيد الصفوف لا إلى تشتيتها.

اندفع العربي المُوسْتَأشُّرُ يرد بغضب:

- نعم لتوحيد الصفوف تحت راية الوطن، لا تحت راية العمالة.

سكت فرحات عباس، وعاود الجلوس في مكانه، لكن الهرج اشتد داخل القاعة وكاد يتحول إلى عراك شديد، وراح بعض الحاضرين يغادر القاعة ويتجمع عند الباب الخارجي، وانسل صالح القَاوَرِي مبتعدا، تفل خليفة عليه من بعيد وصاح.

- تفوه كلاب فرنسا.

أضاف يوسف الرُّوجُ:

- بني وي وي، الرجال في السجن وهم يريدون بيعنا بأجنس الأثمان.
علق أمقران على كلام خليفة:

- لا تحش يا خليفة، ما يبقى في الوادي غير حجارته.

خرج معظم الحاضرين لكن فرحات عباس واصل إلقاء محاضراته، تحدث عن الوضع المساوي الذي وصله الشعب الجزائري، وعن جشع المعمرين الذين التهموا كل شيء، مذكرا بمحاولات الجزائريين السابقة في التخلص من الاستعمار دون جدوى مبرزا الثمن الباهض الذي قدموه، وحاول في الأخير رسم الطريق الصحيح، منهيًا مداخلته بقوله:

- في فرنسا يا إخوان الكثير من الجوانب المضيئة، وعلينا أن نستغلها إن أردنا أن نكون أقوياء في مستقبل الأيام.

في المقاهي والأسواق والنوادي والمساجد والأحياء الفقيرة اتخذ حديث الناس منحى آخر، لم يألوه منذ سنوات، وسرت في القلب عقيدة جديدة بدأت تينع لها النفوس، وتحمس الناس لإرسال إبنائهم إلى الكتاتيب بعد أن قضوا عقودا طويلة يرفضون المدارس الفرنسية، كان يوسف الروج قد جلس ذلك المساء طويلا مع علال القهوجي محاولا أن يقنعه ليقوم بمهمة جمع المال من الناس، وسعى علال للتملص من المهمة متذعرا بأنه رجل مدمن لا يؤتمن جانبه، وكم كان تأثره عميقا وهو يوسف الروج يواجهه بقوله:

- ياغلل، الؤزائر في ءاؤة إلى كل أنائها، أنا وأنت وبشير ووريلة المرقومة، والعربي الموستاش، و... هذا الوطن يئن يستغيث إن لم ننصره نحن فمن؟

وؤرؤ...

بقي علال في مكانه صامتا لا يقوى على الؤركة، يرنو إلى أؤر الشارؤ، يرنو إلى الفراؤ، إلى اللامنتهى، فيم يفؤر؟ فيم يؤلم؟ ليس يؤري. في الؤء عاد سي رابؤ من قسنطينة بعد غياب دام أياما، قضى اليوم الأول في مؤتب الؤمعية لمعرفة أؤر الماسؤءاء، لكنه بقي يومين أؤرين لا هم له إلا البؤؤ عن ءليمة وابنتها، يؤرؤ صباحا من إقامته، يئنقل في الشوارؤ والأسواق والأماكن العامة، يغوص في أعماق الأزقة الضيقة، يزور الأؤرؤة والمقابر، يؤلس إلى الشيوخ والعؤائر، سؤال واحد يطرؤه على الأؤياء والؤمءاء، أيؤم رأى ءليمة؟ ءلمي الؤميل الؤي اسؤيقظت فانفلت من بين أؤفاني، مائي العذب الؤي تسلل من بين أصابعي، طائري الؤي ماؤءت أؤيم له قفصا ءؤى فر إلى غير رجعة، ويعود ليلا ليسامر أؤلاما وكوايس لا تنتهي، هل من ءؤ ءليمة أن تعذبه بهذا الشكل؟ هل من ءؤها أن تءع الأيام تطؤن قلبه المرهف، وهو الؤي ارؤضاها وارؤضى شروطها رغم كل شيء؟

ؤين وصل كان الؤميع بانؤظاره، عاد بؤطى مئاقلة وقد ظهر على ملامؤه تعب وإؤباط، في نادي الشباب كان لقاؤهم، أؤاطوا به وكلهم ظمأ لمعرفة الؤءيد، قال يوسف الروؤ كأنما يكسر ءليء الؤؤوم على سطح سي رابؤ:

- لا ءؤزن ياؤمي رابؤ، واطمئن تماما فرنسا ماعاءت تقدر على فعل

شيء.

شؤك سي رابؤ أصابعه ومد ذراعيه فوق الطاولة وقال:

- ولكنها فعلت يايوسف، لقد جن جنونها فهرعت تغلق مئات المساجد والمدارس والصحف، إنها تنسف كل ما بني.
تنحنح يقلب نظره في الجميع ثم واصل:
- ومنعت الشيخ العقبي من الخطبة في الجامع الجديد.
علق سي الهادي:
- ولكن الناس لم يسكتوا لقد اندلعت المظاهرات العارمة، تطالب بإعادة الشيخ العقبي والسماح له بأداء دوره، رغم تدخل فرنسا بشرطتها وجيوشها، واستعمالها للرماة السنغاليين.
علق يوسف الروح:
- معنى ذلك أن الاستعمار في عنق الزجاجة وهذا في ...
قاطع سي رابح:
- لقد زجت بالئات في السجون، وما زالت...
قاطع يوسف الروح بحماس:
- وهذا دليل ضعفها، ظلت الأفعى لعقود تنعم بالهدوء، الآن سنغصص عليها حياتها.
- وإلى أين وصلت الأحداث؟
سأل أمقران فأجاب سي رابح:
- لقد ألقى ابن باديس خطبة نارية في نادي الترقي منددا بجريمة غلق المساجد والمدارس، وتحرك النواب فرفضوا جريمة الغلق، وتوجه وفد منهم إلى باريس لمقابلة شوطان (Choutan) وزير الداخلية.
- وهل يرجى خير من شيطان هذا يا عمي رابح؟ نستجدي حريتنا من أعدائنا؟
- قالها أمقران فأجابه يوسف الروح قائلاً:
- لم تعد نثق في كل الجمعيات والأحزاب، الحل هو الثورة.

رفض شوطان استقبال وفد النواب، فأقدموا على تقديم استقالتهم
جماعيا، المئات منهم انسحبوا من المجالس في كل من قسنطينة والجزائر
وهران، والتتهبت المظاهرات الشعبية ليس في الجزائر العاصمة فحسب،
بل في كثير من مدن الجزائر، خاصة في تلمسان ومستغانم أما في سيدي
بلعباس فقد فاقت الوصف، وعدها المتتبعون أول مظاهرة في الجزائر من
حيث عدد المشاركين، وقد تعالت الصيحات بسقوط فرنسا وبجياة الجزائر
وهتلر.

ظل صالح القاوري يسير مضطرب النفس يتأرجح بين تعال يريد أن
يصفع به خصومه الذين ظلوا يتهمونه وجماعته بالخيانة والعمالة والجبن
وبين خوف وتوجس من اندفاع النواب غير المحمود، لقد نجح المعمرون في
دفعهم إلى التطرف للقضاء عليهم نهائيا، وحرمان النخبة من حلم
المساواة.

ووجد نفسه وجها لوجه مع باب الحمام، كان سي رابح يجلس على
كرسيه الحجري كالأمير محاطا بيوسف الروج والعربي المستاش، يمدون
أبصارهم في كل اتجاه كأنهم ينتظرون أحدا، اقترب منهم محببا واندفع
يوجه الحديث لسي رابح:

- رأيت ياسي رابح موقف النواب، ألا تراه بطوليا؟ ورغم ذلك أنا لم
أوافقهم، لأن المثقف لا ينصر الحمقى لينتحر.

رد يوسف الروج وهو يقلب جريدة الأمة في يده:

- وهل تعتبر سجودهم للشيطان نصرا لنا؟ فليذهبوا إلى الجحيم.

غير صالح القَاوُري وجهة الحديث محاولا إغاضة خصومه:

- كم أحلم أن أحظى بالجنسية الفرنسية! أعدك يا سي رابح، أعدكم

جميعا، أن أقيم لكم مأدبة ضخمة.

رفع فيه العربي المستاش نظره مليا ثم قال:

- من غير جنسيته فقد غير دينه، وأنت مارق لا دين لك ولا ملة.
وانتفض صالح القَاوَرِي كالجنون.
- ما هذا الهراء، الدين لله والمملك لقيصر، مادخل ديني في جنسيتي، ذلك إيمان، وهذه انتماء مدني لا غير، صدقوني لا نجاة لنا إلا بالسير في ركاب فرنسا، واستلهم حضارتها، أنتم ببدأوتكم تضيعون علينا فرصة عظيمة.
من بعيد أقبل سي الهادي وكأنه يحمل سرا، فلزم الجميع الصمت
وثبتوا أعينهم فيه، قال وهو يجلس:
- جئتكم بخبز جديد.
أسرع يوسف الرُّوحُ سائلا:
- وما هو؟
- أجاب متمعدا التماطل ليثير شوقهم:
- لقد تراجع النواب جميعا عن استقالاتهم.. ولك...
- قاطععه صالح القاواري:
- أحسن ما فعلوا، ما لنا وللبدو؟
نظر فيه يوسف الرُّوحُ شزرا وقال:
- كنت أعرف هذا، لا خير تنتظره الأمة منهم.
واصل سي الهادي:
- ولكنهم تراجعوا عن استقالاتهم لأن الحاكم العام كارذ، وعدهم
بالتراجع عن الإجراءات ضد المساجد والمدارس، وضد العقبي أيضا.
وبدت على الجميع فرحة عارمة، علق خلالها صالح القاواري.
- لقد أخافه النواب.
رد عليه سي الهادي:
- لقد أخافه الشعب.

*** **

سريعا راحت الأحداث تتطور غيوما سوداء تغطي السماء منذرة بانفجار رهيب، ظل فرانكو وجماعته يستعرضون عضلاتهم في الشوارع، يفاجئون الناس مدججين بالأسلحة، يزعجون هدوء السماء بطلقات نارية لا تكاد تتوقف، يتقيئون في آذان الجميع سبابا مقذعا، علق ماران لافته كبيرة على قاعة سينما فارييتي، "قاعة السينما ممنوعة على العرب والكلاب"، رفض المعمران فرانكو وبارال تسديد أجور مئات العمال الجزائريين.

ظل العربي المستأش ممدا في فراشه، تراقص عيناه في سقف البيت ، لا يقوى خياله على استحضار كل ما مر به، حين بدأ الفجر يحل جفونه بصعوبة، وتسلفت أولى خيوطه الباهتة من النافذة تناهى إلى سمعه نداء سي رايح، فاندفع واقفا وأسرع يرتدي ملابسه ويكمل إعداد أغراضه في حقيبة صغيرة، قصد الولدين فقبل حورية الصغيرة، ثم قبل أخاها بلخير دون أن يوقظهما، سألته حمامه بحيرة وهي تدفع عن نفسها الغطاء وتقوم:

- إلى أين؟ هل أنت مسافر؟

رد العربي المُوسْتَأَشُ وهو يحمل حقيبتة:

- نعم سنسافر اليوم إلى قسنطينة.

بسرعة راحت تعد له القهوة وهي تسأل:

- هل من جديد في قسنطينة؟

رد وهو يمسد شاربيه الكثين:

- الأوضاع غير جيدة، ويجب أن ندعم إخواننا هناك، لن نتركهم

وحدهم، سيتوافد كثير من الناس من كل المدن، اهتمي بالولدين.

اقتربت منه وفي عينيها خوف، اندفع يحتضنها، فغاصت برأسها في

صدره مجهشة، ضغطها إليه قائلاً:

- سأعود سالماً إن شاء الله، كوني يقظة، خلاف التيقّر مازال يحوم حولنا.

وارتفع صوت سي رابح من جديد، فأسرع يلي، أمسكته من ذراعه توقف اندفاعه:

- القهوة، ألا تشرب قهوة؟

رشف رشفتين بسرعة وخرج، في الطريق قال سي رابح:

- على المرء أن يكبح عواطفه، علينا أن نمنح كل عواطفنا للوطن.

لم يرد عليه العربي المستأش، هو يؤمن أن الوطن أغلى وأكبر وعلينا جميعاً أن نمنحه كل عواطفنا وحبنا، ولكنه أيضاً يحب حماته، الوطن أولاً وحماته ثانياً، وقفرت سوزان إلى ذهنه: وسوزان ثالثاً، بل ثانياً أيضاً، هل يعقل أن تحب حماته بجنون ثم تحب أيضاً سوزان؟ واضطربت في نفسه الأفكار، هل كانت علاقته بسوزان حبا حقيقياً، أم هي مجرد إشباع للذة، أم هي انتقام من فرنسا وأفعالها الشنيعة في الجزائر؟ لا أبداً إنه يحب سوزان، نعم يحبها، ومن الممكن جداً أن يحب الرجل أكثر من امرأة، مثلما يمكن أن يحب أولاده، ألم يسمح الإسلام بتعدد الزوجات؟

وأين هي سوزان الآن، من الممكن جداً أن تكون قد سافرت إلى أوروبا، حتماً ستزور فرنسا ثم ألمانيا، ثم تعود، نعم ستعود حتماً، لقد تركت خلفها فلذة كبدها، وهي أيضاً فلذة كبده، سيجهد نفسه في أن تراها حين تعود أجمل بكثير مما توقعت، وسيسعى كي يعلمها في مدرسة فرنسية، ربما سيجد لوماً من الناس لأنهم يقاطعون كل ما هو فرنسي، ومن يدري لعلنا نتحرر وقتها فيدرس أبناؤنا في مدارس جزائرية يرفرف عليها العلم الجزائري، وارتج مخه وهو يغلب فرضية عدم سفرها أصلاً، نعم ربما لم تسافر، ربما قتلها فرانكو اللعين أو سجنها، كل شيء ممكن.

حلقت هذه الهواجس بعيدا عن العربي المستاش وسي رابح يقول له:
- لم يلحقا بعد، أرجو أن لا يتأخرا.

كان النهار قد أسفر تماما، لحق بهما يوسف الرُّوجُ وسي الهادي، ألقى
سي الهادي التحية ثقيلة، وماكاد سي رابح يرد حتى قال يوسف الرُّوجُ
حزينا:

- لقد اعتقلوا مصالي الحاج بتهمة تحريض العسكريين الجزائريين في
الجيش الفرنسي على العصيان.

علق سي رابح بحسرة:

- هذا درب الأحرار، علينا أن ننتظر كل شيء، وكل شيء يهون في
سبيل الوطن.

علق العربي المستاش وقد تملكه الألم:

- السجن للرجال يايوسف.

ووضع حقيبته بين رجله، وطوى ذراعيه، وراح يتابع النقاش، كان الجو
باردا رغم صفاء صفحة السماء، وكانت أسراب الحمام لا تكف عن
التحليق، تحط فوق سطح الحطة والسطوح المجاورة ثم تعود الطيران، كأنما
تعبر عن قلقها أيضا، قال يوسف الروج سائلا:

- إنها تهمة خطيرة.

قاطع سي رابح:

- فعلا تهمة خطيرة، أخشى أن ينفى تماما بعيدا عن أرض الوطن،

ولذلك...

قاطع سي الهادي:

- ليس من اللائق أن نبقى مكتوفي الأيدي.

واصل يوسف الرُّوجُ وهو يدس الشمة تحت شفته:

- وصلتنا أوامر بغلق الدكاكين والمؤسسات، ومقاطعة العمل، وتوزيع

مناشير تدعو للرفض، ولكن...

قاطعته سي رابح:

- أليس من الأجدى أن ننتظر ما وعد به الحاكم العام النواب؟

أسرع يوسف الروجُ معلقاً:

- لقد صرحوا أن وعود الحاكم العام مجرد أكاذيب، ودعوا إلى تكثيف

إرسال احتجاجات عبر البريد إلى الحاكم العام بالعاصمة.

وأقبل القطار يملاً صخبه وصفيره الكون فركبوا.

حين دخلوا قسنطينة، كان وقت انتهاء صلاة الجمعة وكان الناس

يتجمعون بالآلاف أمام الجامع الأخضر، أسرع يوسف الروجُ يستفسر من

مجموعة من الشبان، أسرع أحدهم يشرح بغضب:

- أثناء صلاة الجمعة دخل جندي فرنسي يهودي يسمى إيلي خليفة

وبال في المسجد.

وماكاد يكمل كلامه حتى تحركت أمواج المحتجين، وامتألت بهم كل

شوارع قسنطينة، ووجد الأربعة أنفسهم مندفعين داخل الحشود، ارتفعت

الصيحات بسقوط فرنسا، وحية الجزائر، وحية هتلر، ورفعت اللافتات

منددة وقد كتبت بالعربية والفرنسية، وحملت الأعلام والرايات منها راية

الصليب المعقوف، وتعالى زغاريد النسوة المشاركات في المسيرة بملاءاتهن

السود، والواقفات على أبواب وشرفات المنازل، سأل العربي المستأش:

- لماذا عقفوا الصليب بهذا الشكل؟ هل هو تحقير للصليب؟

رد يوسف الروجُ وهو يكاد يحتق داخل أمواج الناس:

- إنه شعار هتلر الذي يرفعه في وجه خصومه الأوربيين.

أراد العربي المستأش أن يسأل، وهل هتلر ضد الصليب أيضاً، هل

هو مسلم؟ ثم لزم الصمت، وصياح الجماهير يملاً المكان من حوله حتى

تهتز الأرض: المجد للجزائر، فلتسقط فرنسا، النصر لهتلر، المجد للجزائر...

قال سي رابح للهادي وقد أدهشه تزاحم الناس وتدافعهم:
- لو كنا نعرف أن كل هذا سيقع لجئنا معنا بلافتاتنا.

رد سي الهادي:

- ما كنا نعتقد أن الأحداث ستأخذ هذه الأبعاد، كن حذرا ستتدخل
فرنسا بقوة.

وماكاد سي الهادي يكمل كلامه حتى أطلقت عيارات نارية، وارتفعت
مكبرات الصوت محذرة، وتدخلت قوات الجيش بفظاظة مستعملة كل
أنواع القوة لتفريق المتظاهرين في كل اتجاه، وارتفعت الصيحات الغاضبة
ضد فرنسا وجرائمها، ثم ما فتئت المسيرة أن دخلت في هرج، وراحت
الحشود تتفرق في كل الأزقة المجاورة.

عاد العربي المُوسْتَأَشُّ ويوسف الرُّوجُ إلى الجامع الأخضر ومثلهما كان
العشرات من الناس، لكن لا أثر لسي الهادي وسي رابح، تدفق السكان
المجاورون للمسجد بطعام العشاء إلى الوافدين من بعيد، سأل يوسف
الرُّوجُ وهو يمد رجله:

- أخشى أن يقع مكروه لعمي رابح وسي الهادي.

رد العربي المُوسْتَأَشُّ وهو ينظر في الفراغ وقد بدا مرهقا:

- نسأل الله أن يحميها من كل مكروه، لا نملك إلا أن ننتظر عودتهما.

- جنود فرنسا كالكلاب المسعورة، يمكن أن يفترسوا أي أحد دون

رحمة.

رد يوسف الرُّوجُ ومد يده إلى الطعام الذي وضع لحينه أمامه، وانكبا
يأكلان مع مجموعة من الشبان بنهم شديد، لم يأكلا شيئا منذ الصباح،
وأواهما الجامع الأخضر في رحمه مع عشرات الوافدين.

مع الفجر تسلل يوسف الرُّوجُ والعربي المُوسْتَأَشُّ إلى المحطة عائدين،
وفوجئا بسي رابح وسي الهادي يهرعان إلى القطار، أسرع العربي

المُوسْتَأَشُ يُسْأَلُ:

- أين كنتما؟ قلقتنا عليكم كثيرا.

جلسوا متقابلين وقال سي رابح:

- الحمد لله لقد سحبتنا امرأة قسنطينية إلى بيتها، ولولاها لذبحنا جنود

فرنسا، بتنا هناك، احتفى بنا زوجها احتفاء شديدا..

قاطعته يوسف الرُّوجُ:

- الأحوال لا تبشر بخير، وأخشى أن ترتكب فرنسا حماقة ضد الناس.

أيده سي الهادي قائلاً:

- بل ستفعل، إنه الظلم، يتبول يهودي نجس في مسجدنا وحين

ننتفض نواجه بالقمع، وغدا سيزج بمئات الناس في السجون ويطلق هو

سراحه معززا مكرما.

تلا سي رابح الآية القرآنية:

- ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.

ردد الثلاثة:

- صدق الله العظيم.

قال العربي المُوسْتَأَشُ سُلْخِرا:

- هل معنى حتى تتبع ملتهم أي تكون من النخبة والنواب؟

ضحك الثلاثة وراحوا يستمعون للقطار وهو يطلق صفارته مبتعدا

عن المحطة، يمدون أنظارهم عبر النوافذ يشاهدون المزارع العملاقة التي

أقامها المعمرون بعد أن سلبوها من أصحابها الشرعيين، وغاص سي رابح

في أحلامه المخلقة بحثا عن حليلة حبه الأول والأبدي، أمازالت في

قسنطينة؟ أمازالت حية؟ أمازالت وفيه له وهو الذي لا يستحق منها ذلك؟

وكيف حال الصغيرة التي أخذتها معها، إن كانت حية فهي في عمر

الزهور، لقد سأل عنهما بلحاح العائلة القسنطينية التي نزل ضيفا عندها

لكن دون جدوى، لا أحد يعرف عنها شيئاً.

كم تصفعه الخيبة كل مرة يأتي فيها قسنطينة! يسترحمها، يستغيثها، يقف طويلاً على قنطرة الجبال يزرع عينيه في كل اتجاه، يزور سيدي راشد، يتفرس في الذاهبين والأبيضين، يكرع حشرات تذبح وريده ثم يعود.

قدر المتظاهرون في أحداث قسنطينة بعشرة آلاف مشارك، وقتل في المشادات ثلاثة وعشرون يهودياً وأربعة جزائريين، سقطوا تحت ضربات الفناصة السنغاليين، وامتألت المدينة بالآلاف الجنود الفرنسيين، ومن الليف الأجنبي والرمة السنغاليين، وطلب الحاكم العام من باريس تسليح الجميع حتى العجزة، واستقدام مئات الطائرات خوفاً من عودة المواجهات واتساعها، وحكمت المحكمة الفرنسية على الجندي اليهودي بيومين سجنًا وستة عشر فرنكاً، أما الجزائريون فحكّم على العشرات منهم بالسجن مُدداً مختلفة وصلت إلى ست سنوات، وغرموا بمبلغ إجمالي بلغ خمسين مليون فرنك فرنسي، وأغلقت المقاهي، وفرضت حالة طوارئ على المدينة.

هل كانت قسنطينة تعيد ذكرى سقوطها المؤيعة، تستروح عقب الرجال الأحرار الذين نهضوا هاهنا منذ مئة سنة، نهضوا كالنخل، كالصخر الصلد، كالجبال الشامخة؟

هل كانت تستروح عقب أحمد بلي والحسين المكحلجي، والمئات الذين سقطوا، وارتفعوا، صاروا نعمة في حناجر الطيور، غيثاً في مآقي الغيوم، كبرياء في أبناء المدينة؟

آه قسنطينة...

ياحورية نازلة من السماء نزول الذكر على الأنبياء.

صدئت سكاكينهم.

تهراً طغيانهم.

تمجد دمك أبد الأبدین.

به نتطهر لنصیر نوارس تخلق في كل الفضاء.

وصل القطار أخيرا إلى سطيف، ماكادوا يضعون أقدامهم على أرض المحطة حتى لقيهم عيوبه وقد انتظرهم طويلا، ورغم أنهم قرأوا على وجهه حزنا كالحا إلا أنه لم يسمح للحيرة أن تعصف بهم طويلا، قال موجها الكلام ليوسف الروح وفي عينيه دموع:

- لقد خطفني خالتي سلافة.

وهزت المفاجأة الجميع، فاندفع يوسف الروح يجري، وحثوا خلفه السير إلى بيتها، حدثهم عيوبه وهو يحاول أن يجاريهم بعرجته، عن أن مجهولين خطفوا سلافه الرومية هذا الصباح، حين خرجت من بيتها متجهة إلى الحمام، وأن امرأة كانت تعبر الزقاق شاهدت ذلك، وأسرعت إلى خليفة الذي لم يستطع أن يفعل شيئا، كان كل شيء قد انتهى.

حين وصلوا إلى بيت خليفة وجدوا جمعا كبيرا من الناس أمامه يحيطون به وقد جلس منهارا على الأرض، أسرعوا إليه يسألون، قال العربي المستاش:

- ماهذه المصيبة؟

انتفض خليفة واقفا كأنما عادت إليه الحياة، واندفع يقول متحمسا:

- لن يكون إلا الخنزير خلاف التيقر.

قاطعته عيوبه بقوله:

- وربما أولاد النش، أو الشيخ عمار.

لم يبال أحد بكلامه، وهم يلتفتون إلى أمقران قائلا:

- فلنسرع إلى خلاف التيقر، نعلقه في كوخه القذر من رجله، فلا نطلقه حتى يكشف الحقيقة.

رد سي رابح بصوت متعقل:

- أولاً يجب أن نخبر الشرطة...

قاطعته يوسف الروج مندفعاً:

- لا شرطة ولا هم يحزنون، هل نشتكي...؟

وسكت فجأة كأنما ابتلع لسانه، وقد فطن أنه يرد بعنف على سي

رابح الذي قال:

- أولاً يجب أن نخبر الشرطة، ثم علينا أن نسعى في كل اتجاه، خلاف

التيقر وأولاد النش والشيخ عمار، ولا بد أن نسرع في تحركنا.

واندفعوا يتقصون الحقيقة، اتجه سي رابح وأمقران إلى الشرطة، وصل

يوسف الروج والعربي المستاش إلى بيت خلاف التيقر، دقا الباب بعنف،

وحين لم يرد عليهما أحد، دفع يوسف الروج الباب برجله فتهاوى إلى

الأرض محدثاً ضجة كبيرة، دخلا الحجرة الوحيدة، لاشيء فيها إلا فراش

يتيم في الركن الأيسر، تناثرت عليه أوراق قمار، وأعقاب سجائر منطفئة،

ووسط الجدار الأيمن خزانة تقوم مائلة، يسند أحد أرجلها حديدة كبيرة،

ربما هي قطعة غيار سيارة، وتحت الخزانة تراكمت عصي خشبية وحديدية،

وعلى الجدار الآخر تكومت صناديق لزجاجات خمر فارغة، غطى الكل

سقف من خشب وحديد، واندفع يوسف الروج كالجنون فألقى الخزانة

أرضاً بجذبة واحدة، فتناثرت أجزاءها، وأخرج علبة الكبريت من جيبه

وتعاوننا على إشعال النار وخرجنا.

في هاته اللحظات كان خلاف التيقر يغادر الزاوية مع صاحبيه في سيارة

اكتروها لغرض نقل سلافه الرومية، قال وهو يجلس في المقعد الخلفي

منفرداً، يد ذراعيه عن يمين وشمال:

- يمكن ان أقول الآن أني سلطان، ماحصلنا عليه من مال سنجرع به

خمرنا لسبع سنوات.

ضحك أحد رفاقه فانفجر الدخان من كل جهات فمه كاشفا عن

أسنان متهرثة، وانخرط في سعال شديد، وماكاد يسترد أنفاسه حتى قال:
- يصدقك من لا يعرفك، أما أنا فأقول بأنك ستتلفها في شهر واحد.
لم يرد عليه خلاف التيقن، بل مد يمينه فحمل زجاجة خمر كانت إلى
جواره، وعب منها حتى كاد نفسه ينقطع.

ماكادت السيارة تختفي عن الأنظار حتى دخل الشيخ عمار على سلافه
الرومية، كانت كئيبه تركز إلى زاوية الغرفة، سكت في حضرتها طويلا،
وقال وقد زوى عينيه:

- ليس في الوجود من يفر مني.
وجثا على ركبته أمامها، مد يده إليها، بصقت بقوة في وجهه صارخة:
- ابتعد أيها الفاجر، تستر بالدين لتخدع الناس.
ضحك الشيخ عمار وهو يقف، عدل من عمامته وقال:
- وأنى لك معرفة الدين أيتها الفاجرة؟ تغشاك الجميع وتتمنعين
علي، وأنا الفحل؟

وخرج مهددا حراسه بكل ألفاظ السباب:
- إن فرت هذه المرة سأفص مذاكيركم إن كان لكم ذلك كالرجال.
لقد عزلها في غرفة خاصة قريبة من الاسطبلات، ووضع عليها حراسا
شدادا، ليس من مصلحته أن يعرف الناس خبرها فيشوهوا سمعته، وليس
من مصلحته أيضا أن يسمع القايد جلول بالحادثة، فينغص عليه حياته.
وباتت سلافه الرومية متكورة في مكانها لا تبدي حراكا، لقد
استسلمت للمأساة تماما، ماكان يعينها الذي أصابها مادامت نفسها حرة،
ومادامت روحها محلقة، وقلبها طاهرا نظيفا، يؤلمها ما سيعانيه يوسف
وخليفة، لن يكون بمقدورهما ابتلاع المأساة ولا تجنب نظرات الناس
المريبة.

*** **

لم يعد يوسف الروج إلى البيت إلا في وقت متأخر، ظل مع العربي المستاش وأمقران يتشممون أي شيء يأخذ بأيديهم إلى مكان سلافه الرومية، دسوا جواسيس على خلاف التيقر وجماعته، ترصدوا في منعطفات الشوارع، قلبوا صفحات الحقول المحيطة بالمدينة، لا أثر لها، دخل يوسف الروج البيت يجرح خيبة مريرة، يمكن أن يتجرع كل شيء إلا أن إهانة أمه بهذا الشكل، وجد خليفة يجلس في زاوية الحجرة كطفل يتيم، رفع فيه عينين حزينتين، ثم انصرف من جديد إلى مأساته، ظل خيال خليفة ينتقل بين دهاليز المآسي، لا يريد هذا الدهر إلا محاربا أبدا، لقد فل سيفه، وفلت إرادته، هل سيرفع الراية البيضاء؟ هل سيكون وصمة عار في جبين عائلته؟ يستحيل، ترددت في سمعه كلمات أبيه: نحن خلقنا كي نموت واقفين، نأبى أن نموت على الأرض، نأبى أن تقتلنا الأمراض، الأمراض تقتل الجبناء.

ولم يشأ يوسف الروج أن يمزق من حوله شرنقة وساوسه، فانزوى في زاوية أخرى ولف نفسه بأخرى، معيدا إلى ذاكرته شريطا طويلا مع أمه، أمه التي ظلت على مدى العقود تدره بلحب والعطف والحنان، وظلت تمنحه من نفسها قوة وإباء وكبرياء، رغم ماكان يحيط بها من مآسي القايده عباس، ورغم المآسي التي كان يرى خناجرها تذبح شبابها وتذبح فتنتها، وانتفض فجأة وسؤال كبير يلعب في ذهنه، هل سيسيء إلى سمعته خطف أمه؟ هل ستجد ألسنة الناس ما تلعبه؟

مع الصباح الباكر وصل يوسف الروج وخليفة إلى أولاد سيدي علي، لمح الزيتوني شبحهما من بعيد، طرح على نفسه طائفة من الأسئلة الحائرة، بقدر ما كان يسعه زيارة الأغراب إليه يفكون عنه عزلته القاتلة

بقدر ما كان يحس بالخوف والرهبة، كل واحد قد يحمل نبأ مرعبا، وكل نبأ مرعب هو سهم يضاف إلى سهام الدهر الخؤون، وتزاحمت الوسواس في نفسه وقد اتضحت له معالم خليفة من بعيد دون أن يتعرف على رفيقه. أسرع يلقاهما وعلى ملامحه تعدو أسئلة حائرة، ماكادا يسلمان حتى أسرع يسأل محاولا تمزيق قتامة رآها على وجهيهما:

- خليفة، ما الذي جاء بك الآن، هل وقع مكروه لأحد لا قدر الله؟
رد خليفة رافعا جفنين أثقلهما التعب:

- الجميع بخير.

ولم يساير الزيتوني في السير باتجاه البيت، بل جلس حيث هو على مرتفع صغير، وحوله جلس يوسف الروح والزيتوني، الذي قال:

- فلنذهب إلى البيت.

وحين لم يتلق ردا واصل ناقلا عينيه بينهما:

- مالي أرى تجمها على ملامحكما؟

أشار خليفة بيده، مقدا رفيقه:

- هذا يوسف الروح، ابن سلافه الرومية.

اهتم الزيتوني به وهو يتعرف به لأول مرة، فصافحه بجرارة مرحبا، ملاحظا عليه شابا فياضا ووسامة لافتة، قال خليفة:

- لقد وقعنا في مصيبة.

أسرع الزيتوني في دهشة:

- خيرا، خيرا؟

سكت خليفة لحظات مطرقا، كأنما يستل الكلام من أعماقه وقال بصوت خافت مهموم:

- لقد خطفوا سلافه الرومية، أخذوا بثأرهم مني يا الزيتوني، أخذوا ثأرهم.

وراح يغالب دموعا كاد عقدها ينفطر، رفع الزيتوني رأسه في يوسف
الروح وقال متحسرا:

- فعلا، ضربة كبيرة، ومن تعتقد أنه وراء الفعلة؟
- لسنا ندرى كل الاحتمالات واردة، قد يكون جلول الكلب أو شيخ
الزاوية، أو غيرهما.

نطق يوسف الروح أخيرا وقد اشتد غضبه موجها كلامه لخليفة:
- يا خليفة لا حل إلا أن نهاجم الزاوية الآن، أنا مستعد أن أقلع عيني
الشيخ عمار.

ربت الزيتوني كتف يوسف الروح مهدئا وقال:
- لاتحل هذه الأمور بالقوة، وهل تعتقد أنه غافل؟ لا بد من الحيلة.
سأل خليفة:

- وما الحيلة؟

- اتركنا لي فرصة التفكير والتحرك، خلال ثلاثة أيام سأنتقصى الأمر.
وحين عادا خائبين إلى المدينة دون أن يشربا قهوة، أسرع الزيتوني يحمل
ابنه الصغير المريض فوق فرسه، وقد قمطت أمه رأسه بالحارم وصبت في
شعره الكث خلا، لتخفف حرارته، لقد قرر الزيتوني أن يأخذ ابنه للشيخ
لا ليعالج بل ليتجسس الأخبار، غير أن الشيخ التقاه بعيدا في غرفة منزوية،
وأسرع يقرأ على الطفل تعاويذ، ويسلمه حبات تمر مضغها بضمه ليأكلها
الطفل ويدهن بها جسده، والشافي الله، وعاد الزيتوني خائبا.

وفي المدينة لم يكن المتبقون أحسن حالا، اجتمعوا في بيت خليفة
لاستقبال الزائرين السائلين عن مصير سلافه الرومية، واجتمعوا للبحث
عن حل لهذه المصيبة التي نزلت عليهم فجأة، وظلت حمامه ولالا تركية
تذرفان دموعا حائرة مرعوبة وهما على يقين أن هذه اليد الآثمة ستمتد
أيضا إلى النساء والأطفال والرجال.

المحدر سي رابح إلى قلب المدينة، يتحسس الأخبار، وانتهى به المطاف إلى صيدلية فرحات عباس الذي رد التحية من بعيد وراح يصرف الدواء لمريض ويشرح له سريعا كيفية استعماله، ثم عاد للجلوس قريبا من صالح القَاوُري وسي رابح، بدا أكثر أناقة ببذلته السوداء وبتسريحة شعره المميزة، كما بدا أكثر اعتدادا بنفسه، سأل سي رابح عن اختفاء سلافه الرومية، وتلقى إجابات سريعة مقتضبة لا تشفي غليلا، اكتفى بها فرحات عباس وغير مجرى الحديث باعتداد كبير وهو يتأمل رفوف الأدوية:

- العلم يا سي رابح هو أساس تقدم الأمم، جهلنا هو سبب تخلفنا الرهيب، وهو سبب استعمارنا وإذلالنا.

أسرع سي رابح يجيب بالإثبات محركا رأسه إلى الأعلى والأسفل:
- فعلا.. فعلا.

بسط فرحات عباس يديه فبدتا أكبر من اللازم وقال:

- وهذا العلم لا يمكن أن ينتقل إلى عامة الناس إذا افتقدته قيادتها، وإذا أسند الأمر إلى غير أهله فانظر الساعة يا سي رابح.

نظر سي رابح في صالح القاوري، ثم في فرحات عباس، لقد أدرك أن فرحات عباس يقدر بالأساس في مصالي الحاج وأتباعه، وبالتالي في أفكاره الداعية للاستقلال، فأعرض عن الدفاع وانتقل على الهجوم دون أن يظهر عليه استياء:

- من فقد جنسيته فقد دينه ياسي عباس.

اندفع فرحات عباس قلقا، وقد أحس بطعنة سي رابح، وقال:

- هذا خطأ كبير، نحن سنطالب بالجنسية والاندماج ونأخذ حقوقنا بالتساوي مع الفرنسيين واليهود، مع المحافظة على أحوالنا الشخصية.

طوى سي رابح يديه وقال:

- ماهذه الحقوق التي تأخذها لتمنح وطنك للآخر.

وأحس فرحات عباس بالخرج من هذا الجدل، وقبل أن يرد فاجأت الجميع فتاة شقراء، تدخل مبتسمة وحيث فرحات عباس بجملة، وأسرع فرحات عباس يقوم مصافحا باهتمام كبير، أكدت له موعدهما مساء، ثم غادرت سريعا، لم يسمح فرحات عباس للحيرة كي تستمر طويلا في ذهن سي رابح وراح يقدمها:

- إنها خطيبي مرسلي بيريز (Marsiel pirese)، سيتم زواجنا في القريب العاجل.

جحظت عينا سي رابح حيرة وهو يسأل:

- وابنة سي حسين خلاف؟

تبسم فرحات عباس وهو يقول:

- ألا تؤمن بتعدد الزوجات؟

وضرب بكفه على كتف سي رابح وواصل:

- لا لا، لقد انفصلنا، شاء الله أن ننفصل.

ردد سي رابح في نفسه: يا صديقي أنت غرقت في فرنسا إلى هامتك، من تزوج فرنسية فقد دخل الاستعمار بيته، أحس فرحات عباس بهواجسه فقال:

- إنها فرنسية من أصل ألزاسي، طليقة طبيب فرنسي، وقد تمسكت بجنبا رغم معارضة أهلها.

ثارت زوبعة من الحيرة في نفس سي رابح مرددا: وهل يثق الشعب في من يطلق ابنة وطنه، ويتزوج ابنة المستعمر، ومطلقة أيضا؟ وفاجأهم حسان بلخيرد بالتحية، فصرفهم عن مواصلة النقاش الذي كان فرحات عباس يتمنى انتهائه، اندفع سي رابح واقفا مرحبا بجملة بالوفد الجديد، وراح فرحات عباس يحدق فيه ببرودة، إنه يراه لأول مرة، لعله في الثلاثين من عمره، ممتد القامة، أبيض البشرة يمشط شعره الأسود إلى الخلف بعناية

شديدة، يرتدي بدلة سوداء وقميصا أبيض أتحفه بربطة عنق منسجمة،
وأسرع يقدم نفسه إلى فرحات عباس مصافحا:

- أنا حسان بلخيرد، وافد جديد على مدينة سطيف، ويسعدني
التعرف عليك.

نهض فرحات عباس مرة ثانية مصافحا مرحبا، وقد أشرق وجهه بهذا
الوافد الجديد.

- تشرفت سي حسان، تفضل تفضل اجلس.

صافح صالح القاوري الذي ظل في مكانه يلزم الصمت كأنه لا يأبه بما
يقع أمامه يمارس في جلسته استعلاء كبيرا، وراح سي رابح يقدمه:

- هذا أخونا حسان بلخيرد، من القادمين الجدد على مدينة سطيف من
قسنطينة، وهو مكسب كبير لنا، لقد تعرفت عليه البارحة.

وضرب على فخذ حسان بلخيرد بيده مرحبا، وأظهر فرحات عباس
تقديرا كبيرا للرجل، ومد يده ثانية مصافحا:
- أشرف بك سيدي.

ضغط حسان بلخيرد على يده وقال:

- الشرف لي سي عباس، صيتك يملأ الأرض كلها، لقد قرأت كتابك
الشباب الجزائري، وأتابع ما تكتب في الصحف.

ظهر البشر على وجه فرحات عباس وقال:

- شكرا سيدي، أنا سعيد بالتعرف عليك.

أخرج حسان بلخيرد من كيس كان يحمله كتابا وراح يقرأ عنوانه:

- كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني، إنه أول كتاب يؤلف في تاريخ
الجزائر، صدر سنة 1931 ردا على احتفال فرنسا بمرور مئة سنة على
احتلالها الجزائر، وهو جدير بالقراءة فعلا.

راح فرحات عباس يقلب صفحاته في اهتمام بالغ، وقال دون أن يرفع

رأسه:

- توفيق المدني مثقف من طراز رفيع، التقيته مرة بالجزائر العاصمة بمقهى النجمة، وقد حدثني عن الكتاب لكني لم أقرأه، أشكرك سأقرأه بإمعان.

قاطعته سي رابح مستفسرا:

- أعتقد أنه أصدر كتابا آخر سنة 1926.

- نعم، عنوانه قرطاجنة في أربعة عصور.

وانسحب سي رابح وحسان بَلْخَيْرِدْ مودعين فرحات عباس وصالح الْقَاوْرِي بحارة، في الطريق تحدث بَلْخَيْرِدْ عن أحلامه في سطيف، لابد أن يبدأ بفتح مكتبة أولا، تحرير الشعوب يبدأ بنشر المعرفة، لكنه يريدنا معرفة عربية ممتدة الجذور إلى الشرق، ثم لابد من إحداث حركة داخل المجتمع، لابد للجميع أن يتحرك، لابد للجميع أن يشارك في تغيير الواقع المزري، وظل سي رابح وهو يسير عن يمينه منتشيا به وبأحلامه المرفقة.

لم يقطعا إلا مئات الأمتار، مرا خلالها بساحة الجندي المجهول القائمة أمام الكنيسة الكاثوليكية، ووقفا أمام المسرح يتأملان التمثالين البارعين في شرفته، غاب حسان بلخيرد عن كل ما حوله وغاص في روعة تفاصيلهما وانسجامهما، وعبقرية الهندسة التي تجلت في واجهة المسرح، وفجأة انطلقت رصاصات غير بعيد عنهما، وأسرعنا إلى المصدر، كان الناس قد ملأوا المكان كله، وقد تعالت أصواتهم واحتجاجاتهم، عِلْمًا أن شرطيا فرنسيا أطلق رصاصات غادرة فأردى جنديا جزائريا قتيلا، وتدخلت قوات الشرطة والدرك لتفريق المحتجين لكن الأمور خرجت عن السيطرة، وتحول التجمع إلى مسيرة ضخمة شارك فيها المدنيون والجنود الجزائريون هاتفين بحياة فرحات عباس وبن جَلُول وهتلا، واشتد

حماس المتظاهرين فهاجموا مركز الشرطة واحتلوه، وسريعا أعلنت السلطة ذلك اليوم الأول من فيفري حالة الطوارئ في المدينة، وطوقت كل الشوارع بأعداد ضخمة من الجنود، وانتهت المشادات بقتل ثلاثة جزائريين وجرح خمسة.

لجأ سي رابح برفقة حسان بَلْخَيْرِدْ إلى الحمام حتى لا يصطدما بجنود الاستعمار، كان هناك أمقران يحيط مع بعض الخدم بالعربي المُوسْتَأْسُ الذي أصيب بجراحات طفيفة، وكدمات هنا وهناك، علق سي رابح وهو يتأمله:

- أعرف أن رأسك جافة، لا تحلوا لك الحياة إلا إذا شاركت في كل أهوالها وتأخذ نصيبك منها.

سريعا تم غسل الجراح ولفها، كان المساء يزحف على المدينة، وكانت السماء مدججة بسحب كثيفة، ترسل غيئا خفيفا، قال سي رابح:

- لا بد أن نأخذنا إلى البيت الآن، ربما داهمت الشرطة الحمام وعرضوه لمساءلتهم.

وأسرع حسان بَلْخَيْرِدْ يأتي بسيارته السوداء، وينطلق بها يوصل سي رابح والعربي المُوسْتَأْسُ إلى البيت.

امتألت الشوارع بالمعمرين مدججين بالأسلحة، مدعومين بقوات الشرطة، لا أحد يدري لم حاصروا نادي الشباب وأغلقوا كل المنافذ المؤدية إليه، طريق الشارع العام، وطريق الحديقة، وحول الكنيسة البروستانتية، راح بعضهم يخرج من كان في المقهى، يضغطونهم إلى بعضهم البعض فلا ترى إلا أعينهم الخائفة، أقبل عباس فرحات من بعيد، ودخل مع المعمرين في ملاسنة، تحولت إلى حوار، وانتهت بفك الحصار، وإطلاق سراح الموقوفين.

*** **

استلم المساء دوره من الصباح، كادت الشوارع تخلو من المارة، أمام الحمام كانا يجلسان معا، يكاد الجسدان يلتصقان، لكن خيال كل منهما كان يخلق بعيدا، راح سي رابع يستعرض الأحداث الجسام التي مر بها الوطن منذ سنوات، محاولا المقارنة بين الأفكار المتصارعة، مغلبا في ذهنه طريق المصادمة مع الاستعمار، لم يخرج استعمار من أرض دخلها إلا بالقوة، لقد مرت أيام على أحداث أول فيفري التي لم يكتف الفرنسيون فيها بما قتلوا، بل امتدت أياديهم إلى الأبرياء فأوسعوهم سجنا وغرامة، وكان العربي المُستأش وسي الهادي على رأس الجميع، وزاد الطين بلة ما وصل من أنباء عن سجن مصالي الحاج ستة أشهر، ونائبه عمار عيماش وعلي راجف أيضا، لم تعد السلطة الاستعمارية تحسن إلا سياسة العصا الغليظة، لتركيع الشعب الجزائري، في الوقت ذاته كان النواب والنخبة يسعون بكل ما أوتوا من قوة لإنجاح المؤتمر الإسلامي الذي سيعقد بالجزائر العاصمة، متخذًا مشروع موريس فيوليت قاعلة له، وقد حشدت له الجماهير والطاقات، وبشر به في كل وسائل الإعلام.

ولم يجد حسان بلخيرد أحسن من أن يذرع المدينة، يتهجم كل شوارعها وأزقتها، يقلب صفحات وجوه الناس فيها ووجوه البنات والساحات، ينقب عن السر الغامض الذي جذبه إليها، عن السحر الكامن فيها، ارتقى هضبة عالية في شمالها، بدت له المدينة طائرا خرافيا يمد جناحيه إلى أقصى نقطة استعدادا للتخليق، طائرا خرافيا محاطا بهالة خضراء عجيبة، هل سيخلق هذا الطائر قريبا، هل سيكون له الدور الكبير في انطلاقه، وانحدر يلج المدينة لا يمكن لهذا القلب المفعم بالحياة إلا أن يعمل، ويبدع، ويبذر الخير والأمل في النفوس.

ولزم فرحات عباس بيته وقد أغلق عليه النوافذ، لم يكن يقدر حتى على مشاهدة ضوء الشمس الذي كان حادا ذلك اليوم، يشرب القهوة الفنجان إثر الفنجان، يجمد كتمثال بارد اللحظات، ثم يهرع فجأة لتقليب ما تراكم أمامه من كتب بالفرنسية، يقرأ فيها، ثم يعيد القراءة، ولا يفتأ حتى ينتقل إلى كتاب آخر، معيدا تقليب صفحات القرآن الكريم عشرات المرات، يقصد سورا بعينها، ويقرأ آيات بعينها، هي الحيرة تعصف به، حيرة ما تكاد تعصف به حتى تتلاشى إلى غير رجعة، وتتدرج نفسه نحو الانبساط والانشرح، فيشرع النوافذ، ويأخذ نفسا عميقا، كأنما يفرغ رئتيه من الحيرة، ثم سريعا يرتدي ملابسه، وينزل إلى المدينة نشيطا.

وظل العربي المستأش مذبذبا لا يستقر خياله على فكرة بعينها، ينتقل بين أهله وذويه في عرش أولاد سيدي علي، إلى سوزان وفرانكو، إلى حمامه وبلخير، إلى البلايا التي راحت تتهاطل على رأسه كاللحجارة، ولم تمهله الأحداث المتسارعة كي يستقر على جانب منها، فاجأهما وصول أمقران، كأنما هبط عليهما من السماء، قال:

- من يراكما من بعيد يعتقد أنكما تمثالين باردين.

- لقد بلدتنا الأحداث المتسارعة فعلا.

رد سي رابح، وسل رجليه من تحت فخذيه، ودسهما في حذائه الذي

ظل مهملا على الأرض دون انتظام، ثم واصل:

- كل هذا القهر وبهرولون إلى المؤتمر الإسلامي؟

رد أمقران ساخرا دون أن يجلس:

- أحلام تنطلي على السذج، لقد رفضه مصالي وجماعته، لأنه طريق

للاندماج، وأعتقد أن ابن باديس والعلماء قد أخطأوا.

عدل سي رابح عمامته، وقال:

- فعلا أخطأوا، هذا المؤتمر يخدم النخبة والنواب، أما نحن فلا ديك لنا

فيه ولا دجاجة.

علق العربي المستاش:

- الشعب لا يغالط، لقد خرجت المظاهرات في كل المدن الجزائرية، في العاصمة وحدها تظاهر أكثر من ثلاثة آلاف جندي.
- أليس الأجدر أن نتحرك لحضور لقاء فرحات عباس؟ لقد حان الموعد.

- نعم يجب أن نحضره ونناقشه في الموضوع.

وانطلقوا مندفعين، كان الجميع مستاء من كل الذي يقع، في الوقت الذي يضحي فيه المخلصون لخنق فرنسا، من أجل أن ترفع الراية البيضاء، وتخرج نهائيا من الجزائر كما خرج قبلها الرومان، هاهم النواب يساعدونها على البقاء وتثبيت رجلها، ويقدمون لها المبررات لمواصلة امتصاص خيرات هذه الأرض.

في ذات الوقت غادر فرحات عباس مقر عمله، واستدار إلى اليمين متجها إلى مقره، هناك اجتماع مهم ولا بد أن يكون حاضرا قبل الموعد، لقد أخذ منه النضال السياسي كل وقته، بعد أمتار وجد نفسه يقف أمام المدرسة اللائكية، تسأل في قرارة نفسه: متى يجلس أبناؤنا أيضا مع أبناء الفرنسيين على طاولة واحدة لينهلوا العلم أيضا؟ تعالت نواقيس الكنيسة تكاد تصم الأذان، مد بصره يتأمل منارتها العالية، مرددا في قرارة نفسه، هنا كنيسة، هناك مسجد، هناك كنيس، أليست الأديان كلها من الله، أليست الأرض كلها لله، فلماذا نتقاتل؟ فلجأه حسان بلخيرد محييا فأخرجه من سبحاته:

- السلام عليكم سي عباس.

- وعليكم السلام سي حسان.

صافحه بجرارة واستمر في تأمل المنارة، وقد هدأت النواقيس، قال

فرحات عباس:

- إني أحلم أن نعيش إخوة في هذا الوطن، تصور مدينة واحدة تضم اليهود والنصارى والمسلمين؟

ضغط حسان بلخيرد على يد فرحات عباس ثم سحب أصابعه،
واندفع مبتعداً، وهو يقول:

- هذه أرضنا، لا ينبت فيها إلا الزيتون والنخيل.

راح فرحات عباس يتأمله لحظات ثم صاح فيه:

- لاتنس الاجتماع، أرجو أن يحضر الجميع.

واستمر فرحات عباس في طريقه أمتاراً أخرى وعرج إلى اليمين حيث مقره، وصل العربي المستاش وسي رابح وتدفق حشد كبير من الناس، وليست إلا دقائق حتى كاد الشارع يمتلئ، خرج فرحات عباس مع بعض مساعديه، وقف عند المدخل على درجاته العالية، اشأبت إليه الأعناق، تحدث مطولاً عن مشروع فيوليت معتبراً إياه المتقد الذي انفلت من عقلاء فرنسا البعيدين عن تأثير تطرف العمرين والغلاة، ثم تحدث عن الوضع المزري الذي يعيشه الجزائريون الذين ما ينبغي لهم أن يضيعوا هذه الفرصة الذهبية، وختم خطابه بقوله:

- أي إخواني الأعزاء، لقد بحث في القرآن الكريم الذي هو كتابنا ودستورنا الغالي، فلم أجد ما يمنع أن أكون مسلماً فرنسياً، أنعم بالعلم والحضارة.

ارتفعت وسط الجميع هممة كادت تتحول إلى ضجيج، قال العربي المُوسْتاشُ وقد ظهر حاسر الرأس على غير عادته وقد تجرأ الزمان على بعض شعره فلفه بأكفانه.

- ومن يتوهم منكم فهو منهم، ألم تقرأ هذا يا عباس؟

راح فرحات عباس يلوح بيده لإسكات الجميع الذين اختلط

ضجيجهم ولغظهم، ارتفع صوت آخر:

- ياعباس، تريد أن تبيعنا بثمان بخس للنصارى.

ومرت فرقة من الشرطة الفرنسية مدججة بالأسلحة، فخفتت الأصوات وتوجهت إليها الأنظار كأنما تتوجس خيفة، مر خلفها المعمر فرانكو وماران يجران كليهما المدلين، صاح فرحات عباس محييا، ثم قال:

- ماذا تقولان لهؤلاء أيها المعمران، وهم يطالبونكما بالمساواة؟

ابتسم فرانكو وماران في سخرية ومرا كأن لم يسمعا عباس، الذي لم يبال بهما أيضا واستمر في خطابه، شرح لهم أن الشعب الجزائري يعيش وضعية مزرية وخطيرة، قيامه بالثورة ضد قوات فرنسا يعني أمرين اثنين أولهما الفناء، لقد جرب الجزائريون الثورات الشعبية لأكثر من خمسين سنة دون فائدة، لم يجنوا إلا الانكسارات والانهازات، وثانيهما سيفوتون على أنفسهم فرصة كبيرة في التحضر وبناء مجتمع قوي في ظل الدولة الفرنسية، وماكاد يسمع بعض المهممات حتى راح يفرق بين فرنسا في باريس والمعمرين هنا، هؤلاء يمثلون الجشع والطمع، وتلك تمثل الحرية والعدالة والمساواة، وغاص في شرح مبادئ الثورة الفرنسية التي تبشر بالحياة الكريمة لكل الناس.

همس سي رابح في أذن حسان بلخيرد الذي لحق متأخرا:

- هذا كلام يردده أولاد القياد، وعباس من عائلة قياد.

رد حسان بلخيرد دون أن يحول نظره إليه:

- لا أعبد ما تعبدون.

تحرك العربي المُوسْتَأْسُ راغبا في المغادرة، وقد ظهر عليه التذمر قائلا:

- صدق أمقران حين رفض المجيء، أسطوانة واحدة لا يمل من تكرارها.

واندفع مبتعدا، فبدأ الناس ينسحبون أيضا، ولم تبق إلا ثلة قليلة

دخلت مع فرحات عباس إلى مقره لمواصلة النقاش، كان فرحات عباس

يسعى لإقناع أكبر عدد من المسلمين لدخول الانتخابات والتصويت لصالحه من أجل تمثيلهم وانتزاع الحقوق لهم، إنه يؤمن بعمق أن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك هو النضال السياسي، وهو الاندماج في فرنسا لا طردها.

وبقي فرحات عباس مع من بقي يبشر بليلة القدر الآتية، ستنتفتح السماء فجأة لتهطل على الجزائريين بالخير المدرار، مشروع فيوليت هو هدية من السماء، لا يجوز تضييعها مطلقا.

اجتاز سي رابح وحسان بلخيرد الكنيسة الكاثوليكية، وقرىبا من المسرح استدارا يمينا يقصدان المكتبة التي كان حسان بلخيرد قد علق لافتتها بالعربية "مكتبة الترقى العربي"، تأملها سي رابح مندهشا وقال:
- عظيم، إنه تحد عظيم، مكتبة الترقى العربي.
نظر فيها حسان مزهوا وقال:

- هل تعرف ياسي رابح؟ النضال الثقافي هو الأهم، سينسى الناس الدم والرصاص، ولكنهم لن ينسوا أبدا الكلمة الحرة المجاهلة، الكلمة أقوى من الرصاصة ياسي رابح، الكلمة هي الإنسان، لدرجة أن الله في كتابه سمى عيسى عليه السلام كلمته أوحاها إلى مريم البتول.
ثم أشار إلى لوحة ترقيم سيارته وقال:
- وحتى هذه عربتها.

وراح يقرأ بزهو اللوح الذي كتب بالعربية، وبأرقام مشرقية: "الجزائر ٦٦٣A٩٣".

قال سي رابح وهو ينقل بصره بين اللافتتين بإعجاب:
- بوركت سي حسان، علينا أن نعمم هذه الفكرة على كل الدكاكين والسيارات.

أعجب حسان بلخيرد بالفكرة فرد سريعا وهو يبتسم:

- وأنا سأفيض عليكم بلجرائد والمجلات العربية من المشرق العربي،
ومن تونس.

وفلجأهما العربي المستاش، ولم يزد عن التحية وراح يتأمل اللوحتين:
- الله إنه التحدي الأكبر.

ودخل الجميع، دون أن يتوقف حسان بلخيرد عن شرح موقفه من
وجوب النضال الثقافي لاسترجاع الهوية المغتصبة، وبعد ذلك سيتحرر
الشعب تلقائياً، بل ويستطيع بناء دولة قوية، ثم راح يعيد عليهم رحلته
إلى مصر وتركيا طلباً للعلم، مؤكداً في كل مرة انبهاره بما تحقق هناك من
نهضة ثقافية كبيرة يجب الاقتراب منها، والأخذ من منابعها، تناهى إلى
آذانهم دوي سيارة تقترب من المحل ببطء، توقفت لحظات عند الباب ثم
انطلقت، مد العربي المستاش رقبتة إلى الخارج ثم أعادها إلى الداخل
قائلاً:

- كالعادة فرانكو وشمعون، عائدان من مقابر الرومان كانا يبحثان عن
الكنز المزعوم، سيارتهما تنن تحت ثقل العتاد، كأنما يبحثان عن كنوز
سليمان.

علق سي رابح وعليه حزن:

- بل يبحثان عن تاريخهما في غير أوطانهما، إنه بحث عن الأوهام.

قال حسان بلخيرد وهو يعتدل في جلسته:

- إيه ياسي رابح، نحن ضيعنا حقائق تاريخنا، وأخشى أن تصير
أوهامهم حقائق، هؤلاء الكلاب يمكن أن يزوروا كل شيء، ولا حل معهم
إلا في المقاومة.

وسكت الجميع لحظات، اندفع بعدها العربي المُوسْتاشُ يقول:

- لقد زارني شيطان الشعر، هل تسمعان؟

ولزما الصمت يستمعان فاندفع يقول، كأنه يغني:

ياشعبي الغالي تُورُ
 حُرَامٌ تَبْقَى مَقْهُورُ
 عُدَاكَ مَصُّوَا دَمَّكَ
 وَأَنْتَ رَاقِدٌ خَمْزُورُ
 حَلَّ عَيْنِكَ لَا تَبَّعَ عَبَّاسُ
 تَضْيَعُ حَيَاتِكَ أَتَوْلِي بَورُ
 فَرْنَسَا غَدَّارَهُ مَا فِيهَا أَمَانُ
 وَاللِّي يَأْمَنُ أَفْعَى مَسْحُورُ
 وَالْعَزَّةَ طَرِيقُهَا وَاحِدُ
 النَّارُ وَالْبَارُودُ وَالِدَمُّ إِفُورُ

صفق حسان بلخيرد بجرارة مثنيا على القصيدة مبنى ومعنى، وحين هم
 أن يقترح تلحينها، قام سي رابح وقد تذكر موعدهما مع خليفة ويوسف
 الروح، وقال:

- يا سي حسان الشعراء يتبعهم الغاؤون، دعك من هلوساته.
 فهم العربي المستأش الرسالة بمجرد أن نبهه سي رابح بإشارة من
 عينيه، فنهض يغادر المكتبة، وبقي حسان بلخيرد منتشيا بكلمات القصيدة
 دون أن يستسيغ ما فعله سي رابح في الخروج فجأة من المكتبة.
 في الطريق إلى الحمام، راح العربي المستأش يشرح وجهة نظره في
 استرجاع سلافه الرومية بكثير من الحماسة قائلاً:

- يجب أن نتكاتف جميعاً ونقصد الشيخ عمار، نلوي رقبته ونعود
 بسلافة، كل يوم يمر لن يكون في صالحنا.
 - لنستمع أولاً لما قرره يوسف الروح وخليفة.
 ثم صمت بقية الطريق مفكراً، يعرض خططاً مختلفة فلا يستقر ذهنه
 على واحدة منها.

وجدا يوسف الروج ينتظرهما خارج الحمام على أحر من الجمر، سأله سي رايح عن خليفة، أسرع يقول وهو يدخل الحمام كأنما يتعجل اللقاء:
- هو في الداخل ينتظرنا.

فتح خليفة الكلام دون مقدمات قائلاً:

- أصبحنا متأكدين الآن أو نكاد من أن سلافه عند الشيخ عمار، وخطة إنقاذها هي أن نخطف ابن الشيخ عمار الذي يدرس في المدرسة الفرنسية.

وظهر البشر على عيون الجميع، علق العربي المستأش:

- علي اللعنة، كيف غاب عن ذهني هذا؟ فعلا له ولد يدرس بالمدرسة الفرنسية.

قاطعته خليفة:

- هذه المعلومات وصلتنا من الزيتوني، وهو من أوحى بوجود اختطافه.

قال سي رايح مشجعاً:

- على بركة الله إذن.

في الغد كان يوسف الروج وأمقران يكمنان في الطريق التي يمر منها ابن الشيخ ملثمين، وماكاد ينعزل عن السكان بمعية حارسه حتى انقضا عليه، سحب يوسف الروج الفتى بعيداً، وأشبع أمقران الحارس لكما، حين انهار إلى الأرض مستسلماً وقد هزته المفاجأة، دس في فمه رسالة وانطلق مبتعداً.

وبات الرعد الشديد يمزق قلب الشيخ عمار، معيدا قراءة الرسالة مرات عديدة، مركزاً على جملة "سنلجحه قبل الضحى كما تذبح الخراف إن لم تصل ومعك سلافه معززة مكرمة لم يمسهها سوء"، وأحست سلافه الرومية بتغير في المعاملة، وبالاضطراب الذي بدا على الجميع، فراحت

تستعد لكل طارئ، ولم ينتظر الشيخ عمار طويلا، والصبح يتنفس على الكون فأسرع مع حراسه إلى المدينة ومعهم سلافه الرومية، وصل قبل شروق الشمس بقليل وهو يرتعد من شدة الخوف، يمكنه أن يضحى بكل شيء من أجل إنقاذ ولده الوحيد، وراح ينفذ الأوامر بدقة كما قرأها في الرسالة: " اطلق سراح سلافه قريبا من السوق، وانتظر ابنك عند منعطف وادي بوسلام أسفل المدينة".

أطلق الشيخ عمار وخادمه سلافه الرومية في المكان الذي حدد في الرسالة، وراح يسعى إلى الوادي، في المكان الذي حددوه وجد ابنه مقيدا بجبل إلى الشجرة، انفصل عن حراسه واندفع إليه، حين اقترب منه دوى الرصاص في الكون الذي مازال ينفذ عن جفونه النعاس، وتهاوى الشيخ إلى الأرض، ثم تدرج ليقع في الماء، وتعالص صيحات الجميع، وأسرع حراسه لإنقاذه، وأسرع أحدهم يفك قيد الفتى، وأطلق بعضهم الرصاص باتجاه الطلقات المعادية، وسأل سي رابح بدهشة:

- من هذا الأحمق الذي أطلق النار؟

وأسرع يبتعد مع العربي المستاش وسي الهادي، وقد كانوا يكمنون بعيدا يراقبون المشهد، حين وصلا إلى محل أمقران وجداه يؤنب خليفة الذي وصل لتوه تكاد أنفاسه تنقطع، وقد احتضن بندقيته، قال يوسف الراج وقد شاهد في أعينهم عتابا:

- يستحق الموت ولد الكلب.

قال سي رابح:

- ليس من اللائق أن تنتهز دائما، ظنناك مع سلافه فإذا بك تباغتنا.

علق العربي المستاش، وعلى ملاحه رضى بما فعل خليفة:

- كنت على يقين أنه سيفعلها، وإن لم يفعلها فمأهو بخليفة الذي

نعرفه.

وخرج الجميع متفرقين، لكنهم يقصدون وجهة واحدة، هي الالتقاء بسلافة الرومية، غير سي رابح الذي قصد الحمام وأرسل بعض عماله إلى الوادي حيث وقعت الحادثة لتقصي أخبارها.

ووصلت حماته ولالا تركية، ويوسف الروج والعربي المستاش وبعض من الجيران نساء ورجالا، كان هم الجميع أن يعرفوا أولا من الخاطف، كان يوسف الروج ينتظر أن تتفوه أمه باسم خلاف التيقر ليذبحه من الوريد إلى الوريد، لكن سلافه ظلت تردد أنها لم تر الأشخاص الذين اختطفوها ولم تتعرف عليهم، كانوا ملثمين حين كمموا فمها وربطوها بجبل متين ثم دفعوا بها إلى جوف السيارة وانطلقوا بها، أول شخص رآته هو الشيخ عمار، قال خليفة وعلى ملاحه حيرة:

- كيف تتأكد من حجم الإصابة، أردته أن يموت، وأخشى أن يكون له عمر القط

قال العربي المستاش:

- قد تكون إصابته بليغة، لكنه لم يموت.

- علق يوسف الروج:

- يجب أن نقتله في الوقت المناسب، ونقتل أيضا من نفذ جريمة الاختطاف.

لحق سي رابح بالجميع ليؤكد لهم أن الشيخ عمار حي يرزق، وأن إصابته كانت في كتفه، وأنه انسحب مع ابنه وحراسه عائدا إلى بيته دون أن يلفت انتباه أحد.

وتداولوا في الموضوع كثيرا، ليتفقوا أخيرا على أن قتل سي عمار قضاء وقدر لا راد له، لكنهم يجب أن يتمهلوا ثم راحوا يتفرقون فاسحين المجال لسلافة الرومية كي تستريح وقد بدت مرهقة.

انسحب يوسف الروج إلى غرفته ليستريح دون أن يتوقف نحوه عن

التفكير في خطة للانتقام، مدركاً أن أمه لم تقل كل ما تعرف حفاظاً عليه وعلى خليفة وهي تدرك اندفاعهما وتهورهما، واختلى خليفة بسلافة محاولاً استنطاقها لمعرفة حقيقة الأمر، ومعرفة كل تفاصيل الحادثة، وأي نوع من الاعتداء وقع عليها، رغم ما كان يلاحظه عليها من تعب.

*** **

22

قرر خليفة أن يَخْتَفِي عن الأنظار فترة من الزمن حتى تهدأ العاصفة، لعل هناك من يتفطن إلى فعلته ضد الشيخ عمار، الذي لن يتردد لحظة في شراء ذمة من يقتله، في نفسه شبه يقين أن لا أحد رآه، ولكن الظنون ستحوم حوله هو بالأساس دون غيره، فلحذر مطلوب أيضاً، قالت سلافه وهي تقدم إليه القهوة:

- لا أعتقد أنه سيجرؤ على حمق آخر، أنا على يقين أنه الآن محتبئ كالجرد.

رشف خليفة من فنجانهِ بجذر، وأحس بحرارة القهوة الكاوية وقال:

- كنت أتمنى أن أرديه قتيلاً، لكنه نجا، له سبع أرواح كالقط.

- الأحسن أنك لم تلوث يديك بروحه النجسة.

رشف ثانية وقال:

- لكن اطمئني، لن يهدأ لي بال حتى أقتله، لقد تجرأ مرتين، ويستحق أن يقتل مرتين أيضاً.

صمت سلافه لحظات، كأنما تقلب الأمر في نفسها بين القبول والرفض، وقالت:

- المهم أن يكون الإنسان حذراً فيما يقبل من الأيام، جلول غر أما الشيخ عمار فلعين.

وقف خليفة يهيم بالانصراف قائلاً:

- فعلاً هو خبيث لعين وسيغلق عليه قوقعته كالحلزون، لكنه لا يعرف خليفة، سأعلمه درسا قاسيا.

وفعلاً انزوى الشيخ عمار في غرفته لا يبرحها إلا للضرورة القصوى، محيطاً بنفسه بأخلص خدامه وحراسه، الحمد لله أن الجرح لم يكن قاتلاً بل ولم يكن مؤثراً أصلاً، رصاصة واحدة خرقت أعلى كتفه فأسقطته في مياه الوادي المتدفقة، وأسرع إليه خدومه فأنقذوه، وحين كانوا يهيمون بأخذه إلى الطبيب، رفض الشيخ عمار بشدة، مادام بجرح هو وابنه فليعد إلى البيت تجنباً للفضائح.

وتشمم القايد جلول الخبر فأسرع إلى الشيخ، حين دخل عليه خلوته، راح وهو يعانقه يتقصى آثار الواقعة التي تنامت إليه عبر إشاعات تناقلتها الألسنة خفتونا هنا وهناك، وتحمل الشيخ عمار ألم ضغط جلول على جرحه وهو يعانقه، دون أن يفصح الأمر، وجلسا، كان القايد جلول يقلب الطرف في الشيخ دون جدوى، وأسرع الشيخ يطلب من خدومه الاحتفاء بالضيف العزيز وإعداد الطعام، سأل القايد جلول:

- هل من أخبار ياشيخ؟

وتظاهر الشيخ بعدم فهم قصد جلول، فرد بسؤال:

- في أي أمر؟

وتوجس القايد جلول من رده السريع المقتضب كأنه يجهل ما بينهما، وقال:

- ألم يبتلع ذلك الخنزير نقودنا، ويعدنا بسوقِ أعدائنا كالسائمة إلينا؟ صمت الشيخ لحظات يبحث عن مخرج وقال:

- يظهر أنه مجرد محتمل، عوضنا الله خيراً عما ضاع منا.

وانتفض القايد جلول في مكانه، دفع بطرفي برنسيه على كتفيه وقال:

- تقول هذا لأنك لم تدفع أموالك أيها الثعلب الماكر، سأكتشف حقيقة الأمر طال الزمن أم قصر، وإن تبين خداعك سأقطع رأسك. وخرج عائدا إلى عرشه، مخلفا وراءه زوبعة من الغضب، لكن الشيخ عمار حمد الله عميقا أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

على مر الأيام راحت الجراح تندمل، وراحت الأحداث المتتالية كزخات مطر شتوي غزير تنسي الجميع همومه الذاتية، هم الوطن أكبر من كل جرح، فقد وصل حسان بَلْخَيْرَدُ وسي رابح والعربي المُوسْتَأَشُ إلى الجزائر العاصمة بداية جوان، كان الجو لطيفا، رغم الرطوبة التي بدت مرتفعة أكثر من المعتاد، ظل حسان بَلْخَيْرَدُ طول الطريق يحدث سي رابح عن أحلامه التي لا تنتهي، كأن الرجل يريد أن يفعل كل شيء وحده، يحلم أن يؤسس الكشافة الجزائرية، ويحلم أن يؤسس فريقا لكرة القدم، ويحلم أن يؤسس فرقة للمسرح وأخرى للموسيقى، ويحلم أن يؤسس جمعيات نسوية، ويحلم أن يقيم مدارس وجامعات تدرس باللغة العربية، كان العربي المُوسْتَأَشُ مندفعاً بحماسة يؤيده عند كل فكرة يعرضها راسماً آمالا عريضة، وكان سي رابح يلزم الصمت مرددا في قرارة نفسه: جميل أن نحلم، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

حين استنوا على كراسي المقهى في قلب العاصمة، ليأخذنا قسطا من الراحة قبل الانتقال إلى ناي الترقى، كبلتهم بالصمت الرهيب، كانت المدينة البيضاء عروسا أسطورية تتمدد بفتنتها على الهضاب المترعة بالإخضرار، تمد ساقها في مياه البحر الحاملة، فلا يملك البحر أمامها إلا أن يسكن في خشوع كأنما يؤدي إليها طقوس الولاء، قال سي رابح وهو يتأمل الفضاء أمامه:

- كم هي جميلة هذه العاصمة!

سكت حسان بَلْخَيْرَدُ لحظات متأملا وقد غشيه حزن شديد، وتعال في

أذنيه فجأة أنات تهدل ألام، واستغاثات الأسرى وأنات الأطفال والنساء والأحرار يذبحون كالخراف، ثم قال وهو يشير للعاصمة:
- كأني أسمع أنات هذه العروس الأسطورية، أسمع صرخات الأبطال الشجعان الذين ماتوا هاهنا منذ أكثر من مئة عام ليمنعوا تقدم جراد البحر.

غرق لحظات في يم الصمت، ثم واصل وفي عينيه دموع:
- لو تقرأ ما فعل الفرنسيون بالأبرياء وهم يدخلون مدننا للعت فرنسا والفرنسيين أبد الأبدین، هاهنا في هذه السلحات كانوا يعرضون آلاف الأقراط معلقة في شحم أذان النسوة، وآلاف الأساور مازالت تطوق المعاصم، هل تعرف ما قال الجنرال باراكوي دهيلي لجنده؟ "من يأتيني بعربي حيا فسأبقر بطنه هو بسيفه" هل رأيت يا أخي رابح حقدا أكبر من هذا؟

لم يرد سي رابح، كان الألم يعصره بشلة، كان خياله يستحضر مشاهد الإبادة الجماعية، كان يتخيل وديان الدم التي هدرت على تضاريس هذه المدينة البيضاء المسالمة، وتساءل هل يكفي طرد الاستعمار فقط؟ أليس من اللائق أن تحلم الأجيال بالتأثر أيضا؟ أحس حسان بلخيرد بألم سي رابح فواصل:

- نفسي تلح علي في العودة، لن أشارك في مؤتمر العار هذا، إنه خيانة لشهداء هذه الأرض.

كسر العربي الموستاش طوق الصمت الذي ظل يضربه على نفسه وقال:

- صدقت، لنعد الآن.

رفع سي رابح رأسه على مهل دون أن تغادر الكآبة ملامحه وقال:

- سيلحق بنا الإخوة غدا أو بعد غد، دعنا نحضر ونستمع لما يقولون.

وفلجأهم شاب ماكاد يراه حسان بلخيرد حتى ارتمى في حضنه يعانقه
بحرارة، ثم راح يقدمه لرفيقه قائلاً:
- إنه محمد بوراس، أخي محمد بوراس، قلب الكشافة النابض،
وعقلها الخلاق.

كان في مقتبل العمر، حليقاً، وسيماً، أنيق الثياب، في عينيه بريق تحد،
تعتلي رأسه شاشية حمراء، أصر على دفع ثمن المشروبات، وانتقلوا سريعاً
إلى نادي الترقى، كان الناس هناك كثرة، جاءوا من أماكن مختلفة، حتى من
عمق الصحراء: بشار، ورقلة، تندوف، وادي سوف، بسكرة، والكل
متعطش لمعرفة الجديد.

دخل شاب على الحاضرين وهو يلوح بجريدة فرنسية، ورفع صوته
لافتاً أنظار الجميع:
- هل قرأتم؟

وحين التفت إليه الجميع متشوقين، راح يقرأ بصوت عال:
- رينيه وزير خارجية فرنسا يجدد تهديده للمؤتمرين قائلاً: "إن فرنسا
ستستعمل القوة إذا لزم الأمر للمحافظة على هيمنتها على الجزائر".
ارتفع لغط الجميع، بين متحدٍّ ومستهين، وظهر فرحات عباس من
مكتب جانبي وبجواره ابن جُلُول وعلى ملاحهما تعب وإرهاق وقال معلقاً
على كلام الشاب:

- ومن قال إننا ضد بسط فرنسا هيمنتها على الجزائر؟ نحن معها
وسنساعدها، ولكننا نريد أن نكون شركاء معها، نحن يا إخوان سنطالب
بالمساواة، ليس في إمبراطورية فرنسا مواطن درجة أولى ومواطن درجة
ثانية، الكل سواسية في الحقوق والواجبات.
وخرج مع ابن جُلُول دون أن ينتظر رداً على كلامه، ارتفع صوت
أحدهم في القاعة:

- مabal فرحات عباس يتحدث بدلنا كأننا قُصّر، وكأنه ولي علينا؟
قال سي رايح:

- صدقت لقد تمادى كثيرا، يعتقدنا بهائم يمتطينا كما يحلو له.

انذفع آخر كان قريبا منهما ورد بعنف:

- فرحات عباس رجل مثقف من طراز رفيع، وهو أدرى بمصالح الشعب الجزائري، ولـ..

قاطعته حسان بلخيرد بشدة:

- كلنا مثقفون، وكلنا من طراز عال، ومصالحة الشعب الجزائري في حريته، هذا الشعب ليس فرنسا ولا يمكن أن يكون فرنسا ولو أراد.

واحتد النقاش، واختلطت الأصوات، وأسرع كثير منهم يغادر المقر.

مساء اكتظ المكان المخصص للمؤتمر بمئات الجزائريين الذين تقاطروا من كل فجاج الوطن على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم: العلماء، والنواب، والشيوخ، وقدماء المحاربين، ولم يغيب رسميا عن اللقاء إلا النجم الذي عارضه بشدة، وكان ابن باديس راضيا عنه، إنه أول تجمع يجمع كل الجزائريين ويقارب بينهم، وذلك في حد ذاته مكسب كبير.

تناوب على المنصة ابن جلول، وابن التهامي، وفرحات عباس، والسيد سكوت الفرنسي، ثم ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، ثم دعا الجميع في وثيقة رفعوها إلى باريس أعطي لها اسم "الميثاق المطلي للشعب الجزائري المسلم"، إلى إعطاء الحقوق السياسية للمسلم الجزائري تامة غير منقوصة، ومنح الجنسية الفرنسية لبعض المثقفين الجزائريين دون التخلي عن أحوالهم الدينية، وحرية القول، والكتابة والتعليم العربي، ورفع القوانين الاستثنائية، وشكل المؤتمر وفدا للذهاب إلى باريس يوم 20 جويلية 1936، وتم تشكيل وفد للسفر إلى باريس.

ظل يوسف الروج ينتظر عودة المسافرين متلهفا إلى معرفة أدق تفاصيل

المؤتمر، لقد صرخ فيهم قبل السفر إنها خيانة، والحرية لا يمكن أن تتسول،
حريتنا نحققها بضغط قاتل على الفرنسيين.

وكان اللقاء في بيت سي رابح، الذي بدا مرهقا متعبا وقد علا امتناع
شديد وجهه، ماكاد يوسف الروح يلتحق حتى هب العربي المستأش يقبل
جبهته، قائلا:

- صدقت يا يوسف، ليتني لم أذهب إلى مؤتمر العار، لست من الآن إلا
مصاليا، لقد كفرت بكل الزعامات.

قال يوسف الروحُ ساخطا، وقد بدت عليه علائم الانتصار:

- هل تأكدتم أن سفينة الجزائر يقودها أولاد الخونة والقياد.

نظر إليه سي الهادي عن جنب وقال:

- لا تعمم، فالعمودي والإبراهيمي والعقبي من عامة الشعب، بل
ومن طبقتة الكادحة.

رد يوسف الروحُ سريعا:

- أقصد أن رؤوسهم من أسر أقامت مجدها على موالاة الاستعمار،
حتى ابن باديس نفسه.

رد سي الهادي وقد احمر وجهه غضبا:

- لاتزر وازرة وزر أخرى يا أخي يوسف، ولا يتحمل الأبناء أخطاء

آبائهم.

نظر سي رابح شزرا في يوسف الروح وأراد أن يقول له، لا تنس حتى
أنت ابن قايد، وأخوك وابن أخيك كذلك، ثم أمسك، كان يخشي أن
يتحول الجدل إلى خلاف وفرقة فأسرع يفضه:

- ياجماعة، مالنا ولهم؟ المهم ماذا نفعل نحن، ما شاهدناه في المؤتمر يزيد

من عزيمتنا في حزب الثوار.

وصلق سي رابح، كانت مشاركتهم في المؤتمر دافعا قويا لتأكيد

قناعاتهم الكفاحية، الجهاد وحده هو الطريق الأسلم لاسترداد الحقوق، وعلى الجزائريين إن أرادوا تحقيق حلمهم أن يخطوا للأمر جيدا، ولا يكرروا أخطاء أسلافهم في ثوراتهم الشعبية.

*** ** **

23

لزم حسان بلخيرد مكتبته لا يرحها، يتجمد مكانه قرب المحسب كغدير راح ينضب فجأة، وها سطيف التي رأها ماسة يتيمة متلاثة في تاج ملك نوميدي محارب يتغشاها الغبش فجأة، لقد بدأت أحلام كثير من الجزائريين تتبخر، بعد أن وضعت في قدر المؤتمر الإسلامي على نار الفتنة ومؤامرات الاستعمار، إن السؤال الذي ظل يلح عليهم جميعا هو أي الأنفاق ستخرج بهم إلى نور الشمس؟ لم يقبل الناس بعث النواب، لن ينسى الناس توضيحات أكثر من قرن، إن جراح الأجداد مازالت تنز حتى اليوم، إن صيحاتهم وأناتهم وآلامهم مازال صداها مدويا في كل فج من هذه الأرض، من يستطيع أن يمد يده ليصافح أياد مازالت ملطخة بدم الأبرياء، ما معنى أن نفقد أرضنا ولغتنا وجذورنا لنحافظ على ديننا؟ أي دين هذا الذي يفرط في الأرض، هذه الأرض ليست للبيع، وليست للتنازل، أرض يوغرطة والأمير يجب أن تبقى لأحفاد يوغرطة والأمير، وليذهب الخونة إلى الجحيم، وأي معنى لنضال العلماء إذا كانوا يضعون أيديهم في يد النواب؟

وفاجأه العربي المستاش فأخرجه من سبحاته، قائلا:

- أراك تائها؟

- والله يا أخي اختلفت علينا الطرق، وضاعت الشقراء بين الشقراوات.

جلس العربي الموستاش قبالته وقال:

- الطريق واضح يا أخي حسان، لا يوجد في الدنيا لص يعيد ما سرق بإرادته، فهل تعتقد أن يعيد هؤلاء اللصوص وطنا يشبه الجنة؟
- صدقت.

رد حسان بلخيرد دون أن يغير من وضعية جلوسه، ولا من تضاريس ملاحه، أخرج العربي الموستاش من تحت صدريته كتاب تاريخ الجزائر وأعادته إلى حسان بلخيرد قائلا:

- هذا أجمل كنز عثرت عليه في حياتي.

وضع حسان بلخيرد الكتاب على الحسب وقال:

- أرجو أنك استفدت منه.

رد العربي الموستاش وهو يسند مرفقه على الحسب:

- وهل كنت أعرف شيئا قبله؟ إن الجزائر عظيمة فعلا بتاريخها، هذا الكتاب يجب أن يقرأه الجميع.

استدار إليه حسان بلخيرد بسرعة بعد أن وضع الكتاب في الرف:

- يجب أن يكون هذا يقيننا يا العربي، أرضنا مغتصبة، ويجب أن نردها من براثن الأعداء.

قام حسان بلخيرد متأملا ساعته وقال:

- حان وقت اللقاء، الجميع ينتظرنا يجب أن نسرع.

وماكادا يغلقان الباب حتى حضر سي رابح واتجه الجميع إلى شارع دومال (Daumal) الواقع بحي التمارة حيث سيفتح أول مقر للكشافة، كانوا وهم يثبون السير كنوارس تهفو إلى شواطئ تدغدغها الأمواج، وإلى خلدجان تحتضنها الجبال الصخرية، وكان المحل حافلا بالحاضرين، مترعا بالأحلام الجميلة، وسرى الأمل في نفس حسان بلخيرد، فانتفض وتبرعمت ملاحه.

كانت كلمته قوية، كقنابل تدوي في آذان النائمين، كسيول تغتال الجفاف من القلوب البائسة، تحدث فيها عن واقع الجزائر، وعن محاولات الأجداد لاسترجاع الوطن الغالي من براثن العدو دون جدوى، وأكد أنهم حلقة في هذا الصراع، وعليهم أن يقوموا بواجب التضحية كما ضحى أسلافهم، ناشروا الأمل في نفوس الجميع، ثم تحدث عن مفهوم الكشافة ومبادئها وتاريخ نشأتها ودورها في حياة كل أمة، وختم كلمته بقوله:

- أعتقد أيها الإخوان أنه حان الوقت لتنفصل عن الكشافة الفرنسية، وأن تكون لنا كشافتنا على مبادئنا العربية الإسلامية، سنبدأ من هنا من سطيف، من هذه المدينة المكابرة، وقد بدأ إخوان لنا في مدن أخرى. وسريعا تم تشكيل الفرع الذي ترأسه حسان بلخيرد وسعيد السعيد لاجودان، وأطلق عليه اسم الحياة، وماكادوا يستقرون على ذلك حتى تدخل أمقران معلقا:

- ولكن إياكم أن تحذفوا منه ال التعريف، سيصير اسم امرأة. وانفجر الجميع ضاحكين وقد باغتتهم النكتة، رد حسان بلخيرد:
- المرأة هي أصل الحياة، والحياة أنثى.
واهتزت القاعة بالتصفيق على هذا التخريج الجميل، وكان يوسف الراج أكثر المتحمسين وهو يرى الجميع موجا هادرا سيزلزل كيان الاستعمار الغاصب، وبدأ الجميع ينصرفون وقد تجددت في نفوسهم إرادة العمل.

ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان لقاء الفوج في المقر متميزا، عشرات الفتيان والأطفال بملابسهم الموحدة، بألوان راية الوطن، وقد بدوا كفراشات حلالة بالربيع، بفسيفساء أزهاره، وسنفونيات أطياره، وانطلاق جداوله ونسماته، ولم يعد حلم حسان بلخيرد إلا موسيقى يلحن بها

للوطن أناشيد الفدا والتضحية، وهو يرنو إلى يوم مشرق سيأتي قريبا قريبا.

أقبل سي الهادي محملا بعشرات النسخ من جريدة البصائر وراح يوزعها على الحاضرين، كان صدور عددها الأول فتحا كبيرا للقلوب الحاملة، ما تمتد يد الاستعمار الآثمة لتغلق صحيفة عربية حتى تبرز أخرى، كان الصراع في هذه الأرض هو صراع الحرف، صراع اللسان، كان الاستعمار يدرك أن تغيير اللسان هو تغيير للقلوب وبالتالي الطريق الأسهل للاستلاء على الأرض، وكان الجزائريون يدركون أن هذه الأرض لن تغرد إلا بحروفها النابعة من رحمها.

قال حسان بلخيرد مداعبا:

- جئتكم بهذه النسخ مجانا، دفعت أنا وسي الهادي ثمنها، وفي المرة القادمة على كل واحد منكم أن يشترك في الجريدة.

وتهافت كثير من الحاضرين يسجلون أسماءهم معلنين عن اشتراكهم في الجريدة.

كان نداء الوطن أقوى من كل نداء، وكان الجميع يحس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، لقد بدأت معالم الطريق تتكشف، ودروب المسير تتضح، وراحت الأخبار تتوالى عن النجاحات الكبيرة التي حققها قادة النجم وأنصاره في باريس قلب الاستعمار حين نظموا مظاهرة حاشدة اشترك فيها ثمانون ألفا، رفعوا فيها جميعا العلم الوطني، وهتفوا جميعا باستقلال الجزائر، وإطلاق صراح مصالي ورفاقه.

وغدا مصالي في نظر الجميع بطلا أسطوريا كبيرا، زعيما وطنيا عظيما، وشاعت بين الناس مواقف الصلبة في المطالبة باستقلال الجزائر كلية عن فرنسا، ومطالبته كل القوى الوطنية الأخرى ليغيروا مسارات قوافلهم.

حين تداول الجميع بشأن اختيار الأناشيد التي ستردها حناجر

الكشافة أسرع يوسف الروج بحماسة المعهودة يقدم ورقه لحسان بلخيرد
قائلا:

- أيها الإخوان لقد وصلني نشيد النجم، كتبه شاعرنا مفدي زكريا،
وأنتم تعرفون أن قادتكم في السجون، والوفاء يقتضي تذكركم، أقترح أن
يتخذ فوج الحياة هذه القصيدة نشيدا له.

واستحسن الجميع الفكرة، قال سي الهادي:

- أرجو أن نسمع النشيد ونحفظه جميعا أيضا.
وسلمت الورقة إلى حسان بلخيرد، تأملها لحظات ثم رفع صوته
منشدا:

فداء الجزائر روعي ومالي ألا في سبيل الحرية

فليحيَ حزب الاستقلال ونجم شمال افريقيه

وليحيَ زعيم الشعب مصالي مثل الفدا والوطنيه

و لتحيَ الجزائر مثل الهلال ولتحي فيها العربيه

وامتلا المكان بإنشاد الجميع في حماس كبير لم يألفوه من قبل.

ولم يعد للناس في المدينة من حديث إلا عن ظهور فوج الكشافة،
وتحمس كثير من الشبان على الانخراط فيه، حتى فاقوا التسعين، وقد
قسموا إلى أشبال وفتيان وجوالة، خاصة حين صاروا يخرجون في جولات
كشافية إلى جبل مقرس الشاهق، ووادي بوسلام الكثيف الأشجار، يراهم
الناس طيورا تزقزق في جنبات المدينة، فراشات تحوم ناشرة للأمل، مبشرة
بمستقبل مشرق.

في نادي الشباب جلس حسان بلخيرد يطرح على يوسف الروج وسي
رايح فكرة تأسيس شعبة جمعية العلماء بسطيف، مؤكدا أنها ستكون لبنة
أخرى في صرح الوطن الذي يجب أن يعلو سامقا حتى يبلغ وهج الشمس،
وأقبل سي الهادي مكفهرها وجلس دون أن ينطق، سأل العربي المستاش:

- خيرا سي الهادي، هل من جديد؟
- مؤامرة أخرى حاك الاستعمار نسيجها بإحكام.
- التفت إليه الجميع، وقال سي رابح:
- وهل توقف الاستعمار يوما عن مؤامراته؟
- واصل سي الهادي:
- لقد أعتيل اليوم مفتي الجزائر، الشيخ كَحُول بشارع لالير بالجزائر العاصمة.
- اندفع يوسف الرُّوجُ معلقا:
- أعرفه، اسمه عمر بن دالي إمام المسجد الجديد، وما يقلق؟ هذا عميل الاستعمار، وفرنسا هي التي نصبته مفتيا على الشعب، لا يحسن إلا أن يجرس الاستعمار على العلماء.
- قال سي رابح:
- فليذهب إذن للجحيم...
- قاطع سي الهادي:
- المشكلة ليست هنا، لقد اتهم في الاغتيال الشيخ العقبي، وقد أخذ للمحاكم ومعه عباس التركي.
- ظهرت الحيرة على وجه الجميع، قال حسان بلخيرد:
- يستحيل أن يفعلها الشيخ العقبي.
- قاطع سي الهادي:
- لقد أمسكوا بقاتله ويسمى عكاشة، وادعى أن العقبي هو من حرضه، بل وهو من أعطاه الخنجر.
- لاحول ولا قوة إلا بالله.
- ردها الجميع وقاموا ينصرفون، وقد بدأ الظلام يمد ستائره ليدثر المدينة، لكن الألق المشع في القلوب أملا في مستقبل معشوشب مزهر

24

في الطابق الأول من الحمام كان أمقران يجلس على كرسي في ركن الغرفة يمد جسده إلى الخلف ليلامس رأسه الجدار، ويمد رجله على كرسي آخر، وقبالته جلس العربي المستاش يطوي ذراعيه ويمد عليهما صدره واضعا رأسه على الطاولة كأنما يهم أن ينام، يرسل نظرات متقطعة إلى سي رابح، الذي كان يجلس وفي ركن الغرفة يطل من الباب كأنما ينتظر أحدا، وran على الجميع صمت طال أكثر من اللازم، كأنما كانوا يصنعونه تمهيدا للنوم، لكن سي رابح قطع ذلك قائلا وعلى ملاحظه حيرة:

- لقد تأخروا في الحضور على غير العادة.

رفع العربي المستاش رأسه قليلا ثم أعاده، وعلق ساخرًا:

- ما وقع ثبط العزائم، نرنو إلى الحرية فيدفعون بنا إلى التسول.

ضحك أمقران فجأة باستهزاء دون أن يغير من وضعيته وقال:

- تمخض الجبل فولد فأرا، جمعوا كل هذا الحشد من أجل هذه المطالب.

لم يعلق أحد على كلامه، فواصل متحديا وهو يعتدل في جلسته:

- يجب أن نفشل كل هذه الخزعبلات، هل يأتي الخير من النواب كلاب فرنسا، بني وي وي؟ ومن فرنسا المستعمرة؟ يجب على الناس أن يفتنوا للخديعة.

سرى الحماس في نفس العربي المُوسْتاشُ فاعتدل في جلسته وقال:

- صدقت، عجيبي كيف خدع ابن باديس أيضا وهو...!

أسرع أمقران يجيب عن تعجبه:

- لاتنس حتى ابن باديس من عائلة مقربة من فرنسا.
نهض سي رابح من مكانه واقترب منهم وقد بدا عليه الغضب:
- ياجماعه لا تزر وازرة وزر أخرى، سيدنا إبراهيم كان ابن طاغية،
ويوسف الروح بن قايد وأخوه قايد.
وسكت فسكتا وقد أحرستهما الحجة، أدرك سي رابح ذلك فواصل
قائلا:

- لا نتعجل ولننتظر نتائج عودة الوفد من باريس.
- تقصد حتى نباع كالسائمة في سوق الاستعمار؟
سأل أمقران بغضب دون أن يرفع صوته، وتناهدت للجميع حركة
أقدام تصعد الدرجات إليهم، فقال سي رابح:
- لقد وصلوا.

وماهي إلا لحظات حتى دخل سي الهادي ولحقه يوسف الروح سريعا،
والتقى الجميع على الطاولة التي اشتراها سي رابح مع ثمانية كراس منذ
مدة، ووضعها في غرفة علوية من الحمام لمثل هذه اللقاءات، أسرع سي
الهادي يسأل وهو يعد الكرسي للجلوس:

- ما في الجعبة؟

رد يوسف الروح:

- يظهر أن الأمور قد تغيرت، ماكاد الوفد يحل بباريس حتى غير ابن
باديس رأيه تحت تأثير مصالي الحاج، وقد عاد مصالي إلى الجزائر ورغم
الإرهاق فقد ألقى خطبة مدوية، صاح في الجميع وهو يرفع ذراعه ويذري
حفنة من تراب حملها قبل دخوله: يا إخوان هذا التراب ليس للبيع، ليس
للبيع، ليس للبيع، ودوت الحناجر صائحة بحياة الجزائر وحيات مصالي الحاج،
الذي ما كاد يخرج حتى حملته الجماهير الشعبية على الأكتاف، وانطلقت
تجوب به الشوارع منادية باستقلال الجزائر، وصارت كلمته الخالدة "هذا

التراب ليس للبيع" لازمة لنشيد أسطوري عملاق ظلت تردده الجماهير المتعطشة للحرية والكرامة في كل شبر من أرض الجزائر.

بدا الفرح على كل الوجوه، أضاف العربي المستاش:

- لم يبق إلا النواب يلمون بمثل هذه المطالب..

قاطعهم أمقران سائلا:

- هل معنى هذا أن كل شيء قد انتهى؟ فليعلنوا الثورة إذن، أو..

وسكت، وهو ينقل بصره بين الجميع، ثم واصل:

- أو فليذهبوا إلى الجحيم، بل...

قاطعهم سي الهادي:

- لا، الجميع بما فيهم النجم وعلى رأسه مصالي سيلتقون في مؤتمر إسلامي ثان صيف العام القادم.

تدخل سي رابح شارحا:

- ورغم ما وقع مازال عند بعض الناس أمل في تفهم فرنسا، خاصة وقد دان الحكم فيها للجهة الشعبية ذات التوجه اليساري، حتى أن محمد العيد شاعر الجمعية أنشد قائلا:

فاز فيك اليسار، فالיום لا عسر أليس اليسار فالاحميدا؟

يا فرنسا ردي الحقوق علينا وأقلي الأذى، وكفي الوعيدا

نحن رغم الطغاة في الدين أحرار وإن خالنا الطغاة عبيدا

قرأ الأبيات من جريدة بسطها أمامه علق سي الهادي:

- الله أبيات جميلة، فيها كبوة، ثم نهضة عملاقة.

سأل سي رابح:

- أين الكبوة؟ وأين النهضة؟

- الكبوة حين استجدى فرنسا في البيت الثاني، والصواب أن الحقوق

تؤخذ ولا تعطى، ولكن الشاعر بحسه الجميل صحح خطأه في البيت

الثالث حين قال: نحن أحرار رغم الطغاة.

تدخل يوسف الرُّوجُ وعلى وجهه ابتسامة، كأنما يخشى رد الفعل العنيف:

- محمد العيد شاعر كبير، ولكن مفدي زكريا أشعر منه بكثير.
- ظهرت الحيرة على وجه سي الهادي، لهذه الموازنة، فقال:
- ماكنت أعتقد أن يوسف الرُّوجُ يفهم أيضا في الشعر.
- أسرع يوسف الرُّوجُ يرد كأنما يريد أن يقطع الطريق على نقده.
- أنا كهذا سمعت العارفين في الجزائر العاصمة يقولون.
- ضرب العربي المستاش على الطاولة بعصبية وقال:
- بل أنا أشعر منهما.

فض سي رابح النقاش وهو يقول:

- يا جماعة دعونا من هذا الجدال العقيم، لنعد لما هو أهم.
- وليس أهم عند الجميع من حزب الثوار، هذه النبتة الفتية التي ساهموا جميعا في سقيها ورعايتها، وهم مستعدون أن يقدموا أرواحهم من أجل أن تصير دوحة ظليلة، وتركز نقاشهم على ضبط طرق جمع المال أولا، المال هو شريان كل ثورة، إضافة إلى الرجال الذين يفجرونها، ولفت أمقران إلى فكرته الأنظار وهو يقول:
- كلما تأملت أطفال الكشافة، تخيلتهم ثوارا كبارا، هم أقدر على تأجيج نار الثورة.

علق سي رابح وقد أعجب بالفكرة:

- صدقت علينا الاقتراب منهم، لابد من جذبهم إلينا، لنجدهم في الوقت المناسب.

قال يوسف الروج:

- عندي فكرة أخرى، راودتني من مدة، وأرى أن الوقت قد حان

لمناقشتها.

وسكت كأنما يقصد إثارة مزيد من التشويق، تركزت عليه الأبصار،
سأل أمقران:

- قل شوقتنا يارجل، وأنت صاحب الأفكار النيرة.

سأل يوسف الروح:

- أين تقوم الثورات في العادة؟

رد سي رابح سريعا:

- سنفجرها في كل مدننا.

أضاف العربي المستاش:

- وقرانا وجبالنا...

قاطع يوسف الروح:

- عظيم، لقد حضرنا الأمور داخل المدينة، فماذا فعلنا في جبالنا؟

كان السؤال مبالغتا، ولكنه جدير بالاهتمام أيضا، رد سي رابح:

- سؤال مهم، طبعاً لم نفعّل شيئا، وعلينا أن نتحرك، الجبال القريبة

تحتاج إلى اكتشاف وإعداد.

قال أمقران مقاطعا:

- أنا أضمن مسحا لجبال بابور، وأضمن أيضا تحضير خلايا هناك، أنا

ابن المنطقة وأعرفها جيدا.

قال يوسف الروح وقد انبسطت أساريه لنجاح فكرته:

- الجبال الحصينة في منطقتنا كثيرة، لا بد من تشكيل خلايا في جبال

أولاد تبان وبوطالب ومقرس وبابور.

وتعالى فجأة بكاء طفل في بهو الحمام يطلب العربي أو سي رابح،

ونشط سي رابح ينزل الدرجات بحففة، ولحقه العربي المستاش، كان حفيد

مسعود بولقباقب ينتحب بشدة، أسرع سي رابح يسكته مستفهما:

- على مهلك، حدثني ما الذي وقع؟

رد الطفل بكلمات متقطعة:

- جدي مسعود يريدك أنت وعمي العربي.

سأل سي رابح مرة ثانية:

- مابه جدك؟

- لاشيء، أمي مريضة.

ورفع سي رابح صوته مناديا أمقران الذي لى سريعا، ركبوا سيارته واستوى سي رابح في مقعدها الخلفي يضغط الطفل إليه، وهو مايزال يجهش بصوت عال، ردد سي رابح في نفسه وهو يرى السماء قد غشيتها سحب مفاجئة، حين يبكي الأطفال تبكي السماء، حين يغضب الأطفال يغضب الله.

بعد لحظات كانوا داخل البيت، كان مسعود بولقباقب يجلس وسط الغرفة الوحيدة حائرا، والأم تتمدد على حصير حلفاء منتفضة، وبناتها يحطن بها دامعات العيون وقد توحش الخوف على وجوههن، قال سي رابح مطمئنا:

- خيرا خيرا إن شاء الله، لا خوف عليها.

ومد يده إلى جبهتها مبسما، تاليا آيات من القرآن الكريم، فلا تزيد إلا انتفاضا، ثم ما تفتأ حتى تهدأ مرددة كلاما غير منسجم، ويزداد الأولاد بكاء، سأل أمقران:

- مم تشكو؟ هل هي مريضة من قبل؟

رد مسعود بولقباقب مضطربا:

- لم تشك في حياتها، تكتم وتغالב حتى وإن كانت مريضة، أعتقد أنها تخبط ساقية الصرف هذا المساء فمستها الجن.

قال العربي المستاش:

- هي في حاجة إلى شيخ لا إلى طبيب.

وفعلا حملت إلى شيخ، ربطها بحبال وسط الغرفة، ووضع إناء من الماء عند الباب، وراح يجلدها بسوط في يده متمتما بطقوس وآيات، يرفع بها صوته أحيانا ويخفضه، مطالباً الجني بالخروج:

باسم الله الواحد القهار، تخرج يا غادر يا مكار...

وإن هي إلا ساعة من زمن حتى رأوا إناء الماء يهرق بقوة، فيهتفون:

- الله أكبر، لا إله إلا الله.

وتفطنت المرأة عائدة إلى حالتها الطبيعية كأنما كانت في عالم الغيب،

وانفجرت تبكي بحرقة.

في الغد رافق أمقران وسي الهادي أفواج الكشافة في جولتها في وادي بوسلام، كانوا كالفراشات الحاملة، كالعصافير المرفرفة يخلقون بأرواحهم البريئة، مرددين أناشيد وطنية كثيرة، ولا يملك أمقران نفسه فيصفق عاليا، هاتفا بأعلى صوته:

- تحيا الجزائر.

وتنبسط أسارير سي الهادي فيرنو أمقران ببصره إلى قمم الجبال المحيطة متخيلا أطفال الكشافة عليه جنودا مدججين بالأسلحة، مزعزين استقرار الاستعمار، منغصين نعيم المعمرين.

*** **

25

فتحت سطيف عينيها باكرا على حركة نشيطة لم تألفها، وعلى مظاهر لم تشاهدها، خرج حسان بلخيرد من مكتبته، تجول سريعا في كل الشوارع المحيطة مقتربا أكثر من الفرنسيين، قريبا من الكنيسة الكاثوليكية عند بوابتها لمح العربي الموستاش وأمقران يقفان لا يكادان يتحركان وكأنهما

تمثالان، وصل إليهما حسان بلخيرد، وقف أمامهما، تأمل وجهيهما، وراح يلوح بيديه على عينيهما، فانفجرا ضاحكين، جميعهم كان يلبس صدرية خضراء وقميصا أبيض وربطة عنق حمراء، واعتمر كل منهم شاشية بيضاء، طُرز عليها هلال ونجمة بالأحمر، قال حسان بلخيرد مزهوا:

- المدينة كلها ترتدي ألوان العلم الوطني.

أضاف أمقران:

- لقد أغظناهم، على وجوه الفرنسيين حقد كبير.

ضحك العربي المُوسْتَأَشُّ وهو يدقق النظر في باب الكنيسة:

- فلينفجروا، إنه يوم التحدي، نحن أحرار فيما نلبس.

سأل حسان بلخيرد:

- وأين البقية؟

رد أمقران:

- توزعوا على نقاط تواجد الفرنسيين، سي رابح وسي الهادي ذهبوا

إلى عين الدروج أمام كنيسة البروستانت، ووقفنا نحن هنا عند كنيسة

الكاثوليك، اليوم الأحد والفرنسيون يتوافدون كثيرا على الكنيسة.

قاطعته العربي المُوسْتَأَشُّ بحماس:

- سأركز على فرانكو اللعين، أو على ماران الأحمق، إن نطق أحدهما

بنصف كلمة سأهشم رأسه الأرعن.

قال حسان بلخيرد محذرا:

- إياك أن تفعل.

واندفع مبتعدا حالما باليوم الذي سيرفع فيه العلم الجزائري خفاقا في

سماء الوطن المفدى لا ينافس فيه أحد.

أحس المعمرون بالاستفزاز الكبير، هذه اليقظة التي راحت تسري في

نفوس الناس لا يمكن أن تبشر بحير، ولعل الأيام القادمة تختزن أعاصير

ستهد حصونا بنوها منذ أكثر من قرن، فخرج العشرات منهم إلى شوارع المدينة مدججين كعادتهم بأسلحتهم المختلفة، حاملين في تحد سافر علم فرنسا على سياراتهم وحتى ظهورهم، وسريعا انتشرت الشرطة في أماكن متفرقة مدعومة في بعض الأماكن بقوات الجيش، تحسبا لاندلاع مواجهات قد لا تحمد عقباه.

وأسرع سي رابح وفرحات عباس يمنعون الناس من الاحتكاك بهم، ويدفعون بهم إلى لزوم أحيائهم وبيوتهم، واندلعت طلقات نار متتالية مزوجة بصيحات تحد يطلقها فرانكو وبرال وماران، تسب العرب وتحط من قيمتهم.

بعد يومين من الحادثة كان الجميع على موعد في بيت حسان بلخيرد مشاركين في الإعلان عن زواجه، وكان وهو يقف في أجمل ملابسه يستقبل الضيوف بفرح غامر وإلى جانبه يقف صهره عبد القادر يعلي، قال أمقران مداعبا:

- الآن أصبحت كالرجال يا سي حسان.

رد حسان بلخيرد سائلا:

- وماذا كنت من قبل؟

رد أمقران سريعا كأنما كان ينتظر السؤال:

- من قبل كنت سيد الرجال، الزواج قيد وتكبير يا أخي حسان.

ودخل الغرفة وقد امتلأت مدعويين جلسوا على زرابي يسندون ظهورهم على الجدران، وقد بدت الغرفة فارغة إلا من خزانة صغيرة تقف في الزاوية وضع عليها إطار كبير به صورة الأمير عبد القادر، ارتفع صوت علال القهواجي وهو يرى حسان بلخيرد يمد رقبتة من الباب:

- مبارك عليك الزواج أخي حسان، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

ضحك الجميع، وارتفعت أصواتهم:

- آمين.
- سأقيم لكم عرسا لم تشهد له المدينة مثيلا.
- سكت لحظات يتطلع في الوجوه وقال:
- حين أتزوج وريثة المرقومة.
- ورد الجميع أيضا بصوت مرتفع:
- آمين.
- وسأسقيكم جميعا خمورا معتقة لم تشربوها في حياتكم.
- ضحكوا جميعا، فرد أمقران:
- سنشربها إكراما لك.
- رد سي رابح:
- أنا أتنازل عن حصتي لعلال ونادله بشير.
- ودخلت عليهم صحون الحلويات والتمور والمشروبات، فانصرف الجميع إليها، لكن أصواتا راحت ترتفع من حين لآخر تبارك لحسان بلخيردٌ وصهره عبد القادر يعلى، وماكاد يوسف الروج يحس أن الجميع قد بدأوا يكتفون مما وضع أمامهم حتى استغل الفرصة وقال:
- أيها الإخوة يظهر أن أفراحنا لن تنتهي.
- علق أحد الحاضرين مقاطعا:
- اللهم اجعله فرحا دائما متصلا، حتى تستقل الجزائر.
- ارتفعت أصواتهم جميعا:
- آمين، آمين.
- تنحج يوسف الروج مقاطعا للجميع وهو يشير بيديه:
- أريد أن أرف إليكم أيها الإخوان نبأ تأسيس حزب الشعب الجزائري.
- سأل علال القهواجي منزعجا:

- حزب الشعب الجزائري؟! كفانا أحزابا.

أسرع سي رابح بيدد الحيرة:

- ليس حزبا جديدا كما تظنون، بل هو استمرار لنجم شمال إفريقيا التي حلته فرنسا منذ سنوات، وسيحتفظ الحزب بجريدة الأمة التي تصدر بالفرنسية من باريس، وأضاف إليها جريدة الشعب تصدر في الجزائر بالعربية أسند الإشراف عليها إلى الشاعر مفدي زكريا.

مساء لم يكن للجميع من حديث إلا نبأ ظهور حزب الشعب، ولم يكن من هم ليوسف الروج ورفاقه إلا استقطاب الجميع للنضال في صفوفه، قال أمقران وهو يجلس إلى بعض رفاقه في نادي الشباب مؤيدا:

- سنكون جميعا جنودا في صفوفه.

نظر يوسف الروج لسي الهادي وسأله:

- ما رأيك يا سي الهادي؟

سكت سي الهادي لحظات وقال:

- الجماعات والأحزاب يا إخوان ليست غايات ولكنها وسائل، وهدفنا الأكبر هو وطننا، ولذلك لا أمانع في النضال داخل كل جماعة تحمل قناعاتي

بدا البشر على ملامح يوسف الروج وقال:

- بوركت، يسعدني هذا الطرح العميق.

علق سي رابح:

- فعلا هو طرح عميق، أقترح أن نتصل بالجميع فردا فردا لا نستثني أحدا حتى حدة المخرومة ووريدة المرقومة، وخلاف التيقر، وعصابة الموت.

- هم أكثر غيرة على الوطن من القياد والنواب.

قالها العربي المستاش ثم أحجم فجأة وقد دوت فجأة ثلاث طلقات امتزحت بنباح لم يشأ أن يتوقف، أسرع الجميع إلى الشارع، عشرات من

الناس كانوا يهرعون، انطلق العربي المستاش ويوسف الروج حيث سمعت الطلقات، ماكادوا ينعطفون باتجاه سينما فاريتي حتى وصلت الشرطة التي أطلقت عيارات نارية تحذيرية، وبدأ الناس يتفرقون كان ماران واقفا قد جلله الغضب يمسك بسلسلة كلبه بيسراه ومسدسه بيمنه، وكان علال القهواجي منبطحا أرضا لا يبدي حركة والدماء تنزف من عضده، أسرع العربي المستاش إليه، ماكادت يده تمتدان إلى جثته حتى هاجمه الكلب وألقاه أرضا، وتدخل يوسف الروج لإبعاد الكلب، أطلق رجال الشرطة عيارات جديدة في الفضاء، وأمر الضابط ماران بسحب كلبه والدخول إلى قاعة السينما.

حمل الثلاثة إلى المشفى لإسعافهم على أمل تقديمهم للمحاكمة، لكن الناس تجمهروا بكثرة يملأون المدينة، تكفي شرارة واحدة لإشعال النار في هذا الغضب الذي قد يدمر كل شيء، ولم تجد الشرطة بدا من إطلاق سراحهم.

وراح العشرات يتوافدون على بيت علال القهواجي لعيادته وإبداء التضامن معه، سأل سي رابح وقد كان يجلس بجانب علال القهواجي الذي كان يمتد في فراشه:

- ولماذا تهيج ماران حقدا يا علال؟

قال علال القهواجي وقد ظهر الألم على وجهه ممزوجا بانتشاء:

- كنت في الشارع خلف وريدة، وماكادت تصل إلى سينما فاريتي حتى مد ماران يده إليها معاكسا، ولم تتمالك هي نفسها فصفعته.

قال حسان بلخيرد:

- يستحق الصفع ابن الكلب.

واصل علال القهواجي وهو يلاحظ فرحا على الوجوه.

- ولم أتمالك نفسي فنطحته برأسي حتى تهاوى أرضا.

هلل الجميع وصفقوا مرددين:

- بطل بطل يا علال.

- لكنه أسرع يخرج مسدسه ويطلق علي ثلاث طلقات، أصابت واحدة عضدي، ثم هاجمني الكلب بوحشية فطرحني أرضا، ولولا تدخل الناس والشرطة فيما بعد لكنت ميتا.
وقاطع بشير النادل الجميع وهو يحمل لعالل هدية من وريلة المرقومة رافعا صوته:

- يا علال هذه هدية من وريلة المرقومة.

وأسرع علال يعتدل في جلسته يفتحها بشغف، واصل بشير النادل:

- وأرسلت لك معها قفة فواكه.

تبسم علال القهواجي حتى ظهرت أسنانه المتهرئة وقال:

- حفظها الله، وكثر خيرها.

علق العربي المستاش وهو ينقل عينيه في الجميع:

- كل هذا يدل على حب وريلة المرقومة لعالل القهواجي.

ثم توجه إليه وقال:

- إنها تعشقك وأنت لا تبالي بها.

رد علال غاضبا:

- وأنت حسود، رجوتك أن تكتب لي قصيدة في حبها لأتغنى بها

فرفضت.

تعالت الضحكات واختلطت الأصوات، وقام الجميع منصرفين، كان

سي رابح يردد على مسمع الجميع بصوت مرتفع: لقد صار الحب مبصرا

بعد قرون من العمى، كل تطرف مدمر إلا تطرف في الحب.

بعد صلاة العصر كان للجميع لقاء آخر، بعيدا عن أعين فرنسا

وأتباعها، وانتخب الجميع شُعبة جمعية العلماء بسطيف، فكانت انتصارا

جديدا أضيف للانتصارات التي ما فتى الشعب يحققها ومافتتت تحدث زلزالا عنيفا في كيان الاستعمار، واثارت ثائرته فاندفع على غير هدى ينشر جرائمه في كل مكان مكمما صوت الحرية، ولم يترك المعمرون وسيلة من وسائل إذلال الشعب إلا استعملوها، متحدين كل قيم الإنسانية، وكل القوانين والأعراف، متحدين حتى سلطة باريس نفسها، حتى صرح وزير داخلية فرنسا البير صارو (Alber Sarou) قائلا: "إن المعمرين لا يملكون وطنية ولا عقولا ولا قلوبا، وكل ما عندهم هو الجهاز الهضمي". وأصيب جميع الجزائريين بانتكاسة كبيرة وهم يرون قادتهم يساقون للسجون، لقد ألقى القبض من جديد على مصالي ورفاقه: عمار عيماش، حسين الأحول، مفدي زكرياء، رابح موساوي، كحال أرزقي، خليفة بن عمار وغيرهم، وزج بهم في سجن بربروس، ولم يكن لهم من أنيس إلا نشيد الرعد الذي كتبه مفدي زكريا بالسجن نفسه في الزنزانة رقم 65 يوم 29 نوفمبر 1937.

اعصفي يا رياح واقصفي يارعود
واثنخي يا جراح واحدقي يا قيود
نحن قوم أبلة
ليس فينا جبان
قد سئنا الحياة
في الشقا والهوان
لائل الكفاح لائل الجهاد
في سبيل البلاد

وقد ظل حسان بلخيرد الأيام يلحن النشيد ويحفظه لأعضاء الكشافة، وظل الجميع يرددونه في كل مكان، حمام سي رابح، مكتبة الترقى العربي، مسجد المحطة، مقر الكشافة، الكتابيب، الدكاكين، المقاهي، الأسواق... حتى

علال القهواجي علَّقَه داخل المقهى، وحتى بشير النادل حفظه وراح يردده رافعا رأسه إلى الورقة على الجدار متظاهرا بمعرفة القراءة.

ووجد المعمرون فرصة يشفون بها غليلهم حين دعاهم الجيش والشرطة لسوق الناس عنوة إلى الحرب، لبس فرانكو بدلته العسكرية وحمل مايقدر على حمله من الأسلحة وخرج مزهوا يصفق له حقه مشجعا، عند الباب وجد ماران وبارال وعشرات المعمرين ينتظرونه وقد أعدوا أنفسهم أيضا، ركبوا في سيارات عسكرية وانطلقوا باتجاه السوق، قال فرانكو ضاحكا:

- أريد أن أرى اليوم قمة القسوة، هؤلاء العرب لا يصلحون إلا للموت، يجب أن نسوق كل القادرين دون استثناء.
رد ماران مازحا:

- ولم لا حتى الشيوخ والعجائز؟

قال بارال بحقد:

- أولئك سأجد لنفسى اليوم عذرا لأطرحهم أرضا وأدوس على بطونهم القذرة.

وصلت السيارات إلى السوق، بعد لحظات تهاطل عشرات الجنود ورجال الشرطة، واقتحموا السوق بسرعة عجيبة، بدأ الناس يفرون، تاركين أنعامهم وطيورهم وكل سلعهم التي يبيعونها أو التي اشتروها، وسبق العشرات من الشبان إلى المراكز العسكرية، راحوا بعدها يجوسون خلال الشوارع والديار باحثين عن شبان آخرين دون جدوى، لم يعد بالاستطاعة سوق الناس بسهولة بعد الخديعة التي ارتكبوها في السوق.

دخل العربي الموستاش البيت يكاد ينهار، لاحظت حمامه ذلك عليه، سألت:

- خيرا، مالك تكاد تموت؟

لم ينطق، اكتفى بسحب حمامه خارج البيت إلى الفناء، زادت حيرتها،
أعدت السؤال مرة ثانية، رد كالهامس:

- لقد اعتقلوا الطاهر.

وسكت، فانهارت بجواره تكاد تلتصق به، رفعت رأسها إلى باب البيت
لتتأكد أن أمها لم تخرج، وأعدت السؤال بلحاح وقد بدا عليها انهيار
شديد.

-ماذا قلت، اعتقلوه في السوق، هل معنى ذلك...؟

قاطعها العربي المستأش بجزن:

- لالتخبري والدتك، لقد اعتقلوا عشرات الشبان، سيسوقونهم إلى
جبهة الحرب مع ألمانيا، حين تعلم خالتي عقيلة ستموت.

نهضت حمامه دامعة مرتجفة ودخلت البيت تمسح دموعها بأصابعها
خشية أن تراها أمها، لكنها علمت في الغد حين لم يعد الطاهر إلى البيت
على غير عادته، علمت أن فرنسا قد ساقته مع العشرات إلى الموت، علتها
صفرة شديدة، اعترتها رجفة ظهرت حتى على شفيتها وأجفانها، حنطها
خرس رهيب، وظلت عيناها تدوران في الفراغ.

*** **

26

فتح الناس أعينهم صلبا على محاولة اغتيال ماران وهو يتجه إلى بيت
فرانكو، وأشيع أن المثلث الذي هاجمه بعضا شجت رأسه وألقته على
الأرض مغمى عليه لم يكن سوى خلاف التيقر، لكن الشرطة لم توجه
التهمة لأحد، ربما لأنها لم تجد الدليل الكافي، فليس من مصلحة فرنسا
الآن وهي تخوض حربها ضد الألمان أن تثير مشاعر الناس ففتتح على
نفسها جبهة داخلية قد تعصف بتواجدها في الجزائر.

واجتمع الناس في أماكنهم العامة لاموضوع لحديثهم إلا محاولة اغتيال ماران، يطمطون فيها ويتزيدون، مخمنين فاعلها ودوافعه، لقد أشيع لدى أكثرهم أنه خلاف التيقر، وظل بعضهم يجزم أنها وريدة المرقومة انتقاما لشرفها، واتجهت بعض الأصابع لعلال القهواجي الذي كان يطرب لسماع ذلك، خالقا من نفسه بطلا شعبيا كبيرا.

قال العربي المستاش معلقا على الحادثة وهو يجلس في مقهى العرب، متعمدا إثارة مشاعر علال القهواجي:

- يظهر أن عشاق وريدة كثر.

نظر فيه علال شزرا وقال:

- سأقطع رأس كل من يتناول عليها.

غرق العربي المستاش في الضحك ثم قال مغنيا:

ورَيْدَهُ شَمْسِي حُنَيْنَهُ

طَلَّتْهَا اتْنَحِي لَعْبِينَهُ

عَيْنِيهَا قَمْرًا ضَوَّابَهُ

فِي قَلْبِي جَمْرَهُ كَوَّابَهُ

عَلَّالِ يَسْتَنِي فِيكَ

يَسْعُدُكَ فَالِدُنْيَا وَيَمْنِيكَ

اِدْبِرْكَ فِي قَلْبُو وَاحْبِيكَ

أَنْتَ وَاهْلُكَ وَأَمَّا لِيكَ

وصفق علال عاليا وأسرع إلى العربي المستاش، فقبل رأسه قائلا:

- الله يا العربي يا أخي، أريدها قصيدة طويلة يتغنى بها الناس جميعا،

أريدها أفضل من قصيدة سعيد وحيزية.

ورفع صوته أمرا بشير النادل بتوزيع المشروبات على كل الحاضرين

مجانا.

وراح يوسف الروج ينبه الحاضرين إلى اقتراب وقت اللقاء في مسرح المدينة، شربوا ماقدم لهم على عجل، وهرعوا جميعا متجهين، إلى المسرح، كان الحشد أمامه غاصا، وكان حسان بلخيرد ينتقل بين داخل القاعة والساحة الخارجية مرحبا بالحاضرين وقد بدت ملامح الانتصار على وجهه، هاهو حلمه الثاني يتحقق في تكوين فرقة موسيقية مستقلة عن فرنسا أطلقوا عليها اسم فرقة السعادة، اصطف الأعضاء على المنصة موزعين بشكل منتظم وقد حملوا آلاتهم الموسيقية، وامتلأت كل الكراسي حتى في الشرفات، كان الجميع يتطلعون لانطلاق الحفل، وكان حسان بلخيرد يقف على المصطبة ويده ورقة صغيرة يتطلع بقلق إلى الباب الخارجي، وفجأة راح وقع أقدام يقترب فصمت الجميع وتطلعت عيونهم إلى الخلف، لقد وصل الشيخان ابن باديس والابراهيمي برفقة فرحات عباس، وتعالت التصفيقات تحية لهم، رحب حسان بلخيرد بالشيخين وبكل الحاضرين، ثم قدم نبذة عن الفرقة وظروف ودوافع نشأتها، وأعطى الإذن بتقديم وصلات موسيقية وأغان محلية، فردية وجماعية برع فيها محمد بن شايب، وعباس رزيق، ومهداوي العربي وغيرهم، وصفق لها الجميع طويلا.

وتدافع الناس وهم يتجمعون أمام المسرح يأخذون صوراً تذكارية مع الشيخين ومع أعضاء الفرقة، وكان سي رابح حريصا على تقديم مسعود بولقباق وحفيده في كل صورة، ثم راح سي رابح يسحب ضيوف سطيف إلى بيته لحضور مأدبة أقامها على شرفهم، واشترك فيها العربي المستاش وأمقران، حين استووا في أماكنهم داخل البيت قال سي رابح مرحبا:

- والله شرف كبير أن يدخل بيتي أمثالكم من العلماء المجاهدين.
قال ابن باديس مازحا:

- لقد أكلت كثيرا في بيوت أبناء سطيف، وجودة طعامهم لا مثيل لها، وفي كل مرة أتأكد من ذلك أكثر.

ضحك الجميع مؤيدين الشيخ، وعلق الإبراهيمي قائلا:

- الشائع أن من شرب من عين الفوارة مرة لا بد أن يعود، ومن أكل طعاما سَطِيفِيًّا لا بد أن يتزوج سطيفية.
ضحك حسان بلخيرد وقال:

- انج بجلدك ياشيخ، هؤلاء يريدون تزويجك إحدى بناتهم، كما زوجوني.

ضحك ابن باديس وقال:

- سعد بن قطوش السطيفي أهم أساتذتي بالزيتونة، لولا أنني حملت الجزائر في قلبي، ونذرت لها عمري لتزوجت سطيفية.

صفق الجميع معجبين بتعليق الشيخ، فواصل:

- هذه المنطقة أنجبت رجالا كبارا، من الحسين الورتيلاني صاحب الرحلة، إلى سعد بن قطوش، والفضيل الورتيلاني، والشاعر مبارك جلواح، إلى شيخنا وعلنا الجليل محمد البشير.

ومد عينيه يتأمله بإعجاب وتقدير وهو يجلس قبالة في قشابيته الدرعاء التي قلما فارقتة، فأحس الجميع بالتفاخر وهو يثني على أبناء منطقتهم. ونشط سي رابح يساعده العربي المُوَسْتَأَشُ وأمقران في تقديم الطعام للحاضرين.

مساء كان بعض أعضاء الفرقة يتدربون على عزف أناشيد وضعها حسان بلخيرد، وأعضاء فرقة الكشافة يرددون كلماتها، دخل العربي المُوَسْتَأَشُ يحمل قصبه يراع أعضائها خصيصا، قال العربي المُوَسْتَأَشُ:

- حتى نحن يجب أن نشارك، لا تنس أنني بارع في العزف على القصبه، حين كنت أعزف مع شياهي في قمة الجبل كان كل شيء يتراقص،

حتى الحجارة كانت تتراقص أمامي، ويمكن أن تختبرني ياسي حسان.
وانضم إلى المجموعة يتدرب، دون أن تغادر صورة الطاهر خياله وقد
كان رفيقه في جبال أولاد سيدي علي، حين كانا يقضيان الساعات الطوال
مع الأغنام، يداعبان الناي والقصبة، وكان الطاهر بارعا في العزف على
الناي، إيه أين أنت يا الطاهر؟ هل أكلتك الحرب أم مازلت حيا ترزق؟
هل يقدر الله لنا رؤيتك ثانية أم هو الفراق الذي لا لقاء بعده؟ ما أشقى
أمك المسكينة! لم تمنحها الحياة فرصة لاسترداد أنفاسها، وها الجميع ينتظر
أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، مذ جند الطاهر في حرب الألمان وهي تعيش
انهيارا شديدا، وأخرجه حسان بلخيرد من شروده قائلا:

- أمة دون فن أمة ميتة، ولا أدل على هبوط الأمة من هبوط فنها، علينا
أن نتخذ الفن لنصرة قضايانا العادلة، ونشر الفضيلة في الناس.

لم يحضر سي رابح ذلك اليوم، ظل يعد نفسه للسفر إلى العاصمة،
وسيكون برفقته يوسف الروج والعربي المستاش، وربما حسان بلخيرد،
بعد العصر التقى بهم سي رابح في الحمام، وبدا اللقاء شبه اجتماع، قال
سي رابح:

- يا إخوان الوضع لا يبشر بلخير، والعالم مقبل على حرب قد تسحق
كل شيء أمامها.

قال حسان بلخيرد:

- ألا ترى أنها حرب في صالحنا، لقد سلط الله هتلر على فرنسا
الظلمة.

مط سي رابح شفتيه وقال:

- صدقت، إذا عرفنا كيف نستغل الأحداث لصالحنا، وإلا يصدق علينا
المثل: إذا تسابقت الأفيال فلخاسر الحشيش.

قال أمقران متحمسا:

- أرى أن نعلن الثورة ضد فرنسا حين تشغل بحربها مع الألمان، إنها فرصتنا التي لا تعوض.

أعجب الاقتراح العربي المُوسَّتاشُ فقال:

- صلِّقُ أمقران، لن نجد فرصة مثل هذه، لقد دللناها كثيراً.

نشر سي رابح جرائد أمامه وراح يعلق على ما يقرأ:

- يا إخوان فرنسا تضغط على الجميع من أجل تأييدها في حربها ضد الألمان، وستعصف بكل من يرفض.

سأل العربي المُوسَّتاشُ:

- لا يمكن لمسلم أن يؤيدها، فرنسا عدوة، وعدوها صديق لنا.

تبسم حسان بَلْخَيْرُ وقال:

- أما حزب الشعب والعلماء فمن المؤكد أنهم لن يؤيدوا فرنسا في حربها، إن لم يقفوا ضدها فلن يؤيدوها، أما النخبة والنواب فسيهرعون لتقديم الدعم.

وفعلا حدث ما ذكره حسان بَلْخَيْرُ، لقد تناقلت صحف الصباح موقف القياد والموظفين وأصحاب الزوايا والطرقية والنواب من الحرب العالمية الثانية، إنهم لم يؤيدوا فرنسا فحسب، بل تطوعوا جنوداً في قواتها، وعلى رأس الجميع فرحات عباس وابن جَلُول والأخضري، وأعلن حزب الشعب موقفه صراحة، لن نقف مع فرنسا ضد ألمانيا، وبقي الناس يترقبون موقف العلماء الذين دعوا إلى اجتماع في نادي الترقى بالعاصمة. في نادي الشباب كان سي رابح يغرز رأسه في الجريدة منصرفاً عن حوله وقد انشغلوا بنقاشاتهم، فجأة رفع رأسه وقد بدت على ملامحه الدهشة، وقال للعربي المُوسَّتاشُ الذي كان يلتصق به:

- لقد جن فرحات عباس.

رد العربي المُوسَّتاشُ في غير مبالاة:

- هو مجنون منذ سنوات.

فتح سي رابح الجريدة مرة ثانية بعد أن طواها وقال:

- اسمع ما يقول...

وراح يقرأ بصوت مرتفع:

- فرنسا هي أنا... لو اكتشفت وجود أمة لكنت وطنيا، إني غير مستعد أن أموت من أجل وطن جزائري، لأن هذا الوطن لا وجود له، فقد بحث عنه في التاريخ فلم أجده.

وراح يشير إلى تعليق الجريدة تحت تصريح فرحات عباس:

- انظر ما تقول الجريدة عنه: "إن حياة فرحات عباس هي تاريخ البحث عن وطن في فرنسا".

وقام العربي المُوسْتَأَشُّ يصرخ بسقوط فرنسا وانتصار هتلر، وأسرع سي رابح يزم فمه، وأسرع إليه أمقران ويوسف الرُّوجُ من بعيد، قال أمقران:

- ما الذي حدث؟

سلمه سي رابح الجريدة مشيرا إلى الموضوع، غرق أمقران ويوسف الرُّوجُ في تصفحه، وبقي سي رابح يثبت العربي المُوسْتَأَشُّ في مكانه، قال العربي المُوسْتَأَشُّ بصوت خافت:

- لو قتلناه لأرحنا الوطن من ضراطه، ولكنكم رفضتم.

- اسسست، أي شبهة تحوم حولك قد ترمي بك في السجن، إنهم يسجنون الجميع، بسبب وبغير سبب.

- وإلى متى نسكت يا عمي رابح؟ إلى متى بالله عليكم؟ وهؤلاء الأعراب يستغلون أرضنا، ويحرم منها أبنائنا.

قال العربي المُوسْتَأَشُّ نائرا حانقا، رد سي رابح متذكرا:

يجب أن تتذكر قول المجدوب:

اللي يركب يركب أشهب طرز الذهب في لجأمو.
اللي يدور يقول كلمة الحق يدير هراوه في حزامو.

وفهم العربي المستأش الرسالة فقام من مكانه، نزل درجات عين
الدروج التسع، عب الماء كأنما يطفئ حريقا، ثم راح يغرف على وجهه
ورقبته فيحس بانطفاء الغضب من أعماقه.

في العاصمة كان الجو مكهربا بين رجال جمعية العلماء في الاجتماع
الذي تم بنادي الترقى، حاول العقبي أن يقنع الجميع بإصدار بيان لتأييد
فرنسا في حربها ضد الألمان، قائلا:

- سنبقى وحدنا، وستجد فرنسا ذريعة لحل الجمعية، ما يضير لو
أرسلنا برقية تأييد؟

رد ابن باديس وقد بدا الغضب على وجهه:

- قضيتنا عادلة، وسنواصل الدفاع عنها ضد كل من يقف في طريقها،
لن أرسل تأييدا ولو قطعوا رأسي.
قال العقبي وقد بدا متأثرا:

- أنت تفعل ذلك لأنه لا أولاد لك، أما أنا فلي ثمانية.

التفت إليه ابن باديس وقد احمر وجهه وقال:

- بل لي ثمانية ملايين، نعم ثمانية ملايين، كل أبناء هذا الوطن هم
أبناؤنا.

وانزع في كل الربوع نشيده الخالد، نشيده الذي اعتصره من فجاج
قلبه المترع بالحزن والغضب على الذين أعلنوا موت الشعب الجزائري،
على الذين أعلنوا جفاف جذوره ومنابعه، على الذين قالوا بحثنا في المقابر
فلم نجد شعبا يسمى الشعب الجزائري، ولا أمة تسمى الأمة الجزائرية،
وظلت كل فجاج الوطن وسهوله وجباله ورجاله وأحيائه وأمواته وأطياره،
ظل الجميع يرددون:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام الخال من الطلب
يانشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب
واذق نفوس الظالمين السم يمزج بالرهب
واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامدين فرمما حيي الخشب
هذا عهدي لكم حتى أوسد في التراب
فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب
** ** ** **

27

تنفس حسان بلخيرد الصعداء وهو يضع مع رفقاءه البصمات الأخيرة
في العاصمة لعقد مؤتمر الكشافة الوطني، مع بداية الصباح الباكر راحت
الأفواج تتوافد على حي الحراش حيث تقرر عقد المؤتمر، وكان يوما تاريخيا،
لم يتمالك حسان بلخيرد نفسه فرحا فراح يصرخ وهو يقف بجانب محمد
بوراس:

المجد لله ثم المجد للعرب ...
من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي
قومي هم، و بنو الإنسان كلهم ...
عشيرتي، وهدى الإسلام مطلبي.
سأل محمد بوراس وكان يقف عن يمينه.
- أراك سعيدا؟

رد دون أن يلتفت إليه محققاً في الوفود تملأ المكان:

- جوزيت أحي محمد، جوزيت، فعلك هذا سيحفظه التاريخ بأحرف من ذهب.

ابتسم محمد بوراس وقال، وقد ترققت عينه بالدموع:

- المهم أن ننال رضا الله، هذا الشعب العظيم لا يستحق أن يبقى عبداً عند حثالة أوروبا.

سأل حسان بلخيرد:

- هل حضر الجميع؟

- الحمد لله حضروا أكثر مما كنا نتصور، أكثر من ثلاث مئة مندوب، آخر الواصلين اللحظة، الصادق الفول من مليانة قائد فوج ابن خلدون، رايح بوبريد من تيزي وزو قائد فوج الهلال، ونأمل أن يلتحق البقية.

وغير حسان بلخيردُ وجهة الحديث:

- رأيت أبيات ابن باديس؟ هل هناك إنسانية أكبر من هذه؟ وبنو الإنسان كلهم عشيرتي، نحن أولى بقيادة البشرية كما قادها أسلافنا ذات يوم.

واقترب ابن باديس والإبراهيمي فأسرع الجميع في استقبال وفد العلماء، ولم يدم الاجتماع طويلاً حتى اتفقوا على تسمية المولود بـ"فيدرالية الكشافة الإسلامية الجزائرية"، واقترح عليهم ابن باديس شعاراً تبنيه سريعاً "الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، العربية لغتنا"، وحين منعتهم السلطات الفرنسية من رفع العلم الوطني رفعوا العلم التونسي بدله، تأكيداً على أواصر الأخوة بين دول المغرب العربي، مرددين مع مفدي:

وحدة أحكم الإله سداها من يرد قطعها أراد محالاً

نصبوا حولها حدوداً من الألواح جهلاً وخذعة وضلالاً

فاجعلوا إن أردتم الكون سدا وضعوا البحر بيننا والجبالا
نحن روح مزاجه الضاد والدين فلن يستطيع قط انحلالا
عاد حسان بَلْخَيْرِدْ ذلك المساء إلى سطيف دون أن يغادر رضاب تلك
الأناشيد لسانه، نشيد ابن باديس، ونشيد مفدي زكريا، حلما بتحرر المغرب
العربي، وإقامة الدولة الواحدة على ربوعه، دولة للخير والحب لكل
البشرية.

المجد لله ثم المجد للعرب ...

من أحبوا لبني الإنسان خير نبي

قومي هم، و بنو الإنسان كلهم ...

عشيرتي، وهدى الإسلام مطلبي.

ومايكاد ينهيها حتى يهتف مفدي زكريا في أعماقه.

نحن روح مزاجه الضاد والدين فلن يستطيع قط انحلالا
هذا هو الدستور المضيء الذي يجب أن ترده الأجيال أبدا، ويجب أن
تصدق به الحناجر في كل مكان.

لم يعد للمرء هامش كبير للحركة، الحواجز في كل مكان، والشرطة
تفتش كل شيء، وتعتقل كل مشتبه به، ولكن حسان بلخيرد كان مترعا
بالفرح، يفيض حيوية وأملا، مد بصره بعيدا والقطار يرغي قاطعا المسافة
الطويلة، كان يتأمل السهول المنبسطة أمامه وقد فاضت بالخيرات، بساتين
قاهرة للكروم والحمضيات والزيتون والقمح لا حد لها، كبحر طام
بالخيرات، قال في نفسه: متى تعودين إلينا أيتها الأرض المباركة؟ متى
تتطهرين من رجس هؤلاء اللصوص؟ متى ترتاح أرواح الأجداد
الطاهرين في رحمك؟ وهتف صوت في أعماقه كأنما يجيبه، قريبا قريبا.

في سطيف أصبح كل شيء محسوبا، ظل سي رابح يوصي الرفاق
بالحذر، كان يقول كالهامس، لقد أعلينا الصرح، لكن اسمته مازال رطبا،

وعواصف العدو عاتية، أي خطأ بسيط منا قد يأتي على كل شيء.
وفهم الجميع الرسالة، فظلوا يتحركون بحذر، يخرجون إلى أعمالهم، ثم يلتقون سريعا هنا وهناك، موهين على أسرارهم، كانوا يخشون أكثر على افتتاح أمر حزب الثوار، وافتتاح مخبئه وأسلحته، وافتتاح خلايا حزب الشعب التي شكلوها في كل مكان.

ولم ترعوا يد فرنسا الأثمة عن الإمعان في ارتكاب جرائمها القذرة، لقد امتدت لتعتقل العشرات ممن توجست منهم خيفة، مصالي الحاج، وعمار عيماش، ومفدي زكريا، ونفي الإبراهيمي إلى منطقة أفلو بالصحراء الجزائرية، أما ابن باديس فوضع تحت الإقامة الجبرية بقسنطينة وتدهورت صحته سريعا لأسباب غامضة.

لاشيء يطغى على أخبار الحرب، وقد كانت تصل إلى الناس فتزرع في نفوسهم آمالا عراضا، داعين الله النصر لهتلر، أو الحاج هتلر كما أصبح يعرف، والذي ارتفعت مكانته في قلوب الناس خاصة حين أطلق المئات من الجزائريين الأسرى لديه تقديرا للشعب الجزائري.

صباح الأربعاء، كان الجو ربيعيا رائقا، مع نسيمات برد خفيفة، فجأة راح الناس يتقاطرون على مسجد المحطة، وخيم على الجميع مسحة من الحزن الشديد، كان سي رابح يركن لألمه يبكي بحرقة، وكان حسان بلخيرد يقف بجانبه ينتحب بشدة، وصل أمقران والعربي المoustاش وقد بدت عليهما حيرة كبيرة، سأل أمقران:

- من جاء بهذا الخبر المشؤوم؟

رد سي رابح وهو يمسخ دموعه:

- أخبرنا هاتفيا البارحة، لقد توفي أمس الثلاثاء مساء.

قال أمقران وقد تغير لونه:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

صرخ العربي المُوسْتَأَش:

- لقد قتلوه، قتلوه، والله قتلوه.

وباضطراب ظاهر راح يحث الجميع:

- يجب أن نذهب، يجب أن نذهب الآن ربما تكون جنازته اليوم.

ورغم كل شيء تحرك الجميع يُعدون للانتقال إلى قسنطينة، لا بد أن تكون مشاركتهم قوية، وفي الطريق لم يتوقف الجميع عن ذكر فضائل ابن باديس، وجهاده في نشر الوعي، وإسماع صوت الجزائر إلى العالم، قال سي الهادي:

- كان رحمة الله عليه ينوي إعلان الثورة، ولولا الموت لكان للجزائر أمر آخر.

قال الجميع بصوت خافت:

- رحمة الله عليه.

استدار العربي المُوسْتَأَشُ إلى حسان بلخيرد سائلاً:

- ومن تتصور أن يكون خليفته يا سي رابح؟

رد سي رابح رد الواثق من الجواب:

- الإبراهيمي، ليس في الجميع أجراً ولا أعلم منه.

قال حسان بَلْخَيْرِدْ وهو يضغط على عينيه:

- لا أتصور أن أحداً في الجزائر يمكن أن يخلف الشيخ، لقد ترك فراغاً

رهيباً.

رد أمقران وهو يخفف من سرعة سيارته، وقد شارفوا على دخول

قسنطينة:

- لا تقل هذا، الجزائر لم تعدم الرجال أبداً، ويمكن أن تعدد الآلاف

عبر التاريخ، من يوغرطا إلى تاكفيريناس إلى الأمير عبد القادر إلى لآلاً

نسومر إلى أحمد بلي إلى ابن باديس إلى العربي المُوسْتَأَشُ الذي يجلس

بجانبك.

وظهرت على حسان بَلْخَيْرِدُ حيرة استهزاء، وقال في سره: وهل العربي المُوسْتَأَشُّ في حجم من ذكرت؟ وردد أمقران في سره: لو تعرف ما يفعل العربي المُوسْتَأَشُّ والذين يركبون معك الآن لنسيت الجميع.

وصل الجميع منزل العائلة، كانت كل الشوارع المحيطة مكتظة بالآلاف الناس، وصلوا لتقديم العزاء بصعوبة كبيرة، حين انتحوا جانبا قال حسان بلخيرد:

- رأيت ما يفعل العظماء؟ جمع الأمة في حياته وفي مماته أيضا، إنهم هنا من كل الاتجاهات.

قال العربي المُوسْتَأَشُّ وهو يقلب عينيه في الحشود متعجبا:

- أدهشني هذا الشعب، رغم الحرب ورغم الحصار وصلوا بكل هذه الأعداد؟

ردد حسان بلخيرد:

- إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر

قاطعته العربي المُوسْتَأَشُّ قائلا:

- رحمة الله على شاعر تونس الكبير أبو القاسم الشابي.

- رد حسان بَلْخَيْرِدُ وقد تعجب كيف يعرف العربي المُوسْتَأَشُّ أبو

القاسم الشابي:

- هذه قصيدة كتبها المرحوم منذ سبع سنوات.

علق العربي المُوسْتَأَشُّ ليزيد من دهشة حسان بلخيرد:

- والله تصلح أن تكون دستورا لكل الأحرار في العالم جميعا.

وتحركت الحشود في بطء شديد خلف جثمان الشيخ، وقد حرص سي

رابح أن يبقى رفاقه عن قرب ليتسللوا عائدين مباشرة بعد الدفن، سأل

أمقران:

- في أي جبانة سيتم الدفن؟

رد سي الهادي بصوت خافت:

- أوصى أن يدفن في مقبرة شعبية، ولكن عائلته أبت إلا أن يدفن في مقبرة الأسرة.

حين كان الشيخ يوارى التراب، كان الجميع يجيش بالبكاء، ليس من أحد أشياء ومخالفين إلا ويذكر من مواقفه الجبارة ما يدر الدمع من القلب قبل العين.

ماكادوا يعودون إلى سطيف حتى أسرع سي رابح يشتري مديعاً جديداً وضعه في الحجرة الخاصة بالحمام، هناك أخبار جديدة يجب أن تسمع بعيداً عن الناس، ويعلق عليها بعيداً عن الناس أيضاً، كانوا يلتقون جميعاً كل مساء للاستماع بفرح غامر لأخبار الحرب، ذلك المساء كانت الفرحة عارمة وهتلر يكتسح باريس، راح العربي المُوسْتَأْسُ يقفز كالطفل وهو يقول:

- اسحقهم كالجراد يا هتلر، اسحقهم، اسحقهم.

راح سي الهادي يهدئه، وأقبل سي رابح يهرول من الطابق الأرضي قائلاً:

- ما بك يا مجنون؟ هل تريد أن تفضحنا، عيون فرنسا وأذانها وأنوفها في كل مكان.

اقرب العربي المُوسْتَأْسُ واحتضن سي رابح وراح يقبل رأسه ويقول:

- عمي رابح، هل تساعدني كي أُنجد في صفوف الحاج هتلر؟

وارتفعت ضحكاتهم وهم يسمعون كلمة الحاج هتلر، وجلسوا

يستمعون، قال سي رابح وهو يبحث عن التردد:

- سنستمع لإذاعة جديدة أطلقها الحاج هتلر بالعربية من باريس.

هتف الجميع:

- الله أكبر، الله أكبر.

انطلق المذيع يقول:... إن أصوات المسلمين في شمال إفريقيا التي طلما خنقتها فرنسا سيكون في مقدورها منذ الآن أن تكون مسموعة من باريس عاصمة فرنسا نفسها.

واندفع الجميع يكبرون، منادين بحياة هتلر والجزائر، وسقوط فرنسا الحقيرة.

وسريعا راحت فرنسا تنهار كبنية شاهقة ولكنها من رمل، وبدأ المعمرون يتوجسون من ذلك ويعدون العدة للانفصال عن فرنسا وإقامة دولتهم في الجزائر، كما أقام بعض البريطانيين المغامرين دولتهم في أمريكا على حساب الهنود الحمر، وفي مكتبة الترقى العربي راح حسان بَلْخَيْرِدْ يشرح للجميع الانقسام الذي وقع للفرنسيين، بين من ساروا خلف حكومة فيشي (Vichy) بقيادة المارشال بيتان (Maréchal pétain)، وبين من سار خلف حكومة دوغول في إنجلترا، إحداهما تمثل الاستسلام، وثانية تمثل المقاومة.

قال سي رابح متعجبا:

- رأيت كلاب المعمرين في الجزائر؟

اندفع حسان بَلْخَيْرِدْ يشرح:

- صدقت وصدق ألبير صارو وزير داخلية فرنسا: كل ما عندهم هو الجهاز الهضمي، في كل جرائدهم، لاديبيش الجيريان، ديرنيير نوفيل، لافوا دي كولون، لقد اعتبروا احتلال فرنسا عقوبة الله لها على أخطائها، انظروا انظروا.

وراح يخرج جريدة من الدرج ويقرأ:

- انظروا مثلا قولهم: "لقد ارتكبت فرنسا أخطاء، وعليها وحدها أن تدفع الثمن، ولسنا على استعداد لدفعه بدلها".

ضرب العربي المُوسْتَأَشُ الحسب بقبضته وقال:

- عجيب، المعمرون ضد فرنسا، وكلاب النواب والنخبة أسرعوا في التطوع للحرب.

قال حسان بلخيرد:

- قد يعود فرحات عباس هذه الأيام، علمت أن فرنسا تفرق بينه وبين الأطباء الفرنسيين على جبهة القتال، حتى في نوع الخبز الذي يقدم لكل منهما.

رفع سي الهادي يديه وراح يدعو:

- اللهم انصر هتلر، واهزم فرنسا شر هزيمة.

ودخل يوسف الرُّوجُ فجأة، وبادرهم قائلاً:

- سمعتم سخافات هتلر اللعين؟ لقد خيب ظننا فيه.

وسكت الجميع، ومن أعينهم تتناثر أسئلة كثيرة، واصل يقول:

- اقترح هتلر تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أقسام: ناحية قسطينة مع تونس

لإيطاليا، وناحية وهران لإسبانيا، والجزائر وسط لفرنسا.

قال الجميع بغضب:

- عليه اللعنة.

قال العربي المُوسْتَأَشُ:

- وهل هي أرض أمه حتى يوزعها كما شاء؟ عليه اللعنة.

رفع سي الهادي يديه من جديد وقال:

- اللهم أهلك الألمان والفرنسيين، وأخرجنا من بينهم سالفين غامبين.

حين عاد أمقران إلى محله ذلك المساء وجد علال القهوجي في انتظاره،

وسريعا قلب الأمر في ذهنه، ما الذي جاء به في هذا الوقت؟ ربما يحتاج

لشيء من أمور الحداثة، وربما يريد أن يقرض مالا، وسرعان ما صرف عنه

الاحتمال الثاني، ليس من عادة علال أن يقرض منه، وأسرع يرحب به

ويفتح أمامه باب المحل: حين جلسا، راح أمقران يرحب به من جديد، وبدا
علال كأنما يخفي سرا كبيرا، سأل أمقران:

- خيرا علال؟

- خيرا، رأيت ما رايتي فأردت أن أحيطك علما به.

- خيرا تفضل.

- البارحة ونحن ندمن خمرا في أطراف المدينة، لاحظت شيئا غريبا.

أسرع أمقران يسأل بحيرة:

- ماهو؟

- تعرف بيت فرانكو الصيفي؟

- نعم.

أجاب أمقران بسرعة وقد أفلقه ببطء علال، الذي واصل بهدوء أيضا

كأنما يعن في تعذيبه:

- هو مهجور في العادة، لكننا لاحظنا فرانكو وشمعون المونشو يرتادانه

كثيرا على غير العادة.

- ربما يسكران هناك.

علق أمقران، فرد علال:

- اقتحمنا المكان فتيين لنا أنهما يجمعان التحف، تماثيل ومنحوتات

مختلفة.

- تماثيل؟!!

سأل أمقران وقد انفرجت عيناه دهشه، واصل علال القهواجي:

- يأتيان من حين لآخر في سيارة فرانكو السوداء قبيل المغرب،

وينشطان في تفرغ صناديق صغيرة، لم نأبه في البداية، فلما تكرر

حضورهما ارتبنا وتتبعنا الأمر، فتيين لنا الحقيقة.

*** **

على غير العادة ظهر الفرنسيون واليهود بشكل مكثف في الشوارع، يقفون مجموعات مجموعات تختلف في عددها ولكنها تتفق جميعا فيما يناقشون، لقد بدأت القوات الألمانية تجتاح الداغمارك والنرويج، ثم تعصف في سرعة عجيبة بهولندا وبلجيكا، مما جعل فرنسا تقف مدهوشة تنتظر دورها في السقوط أيضا، لقد انقسم الفرنسيون في فرنسا وانقسموا في الجزائر، قليل منهم يبدي تعاطفا، وكثير منهم يسعى للإفصال عن فرنسا الأم وتكوين مستعمرة في الجزائر.

وظل الجزائريون يرقبون الأيام القادمة يعلقون آمالهم على هتلر وقوته في إضعاف فرنسا.

لاحظ أمقران كل ذلك وهو يعبر الشوارع التي تعود المعمرون التجمع فيها، مرددا دعاء من أعماق قلبه، اللهم سلط الألمان على الفرنسيين، وانتقم منهم شر انتقام، حين وصل مقهى العرب كان شبه خاو على غير العادة، ظروف البلاد الصعبة، واندلاع الحرب العالمية بين قوات الحلفاء وقوات المحور، جعلت الناس أكثر حذرا، دخل أمقران محيا علال القهواجي:

- صباح الخير علال.

- صباح الخير أمقران.

وأسرع يصب له قهوة جزوة، دخل بشير النادل محيا أيضا:

- صباحكم سعيد.

رد أمقران وقد رشف من فنجانه:

- صباحك أسعد.

ونظر فيه علال بشزر، واستمر يرتب الفناجين، حمل أمقران فنجانه

وجلس قريبا من النافذة، وقد بدا عليه القلق، يمد بصره كل حين عبر النافذة البائسة كأنه ينتظر أحدا، قال علال القهواجي مطمئنا وهو يقف خلف المحسب:

- لا تقلق هذا موعد مجيئه.

ثم مد بصره عبر الباب وهو يجفف يديه، وقال:

- لقد أقبل ومعه سي الهادي.

تقدم منهما أمقران حتى كاد يلتصق بهما، وراح بصوت خافت يخبرهما بأمر سرقة الآثار التي أخبره بها علال، رافعا عينيه من حين لآخر في علال القهواجي مرة، وفي الباب مرة ثانية، وبدت الدهشة عليهما، قال سي الهادي:

- أولاد الكلب يستعمرون أرضنا ويسرقون ذاكرتنا.

رفع سي رابع عينيه في علال كأنما يحييه وقال متمتما وقد بدت على محياه ابتسامة:

- عجب سكران ويعرف باب بيته!

ثم عاد إلى صاحبيه وقال:

- هل نقتحم البيت ونهرب التحف؟

حرك أمقران إصبعه رافضا الفكرة، وقال:

- الرأي عندي أن نرصد حركاتهما جيدا، ربما هناك عصابة أكبر منهما.

نقر سي الهادي على الطاولة المسودة بأصابعه وقال:

- صدقت، نكلف عيوبه وعلال بالأمر، يمكنهما أن يرصدا تحركات

فرانكو وشمعون المونشو.

وفلجأهما علال القهواجي الذي كان يتابع لقاءهم، منتظرا استدعاه

دون جدوى، وراح يعيد عليهما الحادثة كما رواها لأمقران من قبل، محاولا

ما أمكن إضفاء العبقرية عليه وعلى ما قام به.

حين كانوا خارجين من مقهى العرب كان حسان بَلْخَيْرِدْ يغلق باب مكتبته، وينطلق مهرولاً إلى مقر الكشافة قلقاً، غير مبال بالبرد القارس، ولا بطبقة الثلج الثلج التي غطت المدينة كلها، وحمد الله وهو يجد المقر مفتوحاً وفيه نائبه سعيدي السعيد لاجودان، يجهد نفسه في تدريب مجموعة من الفتيان على نشيد شعب الجزائر مسلم، لاحظ لاجودان اضطراب حسان بلخيرد الذي كان يبدو منهارة، أسرع يسأل:

- خيرا سي حسان، أخفتني.

وأسرع حسان بَلْخَيْرِدْ يدفع السعيد أمامه باتجاه الباب:

- لاجودان، يجب أن تجمع أكبر قدر من الأعضاء الآن، الآن سريعاً.

تسمر السعيد في مكانه مستفسراً:

- أخبرني أولاً ما الذي وقع؟

جلس حسان بَلْخَيْرِدْ على كرسي خشبي قديم كان هناك، ومد راحتيه على ركبتيه، وقال:

- لا إله إلا الله محمد رسول الله، لقد ألقى الفرنسيون القبض على القائد محمد بوراس.

- لاحول ولا قوة إلا بالله.

رددها السعيد، وقد بدا على ملامحه اضطراب شديد، لبس برنسه الأبيض، وخرج مسرعاً يبحث عن الأعضاء الذين أسرع معظمهم إلى تلبية النداء، إضافة إلى العربي الموستاش، وسي رابح، ويوسف الرُّوج، وقف حسان بَلْخَيْرِدْ كالخطيب وقال:

- أيها الإخوان، يؤسفني أن أخبركم أن المكتب الثاني لمصالح التجسس بالجزائر العاصمة قد ألقى القبض على محمد بوراس، وإذا قتل لا قدر الله فستفقد الجزائر طوداً أشم، بعد أن فقدت عالم الوطن ابن باديس.

قاطعته سي رابح وقد تعشته طبقة من الخيبة وهو يتدثر بقشايته
الدرعاء:

- الواقع في يد جهاز المخابرات ميت لا محالة.

أسرع يوسف الروح مهونا:

- قد يكون مجرد اشتباه، وسيطلق سراحه.

مد حسان بلخيرد بصره إلى الباب ففهم الجميع أنه يريد أن ييوح لهم
بسر، تأخر بعض الأعضاء يحرسون الطريق خشية أن تفاجئهم قوات
الاستعمار، حين أحس بالاطمئنان قال:

- لا أخفي عليكم أيها الإخوان أن سي محمد بوراس قد اتفق مع
بعض سكان مليانة على إعلان الجهاد ضد فرنسا، وخاصة سكان جبال
زكار، حيث كان يعمل في المنجم، ولهذا الغرض ترك ميناء الجزائر مكان
عمله الجديد، وهاجر إلى فرنسا، وإلى فيشي بالذات متذرعا بالاتصال مع
الكشافة الفرنسية لتنسيق الجهود، لكن سي محمد بوراس استغل
الفرصة واتصل بالألمان طالبا السلاح، وفعلا وعدوه وبقي ينتظر زمنا دون
جدوى، حتى خشي من افتضاح أمره مما اضطره للعودة إلى أرض الوطن.

علق العربي الموستاش مقاطعا:

- رجل، والله رجل، وسيد الرجال.

رفع سي رابح ذراعه كأنما يطلب الإذن وقال مستاء:

- هذا عمل أمة، وليس عمل شاب فرد في الثلاثين من عمره.

وضرب على الطاولة بقبضة يده كأنما يتحسر على تفويت فرصة

الثورة الموازية جدا، واصل سي حسان:

- لقد أخبرتكم أيها الإخوان بالذي وقع، كما أخبركم أنني مضطر

للسفر غدا التاسع من ملي إلى العاصمة.

راح الحضور يتفرون حاملين في أنفسهم أسي وحسرة، لم يبق إلا

حسان بَلْخَيْرِدْ، وسي رابع، ويوسف الرُّوجْ، والعربي المستاش، يتشعب بهم الحديث عن الحرب بين ألمانيا وأعدائها، وعن مستقبل فرنسا، وما تشهده من صراع بين حكومتيها، وعن الجزائر ومستقبلها وحال الأحزاب فيها، ويعود الحديث في كل مرة إلى محمد بوراس، لا يفتأ حسان بَلْخَيْرِدْ يذكر بمواقفه ورزاقته ووطنيته، وتفانيه في خدمة الصالح العام.

قال يوسف الرُّوجْ لحسان بلخيرد بحسرة:

- هل تعرف يا أخي حسان؟ كل من وقع في يد مصالح مكافحة التجسس يعدم، لا رحمة في قلوبهم.

هز حسان بَلْخَيْرِدْ رأسه وقد سبقته الدموع.

- أعلم أنهم سيعذبونه أيضا، وسيقتلونه أيضا، وستبقى الكشافة يتيمة، هو أقل مني بثلاث سنوات، ولكنه أشد مني حنكة وتضحية.

حدثهم حسان بَلْخَيْرِدْ أيضا عن مسيرة الرجل، منذ ولد ونشأ في أسرة فقيرة بمليانة، وماكادت سلطة الاستعمار تطرده من المدرسة حتى رحل للعاصمة للعمل، وهناك احتك بالعلماء في نادي الترقى، وتأثر كثيرا بأفكار الشيخ ابن باديس الإصلاحية، وانطلق مضحيا بكل شيء من أجل تحقيق حلمه في أن يرى الجزائر دولة عربية مسلمة حرة.

فجرا غادر حسان بلخيرد إلى العاصمة، حيث مكث أربعة أيام متنقلا بحذر بين عناصر من الكشافة، ونادي الترقى، والميناء، تحت أعذار مختلفة، محاولا معرفة أي شيء عن محمد بوراس دون جدوى، وعاد أدراجه إلى سطيف يجر وراءه آلاما وخيبات، تاركا خلفه دموعا في محاجر الناس وأحزانا في قلوبهم.

مساء السابع والعشرين من شهر ماي شاعت فاجعة إعدام البطل محمد بوراس رميا بالرصاص في الميدان العسكري بلخروبة، وتداول الناس أن آخر ما تلفظت شفتا الشهيد سورة الفاتحة، وكان رده حاسما حين

قال له أحد الحراس مستفزاً: "هل دب فيك الخوف؟!" فرد عليه بكل هدوء: "ليكن في علمكم أن الإنسان لم يخفني قط، لكنني كنت دائماً أخشى حساب الله" وبكته الجزائر، شبابها الطالع من رحم المعاناة، المترصد في كل مكان، في كل زمان لجور فرنسا الظلمة.

قرأ الجميع في مقر الكشافة، سورة الفاتحة على روح الشهيد، وقال حسان بَلْخَيْرَ دُوعَيْنَاهُ لَا تَكْفَانُ عَنِ الْبِكَاةِ:

- عزاؤنا أن قائدنا قد قضى شهيدا، وأنه الآن في جنان الخلد، وعزاؤنا أننا سنمضي على الدرب حتى نلقى الله لا نبذل ولا نغير.
لم يهدأ العربي المُوسْتَأَشُّ منذ سمع بمقتل محمد بوراس، لقد أثر فيه ذلك عميقا، صرخ في رفاقه وهم يلتقون مساء في بيت سي رابح:
- أرجو أن تسمحوا لي كي أتتقم لروح محمد بوراس، لقد طفح الكيل طفح الكيل.

سكت الجميع، غير أمقران الذي رد بنبرة حزينة:
- كلنا في الجزائر نلحم بالثأر له، ولكن أرجو أن نتحلى بالحكمة أكثر، أي خطأ قد يكشف كل أمورنا ويدفع بنا جميعا لغم الغول.
مساء أذيع نبأ تمرد فرقة المشاة التابعة لفيلق الشرق نواحي الحراش، وتناقل الناس الخبر بفرح غامر، حين ينتفض الجنود فمعنى ذلك أن الصراع سيطول لأنهم يملكون السلاح ويملكون الكفاءة، أقبل يوسف الرُّوجُ من بعيد وعلى ملامحه فرح مشرق، قال قبل أن يجلس:
- هل سمعت عمي رابح، إنه التمرد، لقد قتل عشرة من الفرنسيين.

بعد أيام ألقى القبض على مجموعة من قادة حزب الشعب الجزائري، وعلى رأسهم مصالي الحاج الذي حكم عليه بست عشرة سنة سجنا مع الأشغال الشاقة، وعشرين سنة نفيًا، وثلاثين مليون فرنك غرامة، ومصادرة كل أملاكه، وألقت فرنسا في نهر السين بالشاعر مبارك جلواح الذي وجد

ذات صباح بارد جثة تطفو على مياه نهر السين، واجتمع الكل في مكتبة حسان بلخيرد الذي لم يتوقف عن الحديث عن الشاعر ومآثره وحبه لوطنه ودوره العظيم في توعية المهاجرين، وعبقريته الشعرية، التي قرأ منها على مسامعهم:

أي بلادي ترى إليك قفول
إنني راحل ولست بـدار
لست أدري ألسعادة أسري
انظريني كيف أقضي صريمي
ارمقيني كيف أمضي نهاري
اسمعي، اسمعي خريـر دموعي
في سلام من بعد ذا الابتعاد
أين تلوي يد القضاء بقياي
أم لشيء قد هيأته العواي
شارد البال هاجرا لوساي
تائها تحت بردة من حـداد
قد ينجيك دائما ويناي

سكت بلخيرد فجأة، وتغشت الجميع سحائب حزن مركومة، فلاذوا بالصمت مترحمين، وقد توالى الأحداث الحزينة تباعا، تلج ثغر الجرح وتمعن في اتساعه.

في طريق العودة إلى البيت عرج العربي المستاش وسي رابح على الخل، كان عيوبه يجهد نفسه في إدخال البضاعة وغلق الخل، راح العربي المستاش يساعده في ذلك، وبقي سي رابح يستند الجدار، أقبل حيم حزيناً كئيباً، حبي ووقف يتابع العربي المستاش كأنما ينتظر إكماله العمل، سأل سي رابح:

- أراك حزينا.

سكت حيم لحظات وقال وقد تأكد أن العربي المستاش قد أكمل عمله وبإمكانه أن يسمعه:

- هذه الحرب اللعينة ستقضي علينا جميعا.

وسكت، يمد يده إلى قبعته يحاول ترتيبها وقد كادت تطيح بها هبة قوية،

سأل العربي المستاش:

- أنتم اليهود يقلقكم انهزام فرنسا، أما نحن فيسعدنا.
- الأمر أكبر من ذلك وأخطر، إنه يتعلق بوجود اليهود.

رد حليم، فقاطعه سي رابح:

- منذ قرون وأنتم مكرمون في هذا البلد، فعليكم أن تردوا جميله.
وسار الأربعة يقطعون الشارع، لم يتوقف حليم عن بث شكواه، إن الألمان يشنون حرب إبادة ضد اليهود، بدأت أولا بمقاطعتهم، ثم بسحب الجنسية منهم، ثم طردهم جماعيا من العمل وتجميعهم في أماكن خاصة، وانتهى الأمر بمخنقهم جماعيا بالغاز وحرقتهم.

كان العربي المستاش يستمع للحدث متشفيا وأمله أن يعاملوا هنا أيضا بنفس الطريقة، فلا خير في اليهود أينما كانوا، لكن سي رابح كان يتابع ما يرويه حليم بكثير من التأثر، قال وهو يودعه مصافحا:
- هذا هو الإنسان حين يبتعد عن إنسانيته ويرتمي في أنانيته يتحول وحشا كاسرا.

وراح طول الطريق يحاول أن يقنع العربي المستاش أن من حق كل إنسان أن يمارس معتقداته بكل حرية، فلا إكراه في الدين ولا إكراه في الرأي، وليس لأحد الحق أن يلغي الآخرين أو يمارس عليهم القهر.

*** **

29

تقاسم عيوبه وعلال دور المراقبة، يقوم بها الثاني ليلا حيث صار لا يقضي ليلته الحمراء مع أصحابه إلا على ضفة الوادي قريبا من مصيف فرانكو، ويقوم بها الأول نهارا حين راح يؤدي دور مجنون مشرد، وراح البقية يتناوبون في تتبع سيارة فرانكو حين تخرج من المدينة حتى تعود إليها، كل ذلك كان يتم والناس يعيشون على صفيح ساخن، وصاروا منذ

أيام يتوافدون على مكتب فرحات عباس، وكان اليوم أكثر كثافة، واستغل فرحات عباس الفرصة ليتحدث عن تجربته في الحرب التي خاضها بجانب الفرنسيين ضد الألمان، كان منهارا ومستاء لما تعرض له، لقد كان التمييز العنصري واضحا في كل شيء بين الفرنسيين وغيرهم، ما لجميع إلا طبقة ثانية وثالثة، الجزائريون، التونسيون، المغاربة، المالليون، السنغاليون، الجميع هم أدنى درجة من الفرنسيين، صاح العربي المُوسْتَأْسُ في القاعة، وقد أحس أن فرحات عباس قد تحدث أكثر من اللازم:

- لقد رأيت وذقت وسمعت يا عباس، فرنسا استعمار لا يأتي منها الخير.

رد فرحات عباس دون أن ينظر إلى العربي المُوسْتَأْسُ:

- ورغم ذلك مازلت أهتف بحياة فرنسا، فرنسا الحرية والعدالة والمساواة، مازلت أيها الإخوان واثقا جدا أن صوت العقل الحر سيصحو في ضمير الفرنسيين، إنني أحلم باليوم الذي نشكل فيها معا جميعا عربا وفرنسيين دولة فرنسا العظمى، دولتنا الكبرى التي تحتضن كل الديانات والأجناس واللغات.

همس سي رابح في أذن العربي المُوسْتَأْسُ:

- لا تتعب نفسك حالته ميؤوس منها، لقد زوجته ابنتهم ليسمموا عقله.

- أعتقد أن عقله مسمم قبل زواجه هذا، ولن تنظفه إلا رصاصة.
رد العربي المُوسْتَأْسُ فلزم سي رابح الصمت حتى لا يثير انتباه الحاضرين لكلامه العنيف، ووقف حسان بَلْخَيْرِدْ ساعيا إلى تغيير النقاش:
- يا جماعة أنتم مدعوون غدا لمشاهدة مسرحية جديدة عنوانها هارون الرشيد.

التفت العربي المُوسْتَأْسُ إليه وقد هدأت ثورته وقال:

- أنت تذكرني بحكايات ألف ليلة وليلة التي كان سي الطالب يحكيها لنا.

ووجد حسان بَلْخَيْرِدَ الطريق ممهدا ليستمر في الحديث عن المسرح قائلًا:

- المسرح يا إخواني مدرسة الحياة، وشعب دون مسرح شعب معوق مشلول، فعلا لقد أردت أن أعرف من التاريخ، وبالضبط ما حدث لخليفة الصياد مع هارون الرشيد، وأردت بها أن أهز أعمق شبابنا المتواكل المتلذذ بأحلام اليقظة.

قاطعته يوسف الرُّوجُ مازحا:

- طبعا لا تقصد خليفة زوج خالتي سلافة.

ضحك الجميع، فواصل يوسف الروح بجدية:

- لاحظت أن مسرحياتك جميعا ذات مغزى اجتماعي حتى هذه التي ظنناها تاريخية.

تنحنح حسان بَلْخَيْرِدَ واستمر يشرح:

- فعلا كلها جميعا: "الزواج المغصوب، اليتيمان، أصحاب الحرف، القصاب والطالب"، تهدف لمعالجة الآفات التي تنخر واقع شبابنا خاصة.

ارتفع صوت العربي الموستاش.

- نريد مسرحية عن الثورة.

عم الصمت القاعة، وتبادل الجميع النظرات المتعجبة، وكز سي رابع العربي المُوَسْتَأَشُ وحده يوسف الرُّوجُ بنظرات حادة، وتمتم سي الهادي:

- ياله من مجنون!

واصل حسان بلخيرد:

- التربية أولا، لا يمكن أن نقيم دولة بشعب أمي جاهل، بل لا يمكن أن نطالب بالحرية والكرامة إلا حين يرتفع مستوى تعلمنا ووعينا.

تدخل عباس فرحات معقبا:

- ولم نفع نحن أصلا تحت الاستعمار إلا لما كنا أقل منهم علما
ومعرفة، ولا مستقبل لنا إلا بالعلم.

سأل سي الهادي كأنما يحاول أن يخرج فرحات عباس:

- علمنا أم علمهم يا عباس؟

تبسم فرحات عباس كأنما أراد أن يؤكد معرفته بخلفية السؤال:

- ليس للعلم جنسية يا سي الهادي.

واحتد النقاش بين الجميع، كان فرحات عباس وأنصاره يرون أن
الواجب يدعوا الشعب الجزائري إلى الانخراط في المدارس الفرنسية
لارتشاف رضاب العلم والمعرفة، فلن نقهر الفرنسيين إلا حين نتساوى
معهم في ذلك، وكانت المجموعة الأخرى تؤمن أن ذلك يعني الذوبان في
العدو، وتضييع الهوية والانتماء، وأن الطريق الأمثل للمقاومة هو مقاطعة
المدارس الفرنسية واللغة الفرنسية وإنشاء مدارس خاصة لسانها عربي.

وتفرق الجميع، على أمل اللقاء غدا لمشاهدة المسرحية، وكان الغد قريبا،
مرت الساعات إليه على وقع دقات قلب حسان بلخيرد الذي بات مع
الممثلين في مقر الكشافة رغم الخوف الذي صار يحيط بالجميع.

وماكادت الساعة تزف حتى كان كعادته عند الباب يلتقي الوافدين،

وكان أولهم يوسف الروج الذي قال مازحا:

- لقد أوقفت العمل مع أمقران وجئت إكراما لك.

- بل إكراما للجزائر، يجب أن نحرر ثقافتنا وفنوننا أولا قبل تحرير

أرضنا.

ووصل أمقران وسي رابح وخلفهما مباشرة عيوبه، وتهافت الناس من
كل الشوارع، امتلأت بهم القاعة، تابعوا مشاهد المسرحية بشغف كبير،
وصفقوا لما أثار اهتمامهم، وأبوا عند نهايتها إلا أن يقفوا طويلا أمام

المسرح مستغلين الفرصة لمناقشة المسرحية وتبادل أخبار الوضع العام، وكان يوسف الروج كالنحلة لا يستقر على مكان واحد، كأنما يقدم توجيهات ويصدر تعليمات لكل من يتحدث إليه، ووصل أخيرا إلى سي رايح الذي داعبه بقوله:

- أصبحت خطيرا يا يوسف.

أجاب يوسف الروج وهو يمد ذراعه على كتف سي رايح:

- هذه الخلايا التي أسسناها تحتاج دائما إلى محرك لا ينام، وإلا أنت تعرف.

وسكت فأكمل سي رايح:

- وإلا نامت، صدقت الناس لم يتعودوا على التنظيم والنضال.

وأقبل عليهما حسان بلخيرد، وراح يوسف الروج وسي رايح يهتنان على الانتصار الجديد الذي ظل حسان بلخيرد يصنعه بإصراره وإيمانه بما يفعل، ومن بعيد أقبل عباس فرحات، وهش حسان بلخيرد في وجهه وراح يسأل:

- ما رأي الدكتور؟

- تهاني إنها بداية رائعة، نحن نحتاج إلى مسرح جزائري.

تدخل العربي المستاش وقد وصل لتوه:

- سيكون لنا مسرح أعظم من مسرحكم.

ضحك عباس فرحات وقال موجها الكلام لحسان بلخيرد:

- المسرح فن أوروبي، ظهر عندهم منذ عهد الإغريق، أي قبل الميلاد بقرون، وشهد عند الأوروبيين نهضة عملاقة، ولم نتعرف نحن عليه إلا منذ سنوات.

رد حسان بلخيرد يوجه الكلام للجميع:

- صدق سي عباس، بيننا وبين الغرب مسافات عملاقة، نحن مجرد

مقلدين، مازال أمامنا جهد جبار لنجد لأنفسنا مكانا في عالم المسرح.
وسكت الجميع، ليست لهم علاقة بهذا الفن، وليست لهم القدرة
للجدال فيه، وسحب عباس فرحات حسان بَلْخَيْرَدُ بعيدا وقال:
- أولا أهنتك على هذا النجاح، فعلا نحن بحاجة إلى مسرح جزائري،
وأطلب منك أن ترافقني في سفري إلى قسنطينة، لي لقاء هناك مع نخبة
مثقفة.

وانطلق مبتعدا، بعد خطوات تلفت إليه وقال:

- يمكن أن تقدم عملا فنيا قصيرا إن شئت.

وكأن فرحات عباس قد اطلع على قلب حسان بَلْخَيْرَدُ الذي أعجب
بالدعوة وقرر أن لا يتركها تمر دون تبليغ رسالة ما، لم ينس حسان بَلْخَيْرَدُ
وعده مع الرجال الكبار الذين استشهدوا قبله، شيخه ابن باديس، ورفيق
دربه الشهيد محمد بوراس، لم ينس الرجال الكبار الذين يرزحون الآن
تحت الاعتقال في سجون المستعمر، مصالي الحاج، الإبراهيمي والعشرات
معهما.

عقد اللقاء في أحد أضخم فنادق قسنطينة، وحضرته نخبة كما ذكر
فرحات عباس، منهم محمد الصالح رمضان، مامي إسماعيل، ابن جلول، عبد
الله فيلاللي، وماكاد الجميع يعطون الضوء الأخضر لحسان بَلْخَيْرَدُ حتى
ارتفعت حنجرتة:

من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال

يناديننا للاستقلال لاستقلال وطننا

تضحيتنا للوطن خير من الحياة

أضحى بحياتي و بمالي عليك

غشيت الدهشة بعض الحضور، ما بال الرجل يدعو للثورة، وفي قلب
قسنطينة، وفي فندق عام، وفي أخطر مراحل الحرب مع الألمان، ولم يتمالك

البعض أنفسهم فاندفعوا يصفقون بجرارة، وواصل حسان بلخيرد:
يابلادي يا بلادي أنا لا أهوى سواك
قد سلا الدنيا فؤادي وتفانى في هواك
كل شيء فيك ينمو حبه مثل النبات
ياترى يأتيك يوم تزدهي فيه الحياة
نحن بالأفئس نفدي كل جزء من ثراك
إننا أشبال أسد فاصرفينا لعداك

واهتزت القاعة مرة ثانية بالتصفيق، وقام الجميع يعانقونه، رغم مظهر
على بعضهم من امتعاض، خاصة فرحات عباس الذي لم يتوقع هذه
المفاجأة.

لم تمض إلا أيام قليلة حتى نزل الحلفاء أرض الجزائر، مما زرع في
نفوس بعض الجزائريين أملا جديدا، وراحوا يسعون إلى استغلال الفرصة
لعل الرياح تأتيهم بما لم يتحقق لهم من قبل، واجتمع فرحات عباس
بالسيد مورفي (Morfi) للمطالبة بدولة جزائرية مستقلة ذاتيا، واجتمع
بالرئيس روزفلت (Rosvelt) وعرض تحمسه لمؤتمر سان فرانسيسكو،
وراح ينصب شباكه عليه يصطاد شيئا.

بصوت متعثر ملاً بشير النادل الساحة التي تمتد أمام الحمام ضجيجا
وصنخبا، كان يرفع يديه إلى الأعلى ويصيح:

- تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر.

ويظل يطوف في المكان دون أن يتوقف عن الحركة، ولا عن ترديد
الشعار.

أطل العربي المستاش وسي رابع، ثم خرجا يتأملان المشهد، قال
العربي المستاش:
- إنه ثمل.

رد سي رابح دون أن يحول بصره عن المشهد:

- وماذا تنتظر منه، وقد صار عاملا عند علال القهواجي؟

أشرقت ابتسامة عريضة على وجه العربي المستاش وقال:

- عباس فرحات أكثر سكرًا من بشير النادل ومن علال القهواجي.

- صدقت، إذا كانت الخمرة مشروبا للوعي فهي حلال.

غير سي رابح الحديث سائلا:

- ما الجديد بشأن ما كلف به عيوبه وعلال؟

- قريبا ستسمع خيرا، إنهما يقومان بواجبهما جيدا.

من بعيد أقبل حسان بلخيرد، وقد راح بشير النادل يتعد عن المكان،

ودخل الثلاثة الحمام، سأل سي رابح:

- هل تعتقد يا حسان أن فرحات عباس سيحقق شيئا؟

حلق فيهما بنظرات خائبة وقال:

- كمن يسعى لاصطياد الريح بالغربال، لقد رفض الحلفاء كل

المبادرات.

واصل حسان بلخيرد:

- وقد ضغط الحلفاء من أجل إعادة تطبيق قرار كريميو ليمنح اليهود

في الجزائر كل حقوق الفرنسيين بعد أن عطلتها حكومة فيشي.

قال العربي المستاش:

- الكلب لا يعض أخاه.

وراح ينشد غير مبال بأحد:

ياشعبي الغــــــــــــــــالي تُورُ

حُرامُ تَبْقُــــــــــــــــى مقهورُ

عُداكُ مَصُـــــــــو دَمَّكَ

وانتَ راقــــــــــــــــمُ دُخْمورُ

حَلْ عَيْنِكَ لَا تَبِعْ عِبْـسَ
تَضِيْعُ حَيَاتِكَ أَتَوَلَّى بِـسُورُ
فُرْسَا غَدَارَهُ مَا فِيهَا أَمَانُ
وَ اللَّيِّ يَأْمَنُ أَفْعَى مَسْحُورُ
العَزَّةَ طَرِيقَهَا وَاحِدٌ مَشَى زَوْجِ
النَّارِ وَالْبَارُودِ وَالِدَّمَ إِفُورُ

على أنغام العربي المستأش مرددا قصيدته نشط بلخيرد وسي رابح
يعدون لعبة الضامة، التي تعودا لعبها أمام الحمام من حين لآخر.

*** **

30

كان سي الهادي يشكو وعكة صحية، آلام في الرأس ودرجة حرارة مرتفعة، وكان لزاما أن يزار ويطمأن عليه، ورأها سي رابح وأمقران فرصة للقاء في بيته، إبعادا لشبهة التجمع التي صارت تطال الجميع، خاصة وأن الأحداث العالمية قد عرفت تسارعا رهيبا، ألمانيا تفقد جبهتها الشرقية، وقوات الاتحاد السوفياتي تزحف بقوة لتحرير أوروبا الشرقية، وقد نزلت قوات الحلفاء بكثافة في الجزائر وتونس، لعل دافعهم هو قطع الطريق على الألمان كي لا يستولوا على شمال إفريقيا، أو لاتخاذ منطلقا لشن هجمات على ألمانيا ومحورها في ليبيا، وعلى الجزائريين أن لا ينتظروا الأحداث، بل عليهم أن يعدوا أنفسهم لكل طارئ.

التقى الجميع في بيت سي الهادي، ذي الفناء الواسع المغطى بكروم متشابكة، في الغرفة كان سي الهادي يتمدد على فراشه وقد كان وجهه يلتهب من شدة الحرارة، وكانت عيناه محمرتين، وكان يدثر رأسه بمحرمتين يشدهما بقوة، اقتربت منه سلافه الرومية، دون أن يتوقف لسانها عن

البسملة والابتهاال، قذفت في وجهه حفنة ماء، ومدت أصابع يسراها تخنقه، ثم مدت إبهام يمينها وسبابتها وراحت تنتر أعلى أنفه حتى احمر مرددة: اخرجني اخرجني، روجي لطريق السَّوَّاقَه، تَلْقَيْ شَيْخَ بَسْبَحْتَه وبرَبَّحْتَه أتلاحِي في رَقْبَتَه، ثم حملت إناء الماء ورمت به بعيدا في الفناء.

وراح الجميع يرتشفون قهوتهم في انتظار يوسف الروج والعربي المستاش اللذين كانا في لقاء مع بعض خلايا حزب الشعب الذي كانت فرنسا قد مدت يدها وحلته بعد تأسيسه بعامين فقط، حين دخلا راح سي رابح يطلب الإسراع بعقد الاجتماع، قال بحزن:

- الأحداث تتوالى بسرعة عجيبة، كنا ننتظر سقوط فرنسا وانتصار ألمانيا لتتخلص من عدونا لكن الأقدار رسمت طريقا آخر، وإذا بالحلفاء ينزلون كالجراد في بلادنا ويحتلون كل مكان... ورغم أنهم قد واجهوا مقاومة شرسة في قسنطينة ووهران، إلا أنها مقاومات معزولة وفردية.

قال العربي المستاش، وقد بدا اقل حماسا:

- لا أعتقد أن هتلر سيهزم، مازال قويا في الميدان، ومازالت اليابان

أيضا.

قاطع يوسف الرُّوجُ، وهو يوزع نظراته في الجميع:

- ليست لي ثقة في انتصار ألمانيا، انهزامها على الجبهة الشرقية قضى على طموحاتها.

- صدقت، المهم ماذا فعلنا نحن؟ وماذا سنفعل؟

طرح سي رابح السؤال وراح يقلب نظره في الجميع، تدخل أمقران

قائلا:

- لا يجوز لنا أن نأخذ الأمور بتهور، نحن نعد لأمر خطير، يهم شعبا

بكامله، وفرنسا حين تعود منتصرة ستكون كالببوة الشرسة.

قالت سلافه محاولة بث الأمل في النفوس:

- ألم تعد فرنسا بإعطائنا حريتنا حين تنتصر في حربها على ألمانيا؟
- تبسم يوسف الروج وقال:
- مستحيل ذلك يا أمه، لا ثقة في الاستعمار.
- أيده سي رابع بتحريك رأسه وقال:
- الحرية تؤخذ ولا تعطى يا خالة، أرجو أن نعرف أمرين اثنين، الأول ما فعلنا بتشكيل الخلايا، والثاني ما الجديد بشأن إنشاء مخابى في الجبال؟
- هم خليفة بالحديث لكن يوسف الروج تنح وقال:
- تحركت منذ أيام مع العربي المستاش وخليفة عبر المدينة كلها، أعتقد أن الأمور دقيقة التنظيم، والجميع يقدمون اشتراكات مالية منتظمة.
- قاطعة خليفة قائلاً:
- بقي أن نشكل هذه الخلايا في القرى أيضاً.
- اعتدل سي الهادي في جلسته متكئاً على الجدار وقال:
- من رأيي أن نتحرك في القرى على نطاق ضيق جداً، مازال الوعي عندهم ضعيفاً.
- أيده سي رابع، وذكر بشأن السؤال الثاني، قائلاً:
- وماذا بشأن إعداد المخابى في الجبال.
- وركز نظره في أمقران، الذي أسرع يقول:
- الحمد لله، استطعنا تشكيل خلايا صغيرة في منطقة بابور، والعملية قائمة على أحسن ما يرام.
- قاطعه خليفة كأنما يكمل حديثه:
- ونحن أيضاً تحركنا بجبال بوطالب وجبال أولاد تبان، شكلنا ثلاث خلايا وقد بدأوا العمل.
- بدا البشر على وجه سي رابع فاندفع يقول:
- رائع، حتى نحن في المدينة أضفنا مخبأً آخر، ونشطنا بقوة في جمع ما

نحتاج من مال وسلاح.

ثم نظر إلى سلافه وحمامه وقال:

وطبعا هذا بدعم من النساء، يظهر أنهن سيكن أكثر فاعلية منا.

ابتسمت سلافه الرومية وقالت:

- كلنا للوطن.

قال سي رايح:

- يجب أن نستمر في لقاءاتنا الدورية لتتابع الأوضاع بدقة ونتخذ

القرارات الصائبة في الوقت المناسب، دون التعجل والدخول في مغامرات

غير محسوبة.

غير سي الهادي مجرى الحديث حين سأل عن موضوع آخر:

- لكن علينا أن نتعجل بشأن تهريب الآثار، علال وعيوبة قدما لنا

تقريراً مفصلاً يوجب علينا سرعة التحرك.

وافقه أمقران قائلاً:

- فعلا الوقت مناسب جدا للتحرك وأستطيع أن أعرض عليكم خطة

عملية.

وصمت الجميع مركزين نظراتهم وانتباههم فيه كأنما يعطونه الإذن

بالبدء، تنحنح أمقران واضعاً يمينه على فمه، وقال:

- الخطة هي أن نهجم البيت ليلاً فنأخذ كل ما جمع من آثار ونأتي

بها المخبأ السري في محلي.

عاب سي رايح اختيار المكان الذي اقترحه أمقران على اعتبار أنه مخزن

للأسلحة أيضاً، وقد يكون البحث عن الآثار سبباً في اكتشاف الأسلحة،

ولذلك اقترح عليهم مخبأ الحمام، ووافق الجميع على ذلك سريعا فهو أكثر

أماناً، وحين هم سي رايح برفع الجلسة، أعاده العربي المستاش إلى مكانه

قائلاً:

- اعتقد أن استرداد الآثار المهربة فقط هذا لا يكفي، بل يجب..

قاطعته سي رابح موقفا اندفاعه:

- أعرف تحب أن تدخل العنف في كل شيء.

قال أمقران مؤيدا العربي المستأش:

- فعلا أنا مع فكرة تأديب شعون وفرانكو.

وسريعا تم الاتفاق على خطة عمل، وخرج الجميع يتسللون من بيت سي الهادي متفرقين حتى لا يلفتوا أنظار الاستعمار إلى تحركاتهم، انحدر أمقران ويوسف الروج إلى محل الحدادة للعمل، وقصد العربي المستأش محله لبيع الملابس القديمة، أما سي رابح فتسلل إلى مكتبة حسان بَلْخِيرْدَ ليعرف رأيه من الأحداث الجديدة، وكان حسان منشغلا بترتيب البضاعة في الرفوف، حيا سي رابح وراح يقدم له البضاعة التي تراكمت على الأرض وهو يقول:

- مازلت شابا ياسي حسان كأن لك من العمر عشرين.

رد حسان بلخيرد سريعا:

- عشرون ضرب اثنين.

ثم توقف عن العمل وتظاهر بعد بأصابه، ثم قال:

- عشرون ضرب اثنين أربعون، أربعون إلا عامين، إيه يا سي رابح

الرجال المخلصون اختارهم الله ونحن مازلنا نسعى وراء الدنيا الدنية، وأشبهُنا بدنيانا الطَّغَام كما قال المتنبي:

أعجب سي رابح برد حسان بَلْخِيرْدَ غير أنه لم يفهم كلمة الطغام

هذه، وهم أن يسأله عنها ثم عدل لسؤال آخر:

- ما رأيك ياسي حسان في البيان الذي صاغه فرحات عباس نيابة عن

مصالي والإبراهيمي وقدمه لفرنسا وللحلفاء؟

وضع بَلْخِيرْدَ مجموعة علب سجائر جوب (jop) جانبا واستراح على

الكرسي مقابل سي رابح الذي جلس على كرسي آخر أيضا، لقد كان ينتظر هذا السؤال ليبيدي رأيه فيه، قال:

- لقد قرأته، إنه بيان رومانسي أكثر من اللازم، كأنك تقرأ رواية للرومانسيين الفرنسيين، باختصار فرحات عباس لا يريد أن يستيقظ من حلمه، ولن يستيقظ ولو غمسنه في بحر بارد:

- صدقت يا سي حسان، إنه كمن يضرب الريح بهراوة.

وأخرج بلخيرد من تحت المحسب جريدة وقال:

- انظر ما يقول كاترو "إن الجزائر فرنسية وستظل فرنسية".

وانغمسا في الجريدة يتصفحانها ويحلمان ما جاء فيها.

بدأ أن سقوط إيطاليا وألمانيا مجرد أيام لا غير، وتتمم الحلفاء في كل مكان، فراحوا يمدون أعينهم إلى العالم كله لابتلاعه أيضا، لقد أفرزت الحرب العالمية ترسانة حربية متطورة وفتاكة، كما أفرزت جيوشا قوية وأطماعا أقوى، وتكهرب الوضع في كل الجزائر، وبلغ التشاحن أوجه، وتحرك المعمرون يضيقون على الناس في كل مكان وقد أحسوا بخاطر تحرك الجزائريين، وبلغت تحرشاتهم حد الوقاحة، وخرج الجزائريون في سكيكلة معبرين سلميا عن رفضهم لذلك، وقوبلوا بالنار التي حصدت ثلاثين منهم.

ولم يعد للناس إلا فرحات عباس الذي بدا أكثر ثقة بنفسه، لاختيار في رأيه لفرنسا التي خرجت منهكة من حربها إلا أن تختار جانب إعطاء الحقوق للجزائريين أيضا، ولا خيار للجزائريين إلا أن يغتنموا هذه الفرصة الثمينة ليندجوا كليا في فرنسا، ولذلك كثف من تحركاته بين كل الفاعلين في الجزائر.

وأحس الجميع بذلك فراحوا ينتظرون تطور الأحداث بين أمل وخوف، واندفع العربي المؤسّس من مقهى العرب برفقة خليفه إلى

مكتب فرحات عباس وهما يحترقان غضبا، قريبا من مكتب فرحات عباس فوجئا بيوسف الرُّوجَ خارجا منه، وقد أدرك بسرعة هدفهما فراح يهدئهم قائلا:

- فرحات عباس غائب فلا تتعبا نفسيكما.
- قال العربي المُوسْتاشُ وهو يشير بيديه:
- كنت أرغب في أن أحرق عليه المقر، أخشى أن يبيعنا هذا العميل.
- أمسكه يوسف الرُّوجُ من يمينه وراح يسحبه، قائلا:
- لقد ألقى القبض عليه، وعلى عبد القادر السايح، وزج بهما في المعتقل بالصحراء الجزائرية...
- قاطعته العربي المُوسْتاش بقلق:
- يستحق ذلك حتى يعتبر.
- ثم توقف وقد امتلأ وجهه دهشة، وأسرع خليفة سائلا:
- ولكن لماذا؟
- لقد قاطع النواب حضور اجتماع، للضغط على فرنسا، من أجل أن تقبل بنود البيان الذي صاغه فرحات عباس.
- رد يوسف وبقي ينتظر رد فعلهما، اندفع خليفة قائلا:
- عجيب، هل صاروا رجالا دفعة واحدة؟
- وقال العربي المُوسْتاش:
- حتى يتأكد لهذا الغربي أن فرنسا لا تفرق بين الجزائريين.
- ضحك يوسف الرُّوجُ وواصل:
- بمجرد أن زج كاترو بفرحات عباس وعبد القادر السائح حتى أسرع البقية للتراجع عن موقفهم، وكتبوا رسالة اعتذار معلنين ولاءهم لفرنسا.
- نفخ العربي المُوسْتاش شذقيه هواء ثم لكزهما بإصبعه حتى انفجر الهواء من بين شفثيه محدثا صوتا عاليا.

في تلك الأيام امتلأت مدينة سطيف كاملة كما كل المدن الجزائرية
بمناشير وملصقات تصرخ:

"لا للجنسية الفرنسية، نعم للجنسية الجزائرية"

"تسقط الجنسية الفرنسية، تعيش الجنسية الجزائرية للجميع"

"من غير جنسيته فقد غير دينه"

وأشيع أن العلماء والمصاليين يخزنون الأسلحة، استعدادا للشورة،
واتفقت المجموعة على تقليل الحركة واللقاء خشية أن يكشف أمرها،
ولزم البقية بيوتهم وأماكن عملهم.

وامتلأت قلوب المعمرين حقدا وغملاً وهم يرون روح التحدي تشرق
من كل العيون، صار الوعي نهرا جارفا يتهدد عروشهم التي صنعوها
بالحديد والنار على أشلاء ودموع الأبرياء منذ أكثر من قرن، كانت الأمسية
حزينة تكتنز ترقبا رهيبا، كان الطقس باردا، وكانت السماء مغطاة بسحب
سوداء، بدأت اللحظة تهمني ببطء كأنما تبكي حزنا.

راح فرانكو وبجانبه ماران، يقطع الطريق بسيارته يسوقها بجنون ثملا
كالعادة، زاده حنقه سكرا وجنونا، زاد في سرعة سيارته وهو يقترب من
عين الفوارة، فجأة اندفع بها إلى تجمع العرب الذين جلسوا قريبا من
صناديقهم لتلميع أحذية الميسورين من الفرنسيين واليهود، وفر الجميع إلا
مسعود بولقباقي الذي امتزج لحم جسده بجنسب الصندوق تحت عجلات
السيارة المجنونة، وألجمت الدهشة الجميع إلا صوت حفيده الصغير، وقد
انفجرت حمم ألمه حزنا حارقا كظبي فقد القطيع، باكيا متمرغا على أشلاء
جله.

في الغد امتلأت المدينة جنودا وشرطة تخوفا من رد فعل السكان، وخرج
الناس بالآلاف في جنازة الضحية، مرددين بصوت واحد: الله أكبر، لا إله
إلا الله، محمد رسول الله، تحيا الجزائر، تسقط فرنسا.

باتت المدينة حزينة، تدفقت فيها السماء كأنما لم تتدفق من قبل، قال
سي رايح وهو يتكئ على وسادة صوفيه:

- لقد غضب الله، هل ستغسل هذه الأمطار جرائم الإنسان؟
رد أمقران وقد جلله الحزن:

- جرائم فرنسا لا تغسلها إلا دماؤنا.

وسكتوا يجتروا مكرهين الحادث المروع الذي خطف مسعود بولقباقي
وألبس المدينة كلها حزنا أسود.

ظل العربي الموستاش يلوذ بالصمت، مكتفيا منذ يومين بقهوة يجرعها
في كل حين، مرددا ما أوحى إليه من شعر:

يا خاوتي ليل الحَقْرَةَ طالَ	والظلمَ طَغى وتَجَبَّرَ
و سَيْفَ الحَقِّ ضَعْفَ و مالَ	و سَيْفَ الباطلِ تاهَ و تُعْتَبَّرَ
و طَنًّا في مُحايِنَ و اهُوالَ	و كَسْرُو كَبيرَ ما يَتَجَبَّرَ
تُلايِمَتَ عَلِيهَ عَفْرَتَ و عَوالَ	و دِيابَهَ مَتوحِشَه تاكلَ و تُنْتَرُ
مَثتُو و انا انْحَمَمَ فَ الحَيالَ	كي غزالَه تمشي و تُتَعَشَّرُ
غَدروها سَبوعَه بِنِبانَ طَوالَ	و مَخالِبَ تَذبحَ و تُمَنشَرُ
والآ سَفِينَه في بحرَ مَهولَ تَهَوالَ	فيه امواجَ اَتَهزُ و اِتْكَسَّرُ
والآ وَرَدَه فيها بَها و فيها جَمالَ	عَفْسُها حَنزيرَ ما يَتَدَبَّرُ
ياخاوتي نُوضُوا كَفانا قِيلَ و قالَ	اَطْرَدُوا عَلِيكُم رَقادَ اِعَجَّرُ
انْفَضُوا عَلِيكُم الهانَه و التَّعالَ	خَلِيوكُم مَ اللي اِصْفَرُ
النصارى و ليهودَ عَمَ و حالَ	وما فيهمَ غَيْرَ اللي يَخدَعُ و يَغْدُرُ
كلامهم دُحانَ بلا تَشعالَ	والآ سَرابَ ما يَروِي ما يَنْصُرُ
لَعَنهم ربي في حَزبِ الضَّلالَ	وفي كَتابُوا لَلي يَقرأ و يَتَدَبَّرُ
هيا تَتَكَلوا على رَبنا و لَفَعالَ	و نَعْلنَ نُورَتنا في جِبالنا و اَنفَجِرُ
نَسقيو اَرْضنا بالدمَ بلا سَوالَ	و نُرْجَعولها عَزَه تَزِيدُ و تَكَبِّرُ

ورفرفَ عَلامنا نَجْمَه واهلالٌ تسعدُ بلادنا تزهى و تَتَبَخَّرُ

** ** * * * **

31

آخر الليل تسلل العربي المستاش وأمقران وسي الهادي إلى دارة فرانكو، لم يدم علاجهم للباب طويلا، لقد استسلم بسرعة أمام مهارة أمقران، بقي سي الهادي يراقب الطريق وتسلل الآخران إلى مستودع صغير كان قد وصفه علال بدقة، وراحا بسرعة يفتحان صناديق صغيرة، وما يكاد الواحد منهما يرى فيها آثارا حتى يسرع إلى حملها وشحنها في السيارة، وإن هي إلا نصف ساعة حتى كادت سيارة أمقران السوداء تلامس الأرض وهي تتن تحت همولتها، ركب أمقران وسي الهادي وانطلقا، تخلف العربي المستاش داخل الدارة، محاولا أن يكتشف كل زواياها، لقد قفز فجأة خيال سوزان إلى ذهنه، وراودته وساوس أن تكون مدفونة فيها، ولكنه سريرا خرج مندفعا في طريق العودة، لاحقا برفاقه.

حين وصلا الباب الخلفي للحمام، أسرعوا بالنزول، كان سي رابع بانتظارهما، ماكادت الأيدي تمتد إلى الصناديق حتى وصل العربي المستاش، فجاهما حضوره السريع، قال أمقران ضاحكا:

- أعود بالله كأنك جني، كيف وصلت بسرعة؟

ودون أن يجيبه نشطوا في تفريغ الحمولة، والنزول بها إلى كهف أسفل الحمام، ولم تمض إلا دقائق حتى كانوا يستون قريبا من الصناديق، قال سي الهادي:

- هنا لن يصل إليها أحد.

قال سي رابع غاضبا وهو يتأمل الصناديق :

- أولاد الكلب سرقوا كل شيء.

قال أمقران:

هذا ما أنقذناه، ويعلم الله كم هربا إلى أوروبا، وعند..

قاطعته العربي المستاش، محاولا تجنب النظر إلى سي رابح:

- مازال الشطر الثاني من العملية، يجب أن تؤدب اللصين اليوم قبل الغد.

ظهر الاستياء على سي رابح فقال:

- أفضل أن نصرف النظر عن هذا، قد يجر لنا الشبهات، أنا على يقين أن هذه أكبر صفقة لهما.

قال سي الهادي مؤيدا:

- وأنا عند رأيك لقد استولينا على جهدهما الذي بذلاه لسنوات طوال.

عند منتصف النهار اشتد سعار فرانكو وشمعون المونشو ومجموعة كبيرة من المعمرين الذين ظلوا يطوفون بكل أحياء المدينة مصحوبين بالكلاب، وراح خليفة وسي رابح وهما يجلسان أمام الحمام يتمتعان بسعار المعمرين، قال سي رابح:

- كأنما أصابهم داء الكلب.

- هل يمكن أن يتفطنوا إلى المخبأ؟

سأل خليفة فأجاب سي رابح بثقة:

- اطمئن، لقد احتطنا جيدا للأمر، لن يفكروا أبدا أن المخبأ على بعد خطوات منهم.

وصل إليهما يوسف الروح فجأة وقد بدا منهارا تماما.

باغته سي رابح ضاحكا:

- لم أنت حزين، هل أنت متعاطف مع فرانكو وشمعون؟

جلس يوسف الروج واندفع يقول:

- لقد حكم على مصالي بالنفي من الوطن تماما، ربما إلى برازفيل.
- تجرع سي رابح النبأ بألم كأنما يتلع زجاجا، وقال:
- إذا نفوا مصالي الحاج إلى برازفيل فتلك طامة كبرى.
- لزم يوسف الروج الصمت غارقا في ألمه، ولحق بهم العربي المستاش فراح سي رابح يجرهم إلى الداخل، سأل خليفة وقد عصفت الحيرة به:
- وأين تقع برازفيل هذه، في القمر أم في الشمس؟
- ونشر سي رابح الخريطة أمام الجميع، وراح يحدد لهم موقع برازفيل بوسط إفريقية، قال خليفة مرة ثانية:
- معنى ذلك أننا لن نستطيع تهريبه؟
- نظر فيه العربي المُستاشُ بسخرية وقال:
- بل يمكن، بشرط أن نظير مع البُهلي الخضر.
- واصل سي رابح:
- لقد سجن أول الأمر بسجن بوغار، ثم نقل إلى المنيعه، ومنه إلى برازفيل.

نطق يوسف الرُوجُ فالتفت إليه الجميع:

- لا يعيده إلا ضغط شعبي قوي، ويجب أن نقوم به سريعا.
- وتململ في مكانه، يحتزن طاقة جبارة، كأنما يهيم الآن بالانطلاق والتنفيذ، وفعلا ذاك ما حصل، لقد تحركت كل الخلايا عبر الوطن ونظمت مسيرات حاشدة، ووزعت آلاف المناشير في كل المدن الجزائرية، وأحست فرنسا بتململ الناس وتحركهم، فأسرعت بإعادة مصالي إلى سجن لامبيز بتازولت، ثم إلى الإقامة الجبرية في بوغار، ثم قصر الشلالة.
- وغابت عن الجزائريين كل النجوم التي كانوا يهتدون بها في ظلمات الاستعمار، لقد قطعت فرنسا بمكرها كل الرؤوس التي كانت تشكل

عليها خطرا، فزجت بالكثير منهم في السجون والمعتقلات، ولم يبق لهم إلا فانوس وحيد ظلوا يقبسون منه عليهم يخرجون من النفق الطويل، لم يبق في الساحة إلا فرحات عباس الذي سعى لاستغلال هذه الفجوة، وقيادة الجميع للمطالبة بالحرية للجزائر وشعبها، ولكنها حرية في الإطار الذي يريده، والذي يصوره.

اجتمع حشد كبير أمام مكتب فرحات عباس، الذي قرر أن يجمع الناس ليحدثهم بشأن تكوين أحباب البيان، جبهة تضم الجميع، وتحمل طموح الجميع وآمالهم، واقتنع الناس بالأمر فانضوا تحته جميعا، حين افتراق الحشد تأخر حسان بلخيرد مع يوسف الروج الذي ظهر القلق على ملامحه فاشتدت حمرة، راح حسان بلخيرد يهدئ من غضبه، لكنه ظل نائرا رافعا صوته:

- يجب أن يفهمنا أولا من أوحى إليه بالفكرة، وهل الجزائر دون رجال حتى يقودها هو؟

بدا فرحات عباس مرهقا متعبا، رغم الأناقة التي يحاول أن يظهر بها دائما، حك عينيه وقال وهو يستقبلهما في مكتبه:

- معذرة، أنا متعب جدا، لعل كلماتي لم تكن مرتبة.

سأل يوسف الروج وملاحه مازالت تحتزن غضبا:

- فعلا حتى نحن لم نفهم جيدا ما كنت تقول.

سريعا فهم فرحات عباس ما يرمي إليه يوسف الروج، فقال:

- تعبت من كثرة السفر وقلة النوم، لقد التقيت مصالي

والإبراهيمي، وأنا مفوض الآن للحديث باسم الشعب الجزائري.

بدأ الغضب يتبخر من صدر يوسف الروج، هو لم يصله خبر بذلك،

ولا عجب ففترات الاتصال منقطعة تماما منذ زمن.

قال يوسف الروج كالوائق:

- كنا ننتظر إعلان الثورة، ما الذي غير اتجاه السفينة؟
سكت فرحات عباس لحظات، كأنما يعيد ترتيب أفكاره، فغدا كسلحفاة،
تطل برأسها في حذر، وقال:

- فعلا جميعا كانوا متلهفين إلى الثورة، تُقطع أسلاك الكهرباء
والهاتف، تحرق محاصيل المعمرين، تهاجم المؤسسات والمراكز الاستعمارية،
ثم يعلن الشعب تمرده العام عبر مظاهرات عارمة.
أشرق وجه يوسف الروّج، وقال:

- فعلا هذا ما كان يُخطط له من أشهر عديدة، فما الذي غير الأمور؟
لأثقة في الاستعمار، لقد وعدوا بمنحنا حريتنا بعد نهاية الحرب، أين
وعودهم؟

وأسرع فرحات عباس يقول بحذر، كأنما يخشى رد فعل عنيف:
- لقد رجوتهم أن يؤخروا ذلك، عليكم أن تمنحوني فرصة أخيرة،
لأغسل بعدها فرنسا من قلبي كما أغسل الدرّ عن يدي، دعوني أجرب
ولكم ما تشاؤون بعد ذلك.

وفعلا تشكلت أحباب البيان بسطيف، من النواب والعلماء وحزب
الشعب والكشافة ومن الشيوعيين، حيث سارع عمار أوزقان عبر
جريدتهم الأسبوعية ليبرتي إلى تأييد ذلك، وبدا أحباب البيان باخرة
ضخمة تحمل كل الجزائريين، وتسير بهم إلى بر يراه فرحات عباس بر
أمان، ويتوجس الآخرون منه خيفة.

بدا حسان بلخيرد وهو يجلس مع رفاقه بمكتبته متحمسا لفكرة أحباب
البيان، مستعدا للنضال في صفوفها، عكس رفاقه الذين لم يظهروا تحمسا
كبيرا لذلك، قال حسان بلخيرد ماذا ذراعاه، طويا أصابع قبضته، ناقلا
بصره بين يوسف الروج والعربي المستاش، كأنما يريد أن يلفت انتباههما
إلى أصابعه:

- لقد وضعنا فرنسا في عنق الزجاجاة.
 رد يوسف الرُّوحُ سريعاً، وفي نبرته استهزاء:
 - بل أعناقنا نحن يا حسان، ألم تقرأ تصريح الجنرال كاترو؟
 أسرع حسان بَلْخَيْرُدْ يجيب، وهو يرخي ذراعه:
 - لا، ماذا قال اللعين؟
 واصل يوسف قائلاً:
 - قال: "لا بد من القضاء على هذه العاصفة".
 سكت بَلْخَيْرُدْ مصدوماً، وعلق العربي المستأش:
 - رأيت يا سي حسان، نحن عاصفة، والعاصفة التي لا تقلع الأشجار
 النخرة ليست عاصفة.
 في الغد انتقل فرحات عباس إلى العاصمة حيث عقد اجتماعٌ هناك،
 ضم كثيراً من وجوه الفاعلين في الساحة السياسية الجزائرية، وطالب
 الجميع بإطلاق سراح الأسرى وعلى رأسهم مصالي الحاج، كما دعوا في
 الآن ذاته إلى المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والفرنسيين،
 وجعل العربية لغة رسمية بجانب اللغة الفرنسية، وتلقى الناس هذه الأخبار
 بفتور كبير، وسعى بعضهم إلى إعلان رفضها، قال العربي المُوسْتَأَشُ
 والجميع يحيط به في مقهى العرب:
 - إنهم ينفخون في الرماد.

ثم اندفع ينشد:

يَانْفَخْ فِ الرَّمَادِ حَابٌ أَتَشْعَلُ نَارُ
 مَا تَعْمِي غَيْرَ عَيْنِيكَ وَتَمْلَاهُمْ أَضْرَارُ
 وَاتَّضَحَّكَ الْخَلْقُ عَلَيْكَ لَيْلٌ وَنَهَارُ
 خَيْطُ الدُّخَانِ مَا تَحْسَبُلُو حَسَابُ
 وَمَا تَعُولُ عَلَيْهِ أَخْرَجَكَ مَنْ زَرْدَابُ

إهَبْ الرِّيحُ يَدِيَّهْ واخليك في لعذاب
فِيَقْ ياغافلُ لا تَأْمَنُ لِحَنَشِ العُدَّارِ
يُخَدِّعُكَ بِجَلْدِو النَّاعِمِ وَيَدِّبُكَ لِلدَّمَارِ
أَتَضَيِّعُ خَيْرَكَ وَتَحْصُدُ لَشَرَّارِ

في تلك الليلة امتلأت المدينة بآلاف المناشير والملصقات بالعربية والفرنسية.

"أيها الإخوة المسلمون إن حياة بلادكم في خطر، إن الشعب الجزائري لم يتمتع بالحضارة لوجود المستعمر الفرنسي، فاللغة العربية مضطهدة منذ الاحتلال والإسلام أصبح محل سخرية، وإن كرامتنا لا يضمن لها الاحترام إلا في إطار كيان جزائري وحكومة جزائرية، ومن أجل هذا الهدف مات إخوانكم في الزنازن وهم يعانون في السجون والمحتشدات".

"استعدوا فإن ساعة الصفر قد قربت، فلنعد أنفسنا للثورة".

"أيها الجزائريون حاربوا من أجل الحرية، وموتوا إذا اقتضى الأمر، ولكن لا هواده مع المضطهدين".

"أيها الجزائريون إن الجبال تناديكم، فساعة الصفر قد اقتربت".

وجن جنون المعمرين فخرجوا إلى الشوارع مدججين بالأسلحة، صارخين بحلق بكل ألفاظ السباب للعرب، وعملوا لساعات مع رجال الشرطة لتمزيق ما علق، ولترهيب الناس في دكاكينهم ومقاهيهم وبيوتهم وأماكن تجمعهم، لكن تحدي الناس كان أشد، لقد تحركت كل الخلايا بشكل مدهش، تنشر الوعي، تلصق المناشير، تجمع التبرعات، وأشرقت في النفوس شمس أمل بحرية قريبة، لقد وعدت فرنسا، ويجب أن تفي بوعدنا، وعلى الضغط الشعبي أن يحقق ذلك.

فتح فرحات عباس نافذة غرفته وتنفس بعمق، إنه يحس بالاختناق، الأحداث المتسارعة صارت تحاصره من كل جهة وتسرق من حوله حتى

الهواء، رجلا شرطة يقفان متباعدين، قريبا منهما وقف جمع من المعمرين بأسلحتهم الخفيفة المتنوعة يجري بينهم حوار ساخن قلق، أعاد غلق جناحي النافذة وتمدد في سريره مرة ثانية، مطط ذراعيه إلى الخلف وحمل كتابا مفتوحا نام بجواره وراح يقرأه، دخلت عليه مرسلي بيريز حاملة إليه صينية القهوة، وضعتها على الطاولة الليلية، وجلست على حافة السرير تتأمله دون أن تتكلم، طوى الكتاب، ضمه إلى صدره وقال:

- صباح الخير حلوتي.

- صباح الخير عزيزي، لقد سرقتك الأحداث عني منذ سنوات، وأمعن هذا الكتاب البارحة في اختطافك.

اعتدل فرحات عباس في جلسته بجوارها، قلب الكتاب مبرزا عنوانه قائلا:

- الغريب، إنها رواية جديدة للكاتب الجزائري ألبير كامبي، رواية ممتازة كما كل كتاباته، إنه أديب فيلسوف، لكنه أديب مضطرب عابث يرفض أن يكون نسخة لغيره.

وأخرج ورقة صغيرة من بين أحضان الكتاب وقرأ "لو كان الناس متشابهين تماما ما أمكن جمعهم إلا في قطع"، سألت مرسلي بيريز:

- هل تعرفه شخصيا؟

قال وهو يصب القهوة في فنجانها:

- نعم التقيت به مرارا بجامعة الجزائر حيث كان يدرُس، وكان حارس مرمى ماهرا، لكن تأثير اليتيم والفقر اللذين اكتوى بهما، ثم مرض السل الذي عصف به، دفعته جميعا إلى تأمل الحياة والكتابة بعيدا عن لهُو الناس وعيُهم.

*** **

فرح كبير، راح يظهره الحلفاء في كل مكان، وقد انكسرت شوكة ألمانيا وأتباعها إلى الأبد، والعالم كله ينتظر توقيع وثيقة الاستسلام المخزية، لم يبق في الساحة إلا اليابان يتخبط كديك مذبوح يأبى الإذعان للموت، وبدأت فرنسا تعد العدة لإقامة مهرجانات حاشدة في كل مكان فرحا بهذا الانتصار الكبير، وراح المعمرون والموالون لهم يستعجلون الأمور ويتجمعون في كل مكان، يتكتلون على طول الطريق الرئيس، قريبا من عين الفوارة والكنيستين الكاثوليكية والبروستانتية، ودار البلدية، ومقهى فرنسا، ضربت النواقيس ودوى الرصاص، وعلقت الرايات واللافتات معلنة عن بداية الأفراح.

ومن حارة اليهود خرجت مسيرة ضخمة يتقدمها شمعون المونشو وحييم التاجر وغيرهم، تحمل شعارات الولاء لفرنسا، من مثل: "عاشت الإمبراطورية الفرنسية، عاشت فرنسا وعاش دوقول، الجزائر فرنسية"، وماكاد الحشد يقترب من عين الفوارة حتى انطلقت الهتافات والصيحات، كان فرانكو وبارال يرقصان على إيقاع تصفيق الجميع، أطلق فرانكو طلقات نارية في الفضاء، وفزع الحمام فانطلق يغادر سطح المسجد القريب، يجلق في الجو ثم يعود أدراجه حيث هو مرعوبا مستعدا لتحليق آخر.

صرخ فرانكو في الجمع قائلا:

- اقتلوا كل من لا يشارك.

رد عليه ماران وقد وقف قريبا منه:

- اذبحوا كل معارض.

وارتفعت الأصوات من كل جانب حتى لم تعد تفهم:

- اقتلوهم، اقتلوهم.

واقتربت من المكان قوات للجيش والشرطة، تهم بمراقبة الوضع خشية أن تنفلت الأمور، وتتحول إلى مواجهات قد يصعب التحكم فيها والسيطرة عليها.

ومع دنو منتصف النهار راحت الحركة تقل شيئا فشيئا، والحشود تتفرق على أمل اللقاء في يوم الزينة، يوم الاحتفالات الضخمة. وظل الجميع يراقبون الأحداث بجزر شديد معلقين آمالا كبيرة على المسيرة التي يحضرون لها قريبا، لن تكون مع مسيرة الفرنسيين حتى لا تفهم أنها تأييد لهم، ولكنها ستكون بعدها طرح مطالب الشعب الجزائري بطريقة سلمية.

في مقر الكشافة ظل حسان بلخيرد يعيد توجيهاته لأعضاء الكشافة يرسم لهم خارطة المسير، ويذكرهم بالأناشيد التي يجب أن ترتفع بها حناجرهم، واللافتات التي يجب أن ترفع، وطريقة التعامل مع كل طارئ. دخل سي رابح وبقي واقفا قريبا من الباب يتأمل النشاط دون أن ينطق، انسحب إليه حسان بلخيرد محببا، ثم سأل:

- هل أوقف المعمرون عبثهم؟
- استفزاز كبير، وأخشى أن لا يتحمل الناس ذلك.
رد سي رابح، فسحبه حسان بلخيرد إلى ركن القاعة وجلسا على كرسيين متقابلين، وقال:

- يجب أن نضبط أنفسنا ضبطا تاما كي لا نهدم ما بنينا.
تنحى سي رابح وقال باستياء:
- لو رأيت تصرفات فرانكو وبارال ما تماكنت نفسك.
وضع حسان بلخيرد رجله اليمنى على اليسرى وقال:
- وماذا تنتظر منهما، إنهما يستوليان على كل سهول المنطقة، ويشغلان مئات الجزائريين كالعبيد عندهم.

تنهد سي رابح وقال:

- حتى رومل انكسر في معركة العلمين، كنا جميعا نعلق الآمال على عبقريته الحربية، لكن تحوي الرياح بما لا نشتهي يا حسان، آن لفرنسا ومعمريها وأذئابها أن يستأسدوا علينا الآن.

ودخل يوسف الروج وقد بدا مرهقا، يغشى وجهه إرهاق حزين، لم ينم جيدا منذ أيام، قضاها في الالتقاء سرا بالخلايا التي تأسست في كل مكان، كان للجميع دور فاعل معه، لكنه لم يكن يطمئن إلى ذلك حتى يشرف عليه بنفسه، حين جلس بادره سي رابح سائلا:

- أكل شيء على ما يرام؟

- تقريبا، نحن نرتب كل شيء.

ثم سكت فجأة كأنما يبحث عن لفظة يبدأ بها الكلام، وتركزت عليه العيون فقال:

- يشاع أن فرنسا اكتشفت مشروع ثورة في بجاية.

حرك حسان بَلْخَيْرِدْ رأسه مؤكدا وقال بحزن:

- للأسف حتى أنا سمعت هذا، لم نستفد من تجارب الثورات الشعبية السابقة.

علق سي رابح:

- كأن كل مجموعة منا تتسابق لنيل شرف قهر فرنسا.

وسكت ينتظر رد بَلْخَيْرِدْ الذي غير اتجاه الحديث سائلا سي رابح:

- هل أخبرت الجميع؟ موعدنا مكتب فرحات عباس، ثم نلتقي بعدها في مسجد المحطة.

- اطمئن أخبرت الجميع ولن يتخلف أحد منهم.

رد سي رابح وانطلقوا جميعا يقصدون مكتب فرحات عباس، الذي كان يقف أمام الباب وعلى ملامحه اضطراب شديد، هو صاحب الفكرة في

تأسيس أحباب البيان، وهو من أوحى بفكرة المسيرة، لقد وضع الجميع ثقتهم الكبرى فيه، فهل سيخسر الرهان؟ هل ستخيّب فرنسا ظنه؟ فيصير في نظر أبناء شعبه مجرد أضحوكة؟

أثناء اللقاء ذكر فرحات عباس بوجوب خروج الناس بقوة في مسيرة سلمية يوم الإثنين الثامن من ماي، تنطلق المسيرة من مسجد المحطة، وتأخذ طريقها باتجاه تمثال الجندي المجهول القائم في حديقة الكنيسة الكاثوليكية، لاهداف للمسيرة إلا إثبات الوجود السلمي، والمطالبة بالحقوق المشروعة، المساواة بالفرنسيين واليهود، وعلى المسيرة أن تخلو من كل مظاهر التسلح والعنف، وعلى الجميع أن يتجنبوا ما أمكن التصادم مع المعمرين أو الرد على استفزازاتهم، خشية أن يقع ما لا تحمد عقباه.

ثم أحال الكلمة لحسان بلخيردّ الذي أكد أن الكشافة الإسلامية مستعدة كل الاستعداد كي تقوم بدورها كاملا في التنظيم والإنشاد والعزف، ولن تزيد شعاراتها التي تحملها وهتافاتها التي تطلقها عن المطالبة بحقوق الجزائريين في استرداد كرامتهم وأسس هويتهم.

كان يوسف الروج يتابع المتدخلين وقد ظهر القلق على ملامحه، لم يكن راضيا البتة عن هذه المسيرة، ولم تكن تقنعه مطالبها، كغريق وجد نفسه مجبرا على الاندفاع مع التيار الجارف، وبجواره كان العربي المُوسْتَشِأُ وخليفة أكثر اضطرابا وقلقا، همس العربي المُوسْتَشِأُ في أذن يوسف الروج قائلا:

- ما رأيك؟

نظر فيه يوسف الروج، لكنه لم يرد، واستمر يتابع المتدخلين، قال سي

رابح:

- أقترح أن نسرع في الانتقال إلى المسجد لنناقش كل شيء بالتفصيل. وأحس فرحات عباس بتذمر البعض فتدخل مرة ثانية:

- أيها الإخوان، يجب أن تكون قناعاتنا كاملة بهذه الوقفة، وأنا لم أتحمّلها بمفردتي، لقد اتصلت بمصالي الحاج، وبالشيخ إبراهيمي، وأيدا الفكرة تماما.

لكز العربي المُوسْتَأَشُّ مرة أخرى يوسف الرُّوجُ وقال بصوت منخفض:

- هذا كلام لا يقنعني.

لاحظ فرحات عباس تصرفه، وأحس بتضجره فقال له:

- تفضل العربي، هل عندك ما تقوله؟

قام العربي المُوسْتَأَشُّ وسط الجميع وراح يجول بناظره قائلا:

- أرجو من الإخوة أن يناقشوا أيضا احتمال وقوع مجزرة.

وارتفعت همهمات داخل القاعة، بين مستنكر ومؤيد، بين متفائل

وخائف، واصل العربي المُوسْتَأَشُّ:

- نعم كل شيء محتمل، لقد علمتنا التجارب أن لا ثقة في فرنسا.

رفع يوسف الرُّوجُ صوته مؤيدا:

- صدقت ولا نحب أن نكون كبش فداء، كفى يا جماعة هذا الشعب

ضحى كثيرا، ومن يرى تصرفات المعمرين واليهود لا ينتظر خيرا.

قاطعه فرحات عباس بكثير من الثقة:

- لا، لا أريد هذا التشاؤم القاتل، لقد اتصلنا بالسلطة الفرنسية،

وحصلنا على تصريح بالمسيرة، وحددنا مسارها وأهدافها، وأخذنا تعهدا

بعدم التعرض لها تماما.

وتفرق الجميع ليلتقوا بعد أقل من ساعة عند مسجد الحطة مرة ثانية،

راح حسان بلخيريّ يشرح للجميع مسار المسيرة، والنقاط التي يجب أن تمر

بها، وأين يجب أن تنتهي وتفترق.

قال سي رابح مقاطعا وهو يشير بيده إلى عرض الشارع المتجه إلى

الشرق:

- المسافة ليست طويلة من مسجد المحطة إلى حديقة الجندي المجهول، إذن يمكن أن نتحكم جيدا في المسيرة.
- تدخل سي الهادي مبديا ملاحظته:
- لانتسوا الاثنين هو يوم السوق الأسبوعية، ومعنى ذلك أن المشاركين سيكونون كثرة.
- قال أمقران متحمسا:
- ونحن نريدهم كثرة، حتى النساء يجب أن يشتركن في المسيرة مباشرة أو عبر الشرفات على الأقل.
- ربت سي رابح كتفه وقال له:
- أخشى أن تكن النساء أكثر منا، إنهن أكثر حماسة.
- في الغد اجتمع أعضاء حزب الثوار في محل أمقران لتدارس الوضع بدقة، وتغييت النسوة خوفا من انتبهه قوات الاحتلال التي بثت عيونها في كل مكان، افتتح سي رابح الجلسة، مؤكدا على أن التاريخ سيشهد كذبة أخرى من كذبات فرنسا، لقد طلبت من الشعب الجزائري أن يشارك معها في الحرب ضد ألمانيا وحين تتحرر ستمنحه الحرية، وقد قدم الشعب فلذات أكباد، ماتوا في حرب لا علاقة لهم بها، ثم توجه إلى خليفة مستفسرا:
- كيف تقيم الأمور خليفة؟
- اندفع خليفة كأنما كان ينتظر السؤال:
- اشتم رائحة الخيانة، استياء كبير لدى المعمرين خاصة مما سنقوم به، والناس في كل مكان مستعدون للتضحية على اختلاف طبقاتهم.
- سكت خليفة فواصل العربي المُوسَّاتش وهو يفتل شاربيه:
- صدقت، وهذا يعني أن التصادم وارد جدا.

قال سي الهادي:

- وهب أنها وقعت ما سنفعل، نحن لن نستطيع منع المسيرة، ولن نستطيع منع استعمال العنف ضدنا.

قال العربي المستاش متحمسا:

- لكن على الأقل يجب أن ندافع عن أنفسنا، هذه فرصتنا ياإخوان، دعونا نستعمل ما ادخرناه طوال سنوات، هذا السلاح سيأكله الصدأ.

أيده خليفة محركا رأسه دون أن ينطق، وتخيل العربي المستاش نفسه يعدو خلف فرانكو، ويفرغ كل بارود بندقيته في رأسه حتى يتطاير نحه في كل مكان، وأخرجه أمقران من سبحاته قائلا:

- لا لا يمكن أن نغامر بالحلم في لحظة، لسنا ندرى أي مسار ستأخذ الأحداث.

قال سي رابح:

- صدقت وأنا معك، فلنترك المسيرة سلمية، ما ادخرناه نعهه لثورة لا لمعركة.

وكانت كلمة سي رابح فاصلة، فسكت العربي المستاش وفي نفسه مقارنة بين معركة وثورة، فعلا ما انجزوه حتى الآن هو تحضير لثورة لا لمعركة تنتهي في المكان والزمان.

قال يوسف الروج وهو يقف:

- علينا أن نفرق الآن، كل منا يتحرك بما يستطيع ليوم المسيرة.

وتفرقوا، قصد سي رابح الحمام برفقة أمقران، وفوجئ بوصول رسالة إليه، فتحتها وعلامات استفهام ترتسم على وجهه، وراح يتهجى أسطرها:
بسم الله الرحمن الرحيم رب الأرض والسماء، باسم من خلق الرحمة في قلوب الآباء، وجعل فيها النسيان رحمة وهناء.

لا أريد في كتابي هذا إلا أن أذكرك، إن كنت نسيت أن لك زوجة اسمها

حليمة ضيعتها منذ سنوات، ونسيتها منذ ذاك، لكنها مازالت تذكرك، ومازالت مخلصه لحبك، كما أريد أن أذكرك أن لك بنتا هي الآن عروس في عمر الزهور، أنت نسيتها حتما، ورغم أنها لم ترك، غير أنها لم تنسك، وكيف تستطيع وأنت حاضر على لسان أمها كل يوم.

ابنتك المشتاقه لرؤيتك

وهز زلزال عنيف كل أنحائه، وانهار أرضا باكيا كطفل صغير، وأحاط به الجميع في حيرة، وهم الذين ما رأوا سي رابح إلا جبلا شاخا، لم يبع بالسر لكنه بات ينتحب، وباتت سطياف امرأة حبلى تنتظر مولودها بفرح.

*** ** ** **

33

كان الجو رائقا، وكانت الشمس أكثر إشراقا وأكثر دفئا، أيقظ أطفال الكشافة المدينة مع الصباح الباكر، وهم يندفعون بلباسهم الموحد باتجاه مقر الكشافة، ثم راح الجميع يتوافدون على مسجد المحطة كأنهم السيل المنهمر، واكتظت بهم الباحة والشوارع المحيطة، نساء ورجالا، كبارا وصغارا، وقف العربي المُوسَّتاشُ يتأملهم حالما أن في يد كل واحد بندقية، ونظر إلى السماء الزرقاء الصافية وردد في نفسه: يارب أغثنا بوابل من البنادق، أخرجته سي رابح من أحلامه:

- خذ مكانك ستنتقل المسيرة بعد لحظات.

اندفع باتجاه الكشافة الذين كانوا يصطفون حسب أعمارهم، مد بصره بزهو كبير وهو يرى حفيد مسعود بولقباقب، وقريبا منه ابنه بلخير وابنته حورية وقد شع الحماس من أعينهم، عادت به الذاكرة إلى مغامرته من العرش إلى المدينة، ماذا لو بقي هناك هل سيكون أبناؤه بهذا الوعي وهذا

النشاط، وهل سيكون هو حاملا لهم الوطن أيضا، أم مجرد مجتر لأحقاد لا تنتهي؟

وأسرع الجميع يقفون حيث طُلب منهم أن يكونوا، فاندفع العربي الموستاش يأخذ مكانه المحدد بجوار هو القبائلي وسي الهادي، دون أن يغيب طيف سوزان عن باله.

آه سوزان كم أحلم أن تكوني الآن بجانبني، وأخرجه صوت الجميع مرددين: باسم الله وعلى بركة الله، وانطلقت المسيرة الحاشدة شرقا، ثم انحدرت يمينا باتجاه الشارع الرئيسي، تتم سي رابح: اللهم قونا واسترنا، انطلقت حناجر الكشافة تردد بمجرد أن وصلها أمر من حسان بَلْخَيْرَدُ وسعيد السعيد لاجودان:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

وتعالت الزغاريد من البيوت والشرفات، وراحت الشوارع الفرعية تصب في المسيرة فتزداد قوة واندفاعا، عدل بَلْخَيْرَدُ من وضعية المجموعة الأولى التي تحمل باقة الزهور، أمرا الكبار منهم بحماية الصغار، ونظر إلى الخلف، كان العدد هائلا يقدر بالآلاف، لقد بلغوا الآن نادي الضباط، لكن آخر المسيرة لا يرى بعد.

وارتفعت اللافتات تملأ الفضاء:

"الجزائر عربية مسلمة"

"لن نبغي بديلا عن وطننا ولغتنا وديننا"

"الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا"

"لا للجنسية الفرنسية، من تجنس فقد كفر"

وارتفعت حناجر الكشافة ثانية:

يابلادي يا بلادي أنا لا أهوى سواك

قد سلا الدنيا فؤادي و تفانى في هواك
نحن بالأنفس نفدي كل جزء من ثراك
إننا أشبال أسد فاصرفينا لعسداك

وتفاعل الجميع مع الأبيات، فارتفعت صيحات الله أكبر، الجزائر
مسلمة عربية، وارتفعت معها الزغاريد تشق الكون، وطارت أسراب
الحمام لتحط ثم تطير كأنما تشارك الجميع مسيرتهم، أحس أمقران
بالنشوة فقال:

- لقد انتصرنا، إنه يوم النصر المؤزر.

رد العربي المُوسْتاشُ وهو لا يكف عن التلفت:

- أخشى غدر الكلاب، هذا النصر لن يسعد أعداءنا.

وراح يتلمس خنجره تحت إبطه، كان خَلْفَ التِّيْقْرِ، يقفز من مكان إلى
مكان، يقترب من سلافه الرومية، ثم من حمامه، ثم من خليفة، مركزا على
العربي المُوسْتاش، الذي لاحظ ذلك منه لكنه لم يهتم كثيرا، الناس جميعا
كانوا يتدافعون كالسيل الهادر.

أجهد عيوبة نفسه ليصل إلى العربي المُوسْتاش مندفعا بين أمواج
المتظاهرين وقد بدا على وجهه خوف، همس في ذهنه قائلا:

- كأني لحت جلول القايد.

واهتم العربي المُوسْتاش فراح يوزع نظره في كل مكان، لمح وريدة
المرقومة قريبا من لالا تركية يحملان لافتة عليها "نساء الجزائر فداء
الوطن"، ونسي العربي المُوسْتاش أمر جلول وقد تعالت الصيحات مرة
أخرى والجميع يقترب من مقهى فرنسا وسط المدينة، رفع سي رابح عينيه
في الشرفات، فهاله ما رأى، همس لسي الهادي:

- هل ترى ما في الشرفات؟

ورفع سي الهادي عينيه، عند كل نافذة معمر يشهر سلاحه في حق،

لاحظ العربي المُوسْتَأَشُ انشغال سي الهادي فرجع بصره أيضا، وراح سريعا يعيد إلى نفسه ما قاله للجميع، تقدم سي رابع وأسر لسلافة الرومية:
- المعمرون في الشرفات مدججون بالأسلحة أرجو أن تسجي النساء والأطفال.

تأملتهم سلافه بمقد، وأطلقت زغرودة مدوية، وصاحت:
- تحيا الجزائر، تحيا الجزائر، ولتسقط فرنسا، ولتسقط فرنسا.
أوب معها العربي المُوسْتَأَشُ سريعا وهو يبحث عنها بعينه، فلا يستطيع أن يحدد مكانها:
- وليحيا حزب الثوار، المجد لحزب الثوار.

وكثر الصيحات من كل مكان كأنها الرعد، يرتج لها الشارع كله.
واندفع أحد الشبان حتى تصدر المسيرة، وأخرج العلم الجزائري ورفع مرفرفا، فجاشت مشاعر الناس وهتفوا بحياة الوطن، وهم يسعدون برؤية العلم الجزائري يرفرف لأول مرة في قلب المدينة، وأمام أعين الجميع.
وكانت لحظات رهيبة، اقشعرت لها الأبدان، وهتفت الحناجر، وتعال الأيدي، قال العربي المُوسْتَأَشُ، وهو يتأمل الفتى حامل الراية بفرح غامر، إنه سعال بوزيد، وارتفعت حناجر الكشافة بإيعاز من حسان بلخيرد:

اعصفي يا رياح واقصفي يارعود

واثخي يا جراح واحدقي يا قيود

نحن قوم أبلة

ليس فينا جبان

قد سئمنا الحياة

في الشقا والهوان

لائمل الكفاح لائمل الجهاد

في سبيل البلاد

وتوقفت المسيرة وجمع من شرطة فرنسا يعترضون طريقها، مطالبين بإخفاء الراية، وظهر على وجوه المعمرين استياء وحنق، وأعدوا أنفسهم لإطلاق النار، صرخ محافظ الشرطة فلار (valer) في الفتى وهو يشق الصفوف:

- اخف هذه الخرقه وإلا أرديتك قتيلا.

ولم يبال الفتى، وأسرع مندفعاً يرفعها إلى أعلى نقطة، وارتفعت الزغاريد والهتافات، وصاح الناس خلفه:

- أرواحنا فداء العلم.

وتقدم العربي المُوسْتَأْسُ وأمقران ويوسف الرُّوجُ، كانوا جميعاً يتعطشون هذه اللحظة للسلاح يدفعون به وقاحة المحافظ وأعوانه، وانطلقت الزغاريد، وانطلق الرصاص من مسدس المحافظ وتهاوى الفتى، لكن الراية لم تتهاو، وتلقفتها الأيدي، وكثر إطلاق الرصاص من كل الشرفات فتساقط الناس بالمئات، وتفرق الآلاف منهم في الشوارع الفرعية.

شاهد العربي المُوسْتَأْسُ سلافه الرومية وهي تلفظ أنفاسها أمامه، لقد سكنت رصاصتان ظهرها، أسرع إليها سي رابح يجرها إلى الجدار، أغلق عينيه مردداً: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. لم يستطع أن يمسك بالعربي المُوسْتَأْسُ الذي غدا وحشاً كاسراً، قرأ في عينيه عتاباً، تساءل سي رابح هل أخطأوا حين رفضوا اقتراح العربي المُوسْتَأْسُ بوجوب إخراج السلاح؟

تحولت الشوارع كلها إلى ساحة للمعركة، نزل المعمرون والشرطة والجيش إلى الشوارع، لم يكن عند الجزائريين إلا أسلحة بيضاء، وحلقت الطائرات في السماء، وسمعت نداءات بمكبرات الصوت تدعو الجزائريين إلى التزام بيوتهم.

رأى العربي معمرا يطلق الرصاص من شرفة بيته بفرح جنوني، أسرع يصعد الدرجات، فوجئ بشمعون المونشو يجلس خلفه على كرسي خشبي يحرضه بصوت عال على القتل، غرز العربي المُوسْتَأَسْ خنجره في قلبه فتهاوى في مكانه، لم يسترد العربي المُوسْتَأَسْ خنجره، وأسرع يباغت المعمر الذي هالته المفاجأة بلكمة أفقدته توازنه، افتك منه بندقيته، دفعه ليسقط أرضا، رفع عينيه كان البُهلي لخضر يسبح في الفضاء، يسط جناحي برنسه الأبيض، وقد تغشته هالة غريبة، وأشرق وجهه مبتسما.

أسرع العربي المُوسْتَأَسْ يخرج، لمح شبح خَلاَفُ التِّيَقْرُ يقفز بعيدا كنمر متوحش، قطع العربي الشارع سريعا باتجاه مسكن فرانكو وهو يتلفت إلى كل اتجاه، لاحظ من بعيد رئيس المحكمة يصوب بندقيته باتجاه لَآلَ تَرْكِيَه، صوب نحوه البندقية وأرداه قتيلا، فاجأ أمقران من خلفه، وقد كان يتابع المشهد قائلا:

- لقد خدعنا، لقد خدعنا.

حين راح العربي المُوسْتَأَسْ يسحب لالا تركية بعيدا عن الخطر، كان أمقران يعدو باتجاه القاضي يفتك منه سلاحه، ما كاد يعود أمقران إليهما حتى ترك لالا تركية معه وأطلق ساقيه للريح، هذه فرصته، هل يمكن أن يجد فرانكو في بيته؟

اقترب من الحديقة غير مبال بأمواج الناس الذين كانوا يتصايحون ويعدون في كل الاتجاهات، ولا بالطائرات التي كانت تحلق في السماء، ولا بعشرات الجثث تملأ الشوارع، ولا بخَلاَفُ التِّيَقْرُ الذي كان يظهر هنا وهناك شبحا جنيا، كَمَنَ عند شجرة توت كبيرة، رفع رأسه، شاهد فرانكو في شرفته، لا يلبس إلا نامته، يتصيد الفارين بلذة كبيرة، كأنه في نزهة، صوب إليه بندقيته، من بعيد اخترقت رصاصات ساقه فسقط يتلوى، التفت خلفه فوجئ بشرطي يقف خلفه مصوبا إليه مسدسه قائلا بحنق:

- سأفجر رأسك أيها القدر.

وضغط على الزناد، وانطلق الرصاص، فسقط جثة هاملة، رفع العربي المُوَسْتَأَشْ رأسه غير مصدق، لاحظ خَلَأْفُ التِّيَقْرُ يجثم خلف شجرة قريبة مازال يصوب بندقيته باتجاه الشرطي، أسرع إليه خلاف التيقر يشد ساقه جيدا بعمامته دون أن ينطق، ردد العربي المُوَسْتَأَشْ في سره: لولاه لقتلني الشرطي اللعين، أي سر يحمله هذا التِّيَقْرُ؟ أهو معنا أم ضدنا؟ رفع فيه عينيه، وقبل أن ينطق، اختفى خَلَأْفُ التِّيَقْرُ بسرعة كما ظهر بسرعة، عاد العربي المُوَسْتَأَشْ ينبطح أرضا متحاملا على ألمه، رفع عينيه، مازال فرانكو حيث هو، وسريعا أطلق رصاصات أردته أرضا متهاويا على الرصيف.

ردد العربي المُوَسْتَأَشْ وهو ينظر خلفه:

- ولد الكلب، أولاد الكلاب لا ينفع معكم إلا العنف.

زحف على بطنه يهم بالدخول إلى حديقة فرانكو، فجاهه يوسف الرُّوجُ وسي رابح، حملة يوسف وقال:

- جرحك عميق إنه ينزف، يجب أن ننسحب، دعني أحملك.

رفض العربي المُوَسْتَأَشْ ذلك مصرا على دخول الحديقة، قال سي رابح بغضب:

- احمله عنوة، لا نقاش مع المجانين.

نظر يوسف الرُّوجُ في سي رابح وقال:

- اذهب تفقد الناس، دعني مع العربي سأسحبه.

حين اختفى سي رابح راح يوسف الرُّوجُ يدخل مع العربي إلى الحديقة، قال العربي المُوَسْتَأَشْ بفرح ممزوج بألم:

- لقد قتلته ابن القحبة، أرديته على الرصيف كالكلب العفن.

قال يوسف الرُّوجُ بحسرة:

- قتلانا بالآلاف، بالآلاف يا العربي، المدينة كلها ساحة حرب.

أراد العربي المُوسْتَأَشُّ أن يقول ليوسف الرُّوجُ: دعنا نبحث عن سوزان، يجب أن أعرف لغزها، هل هي مسجونة في هذا القصر؟ أم أنه قتلها ودفنها فيه، ثبت في مكانه لحظات، تمنى لو يمنحه البُهْلِي لخضر قدرته على الطيران، تمنى لو يحمله على جناحيه، تمنى لو وجد الآن ماران الخبيث، ماران معذب الأطفال ومنتَهك كرامتهم، سيغرف من جوف البندقية إلى جمجمته الوسخة، تمنى لو يرى الآن بارال مستعبد العمال وسارق جهدهم وعرقهم، تذكر حمامه وابنيه بلخير وحورية، اندفع يهرول جارا ساقه الجريحة، خرج من الحديقة، انحدر باتجاه بيته، أسرع يوسف الرُّوجُ بجره ليختفيا خلف جدار ومعمرون يهرعون مدججين بالأسلحة إلى وسط المدينة، اندفعا مجددا في طريقهما، شاهدا جثة طفل مرمية على الأرض، أسرعوا إليها، صاح العربي المُوسْتَأَشُّ وهو يتحسس خفقها:

- مازال حيا، لكن جرحه ينزف، لعل أحد المعمرين قد اصطاده.

تأمله يوسف الرُّوجُ جيدا وقال:

- كأنه ابن شمعون المونشو.

تأمله العربي المُوسْتَأَشُّ وقال:

- إنه هو، فعلا إنه هو، جرحه ينزف، يجب أن تحمله سريعا إلى المشفى،

أو إلى عيادة قَجْ، فهي أقرب.

وأسرع يخرج محرمة كبيرة، وراح يلف بها جرحه يحاول إيقاف النزيف،

تردد يوسف الرُّوجُ وهو يحمله:

- قد يكون قَجْ أيضا مدججا بالسلاح، وسيردني قتيلًا.

أسرع العربي المُوسْتَأَشُّ يساعده في حمل الصغير، وهو يقول:

- ليس أمامنا خيار، لا بد من حمل الصغير، ليس للصغار أن يدفعا

ثن حماقات الكبار، احمله أرجوك أسرع، أسرع.

حمله يوسف الرُّوجُ وقد امتلأت ثيابه دما، وأسرع به إلى العيادة، اندفع

العربي المُوسْتَأَشُّ منحدرًا، داهمه دوار شنيع، تهاوى أرضًا، متأملًا يوسف
الرُّوحُ يختفي في حنجرة الشارع.

كانت مجموعة قليلة من أطفال الكشافة قد وصلت ومعهم لاجودان
إلى نصب الجندي المجهول، ووضعوا باقة الزهور ثم أسرعوا يتفرقون،
يطاردهم الرصاص، وأزيز الطائرات، وقرع أجراس الكنيسة.

** ** * * *

كان الطريق طويلا متعرجا، وكان قلبانا ينطان أمامنا
يهفوان إلى الوقوف على عتبات شعبة الآخرة، الجبال الشامخة
تسد الآفاق أمامنا، نتقف شامخة تتحدى عوائد الزمن، ترجلنا
من السيارة وقد تملكتنا الرهبة، قلت لحوبه وأنا أمد بصري
إلى أعلى القمم.

- هل شاهدت هذا الشموخ؟

رفعت حوبه بصرها أيضا وراحت تمعن النظر وقالت:

- هو بالضبط شموخ أجدادنا وأبائنا من يوغرطة حتى

العربي المستاش.

هل تصنع الطبيعة الإنسان، هل تنقل إليه جيناتها

ومورثاتها؟ لست أرى هذه الكبرياء في أسلافنا إلا من هذه

الجبال، ولكن أين هي فينا؟ وتلفت إلى حوبه أسألها:

- لكني لا أراها فينا.

تلفتت إلي وفي عينيها رفض وقالت:

- بل هي فينا أشد وأعمق، لكنها خفية كالكهرباء لا

تظهر إلى حين الاستعمال.

وصلنا الوادي السحيق، أو شعبة الآخرة كما يسميها الناس،
ورحنا نمد أبصارنا إلى هوتها السحيقة، يكفي أن تتأملها
لحظات حتى تصاب بالدوار، كلها كانت صخورا حادة مدببة
صماء، تخيلتها أسنان وحش أسطوري، وامتلأ رأسي صراخا
وعويلا وتكيرا، وتخيلت فرنسا ترمي من شاحناتها
العسكرية الآلاف من الجزائريين الأبرياء العزل مقيدين إلى
الهوة السحيقة، فتمزق أجسادهم وتنفجر رؤوسهم قبل
وصولها إلى عمق الوادي.

رفعت رأسي في حوبه وجدتها تبكي منتحبة، ضممتها إلى
صدري أهدئ من روعها، قالت:

- إن عويل الأبرياء العزل ليردد صداه إلى اليوم، واني لأسمعه
كأنه يحدث اللحظة، ما أكثر جرائم فرنسا في هذا الوطن
الغالي!

مسحت دموعها بيمينني، وتجلدي يقف سدا أمام دموعي،
وقلت:

- لقد قتلوا في تلك الأحداث خمسة وأربعين ألفا من الأبرياء،
بدأت بسعال بوزيد وسلافة الرومية وامتدت كالنار لتلتهم

كل شيء.

انسحبنا عائدین یلفنا الصمت، وتحلق بنا خیالاتنا تسترجع
أحداثا جلیلة وقعت ذات سنوات فی هذا الوطن العالی، وحمدت
الله أن حوبه قد نقلتها روایة، وكان لی فضل تدوینها حتی لا
تضیع من الذاكرة، فیلعننا التاریخ والأجیال القادمة.
ومددت یدی أضغط أصابع حوبه، فأشرقت علی محیاتها
ابتسامة خفیفة، خیل إلی أنها بستان ربیعی یتعانق فیهِ الغیث
وإسراق الشمس.

** ** * * *

الأربعاء 25 أوت 2010